كتاب

﴿رحلة ابن بطوطة﴾

المسماة

تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار

الطبعة الاولى
بالمطبعة الخيريه
لمالكها ومديرها السيد (عمر حسين الخشاب)
سنة ١٣٢٢
هجريه

﴿ فهرست الجزء الاول من كتاب رحلة ابن بطوطه ﴾

﴿تمت فهرست الجزء الاول﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

قال الشيخ الفقيه العالم الثقة النبيه الناسك الابر وفد الله المعتمر شرف الدين المعتمد في سياحته على رب العالمين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي ثم الطنجي المعروف بابن بطوطة رحمه الله ورضي عنه بمنه وكرمه آمين

الحمد لله الذي ذلل الارض لعباده ليسلكوا منها سبلا فجاجا وجعل منها واليها تارات الثلاث نباتا واعادة واخراجا دحاها بقدرته فكانت مهادا للعباد وأرساها بالاعلام الراسيات والاطواد ورفع فوقها سمك السماء بغير عماد وأطلع الكواكب هداية في ظلمات البر والبحر وجعل القمر نورا والشمس سراجا ثم أنزل من السماء ماء فأحيا به الارض بعد الممات وأنبت فيها من كل الثمرات وفطر أقطارها بصنوف النبات وفجر البحرين عذبا فراتا وملحا أجاجا وأكمل على خلقه الانعام بتذليل مطايا الأنعام وتسخير المنشآت كالاعلام لتمتطوا من صهوة القفر ومتن البحر أثباجا وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد الذي أوضح للخلق منهاجا وطلع نور هدايته وهاجا بعثه الله تعالى رحمة للعالمين واختاره خاتما للنبيين وأمكن صوارمه من رقاب المشركين حتى دخل الناس في دين الله أفواجا وأيده بالمعجزات الباهرات وأنطق بتصديقه الجمادات وأحيا بدعوته الرمم الباليات وفجر من بين أنامله ماء ثجاجا ورضى الله تعالي عن المتشرفين بالانتماء اليه أصحابا وآلا وأزواجا المقيمين قناة الدين فلا تخشى بعدهم اعوجاجا فهم الذين آزروه على جهاد الاعداء وظاهروه على اظهار الملة البيضاء وقاموا بحقوقها الكريمة من الهجرة والنصرة والايواء واقتحموا دونه نار البأس حامية وخاضوا بحر الموت عجاجا ونستوهب الله تعالى لمولانا الامام الخليفة أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين المجاهد في سبيل الله المؤيد بنصر الله أبي عنان فارس ابن موالينا الائمة المهتدين الخلفاء الراشدين نصرا يوسع الدنيا وأهلها ابتهاجا وسعدا يكون لزمانة الزمان علاجا كما

وهبه الله بأساو جود الم يدع طاغيا ولا محتاجا وجعل بسيفه وسيبه لكل ضيقة انفراجا

﴿وبعد﴾ فقد قضت العقول وحكم المعقول والمنقول بأن هذه الخلافة العليه المجاهدة المتوكلية الفارسيه هي ظل الله الممدود على الانام وحبله الذى به الاعتصام وفي سلك طاعته يجب الانتظام فهي التي أبرأت الدين عند اعتلاله وأغمدت سيف العدوان عند انسلاله وأصلحت الايام بعد فسادها ونفقت سوق العلم بعد كسادها وأوضحت طرق البر عند انهاجها وسكنت أقطار الارض عند ارتجاجها وأحيت سنن المكارم بعد مماتها وأماتت رسوم المظالم بعد حياتها وأخمدت نار الفتنة عند اشتعالها ونقضت أحكام البغى عند استقلالها وشادت مباني الحق على عمد التقوى واستمسكت من التوكل على الله بالسبب الاقوى فلها العز الذي عقد تاجه على مفرق الجوزاء والمجد الذى جر أذياله على مجرة السماء والسعد الذى رد على الزمان غض شبابه والعدل الذى مد على أهل الايمان مديد أطنابه والجود الذى قطر سحابه اللجين والنضار والبأس الذي فيض غمامه الدم الموار والنصر الذى نفض كتائبه الاجل والتأييد الذي بعث غنائمه الدول والبطش الذى سبق سيفه العذل والاناة التي لا يعل عندها الامل والحزم الذى يسد على الاعداء وجوه المسارب والعزم الذي يفل جموعها قبل نزاع الكتائب والحلم الذى يجنى العفو من ثمر الذنوب والرفق الذي جمع على محبته بنات القلوب والعلم الذي يجلو نوره دياجي المشكلات والعمل المقيد بالاخلاص والاعمال بالنيات ولما كانت حضرته العلية مطمح الآمال ومسرح همم الرجال ومحط رحال الفضائل و[illegible] أمن الخائف ومنية السائل توخي الزمان خدمتها ببدائع تحفه وروائع [illegible] فانثال عليها العلماء انثيال جودها على الصفات وتسابق اليها الادباء تسابق [illegible] الى المدائح وحج العارفون حرمها الشريف وقصد السائحون استطلاع معناها المنيف ولجأ الخائفون الي الامتناع بعز جنابها واستجارت الملوك بخدمة أبوابها فهي القطب الذى عليه مدار العالم وفى القطع بتفضيلها تساوت بديهة عقل الجاهل والعالم وعن مآثرها الفائقة يسند صحاح الآثار كل مسلم وبا كمال محاسنها الرائقة يفصح كل معلم وكان ممن

وفد على بابها السامي وتعدى أوشال البلاد الى بحرها الطامي الشيخ الفقيه السائح الثقة الصدوق جوال الارض ومخترق الاقاليم بالطول والعرض أبو عبدالله محمد بن عبدالله ابن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة المعروف في بلاد الشرقية بشمس الدين وهو الذي طاف الارض معتبرا وطوى الامصار مختبرا وباحث فرق الامم وسبر سير العرب والعجم ثم ألقى عصا التسيار بهذه الحضرة العليا لما علم أن لها مزية الفضل دون شرط ولا ثنيا وطوى المشارق الى مطلع بدرها بالغرب وآثرها على الاقطار ايثار التبر على الترب اختيارا بعد طول اختبار البلاد والخلق ورغبة في اللحاق بالطائفة التي لا تزال على الحق فغمره من احسانه الجزيل وامتنانه الحفي الحفيل ما انساه الماضي بالحال وأغناه عن طول الترحال وحقر عنده ما كان من سواه يستعظمه وحقق لديه ما كان من فضله يتوهمه فنسي ما كان ألفه من جولان البلاد وظفر بالمرعى الخصب بعد طول الارتياد ونفذت الاشارة الكريمة بأن يملي ما شاهده في رحلته من الامصار وما علق بحفظه من نوادر الاخبار ويذكر من لقيه من ملوك الاقطار وعلمائها الاخيار وأوليائها الابرار فأملى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر من كل غريبة أفاد باجتلائها وعجيبة أطرف بانتحائها وصدر الامر العالي لعبد مقامهم الكريم المنقطع الى بابهم المتشرف بخدمة جنابهم محمد بن محمد بن جزي الكلبي أعانه الله على خدمتهم وأوزعه شكر نعمتهم ان يضم أطراف ما أملاه الشيخ أبو عبدالله من ذلك في تصنيف يكون على فوائده مشتملا ولنيل مقاصده مكملا متوخيا تنقيح الكلام وتهذيبه معتمدا ايضاحه وتقريبه ليقع الاستمتاع بتلك الطرف ويعظم الانتفاع بدرها عند تجريده عن الصدف فامتثل ما أمر به مبادرا وشرع في منهله ليكون بعونة الله عن توفية الغرض منه صادرا ونقلت معاني كلام الشيخ أبي عبد الله بألفاظ موفية للمقاصد التي قصدها موضحة للمناحي التي اعتمدها وربما أوردت لفظه على وضعه فلم أخل بأصله ولا فرعه وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والاخبار ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار على انه سلك في اسناد

صحاحها أقوم المسالك وخرج عن عهدة سائرها بما يشعر من الالفاظ بذلك وقيدت المشكل من أسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط ليكون أنفع في التصحيح والضبط وشرحت ما أمكنني شرحه من الاسماء العجمية لانها تلتبس بعجمتها على الناس ويخطئ في فك معماها معهود القياس وأنا أرجو أن يقع ماقصدته من المقام العلى أيده الله بمحل القبول وأبلغ من الاغضاء عن تقصيره المأمول فعوائدهم في السماح جميله ومكارمهم بالصفح عن الهفوات كفيله والله تعالى يديم لهم عادة النصر والتمكين ويعرفهم عوارف التأييد والفتح المبين

قال الشيخ أبو عبد الله كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة معتمداً حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام منفرداً عن رفيق آنس بصحبته وركب أكون في جملته لباعث على النفس شديد العزائم وشوق الي تلك المعاهد الشريفه كامن في الحيازم فجزمت أمري على هجر الاحباب من الاناث والذكور وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور وكان والدي بقيد الحياة فتحملت لبعدهما وصبا ولقيت كما لقيا من الفراق نصبا وسني يومئذ ثنتان وعشرون سنة قال ابن جزي أخبرني أبو عبد الله بمدينة غرناطة ان مولده بطنجة في يوم الاثنين السابع عشر من رجب الفرد سنة ثلاث وسبعمائة

(رجع) وكان ارتحالي في أيام أمير المؤمنين وناصر الدين المجاهد في سبيل رب العالمين الذى رويت أخبار جوده موصولة الاسناد بالاسناد وشهرت آثار كرمه شهرة واضحة الاشهاد وتحلت الايام بحلى فضله ورتع الانام في ظل رفقه وعدله الامام المقدس أبو سعيد ابن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين الذى فل حد الشرك صدق عزائمه وأطفأت نار الكفر جداول صوارمه وفتكت بعباد الصليب كتائبه وكرمت في اخلاص الجهاد مذاهبه الامام المقدس أبو يوسف بن عبد الحق جدد الله عليهم رضوانه وسقى ضرائحهم المقدسة من صوب الحياطله وتهتانه وجزاهم أفضل الجزاء عن الاسلام والمسلمين

وأبقى الملك في عقبهم الى يوم الدين فوصلت مدينة تلمسان وسلطانها يومئذ أبو تاشفين عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيان ووافقت بها رسولي ملك افريقية السلطان أبي يحيى رحمه الله وهما قاضي الانكحة بمدينة تونس أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن على بن ابراهيم النفزاوى والشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عبد الله القرشي الزبيدى (بضم الزاى نسبة الى قرية بساحل المهدية) وهو أحد الفضلاء وفاته عام أربعين وفي يوم وصولى الي تلمسان خرج عنها الرسولان المذكوران فأشار على بعض الاخوان بمرافقتهما فاستخرت الله عز وجل في ذلك وأقمت بتلمسان ثلاثا في قضاء مآربي وخرجت أجد السير في آثارهما فوصلت مدينة مليانة وأدركتهما بها وذلك في ابان القيظ فلحق الفقيهين مرض أقمنا بسببه عشرا ثم ارتحلنا وقد اشتد المرض بالقاضي منهما فأقمنا ببعض المياه على مسافة أربعة أميال من مليانة ثلاثا وقضى القاضي نحبه ضحى اليوم الرابع فعاد ابنه أبو الطيب ورفيقه أبو عبد الله الزبيدى الى مليانة فقبروه بها وتركتهم هنالك وارتحلت مع رفقة من تجار تونس منهم الحاج مسعود بن المنتصر والحاج العدولى ومحمد بن الحجر فوصلنا مدينة الجزائر وأقمنا بخارجها أياما الى أن قدم الشيخ أبو عبد الله وابن القاضي فتوجهنا جميعا على متيجة الى جبل الزان ثم وصلنا الي مدينة بجاية فنزل الشيخ أبو عبد الله بدار قاضيها أبي عبد الله الزواوى ونزل أبو الطيب ابن القاضي بدار الفقيه أبي عبد الله المفسر وكان أمير بجاية اذذاك أبا عبد الله محمد بن سيد الناس الحاجب وكان قد توفي من تجار تونس الذين صحبتهم من مليانة محمد بن الحجر الذى تقدم ذكره وترك ثلاثة آلاف دينار من الذهب وأوصى بها لرجل من أهل الجزائر يعرف بابن حديدة ليوصلها الي ورثته بتونس فانتهى خبره لابن سيد الناس المذكور فانتزعها من يده وهذا أول ماشاهدته من ظلم عمال الموحدين وولاتهم ولما وصلنا الى بجاية كما ذكرته أصابتني الحمى فأشار على أبو عبد الله الزبيدى بالاقامة فيها حتى يتمكن البرء مني فأبيت وقلت ان قضى الله عز وجل بالموت فتكون وفاتي بالطريق وأنا قاصد أرض الحجاز فقال لى اما ان عزمت فبع دابتك وثقل المتاع وأنا أعيرك دابة وخباء وتصحبنا خفيفا فاننا نجد السير

خوف غارة العرب في الطريق ففعلت هذا وأعارني ما وعد به جزاه الله خيرا وكان ذلك أول ما ظهر لي من الالطاف الالهية في تلك الوجهة الحجازية وسرنا الي ان وصلنا الي مدينة قسنطينة فنزلنا خارجها وأصابنا مطر جود اضطرنا الى الخروج عن الاخبية ليلا الى دور هنالك فلما كان من الغد تلقانا حاكم المدينة وهو من الشرفاء الفضلاء يسمى بأبي الحسن فنظر الى ثيابي وقد لوثها المطر فأمر بغسلها في داره وكان الاحرام منها خلقا فبعث مكانه احراما بعلبكيا وصر في أحد طرفيه دينارين من الذهب فكان ذلك أول ما فتح به على في وجهتي ورحلنا الي ان وصلنا مدينة بونة ونزلنا بداخلها وأقمنا بها أياما ثم تركنا بها من كان في صحبتنا من التجار لاجل الخوف في الطريق وتجردنا للسير وواصلنا الجد واصابتني الحمي فكنت أشد نفسي بعمامة فوق السرج خوف السقوط بسبب الضعف ولا يمكنني النزول من الخوف الي ان وصلنا مدينة تونس فبرز أهلها للقاء الشيخ أبي عبد الله الزبيدى ولقاء أبي الطيب ابن القاضي أبي عبد الله النفزاوى فأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال ولم يسلم على أحد لعدم معرفتي بهم فوجدت من ذلك في النفس مالم أملك معه سوابق العبرة واشتد بكائي فشعر بحالي بعض الحجاج فأقبل على بالسلام والايناس ومازال يؤنسني بحديثه حتى دخلت المدينة ونزلت منها بمدرسة الكتبيين قال ابن جزى أخبرني شيخي قاضي الجماعة أخطب الخطباء أبو البركات محمد بن محمد بن ابراهيم السلمى هو ابن الحاج البلفيقى انه جرى له مثل هذه الحكاية قال قصدت مدينة باش من بلاد الاندلس في ليلة عيد برسم رواية الحديث المسلسل بالعيد عن أبي عبد الله ابن الكماد وحضرت المصلى مع الناس فلما فرغت الصلاة والخطبة أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام وأنا في ناحية لا يسلم على أحد فقصد الي شيخ من أهل المدينة المذكورة وأقبل على بالسلام والايناس وقال نظرت اليك فرأيتك منتبذا عن الناس لا يسلم عليك أحد فعرفت أنك غريب فأحببت ايناسك جزاه الله خيرا (رجع)

﴿ذكر سلطان تونس﴾

كان سلطان تونس عند دخولي اليها السلطان أبو يحيي ابن السلطان أبي زكريا يحيي

ابن السلطان أبي اسحق ابراهيم ابن السلطان أبي زكريا يحيي بن عبد الواحد بن أبي حفص رحمه الله وكان بتونس جماعة من اعلام العلماء منهم قاضي الجماعة بها أبو عبد الله محمد بن قاضي الجماعة أبي العباس أحمد بن محمد بن حسن بن محمد الانصارى الخزرجي البلنسي الاصل ثم التونسي هو ابن الغماز ومنهم الخطيب أبو اسحق ابراهيم بن حسين بن على بن عبد الرفيع الربعي وولي أيضا قضاء الجماعة في خمس دول ومنهم الفقيه أبو على عمر بن على ابن قداح الهوارى وولي أيضا قضاءها وكان من اعلام العلماء ومن عوايده انه يستند كل يوم جمعة بعد صلاتها الى بعض اساطين الجامع الاعظم المعروف بجامع الزيتونة ويستفتيه الناس في المسائل فلما أفتي في أربعين مسئلة انصرف عن مجلسه ذلك واظلني بتونس عيد الفطر فحضرت المصلى وقد احتفل الناس لشهود عيدهم وبرزوا في أجمل هيئة وأكمل شارة ووافي السلطان أبو يحيي المذكور راكبا وجميع أقاربه وخواصه وخدام مملكته مشاة على أقدامهم في ترتيب عجيب وصليت الصلاة وانقضت الخطبة وانصرف الناس الي منازلهم وبعد مدة تعين لركب الحجاز الشريف شيخه يعرف بأبي يعقوب السوسي من أهل أقلمن بلاد أفريقية وأكثره المصامدة فقدموني قاضيا بينهم وخرجنا من تونس في أواخر شهر ذى القعدة سالكين طريق الساحل فوصلنا الي بلدة سوسة وهي صغيرة حسنة مبنية على شاطئ البحر بينها وبين مدينة تونس أربعون ميلا ثم وصلنا الى مدينة صفاقس وبخارج هذه البلدة قبر الامام أبي الحسن اللخمي المالكي مؤلف كتاب التبصرة في الفقه قال ابن جزي في بلدة صفاقس يقول على بن حبيب التنوخي (كامل)

سقيا لارض صفاقس * ذات المصانع والمصلى

محمي القصير الى الخليج * فقصرها السامى المعلى

بلد يكاد يقول حين * تزوره أهلا وسهلا

وكأنه والبحر يحسر تارة عنه ويملا

صب يريد زيارة * فاذا رأى الرقباء ولى

وفي عكس ذلك يقول الاديب البارع أبو عبد الله محمد بن أبي تميم وكان من المجيدين المكثرين (رجز)

صفاقس لا صفا عيش لساكنها * ولا سقى أرضها غيث اذا انسكبا
ناهيك من بلدة من حل ساحتها * عانى بها العاديين الروم والعربا
كم ضل في البر مسلوبا بضاعته * وبات في البحر يشكو الاسر والعطبا
قد عاين البحر من لوم لقاطنها * فكلما هم ان يدنو لها هربا

(رجع) ثم وصلنا الى مدينة قابس ونزلنا بداخلها وأقمنا بها عشرا لتوالي نزول الامطار قال ابن جزى في ذكر قابس يقول بعضهم (رجز)

لهفي على طيب ليال خلت * بجانب البطحاء من قابس
كأن قلبي عند تذكارها * جذوة نار بيد قابس

(رجع) ثم خرجنا من مدينة قابس قاصدين طرابلس وصحبنا في بعض المراحل اليها نحو مائة فارس أو يزيدون وكان بالركب قوم رماة فهابتهم العرب وتحامت مكانهم وعصمنا الله منهم وأظلنا عيد الاضحي في بعض تلك المراحل وفي الرابع بعده وصلنا الي مدينة طرابلس فاقمنا بها مدة وكنت عقدت بصفاقس على بنت لبعض أمناء تونس فبنيت عليها بطرابلس ثم خرجت من طرابلس أواخر شهر المحرم من عام ستة وعشرين ومعي أهلي وفي صحبتي جماعة من المصامدة وقد رفعت العلم وتقدمت عليهم وأقام الركب في طرابلس خوفا من البرد والمطر وتجاوزنا مسلاتة ومسراتة وقصور سرت وهنالك أرادت طوائف العرب الايقاع بنا ثم صرفتهم القدرة وحالت دون ما راموه من اذايتنا ثم توسطنا الغابة وتجاوزناها الي قصر برصيص العابد الى قبة سلام وأدركنا هنالك الركب الذين تخلفوا بطرابلس ووقع بيني وبين صهري مشاجرة أوجبت فراق بنته وتزوجت بنتا لبعض طلبة فاس وبنيت بها بقصر الزعافية وأولمت وليمة حبست لها الركب يوما وأطعمتهم ثم وصلنا في أول جمادى الاولى الى مدينة الاسكندرية حرسها الله وهي الثغر المحروس والقطر المأنوس العجيبة الشان الاصيلة البنيان بها ما شئت من تحسين وتحصين ومآثر دنيا ودين

كرمت مبانيها ولطفت معانيها وجمعت بين الضخامة والاحكام مبانيها فهي الفريدة تجلى سناها والخريدة تجلى في حلاها الزاهية بجمالها المغرب الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب فكل بديعة بها اجتلاؤها وكل طرفة فاليها انتهاؤها وقد وصفها الناس فأطنبوا وصنفوا فى عجائبها فأغربوا وحسب المشرف الى ذلك ماسطره أبو عبيد في كتاب المسالك

﴿ذكر أبوابها ومرساها﴾

ولمدينة الاسكندرية أربعة أبواب باب السدرة واليه يشرع طريق المغرب وباب رشيد وباب البحر والباب الاخضر وليس يفتح الا يوم الجمعة فيخرج الناس منه الى زيارة القبور ولها المرسى العظيم الشان ولم أر في مراسي الدنيا مثله الا ما كان من مرسي كولم وقاليقوط ببلاد الهند ومرسى الكفار بسوداق ببلاد الاتراك ومرسى الزيتون ببلاد الصين وسيقع ذكرها

﴿ذكر المنار﴾

قصدت المنار فى هذه الوجهة فرأيت أحد جوانبه متهدما وصفته انه بناء مربع ذاهب فى الهواء وبابه مرتفع على الارض وازاء بابه بناء بقدر ارتفاعه وضعت بينهما ألواح خشب يعبر عليها الى بابه فاذا أزيلت لم يكن له سبيل وداخل الباب موضع لجلوس حارس المنار وداخل المنار بيوت كثيرة وعرض الممر بداخله تسعة أشبار وعرض الحائط عشرة أشبار وعرض المنار من كل جهة من جهاته الاربع مائة وأربعون شبرا وهو على تل مرتفع ومسافة ما بينه وبين المدينة فرسخ واحد في بر مستطيل يحيط به البحر من ثلاث جهات الى أن يتصل البحر بسور البلد فلا يمكن التوصل الى المنار فى البر الا من المدينة وفي هذا البر المتصل بالمنار مقبرة الاسكندرية وقصدت المنار عند عودي الى بلاد المغرب عام خمسين وسبعمائة فوجدته قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود الى بابه وكان الملك الناصر رحمه الله قد شرع فى بناء منار مثله بازائه فعاقه الموت عن اتمامه

﴿ذكر عمود السواري﴾

ومن غرائب هذه المدينة عمود الرخام الهائل الذي بخارجها المسمي عندهم بعمود السواري وهو متوسط في غابة نخل وقد امتاز عن شجراتها سموا وارتفاعا وهو قطعة واحدة محكمة النحت قد أقيم علي قواعد حجارة مربعة أمثال الدكاكين العظيمة ولا تعرف كيفية وضعه هنالك ولا يتحقق من وضعه قال ابن جزي أخبرني بعض أشياخي الرحالين ان أحد الرماة بالاسكندرية صعد الى أعلى ذلك العمود ومعه قوسه وكنانته واستقر هنالك وشاع خبره فاجتمع الجم الغفير لمشاهدته وطال العجب منه وخفي علي الناس وجه احتياله وأظنه كان خائفا أو طالب حاجة فأنتج له فعله الوصول الى قصده لغرابة ما أتي به وكيفية احتياله في صعوده انه رمي بنشابة قد عقد فوقها خيطا طويلا وعقد بطرف الخيط حبلا وثيقا فتجاوزت النشابة أعلى العمود معترضة عليه ووقعت من الجهة الموازية للرامي فصار الخيط معترضا على أعلى العمود فجذبه حتي توسط الحبل اعلى العمود مكان الخيط فأوسطه من احدى الجهتين في الارض وتعلق به صاعدا من الجهة الاخرى واستقر بأعلاه وجذب الحبل واستصحب من احتمله فلم يهتد الناس لحيلته وعجبوا من شأنه (رجع) وكان أمير الاسكندرية في عهد وصولي اليها يسمى بصلاح الدين وكان فيها أيضا في ذلك العهد سلطان أفريقية المخلوع وهو زكرياء أبو يحيي بن أحمد بن أبي حفص المعروف باللحياني وأمر الملك الناصر بانزاله بدار السلطنة من اسكندرية وأجرى له مائة درهم في كل يوم وكان معه أولاده عبد الواحد ومصري واسكندري وحاجبه أبو زكرياء ابن يعقوب ووزيره أبو عبد الله بن ياسين وبالاسكندرية توفي اللحياني المذكور وولده الاسكندري وبقي المصرى بها الى اليوم قال ابن جزى من الغريب ما اتفق من صدق الزجر في اسمي ولدي اللحياني الاسكندري والمصري فمات الاسكندري بها وعاش المصرى دهرا طويلا بها وهي من بلاد مصر (رجع) وتحول عبد الواحد لبلاد الاندلس والمغرب وافريقية وتوفي هنالك بجزيرة جربة

﴿ذكر بعض علماء الاسكند

فمنهم قاضيها عماد الدين الكندي امام من أئمة علم اللسان وكان يعتم بعمامة خرقت المعتاد للعمائم لم أر في مشارق الارض ومغاربها عمامة أعظم منها رأيته يوما قاعدا في صدر محراب وقد كادت عمامته ان تملأ المحراب ومنهم فخر الدين بن الريغي وهو أيضا من القضاة بالاسكندرية فاضل من أهل العلم (حكاية)

يذكر ان جد القاضي فخر الدين الريغي كان من أهل ريغة واشتغل بطلب العلم ثم رحل الى الحجاز فوصل الاسكندرية بالعشي وهو قليل ذات اليد فأحب أن لا يدخلها حتى يسمع فألا حسنا فقعد قريبا من بابها الي ان دخل جميع الناس وجاء وقت سد الباب ولم يبق هنالك سواه فاغتاظ الموكل بالباب من ابطائه وقال متهكما ادخل ياقاضي فقال قاض ان شاء الله ودخل الي بعض المدارس ولازم القراءة وسلك طريق الفضلاء فعظم صيته وشهر اسمه وعرف بالزهد والورع واتصلت أخباره بملك مصر واتفق ان توفى قاضى الاسكندرية وبها اذ ذاك الجم الغفير من الفقهاء والعلماء وكلهم متشوف للولاية وهو من بينهم لا يتشوف لذلك فبعث اليه السلطان بالتقليد وهو ظهير القضاء وأتاه البريد بذلك فأمر خديمه أن ينادي في الناس من كانت له خصومة فليحضر لها وقعد للفصل بين الناس فاجتمع الفقهاء وسواهم الى رجل منهم كانوا يظنون ان القضاء لا يتعداه وتفاوضوا في مراجعة السلطان في أمره ومخاطبته بأن الناس لا يرتضونه وحضر لذلك أحد الحذاق من المنجمين فقال لهم لا تفعلوا ذلك فاني عدلت طالع ولايته وحققته فظهر لي انه يحكم أربعين سنة فأضربوا عما هموا به من المراجعة في شأنه وكان أمره على ماظهر للمنجم وعرف في ولايته بالعدل والنزاهة ومنهم وجيه الدين الصنهاجي من قضاتها مشتهر بالعلم والفضل ومنهم شمس الدين ابن بنت التنيسي فاضل شهير الذكر ومن الصالحين بها الشيخ أبو عبد الله الفاسي من كبار أولياء الله تعالي يذكر انه كان يسمع رد السلام عليه اذا سلم من صلاته ومنهم الامام العالم الزاهد الخاشع الورع (خليفة) صاحب المكاشفات (كرامة له)

خبرني بعض الثقات من أصحابه قال رأى الشيخ خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم فقال ياخليفة زرنا فرحل الى المدينة الشريفة وأتى المسجد الكريم فدخل من باب

السلام وحيا المسجد وسلم علي رسول الله صلي الله عليه وسلم وقعد مستنداً الي بعض سواري المسجد ووضع رأسه علي ركبتيه وذلك يسمى عند المتصوفة التر فيق فلما رفع رأسه وجد أربعة أرغفة وآنية فيها لبن وطبقا فيه تمر فأ كل هو وأصحابه وانصرف عائداً الى الاسكندرية ولم يحج تلك السنة *ومنهم الامام العالم الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الاعرج من كبار الزهاد وافراد العباد لقيته أيام مقامى بالاسكندرية وأقمت في ضيافته ثلاثا

(ذكر كرامة له)

دخلت عليه يوما فقال لي أراك تحب السياحة والجولان فى البلاد فقلت له نعم اني أحب ذلك ولم يكن حينئذ خطر بخاطرى التوغل في البلاد القاصية من الهند والصين فقال لا بد لك ان شاء الله من زيارة أخي فريد الدين بالهند وأخى ركن الدين زكرياء بالسند وأخى برهان الدين بالصين فاذا بلغتهم فأبلغهم منى السلام فعجبت من قوله وألقى فى روعي التوجه الي تلك البلاد ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم وأبلغتهم سلامه ولما وادعته زودنى دراهم لم تزل عندي محوطة ولم أحتج بعد الي انفاقها الي ان سلبها منى كفار الهنود فيما سلبوه لي فى البحر *ومنهم الشيخ ياقوت الحبشى من افراد الرجال وهو تلميذ أبى العباس المرسى وأبو العباس المرسي تلميذ ولى الله تعالى أبي الحسن الشاذلى الشهير ذى الكرامات الجليلة والمقامات العالية

(كرامة لأبى الحسن الشاذلي) أخبرني الشيخ ياقوت عن شيخه أبي العباس المرسى ان أبا الحسن كان يحج في كل سنة ويجعل طريقه على صعيد مصر ويجاور بمكة شهر رجب وما بعده الى انقضاء الحج ويزور القبر الشريف ويعود على الدرب الكبير الي بلده فلما كان في بعض السنين وهى آخر سنة خرج فيها قال لخديمه استصحب فأسا وقفة وحنوطا وما يجهز به الميت فقال له الخديم ولم ذا يا سيدى فقال له فى حميثرا سوف ترى وحميثرا في صعيد مصر في صحراء عيذاب وبها عين ماء زعاق وهى كثيرة الضباع فلما بلغا حميثرا اغتسل الشيخ أبو الحسن وصلى ركعتين وقبضه الله عز وجل في آخر سجدة من صلاته ودفن هناك وقد زرت قبره وعليه تبرية مكتوب فيها اسمه ونسبه متصلا بالحسن

ابن علي رضي الله عنه

(ذكر حزب البحر المنسوب اليه) كان يسافر فى كل سنة كما ذكرناه على صعيد مصر وبحر جدة فكان اذا ركب السفينة يقرؤه في كل يوم وتلامذته الى الآن يقرؤنه فى كل يوم وهو هذا (يا الله يا علي يا عظيم يا حليم يا عليم أنت ربي وعلمك حسبي فنعم الرب ربي ونعم الحسب حسبي تنصر من تشاء وأنت العزيز الرحيم نسألك العصمة في الحركات والسكنات والكلمات والارادات والخطرات من الشكوك والظنون والاوهام السائرة للقلوب عن مطالعة الغيوب فقد ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ليقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا فثبتنا وانصرنا وسخر لنا هذا البحر كما سخرت البحر لموسى عليه السلام وسخرت النار لابراهيم عليه السلام وسخرت الجبال والحديد لداود عليه السلام وسخرت الريح والشياطين والجن لسليمان عليه السلام وسخر لنا كل بحر هو لك فى الارض والسماء والملك والملكوت وبحر الدنيا وبحر الآخرة وسخر لنا كل شئ يامن بيده ملكوت كل شيء كهيعص حم عسق انصرنا فانك خير الناصرين وافتح لنا فانك خير الفاتحين واغفر لنا فانك خير الغافرين وارحمنا فانك خير الراحمين وارزقنا فانك خير الرازقين واهدنا ونجنا من القوم الظالمين وهب لنا ريحا طيبة كما هي في علمك وانشرها علينا من خزائن رحمتك واحملنا بها حمل الكرامة مع السلامة والعافية في الدين والدنيا والآخرة انك على كل شيء قدير اللهم يسر لنا أمورنا مع الراحة لقلوبنا وأبداننا والسلامة والعافية في ديننا ودنيانا وكن لنا صاحبا في سفرنا وخليفة في أهلنا واطمس على وجوه أعدائنا وامسخهم على مكانتهم فلا يستطيعون المضى ولا المجيء الينا ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأني يبصرون ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون يس الي فهم لا يبصرون شاهت الوجوه وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما طس طسم حم عسق مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان حم حم حم حم حم حم حم حم الامر وجاء النصر فعلينا لا ينصرون حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل

الثوب شديد العقاب ذي الطول لا اله الا هو اليه المصير باسم الله بابنا تبارك حيطا تنا يس سقفنا كهيعص كفايتنا حم عسق حمايتنا فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ستر العرش مسبول علينا وعين الله ناظرة الينا بحول الله لا يقدر علينا والله من ورائهم محيط بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين ان وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولي الصالحين فان تولوا فقل حسبي الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الارض ولا في السماء وهو السميع العليم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم) وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(حكاية)

ومما جرى بمدينة الاسكندرية سنة سبع وعشرين وبلغنا خبر ذلك بمكة شرفها الله انه وقع بين المسلمين وتجار النصارى مشاجرة وكان والي الاسكندرية رجلا يعرف بالكركي فذهب الي حماية الروم وأمر بالمسلمين فحضروا بين فصيلي باب المدينة وأغلق دونهم الابواب نكالا لهم فأنكر الناس ذلك وأعظموه وكسروا الباب وثاروا الى منزل الوالي فتحصن منهم وقاتلهم من أعلاه وطير الحمام بالخبر الى الملك الناصر فبعث أميرا يعرف بالجمالي ثم اتبعه أميرا يعرف بطوغان جبار قاسي القلب متهم في دينه يقال انه كان يعبد الشمس فدخلا الاسكندرية وقبضا علي كبار أهلها وأعيان التجار بها كاولاد الكربك وسواهم وأخذا منهم الاموال الطائلة وجعلت في عنق عماد الدين القاضي جامعة حديد ثم ان الاميرين قتلا من أهل المدينة ستة وثلاثين رجلا وجعلوا كل رجل قطعتين وصلبوهم صفين وذلك في يوم جمعة وخرج الناس على عادتهم بعد الصلاة لزيارة القبور وشاهدوا مصارع القوم فعظمت حسرتهم وتضاعفت أحزانهم وكان في جملة أولئك المصلوبين تاجر كبير القدر يعرف بابن رواحة وكان له قاعة معدة للسلاح فمتى كان خوف أو قتال جهز منها المائة والمائتين من الرجال بما يكفيهم من الاسلحة وبالمدينة قاعات على هذه الصورة لكثير من أهلها فزل لسانه وقال للاميرين أنا أضمن هذه المدينة وكل ما يحدث فيها أطالب به وأحوط على السلطان مرتبات العساكر والرجال فأنكر الاميران قوله وقالا انما تريد

الثورة على السلطان وقتلا. وانما كان قصده رحمه الله اظهار النصح والخدمة للسلطان فكان فيه حتفه وكنت سمعت أيام اقامتي بالاسكندرية بالشيخ الصالح العابد المنقطع المنفق من الكون أبي عبدالله المرشدي وهو من كبار الاولياء المكاشفين انه منقطع بمنية بني مرشد له هنالك زاوية منفرد فيها الا خديم له ولا صاحب ويقصده الامراء والوزراء وتأتيه الوفود من طوائف الناس في كل يوم فيطعمهم الطعام وكل واحد منهم ينوي أن يأكل عنده طعاما أو فاكهة أو حلوي فيأتى لكل واحد بما نواه وربما كان ذلك في غير ابانه ويأتيه الفقهاء لطلب الخطبة فيولى ويعزل وذلك كله من أمره مستفيض متواتر وقد قصده الملك الناصر مرات بموضعه فخرجت من مدينة الاسكندرية قاصدا هذا الشيخ نفعنا الله به ووصلت قرية تروجة (وضبطها بفتح التاء المعلوة والراء وواو وجيم مفتوحة) وهي على مسيرة نصف يوم من مدينة الاسكندرية قرية كبيرة بها قاض ووال وناظر ولأهلها مكارم أخلاق ومروءة صحبت قاضيها صفي الدين وخطيبها فخر الدين وفاضلا من أهلها يسمي بمبارك وينعت بزين الدين ونزلت بها على رجل من العباد الفضلاء كبير القدر يسمى عبد الوهاب وأضافني ناظرها زين الدين ابن الواعظ وسألني عن بلدى وعن مجباه فأخبرته ان مجباه نحو اثنى عشر ألفا من دينار الذهب فعجب وقال لى رأيت هذه القرية فان مجباها اثنان وسبعون ألف دينار ذهبا وانما عظمت مجابى ديار مصر لان جميع أملاكها لبيت المال ثم خرجت من هذه القرية فوصلت مدينة دمنهور وهي مدينة كبيرة جبايتها كثيره ومحاسنها أثيرة أم مدن البحيرة بأسرها وقطبها الذي عليه مدار أمرها (وضبطها بدال مهملة وميم مفتوحتين ونون ساكنة وهاء مضمومة وواو وراء) وكان قاضيها في ذلك العهد فخر الدين بن مسكين من فقهاء الشافعية وتولى قضاء الاسكندرية لما عزل عنها عماد الدين الكندى بسبب الوقعة التي قصصناها وأخبرني الثقة ان ابن مسكين أعطي خمسة وعشرين ألف درهم وصرفها من دنانير الذهب ألف دينار على ولاية القضاء بالاسكندرية ثم رحلنا الى مدينة فوا وهذه المدينة عجيبة المنظر حسنة المخبر بها البساتين الكثيره والفوائد الخطيرة الاثيره (وضبطها بالفاء والواو المفتوحتين مع تشديد الواو)

بها قبر الشيخ الولي أبي النجاة الشهير الاسم خبير تلك البلاد وزاوية الشيخ أبي عبد الله المرشدي الذي قصدته بمقربة من المدينة يفصل بينهما خليج هنالك فلما وصلت المدينة تعديتها ووصلت الي زاوية الشيخ المذكور قبل صلاة العصر وسلمت عليه ووجدت عنده الامير سيف الدين يلملك وهو من الخاصكية (وأول اسمه ياء آخر الحروف ولامه الاولي مسكنة والثانية مفتوحة مثل الميم والعامة تقول فيه الملك فيخطؤن ونزل هذا الامير بعسكره خارج الزاويه ولما دخلت على الشيخ رحمه الله قام الي وعانقني وأحضر طعاما فواكلني وكانت عليه جبة صوف سوداء فلما حضرت صلاة العصر قدمني للصلاة أماما وكذلك لكل ما حضرني عنده حين اقامتي معه من الصلاة ولما أردت النوم قال لي اصعد الى سطح الزاوية نم هنالك وذلك أوان القيظ فقلت للامير باسم الله فقال لي وما منا الا له مقام معلوم فصعدت السطح فوجدت به حصيرا ونطعا وآنية للوضوء وجرة ماء وقدحا للشرب فنمت هنالك

(كرامة لهذا الشيخ) رأيت ليلتي تلك وأنا نائم بسطح الزاوية كأني على جناح طائر عظيم يطير بي في سمت القبلة يتيامن ثم يشرق ثم يذهب في ناحية الجنوب ثم يبعد الطيران في ناحية الشرق وينزل في أرض مظلمة خضراء ويتركني بها فعجبت من هذه الرؤيا وقلت في نفسي ان كاشفني الشيخ برؤياي فهو كما يحكي عنه فلما غدوت لصلاة الصبح قدمني اماما لها ثم أتاه الامير يلملك فوادعه وانصرف ووادعه من كان هنالك من الزوار وانصرفوا أجمعين من بعد ان زودهم كعيكات صغارا ثم سبحت سبحة الضحي ودعاني وكاشفني برؤياي فقصصتها عليه فقال سوف تحج وتزور النبي صلى الله عليه وسلم وتجول في بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك وبلاد الهند وتبقى بها مدة طويلة وستلقى بها أخي دلشاد الهندي ويخلصك من شدة تقع فيها ثم زودني كعيكات ودراهم ووادعته وانصرفت ومنذ فارقته لم ألق في أسفاري الا خيرا وظهرت على بركاته ثم لم ألق فيمن لقيته مثله الا الولي سيدي محمد الموله بأرض الهند ثم رحلنا الى مدينة النحرارية وهي رحبة الفناء حديثة البناء أسواقها

حسنة الرؤية (وضبطها بفتح النون وحاء مهمل مسكن وراء ين) وأميرها كبير القدر يعرف بالسعدي وولده في خدمة ملك الهند وسنذكره وقاضيها صدر الدين سليمان المالكي من كبار المالكية سفر عن الملك الناصر الى العراق وولي قضاء البلاد الغربية وله هيئة جميلة وصورة حسنة وخطيبها شرف الدين السخاوي من الصالحين ورحلت منها الى مدينة أبيار وهي قديمة البناء أرجة الارجاء كثيرة المساجد ذات حسن زائد (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان الباء الموحدة وياء آخر الحروف وألف وراء) وهي بمقربة من النحرارية ويفصل بينهما النيل وتصنع بأبيار ثياب حسان تعلو قيمتها بالشام والعراق ومصر وغيرها ومن الغريب قرب النحرارية منها والثياب التي تصنع بها غير معتبرة ولا مستحسنة عند أهلها ولقيت بابيار قاضيها عز الدين المليجي الشافعي وهو كريم الشمائل كبير القدر حضرت عنده مرة يوم الركبة وهم يسمون ذلك يوم ارتقاب هلال رمضان وعادتهم فيه ان يجتمع فقهاء المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضي ويقف على الباب نقيب المتعممين وهو ذو شارة وهيئة حسنة فاذا أتي أحد الفقهاء أو الوجوه تلقاه ذلك النقيب ومشي بين يديه قائلا باسم الله سيدنا فلان الدين فيسمع القاضي ومن معه فيقومون له ويجلسه النقيب في موضع يليق به فاذا تكاملوا هنالك ركب القاضي وركب من معه أجمعين وتبعهم جميع من بالمدينة من الرجال والنساء والصبيان وينتهون الي موضع مرتفع خارج المدينة وهو مرتقب الهلال عندهم وقد فرش ذلك الموضع بالبسط والفرش فينزل فيه القاضي ومن معه فيرتقبون الهلال ثم يعودون الى المدينة بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع ويصل الناس مع القاضي الى داره ثم ينصرفون هكذا فعلهم في كل سنة ثم توجهت الي مدينة المحلة الكبيرة وهي جليلة المقدار حسنة الآثار كثير أهلها جامع بالمحاسن شملها واسمها بين ولهذه المدينة قاضي القضاة والي الولاة وكان قاضي قضاتها أيام وصولي اليها في فراش المرض ببستان له على مسافة فرسخين من البلد وهو عز الدين بن الاشمرين فقصدت زيارته صحبة نائبه الفقيه أبي القاسم بن بنون المالكي التونسي وشرف الدين

الدميري قاضي محلة منوف وأقمنا عنده يوما وسمعت منه وقد جرى ذكر الصالحين ان على مسيرة يوم من المحلة الكبيرة بلاد البرلس ونسترو وهي بلاد الصالحين وبها قبر الشيخ مرزوق صاحب المكاشفات فقصدت تلك البلاد ونزلت بزاوية الشيخ المذكور وتلك البلاد كثيرة النخل والثمار والطير البحري والحوت المعروف بالبوري ومدينتهم تسمى ملطين وهي على ساحل البحيرة المجتمعة من ماء النيل وماء البحر المعروفة ببحيرة تنيس ونسترو بمقربة منها نزلت هنالك بزاوية الشيخ شمس الدين القلوى من الصالحين وكانت تنيس بلدا عظيما شهيرا وهي الآن خراب قال ابن جزي (تنيس بكسر التاء المثناة والنون المشددة وياء وسين مهمل) واليه ينسب الشاعر المجيد أبو الفتح بن وكيع وهو القائل في خليجها (بسيط)

قم فاسقني والخليج مضطرب * والريح تثنى ذوائب القصب

كأنها والرياح تعطفها * صب قنا سندسية العذب

والجو في حلة ممسكة * قد طرزتها البروق بالذهب

(ونسترو بفتح النون واسكان السين وراء مفتوحة وواو مسكن) (والبرلس بباء موحدة وراء وآخره سين مهمل وقيده بعضهم بضم حروفه الاول الثلاث وتشديد اللام وقيده أبو بكر بن نقطة بفتح الاولين) وهو على البحر ومن غريب ما اتفق به ما حكاه أبو عبد الله الرازي عن أبيه ان قاضي البرلس وكان رجلا صالحا خرج ليلة الي النيل فبينما اسبغ الوضوء وصلى ما شاء أن يصلي اذ سمع قائلا يقول

لولا رجال لهم سرد يصومونا * وآخرون لهم ورد يقومونا

لزلزلت أرضكم من تحتكم سحرا * لانكم قوم سوء لا تبالونا

قال فتجوزت في صلاتي وأدرت طرفي فما رأيت احدا ولا سمعت حسا فعلمت ان ذلك زاجر من الله تعالي (رجع) ثم سافرت في أرض رملة الي مدينة دمياط وهي مدينة فسيحة الاقطار متنوعة الثمار عجيبة الترتيب آخذة من كل حسن بنصيب (والناس يضبطون اسمها باعجام الذال وكذلك ضبطه الامام أبو محمد عبد الله بن علي الرشاطي وكان شرف الدين

الامام العلامة أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي امام المحدثين يضبطها باهمال الدال ويتبع ذلك بأن يقول خلاف الرشاطي وغيره وهو أعرف بضبط اسم بلده) ومدينة دمياط على شاطئ النيل وأهل الدور الموالية له يستقون منه الماء بالدلاء وكثير من دورها بها دركات ينزل فيها الى النيل وشجر الموز بها كثير يحمل ثمره الى مصر في المراكب وغنمها سائمة هملا بالليل والنهار ولهذا يقال في دمياط سورها حلوى وكلابها غنم وإذا دخلها أحد لم يكن له سبيل الي الخروج عنها الا بطابع الوالى فمن كان من الناس معتبرا طبع له في قطعه كاغد يستظهر به لحراس بابها وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به والطير البحرى بهذه المدينة كثير متناهى السمن وبها الالبان الجاموسية التي لا مثل لها في عذوبة الطعم وطيب المذاق وبها الحوت البورى يحمل منها الي الشأم و بلاد الروم ومصر وبخارجها جزيرة بين البحرين والنيل تسمى البرزخ بها مسجد وزاوية لقيت بها شيخها المعروف بابن قفل وحضرت عنده ليلة جمعة ومعه جماعة من الفقراء الفضلاء المتعبدين الاخيار قطعوا ليلتهم صلاة وقراءة وذكرا ودمياط هذه حديثة البناء والمدينة القديمة هي التى خربها الافرنج علي عهد الملك الصالح وبها زاوية الشيخ جمال الدين الساوى قدوة الطائفة المعروفة بالقرندرية وهم الذين يحلقون لحاهم وحواجبهم ويسكن الزاوية في هذا العهد الشيخ فتح التكرورى

(حكاية)

يذكر ان السبب الداعي للشيخ جمال الدين الساوى الي حلق لحيته وحاجبيه انه كان جميل الصورة حسن الوجه فعلقت به امرأة من أهل ساوة وكانت تراسله وتعارضه في الطرق وتدعوه لنفسها وهو يمتنع ويتهاون فلما أعياها أمره دست له عجوزا تصدت له ازاء دار على طريقه الى المسجد وبيدها كتاب مختوم فلما مر بها قالت له ياسيدى أتحسن القراءة قال نعم قالت له هذا الكتاب وجهه الي ولدى وأحب أن تقرأه على فقال لها نعم فلما فتح الكتاب قالت له ياسيدى ان لولدي زوجة وهي بأسطوان الدار فلو تفضلت بقراءته بين بابي الدار بحيث تسمعها فأجابها لذلك فلما توسط بين البابين غلقت العجوز الباب وخرجت المرأة وجواريها فتعلقن به وأدخلنه الى داخل الدار وراودته المرأة عن نفسه

فلما رأى ان لا خلاص له قال لها اني حيث تريدين فأريني بيت الخلاء فأرته اياه فادخل معه الماء وكانت عنده موسى حديدة فحلق لحيته وحاجبيه وخرج عليها فاستقبحت هيئته واستنكرت فعله وأمرت باخراجه وعصمه الله بذلك فبقي على هيئته فيما بعد وصار كل من يسلك طريقته يحلق رأسه ولحيته وحاجبيه

(كرامة لهذا الشيخ) يذكر انه لما قصد مدينة دمياط لزم مقبرتها وكان بها قاض يعرف بابن العميد فخرج يوما الى جنازة بعض الاعيان فرأى الشيخ جمال الدين بالمقبرة فقال له أنت الشيخ المبتدع فقال له وأنت القاضي الجاهل تمر بدابتك بين القبور وتعلم ان حرمة الانسان ميتا كحرمته حيا فقال له القاضي وأعظم من ذلك حلقك للحيتك فقال له اياي تعني وزعق الشيخ ثم رفع رأسه فاذا هو ذو لحية سوداء عظيمة فعجب القاضي ومن معه ونزل اليه عن بغلته ثم زعق ثانية فاذا هو ذو لحية بيضاء حسنة ثم زعق ثالثة ورفع رأسه فاذا هو بلا لحية كهيئته الاولى فقبل القاضي يده وتلمذ له وبنى له زاوية حسنة وصحبه أيام حياته ثم مات الشيخ فدفن بزاويته ولما حضرت القاضي وفاته أوصى أن يدفن بباب الزاوية حتى يكون كل داخل الى زيارة الشيخ يطأ قبره وبخارج دمياط المزار المعروف بشطا (بفتح الشين المعجمة والطاء المهملة) وهو ظاهر البركة يقصده أهل الديار المصرية وله أيام في السنة معلومة لذلك وبخارجها أيضا بين بساتينها موضع يعرف بالمنية فيه شيخ من الفضلاء يعرف بابن النعمان قصدت زاويته وبت عنده وكان بدمياط أيام اقامتي بها وال يعرف بالمحسني من ذوى الاحسان والفضل بنى مدرسة على شاطئ النيل بها كان نزولي في تلك الايام وتأكدت بيني وبينه مودة ثم سافرت الى مدينة فارسكور وهي مدينة على ساحل النيل (والكاف الذى في اسمها مضموم) ونزلت بخارجها ولحقني هنالك فارس وجهه الى الامير المحسني فقال لي ان الامير سأل عنك وعرف بسيرتك فبعث اليك بهذه النفقة ودفع الى جملة دراهم جزاه الله خيرا ثم سافرت الى مدينة أشمون الرمان (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان الشين المعجم) ونسبت الى الرمان لكثرته بها ومنها يحمل الى مصر وهي مدينة عتيقة كبيرة على خليج من خلج النيل ولها قنطرة خشب ترسو

المراكب عندها فاذا كان العصر رفعت تلك الخشب وجازت المراكب صاعدة ومنحدرة وبهذ البلدة قاضي القضاة ووالى الولاة ثم سافرت عنها الى مدينة سمنود وهي على شاطئ النيل كثيرة المراكب حسنة الاسواق وبينها وبين المحلة الكبيرة ثلاثة فراسخ (وضبط اسمها بفتح السين المهمل والميم وتشديد النون وضمها وواو ودال مهمل) ومن هذه المدينة ركبت النيل مصعدا الى مصر ما بين مدائن وقرى منتظمة متصل بعضها ببعض ولا يفتقر راكب النيل الي استصحاب الزاد لانه مهما أراد النزول بالشاطئ نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك والاسواق متصلة من مدينة الاسكندرية الي مصر ومن مصر الى مدينة اسوان من الصعيد ثم وصلت الي مدينة مصر هي أم البلاد وقرارة فرعون ذى الاوتاد ذات الاقاليم العريضه والبلاد الاريضه المتناهية في كثرة العماره المتباهية بالحسن والنضاره مجمع الوارد والصادر ومحط رحل الضعيف والقادر وبها ماشئت من عالم وجاهل وجاد وهازل وحليم وسفيه ووضيع ونبيه وشريف ومشروف ومنكر ومعروف تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وامكانها شبابها يجد على طول العهد وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد قهرت قاهرتها الامم وتمكنت ملوكها نواصي العرب والعجم ولها خصوصية النيل التى جل خطرها وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها وأرضها مسيرة شهر لمجد السير كريمة التربه مؤنسة لذوى الغربه قال ابن جزى وفيها يقول الشاعر (طويل)

لعمرك مامصر بمصر وانما * هي الجنة الدنيا لمن يتبصر
فأولادها الولدان والحور عينها * وروضتها الفردوس والنيل كوثر

وفيها يقول ناصر الدين بن ناهض

شاطئ مصر جنة * ما مثلها من بلد
لاسيما مذ زخرفت * بنيلها المطرد
وللرياح فوقه * سوابغ من زرد

مسرودة مامسها * داودها بمبرد
سائلة هواؤها * يرعد عاري الجسد
والفلك كالافلاك بين حادر ومصعد

(رجع) ويقال ان بمصر من السقائين على الجمال اثني عشر ألف سقاء وان بها ثلاثين ألف مكار وأن بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفا للسلطان والرعية تمر صاعدة الي الصعيد ومنحدرة الي الاسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق وعلى ضفة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة وهو مكان النزهة والتفرج وبه البساتين الكثيرة الحسنة وأهل مصر ذو طرب وسرور ولهو شاهدت بها مرة فرجة بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يده فزين كل أهل سوق سوقهم وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلى وثياب الحرير وبقوا على ذلك أياما

﴿ذكر مسجد عمرو بن العاص والمدارس والمارستان والزوايا﴾

ومسجد عمرو بن العاص مسجد شريف كبير القدر شهير الذكر تقام فيه الجمعة والطريق يعترضه من شرق الى غرب وبشرقه الزاوية حيث كان يدرس الامام أبو عبد الله الشافعي وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها وأما المارستان الذى بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه وقد أعد فيه من المرافق والادوية مالا يحصر ويذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم وأما الزوايا فكثيرة وهم يسمونها الخوانق واحدتها خانقة والامراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم الاعاجم وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف ولكل زاوية شيخ وحارس وترتيب أمورهم عجيب * ومن عوائدهم فى الطعام انه يأتي خديم الزاوية الى الفقراء صباحا فيعين له كل واحد ما يشتهيه من الطعام فاذا اجتمعوا للاكل جعلوا لكل انسان خبزه ومرقه في اناء على حدة لا يشاركه فيه أحد وطعامهم مرتان في اليوم ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف ومرتب شهرى من ثلاثين درهما للواحد في الشهر الي عشرين وثم الحلاوة من السكر فى كل ليلة جمعة والصابون

لغسل أثوابهم والاجرة لدخول الحمام والزيت للاستصباح وهم أعزاب وللمتزوجين زوايا على حدة ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس والمبيت بالزاوية واجتماعهم بقبة داخل الزاوية * ومن عوائدهم أن يجلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به واذا صلوا صلاة الصبح قرؤا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم ثم يؤتى بنسخ من القرآن العظيم مجزأة فيأخذ كل فقير جزأ ويختمون القرآن ويذكرون ثم يقرأ القراء على عادة أهل المشرق ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر * ومن عوائدهم مع القادم انه يأتي باب الزاوية فيقف به مشدود الوسط وعلى كاهله سجادة وبيمناه العكاز وبيسراه الابريق فيعلم البواب خديم الزاوية بمكانه فيخرج اليه ويسأله من أي البلاد أتي وبأي الزوايا نزل في طريقه ومن شيخه فاذا عرف صحة قوله أدخله الزاوية وفرش له سجادته في موضع يليق به وأراه موضع الطهارة فيجدد الوضوء ويأتي الى سجادته فيحل وسطه ويصلي ركعتين ويصافح الشيخ ومن حضر ويقعد معهم * ومن عوائدهم انهم اذا كان يوم الجمعة أخذ الخادم جميع سجاجيدهم فيذهب بها الي المسجد ويفرشها لهم هنالك ويخرجون مجتمعين ومعهم شيخهم فيأتون المسجد ويصلي كل واحد على سجادته فاذا فرغوا من الصلاة قرؤا القرآن على عادتهم ثم ينصرفون مجتمعين الي الزاوية ومعهم شيخهم

ذكر قرافة مصر ومزاراتها

ولمصر القرافة العظيمة الشأن في التبرك بها وقد جاء في فضلها أثر أخرجه القرطبي وغيره لانها من جملة الجبل المقطم الذى وعد الله أن يكون روضة من رياض الجنة وهم يبنون بالقرافة القباب الحسنة ويجعلون عليها الحيطان فتكون كالدور ويبنون بها البيوت ويرتبون القراء يقرؤن ليلا ونهارا بالاصوات الحسان ومنهم من يبني الزاوية والمدرسة الى جانب التربة ويخرجون في كل ليلة جمعة الي المبيت بها بأولادهم ونسائهم ويطوفون على المزارات الشهيرة ويخرجون أيضا للمبيت بها ليلة النصف من شعبان ويخرج أهل الاسواق بصنوف المآكل * ومن المزارات الشريفة المشهد المقدس العظيم الشأن حيث رأس الحسين بن على عليهما السلام وعليه رباط ضخم عجيب البناء على أبوابه حلق الفضة

وصفائحها أيضا كذلك وهو موفي الحق من الاجلال والتعظيم * ومنها تربة السيدة نفيسة بنت زيد بن على بن الحسين بن على عليهم السلام وكانت مجابة الدعوة مجتهدة في العبادة وهذه التربة أنيقة البناء مشرقة الضياء عليها رباط مقصود * ومنها تربة الامام أبي عبد الله محمد بن ادريس الشافعي رضى الله عنه وعليها رباط كبير ولها جراية ضخمة وبها القبة الشهيرة البديعة الاتقان العجيبة البنيان المتناهية الاحكام المفرطة السمو وسعتها أزيد من ثلاثين ذراعا وبقرافة مصر من قبور العلماء والصالحين مالا يضبطه الحصر وبها عدد جم من الصحابة وصدور السلف والخلف رضي الله تعالي عنهم مثل عبد الرحمن بن القاسم وأشهب بن عبد العزيز وأصبغ بن الفرج وابنى عبد الحكم وأبي القاسم بن شعبان وأبي محمد عبد الوهاب لكن ليس لهم بها اشتهار ولا يعرفهم الا من له بهم عناية والشافعى رضي الله عنه ساعده الجد في نفسه وأتباعه وأصحابه في حياته ومماته فظهر من أمره مصداق قوله (كامل)

الجد يدني كل أمر شاسع * والجد يفتح كل باب مغلق

(ذكر نيل مصر)

ونيل مصر يفضل أنهار الارض عذوبة مذاق واتساع قطر وعظم منفعة والمدن والقرى بضفتيه منتظمة ليس فى المعمور مثلها ولا يعلم نهر يزدرع عليه ما يزدرع على النيل وليس في الارض نهر يسمي بحرا غيره قال الله تعالي فاذا خفت عليه فالقيه في اليم فسماه يما وهو البحر وفى الحديث الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وصل ليلة الاسراء الي سدرة المنتهي فاذا في أصلها أربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان فسأل عنها جبريل عليه السلام فقال أما الباطنان فى الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات وفي الحديث أيضا ان النيل والفرات وسيحون وجيحون كل من أنهار الجنة ومجرى النيل من الجنوب الي الشمال خلافا لجميع الانهار * ومن عجائبه ان ابتداء زيادته في شدة الحر عند نقص الانهار وجفوفها وابتداء نقصه حين زيادة الانهر وفيضها ونهر السند مثله فى ذلك وسيأتي ذكره وأول ابتداء زيادته في حزيران وهو يونيه فاذا بلغت زيادته ستة

عشر ذراعاتم خراج السلطان فان زاد ذراعا كان الخصب في العام والصلاح التام فان بلغ ثمانية عشر ذراعا أضر بالضياع وأعقب الوباء وان نقص ذراعا عن ستة عشر نقص خراج السلطان وان نقص ذراعين استسقى الناس وكان الضرر الشديد والنيل أحد أنهار الدنيا الخمسة الكبار وهي النيل والفرات والدجلة وسيحون وجيحون وتماثلها أنهار خمسة أيضا نهر السند ويسمى بنج اب ونهر الهند ويسمى الكنك واليه تحج الهنود واذا حرقوا أمواتهم رموا برمادهم فيه ويقولون هو من الجنة ونهر الجون بالهند أيضا ونهر أتل بصحراء قفجق وعلى ساحله مدينة السرا ونهر السرو بأرض الخطا وعلى ضفته مدينة خان بالق ومنها يحدر الى مدينة الخنسا ثم الى مدينة الزيتون بأرض الصين وسيذكر ذلك كله في مواضعه ان شاء الله والنيل يفترق بعد مسافة من مصر على ثلاثة أقسام ولا يعبر نهر منها الا في السفن شتاء وصيفا وأهل كل بلد لهم خلجان تخرج من النيل فاذا مد أترعها ففاضت على المزارع

(ذكر الاهرام والبرابي)

وهي من العجائب المذكورة على مر الدهور وللناس فيها كلام كثير وخوض في شأنها وأولية بنائها ويزعمون ان جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان أخذت عن هرمس الاول الساكن بصعيد مصر الاعلى ويسمى خنوخ وهو أدريس عليه السلام وانه أول من تكلم في الحركات الفلكية والجواهر العلوية وأول من بنى الهياكل ومجد الله تعالى فيها وانه أنذر الناس بالطوفان وخاف ذهاب العلم ودروس الصنائع فبنى الاهرام والبرابي وصور فيها جميع الصنائع والآلات ورسم العلوم فيها لتبقى مخلدة ويقال ان دار العلم والملك بمصر مدينة منوف وهي على بريد من الفسطاط فلما بنيت الاسكندرية انتقل الناس اليها وصارت دار العلم والملك الى ان أتي الاسلام فاختط عمرو بن العاص رضي الله عنه مدينة الفسطاط فهي قاعدة مصر الى هذا العهد والاهرام بناء بالحجر الصلد المنحوت متناهي السمو مستدير متسع الاسفل ضيق الأعلى كالشكل المخروط ولا أبواب لها ولا تعلم كيفية بنائها ومما يذكر في شأنها ان ملكا من ملوك مصر قبل

الطوفان رأي رؤياهالته وأوجبت عنده انه بني تلك الاهرام بالجانب الغربى من النيل لتكون مستودعا للعلوم ولجثة الملوك وانه سأل المنجمين هل يفتح منها موضع فأخبروه انها تفتح من الجانب الشمالى وعينوا له الموضع الذى تفتح منه ومبلغ الانفاق في فتحه فأمر ان يجعل بذلك الموضع من المال قدر ما أخبروه انه ينفق في فتحه واشتد في البناء فأتمه في ستين سنة وكتب عليها بنيناهذه الاهرام في ستين سنة فليهدمها من يريد ذلك في ستمائة سنة فان الهدم أيسر من البناء فلما أفضت الخلافة الى أمير المؤمنين المأمون أراد هدمها فأشار عليه بعض مشايخ مصر أن لا يفعل فلج في ذلك وأمر أن تفتح من الجانب الشمالي فكانوا يوقدون عليها النار ثم يرشونها بالخل ويرمونها بالمنجنيق حتي فتحت الثلمة التي بها الى اليوم ووجدوا بازاء النقب مالا أمر أمير المؤمنين بوزنه فحصر ما أنفق في النقب فوجدهما سواء فطال عجبه من ذلك ووجدوا عرض الحائط عشرين ذراعا

(ذكر سلطان مصر)

وكان سلطان مصر على عهد دخولى اليها الملك الناصر أبو الفتح محمد بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى وكان قلاوون يعرف بالالفى لان الملك الصالح اشتراه بألف دينار ذهبا وأصله من قفجق وللملك الناصر رحمه الله السيرة الكريمة والفضائل العظيمة وكفاه شرفا انتماؤه لخدمة الحرمين الشريفين وما يفعله في كل سنة من أفعال البر التي تعين الحجاج من الجمال التى تحمل الزاد والماء للمنقطعين والضعفاء وتحمل من تأخر أو ضعف عن المشى فى الدربين المصري والشامى وبنى زاوية عظيمة بسرياقص خارج القاهرة لكن الزاوية التي بناها مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين وكهف الفقراء والمساكين خليفة الله فى أرضه القائم من الجهاد بنفله وفرضه أبو عنان أيد الله أمره وأظهره وسنى له الفتح المبين ويسره بخارج حضرته العلية المدينة البيضاء حرسها الله لا نظير لها في المعمور في اتقان الوضع وحسن البناء والنقش في الجص بحيث لا يقدر أهل المشرق على مثله وسيأتي ذكر ما عمره أيده الله من المدارس والمارستان والزوايا ببلاده

حرسها الله وحفظها بدوام ملكه

(ذكر بعض أمراء مصر)

منهم ساقي الملك الناصر وهو الامير بكتمور (وضبط اسمه بضم الباء الموحدة وكاف مسكن وتاء معلوة مضمومة وآخره راء) وهو الذى قتله الملك الناصر بالسم وسيذكر ذلك ومنهم نائب الملك الناصر ارغون الدودار وهو الذى يلى بكتمور فى المنزلة (وضبط اسمه بفتح الهمزة واسكان الراء وضم الغين المعجمة) ومنهم طشط المعروف بحمص أخضر (واسمه بطاءين مهملين مضمومين بينهما شين معجم) وكان من خيار الامراء وله الصدقات الكثيرة على الايتام من كسوة ونفقة وأجرة لمن يعلمهم القرآن وله الاحسان العظيم للحرافيش وهم طائفة كبيرة أهل صلابة وجاه ودعارة وسجنه الملك الناصر مرة فاجتمع من الحرافيش آلاف ووقفوا بأسفل القلعة ونادوا بلسان واحد يا أعرج النحس يعنون الملك الناصر أخرجه فأخرجه من محبسه وسجنه مرة أخرى ففعل الايتام مثل ذلك فأطلقه * ومنهم وزير الملك الناصر يعرف بالجمالى بفتح الجيم ومنهم بدر الدين بن البابه ومنهم جمال الدين نائب الكرك ومنهم تقزدمور (واسمه بضم التاء المعلوة وضم القاف وزاء مسكن ثم دال مضموم وميم مثله وآخره راء) ودمور بالتركية الحديد ومنهم بهادور الحجازى (واسمه بفتح الباء الموحدة وضم الدال المهمل وآخره راء) ومنهم قوصون (واسمه بفتح القاف وصاد مهمل مضموم) ومنهم بشتك (واسمه بفتح الباء الموحدة واسكان الشين المعجم وتاء معلوة مفتوحة) وكل هؤلاء يتنافسون في أفعال الخيرات وبناء المساجد والزوايا ومنهم ناظر جيش الملك الناصر وكاتبه القاضي فخر الدين القبطي وكان نصرانيا من القبط فأسلم وحسن اسلامه وله المكارم العظيمة والفضائل التامة ودرجته من أعلى الدرجات عند الملك الناصر وله الصدقات الكثيرة والاحسان الجزيل ومن عادته أن يجلس عشى النهار فى مجلس له باسطوان داره على النيل ويليه المسجد فاذا حضر المغرب صلى في المسجد وعاد الى مجلسه وأوتى بالطعام ولا يمنع حينئذ أحد من الدخول كائنا من كان فمن كان ذا حاجة

تكلم فيها فقضاها له ومن كان طالب صدقة أمر مملوكا له يدعى بدر الدين واسمه لؤلؤ بأن يصحبه الى خارج الدار وهنالك خازنه معه صرر الدراهم فيعطيه ما قدر له ويحضر عنده في ذلك الوقت الفقهاء ويقرأ بين يديه كتاب البخاري فاذا صلى العشاء الاخيرة انصرف الناس عنه

(ذكر القضاة بمصر فى عهد دخولى اليها)

فمنهم قاضي القضاة الشافعية وهو أعلاهم منزلة وأكبرهم قدرا واليه ولاية القضاة بمصر وعزلهم وهو القاضى الامام العالم بدر الدين بن جماعة وابنه عز الدين هو الآن متولى ذلك ومنهم قاضى القضاة المالكية الامام الصالح تقى الدين الاخنائي ومنهم قاضى القضاة الحنفية الامام العالم شمس الدين الحريرى وكان شديد السطوة لا تأخذه في الله لومة لائم وكانت الامراء تخافه ولقد ذكر لي ان الملك الناصر قال يوما لجلسائه اني لا أخاف من أحد الا من شمس الدين الحريرى ومنهم قاضي القضاة الحنبلية ولا أعرفه الآن الا انه كان يدعي بعز الدين

(حكاية)

كان الملك الناصر رحمه الله يقعد للنظر في المظالم ورفع قصص المشتكين كل يوم اثنين وخميس ويقعد القضاة الاربعة عن يساره وتقرأ القصص بين يديه ويعين من يسأل صاحب القصة عنها وقد سالك مولانا أمير المؤمنين ناصر الدين أيده الله في ذلك مسلكا لم يسبق اليه ولا مزيد في العدل والتواضع عليه وهو سؤاله بذاته الكريمة لكل متظلم وعرضه بين يديه المستقيمة أبي الله أن يحضرها سواه أدام الله أيامه وكان رسم القضاة المذكورين أن يكون أعلاهم منزلة في الجلوس قاضي الشافعية ثم قاضي الحنفية ثم قاضى المالكية ثم قاضي الحنبلية فلما توفي شمس الدين الحريرى وولى مكانه برهان الدين بن عبد الحق الحنفى أشار الامراء على الملك الناصر بأن يكون مجلس المالكى فوقه وذكروا ان العادة جرت بذلك قديما اذ كان قاضي المالكية زين الدين بن مخلوف يلي قاضى الشافعية تقى الدين بن دقيق العيد فأمر الملك الناصر بذلك فلما علم به قاضي الحنفية غاب عن شهود

المجلس أنفة من ذلك فأنكر الملك الناصر مغيبه وعلم ماقصده فأمر باحضاره فلما مثل بين يديه أخذ الحاجب بيده وأقعده حيث نفذ أمر السلطان مما يلي قاضي المالكية واستمر حاله على ذلك

(ذكر بعض علماء مصر وأعيانها)

فمنهم شمس الدين الاصبهاني امام الدنيا في المعقولات ومنهم شرف الدين الزواوي المالكي ومنهم برهان الدين بن بنت الشاذلي نائب قاضي القضاة بجامع الصالح ومنهم ركن الدين ابن القوبع التونسي من الأئمة في المعقولات ومنهم شمس الدين بن عدلان كبير الشافعية ومنهم بهاء الدين بن عقيل فقيه كبير ومنهم أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الغرناطي وهو أعلمهم بالنحو ومنهم الشيخ الصالح بدر الدين عبد الله المنوفي ومنهم برهان الدين الصفاقسي ومنهم قوام الدين الكرماني وكان سكناه بأعلى سطح الجامع الازهر وله جماعة من الفقهاء القراء يلازمونه ويدرس فنون العلم ويفتي في المذاهب ولباسه عباءة صوف خشنة وعمامة صوف سوداء ومن عادته أن يذهب بعد صلاة العصر الى مواضع الفرج والنزاهات منفردا عن أصحابه ومنهم السيد الشريف شمس الدين ابن بنت الصاحب تاج الدين بن حناء ومنهم شيخ شيوخ القراء بديار مصر مجد الدين الاقصرائي نسبة الى اقصرا من بلاد الروم ومسكنه سرياقص ومنهم الشيخ جمال الدين الحويزائي والحويزا على مسيرة ثلاثة أيام من البصرة ومنهم نقيب الاشراف بديار مصر السيد الشريف المعظم بدر الدين الحسيني من كبار الصالحين ومنهم وكيل بيت المال المدرس بقبة الامام الشافعي مجد الدين بن حرمي ومنهم المحتسب بمصر نجم الدين السهرتي من كبار الفقهاء وله بمصر رياسة عظيمة وجاه

(ذكر يوم المحمل بمصر)

وهو يوم دوران الجمل يوم مشهود وكيفية ترتيبهم فيه انه يركب فيه القضاة الاربعة ووكيل بيت المال والمحتسب وقد ذكرنا جميعهم ويركب معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة ويقصدون جميعا باب قلعة دار الملك الناصر فيخرج اليهم المحمل على جمل

وامامه الامير المعين لسفر الحجاز في تلك السنة ومعه عسكره والسقاؤن على جمالهم ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ثم يطوفون بالمحمل وجميع من ذكرنا معه بمدينتي القاهرة ومصر والحداة يحدون امامهم ويكون ذلك في رجب فعند ذلك تهيج العزمات وتنبعث الاشواق وتحرك البواعث ويلقى الله تعالى العزيمة على الحج في قلب من يشاء من عباده فيأخذون في التأهب لذلك والاستعداد ثم كان سفري من مصر على طريق الصعيد برسم الحجاز الشريف فبت ليلة خروجي بالرباط الذى بناه الصاحب تاج الدين بن حناء بدير الطين وهو رباط عظيم بناه على مفاخر عظيمه وآثار كريمه أودعها فيه وهي قطعة من قصعة رسول الله صلى الله عليه وسلم والميل الذي كان يكتحل به والدرفش وهو الاشفا الذي كان يخصف به نعله ومصحف امير المؤمنين على بن أبي طالب الذى بخط يده رضى الله عنه ويقال ان الصاحب اشترى ماذكرناه من الآثار الكريمة النبوية بمائة ألف درهم وبنى الرباط وجعل فيه الطعام للوارد والصادر والجراية لخدام تلك الآثار الشريفة نفعه الله تعالي بقصده المبارك ثم خرجت من الرباط المذكور ومررت بمنية القائد وهى بلدة صغيرة على ساحل النيل ثم سرت منها الى مدينة بوش (وضبطها بضم الباء الموحدة وآخرها شين معجم) وهذه المدينة أكثر بلاد مصر كتانا ومنها يجلب الي سائر الديار المصرية والي افريقية ثم سافرت منها فوصلت الي مدينة دلاص (وضبط اسمها بفتح الدال المهمل وآخره صاد مهمل) وهذه المدينة كثيرة الكتان أيضا كمثل التى ذكرناقبلها ويحمل أيضا منها الى ديار مصر وافريقية ثم سافرت منها الي مدينة ببا (وضبط اسمها بباءين موحدتين أولاهما مكسورة) ثم سافرت منها الي مدينة البهنسا وهى مدينة كبيرة وبساتينها كثيرة (وضبط اسمها بفتح الموحدة واسكان الهاء وفتح النون والسين) وتصنع بهذه المدينة ثياب الصوف الجيدة وممن لقيته بها قاضيها العالم شرف الدين وهو كريم النفس فاضل ولقيت بها الشيخ الصالح أبا بكر العجمى ونزلت عنده وأضافني ثم سافرت منها الي مدينة منية ابن خصيب وهى مدينة كبيرة الساحة متسعة المساحة مبنية على شاطئ النيل وحق حقيق لها على بلاد

الصعيد التفضيل بها المدارس والمشاهد والزوايا والمساجد وكانت في القديم منية عامل مصر لخصيب

(حكاية خصيب)

يذكر ان أحد الخلفاء من بني العباس رضي الله عنهم غضب على أهل مصر فآلي أن يولى عليهم أحقر عبيده وأصغرهم شأنا قصد الارذالهم والتنكيل بهم وكان خصيب أحقرهم اذ كان يتولى تسخين الحمام فخلع عليه وأمره على مصر وظنه أنه يسير فيهم سيرة سوء ويقصدهم بالاذاية حسبما هو المعهود ممن ولي عن غير عهد بالعز فلما استقر خصيب بمصر سار في أهلها أحسن سيرة وشهر بالكرم والايثار فكان أقارب الخلفاء وسواهم يقصدونه فيجزل العطاء لهم ويعودون الي بغداد شاكرين لما أولاهم وان الخليفة افتقد بعض العباسيين وغاب عنه مدة ثم أتاه فسأله عن مغيبه فأخبره انه قصد خصيبا وذكر له ما أعطاه خصيب وكان عطاء جزيلا فغضب الخليفة وأمر بسمل عيني خصيب واخراجه من مصر الي بغداد وأن يطرح في أسواقها فلما ورد الامر بالقبض عليه حيل بينه وبين دخول منزله وكانت بيده ياقوتة عظيمة الشأن فخبأها عنده وخاطها في ثوب له ليلا وسملت عيناه وطرح في أسواق بغداد فمر به بعض الشعراء فقال له ياخصيب انى كنت قصدتك من بغداد الى مصر مادحا لك بقصيدة فوافقت انصرافك عنها وأحب أن تسمعها فقال كيف بسماعها وأنا على ماتراه فقال اما قصدى سماعك لها وأما العطاء فقد أعطيت الناس وأجزلت جزاك الله خيرا قال فافعل فأنشده (كامل)

أنت الخصيب وهذه مصر * فتدفقا فكلاكما بحر

فلما أتي على آخرها قال له افتق هذه الخياطة ففعل ذلك فقال له خذ الياقوتة فأبي فأقسم عليه أن يأخذها فأخذها وذهب بها الي سوق الجوهريين فلما عرضها عليهم قالوا له ان هذه لاتصلح الا للخليفة فرفعوا أمرها الي الخليفة فأمر الخليفة باحضار الشاعر واستفهمه عن شأن الياقوتة فأخبره بخبرها فتأسف على مافعله بخصيب وأمر بمثوله بين

يديه وأجزل له العطاء وحكمه فيما يريد فرغب أن يعطيه هذه المنية ففعل ذلك وسكنها خصيب الى أن توفي وأورثها عقبه الى أن انقرضوا وكان قاضي هذه المنية أيام دخولي اليها فخر الدين النويري المالكي ووالبها شمس الدين أمير خير كريم دخلت يوما الحمام بهذه البلدة فرأيت الناس بها لا يستترون فعظم ذلك على وأتيته فأعلمته بذلك فأمرني أن لا أبرح وأمر باحضار المكترين للحمامات وكتبت عليهم العقود انه متي دخل احد الحمام دون مئزر فانهم يؤاخذون على ذلك واشتد عليهم أعظم الاشتداد ثم انصرفت عنه وسافرت من منية ابن خصيب الي مدينة منلوى وهي صغيرة مبنية على مسافة ميلين من النيل (وضبط اسمها بفتح الميم واسكان النون وفتح اللام وكسر الواو) وقاضيها الفقيه شرف الدين الدميري (بفتح الدال المهمل وكسر الميم) الشافعي وكبارها قوم يعرفون ببني فضيل بنى أحدهم جامعا انفق فيه صميم ماله وبهذه المدينة احدى عشرة معصرة للسكر ومن عوائدهم انهم لا يمنعون فقيرا من دخول معصرة منها فيأتي الفقير بالخبزة الحارة فيطرحها في القدر التي يطبخ السكر فيها ثم يخرجها وقد امتلأت سكرا فينصرف بها وسافرت من منلوى المذكورة الى مدينة منفلوط وهي مدينة حسن رواؤها مؤنق بناؤها على ضفة النيل شهيرة البركة (وضبط اسمها بفتح الميم واسكان النون وفتح الفاء وضم اللام وآخرها طاء مهمل)

(حكاية) أخبرني أهل هذه المدينة ان الملك الناصر رحمه الله أمر بعمل منبر عظيم محكم الصنعة بديع الانشاء برسم المسجد الحرام زاده الله شرفا وتعظيما فلما تم عمله أمر أن يصعد به في النيل ليجاز الي بحر جدة ثم الى مكة شرفها الله فلما وصل المركب الذي احتمله الى منفلوط وحاذى مسجدها الجامع وقف وامتنع من الجرى مع مساعدة الريح فعجب الناس من شأنه أشد العجب وأقاموا أياما لا ينهض بهم المركب فكتبوا بخبره الى الملك الناصر رحمه الله فامر أن يجعل ذلك المنبر بجامع مدينة منفلوط ففعل ذلك وقد عاينته بها ويصنع بهذه المدينة شبه العسل يستخرجونه من القمح ويسمونه النيدا يباع باسواق مصر

وسافرت من هذه المدينة الى مدينة أسيوط وهي مدينة رفيعه اسواقها بديعه (وضبط اسمها بفتح الهمزة والسين المهملة والياء آخر الحروف وواو وطاء مهملة) وقاضيها شرف الدين بن عبد الرحيم الملقب (بحاصل ما ثم) لقب شهر به وأصله ان القضاة بديار مصر والشام بأيديهم الاوقاف والصدقات لابناء السبيل فاذا أتى فقير لمدينة من المدن تصد القاضي بها فيعطيه ماقدر له فكان هذا القاضي اذا أتاه الفقير يقول له حاصل ما ثم أي لم يبق من المال الحاصل شئ فلقب بذلك ولزمه وبها من المشايخ الفضلاء الصالح شهاب الدين ابن الصباغ أضافني بزاويته وسافرت منها الى مدينة اخميم وهي مدينة عظيمة أصيلة البنيان عجيبة الشان بها البربي المعروف باسمها وهو مبني بالحجارة في داخله نقوش وكتابة للاوائل لا تفهم في هذا العهد وصور الافلاك والكواكب ويزعمون انها بنيت والنسر الطائر ببرج العقرب وبها صور الحيوانات وسواها وعند الناس في هذه الصور أكاذيب لا يعرج عليها وكان باخميم رجل يعرف بالخطيب أمر على هدم بعض هذه البرابي وابتنى بحجارتها مدرسة وهو رجل موسر معروف باليسار ويزعم حساده انه استفاد ما بيده من المال من ملازمته لهذه البرابي ونزلت من هذه المدينة بزاوية الشيخ أبي العباس بن عبد الظاهر وبها تربة جده عبد الظاهر وله من الاخوة ناصر الدين ومجد الدين وواحد الدين ومن عادتهم أن يجتمعوا جميعا بعد صلاة الجمعة ومعهم الخطيب نور الدين المذكور وأولاده وقاضي المدينة الفقيه مخاص وسائر وجوه أهلها فيجتمعون للقرآن ويذكرون الله الى صلاة العصر فاذا صلوها قرؤا سورة الكهف ثم انصرفوا وسافرت من اخميم الي مدينة (هو) مدينة كبيرة بساحل النيل (وضبطها بضم الهاء) نزلت منها بمدرسة تقي الدين بن السراج ورأيتهم يقرؤن بها في كل يوم بعد صلاة الصبح حزبا من القرآن ثم يقرؤن أوراد الشيخ أبي الحسن الشاذلي وحزب البحر وبهذه المدينة السيد الشريف أبو محمد عبد الله الحسني من كبار الصالحين

(كرامة له) دخلت الى هذا الشريف متبركا برؤيته والسلام عليه فسألني عن قصدي فاخبرته أني أريد حج البيت الحرام على طريق جدة فقال لي لا يحصل لك هذا في هذا

الوقت فارجع وانما تحج أول حجة على الدرب الشامي فانصرفت عنه ولم أعمل على كلامه ومضيت في طريق حتى وصلت الى عيذاب فلم يتمكن لي السفر فعدت راجعاً الى مصر ثم الى الشام وكان طريقي في أول حجاتي على الدرب الشامي حسبما أخبرني الشريف نفع الله به ثم سافرت الى مدينة قنا وهي صغيرة حسنة الاسواق (واسمها بقاف مكسورة ونون) وبها قبر الشريف الصالح الولي صاحب البراهين العجيبه والكرامات الشهيره عبد الرحيم القناوى رحمة الله عليه ورأيت بالمدرسة السيفية منها حفيده شهاب الدين أحمد وسافرت من هذا البلد الى مدينة قوص (وهي بضم القاف) مدينة عظيمه لها خيرات عميمه بساتينها مورقه وأسواقها ونقه ولها المساجد الكثيره والمدارس الاثيره وهي منزل ولاة الصعيد وبخارجها زاوية الشيخ شهاب الدين بن عبد الغفار وزاوية الافرم وبها اجتماع الفقراء المتجردين في شهر رمضان من كل سنة ومن علمائها القاضي جمال الدين بن السديد والخطيب بها فتح الدين بن دقيق العيد أحد الفصحاء البلغاء الذين حصل لهم السبق في ذلك لم أر من يماثله الا خطيب المسجد الحرام بهاء الدين الطبرى وخطيب مدينة خوارزم حسام الدين الشاطي وسيقع ذكرهما ومنهم الفقيه بها الدين بن عبد العزيز المدرس بمدرسة المالكية ومنهم الفقيه برهان الدين ابراهيم الاندلسى له زاوية عالية ثم سافرت الى مدينة الاقصر (وضبط اسمها بفتح الهمزة وضم الصاد المهمل) وهي صغيرة حسنة وبها قبر الصالح العابد أبي الحجاج الاقصرى وعليه زاوية وسافرت منها الي مدينة ارمنت (وضبط اسمها بفتح الهمزة وسكون الراء وميم مفتوحة ونون ساكنة وتاء معلوة) وهي صغيرة ذات بساتين مبنية على ساحل النيل أضافني قاضيها وأنسيت اسمه ثم سافرت منها الى مدينة أسنا (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان السين المهمل ونون) مدينة عظيمة متسعة الشوارع ضخمة المنافع كثيرة الزوايا والمدارس والجوامع لها أسواق حسان وبساتين ذات أفنان قاضيها قاضي القضاة شهاب الدين بن مسكين أضافني وأكرمني وكتب الى نوابه باكرامي وبها من الفضلاء الشيخ الصالح نور الدين على والشيخ الصالح عبد الواحد المكناسي وهو على هذا العهد صاحب زاوية بقوص ثم سافرت منها الي مدينة أدفو (وضبط اسمها

بفتح الهمزة واسكان الدال المهمل وضم الفاء) وبينها وبين مدينة أسنا مسيرة يوم وليلة في صحراء ثم جزنا النيل من مدينة ادفو الي مدينة العطوانى ومنها اكترينا الجمال وسافرنا مع طائفة من العرب تعرف بدغيم (بالغين المعجمة) في صحراء لا عمارة بها الا انها آمنة السبل وفي بعض منازلها نزلنا حميثرا حيث قبر ولى الله أبي الحسن الشاذلي وقد ذكرنا كرامته في أخباره انه يموت بها وأرضها كثيرة الضباع ولم نزل ليلة مبيتنا بها نحارب الضباع ولقد قصدت رحلي ضبع منها فمزقت عدلا كان به واجترت منه جراب تمر وذهبت به فوجدناه لما أصبحنا ممزقا مأكولا معظم ما كان فيه ثم لما سرنا خمسة عشر يوما وصلنا الى مدينة عيذاب وهي مدينة كبيرة كثيرة الحوت واللبن ويحمل اليها الزرع والتمر من صعيد مصر وأهلها البجاة وهم سود الالوان يلتحفون ملاحف صفراء ويشدون على رؤسهم عصائب يكون عرض العصابة منها اصبعا وهم لا يورثون البنات وطعامهم البان الابل ويركبون المهارى ويسمونها الصهب وثلث المدينة للملك الناصر وثلثاها للملك البجاة وهو يعرف بالحدربي (بفتح الحاء المهمل واسكان الدال وراء مفتوحة وباء موحدة وياء) وبمدينة عيذاب مسجد ينسب للقسطلاني شهير البركة رأيته وتبركت به وبها الشيخ الصالح موسى والشيخ المسن محمد المراكشي زعم انه ابن المرتضي ملك مراكش وان سنه خمس وتسعون سنة ولما وصلنا الي عيذاب وجدنا الحدربى سلطان البجاة يحارب الاتراك وقد خرق المراكب وهرب الترك امامه فتعذر سفرنا في البحر فبعنا ما كنا أعددناه من الزاد وعدنا مع العرب الذين اكترينا الجمال منهم الي صعيد مصر فوصلنا الي مدينة قوص التي تقدم ذكرها وانحدرنا منها في النيل وكان أوان مده فوصلنا بعد مسيرة ثمان من قوص الي مصر فبت بمصر ليلة واحدة وقصدت بلاد الشام وذلك في منتصف شعبان سنة ست وعشرين فوصلت الي مدينة بلبيس (وضبط اسمها بفتح الموحدة الاولى وفتح الثانية ثم ياء آخر الحروف مسكنة وسين مهملة) وهي مدينة كبيره ذات بساتين كثيره ولم ألق بها من يجب ذكره ثم وصلت الى الصالحية ومنها دخلنا الرمال ونزلنا منازلها مثل السوادة والورادة والمطيلب والعريش والخروبة وبكل منزل منها

فندق وهم يسمونه الخان ينزله المسافرون بدوابهم وبخارج كل خان ساقية للسبيل وحانوت يشتري منها المسافر ما يحتاجه لنفسه ودابته ومن منازلها قطيا المشهورة وهي (بفتح القاف وسكون الطاء وياء آخر الحروف مفتوحة وألف) والناس يبدلون ألفها هاء تأنيث وبها تؤخذ الزكاة من التجار وتفتش أمتعتهم ويبحث عما لديهم أشد البحث وفيها الدواوين والعمال والكتاب والشهود ومجباها في كل يوم ألف دينار من الذهب ولا يجوز عليها أحد من الشام الا ببراءة من مصر ولا الى مصر الا ببراءة من الشام احتياطا على أموال الناس وتوقيا من الجواسيس العراقيين وطريقها في ضمان العرب قد وكلوا بحفظه فاذا كان الليل مسحوا على الرمل لا يبقى به أثر ثم يأتي الامير صباحا فينظر الى الرمل فان وجد به أثرا طالب العرب باحضار مؤثره فيذهبون في طلبه فلا يفوتهم فيأتون به الامير فيعاقبه بما شاء وكان بها في عهد وصولي اليها عز الدين استاذ الدار اقماري من خيار الامراء أضافني وأكرمني وأباح الجواز لمن كان معي وبين يديه عبد الجليل المغربي الوقاف وهو يعرف المغاربة وبلادهم فيسأل من ورد منهم من أي البلاد هو لئلا يلبس عليهم فان المغاربة لا يعترضون في جوازهم على قطيا ثم سرنا حتى وصلنا الى مدينة غزة وهي أول بلاد الشام مما يلي مصر متسعة الاقطار كثيرة العمارة حسنة الاسواق بها المساجد العديدة والاسوار عليها وكان بها مسجد جامع حسن والمسجد الذي تقام الآن به الجمعة فيها بناه الامير المعظم الجاولي وهو انيق البناء محكم الصنعة ومنبره من الرخام الابيض وقاضي غزة بدر الدين السلختي الحوراني ومدرسها علم الدين بن سالم وبنو سالم كبراء هذه المدينة ومنهم شمس الدين قاضي القدس ثم سافرت من غزة الى مدينة الخليل صلى الله على نبينا وعليه وسلم تسليما وهي مدينة صغيرة الساحة كبيرة المقدار مشرقة الانوار حسنة المنظر عجيبة المخبر في بطن واد ومسجدها أنيق الصنعة محكم العمل بديع الحسن سامي الارتفاع مبني بالصخر المنحوت في أحد أركانه صخرة أحد أقطارها سبعة وثلاثون شبرا ويقال ان سليمان عليه السلام أمر الجن ببنائه وفي داخل المسجد الغار المكرم المقدس فيه قبر ابراهيم واسحاق ويعقوب صلوات الله على نبينا

وعليهم ويقابلها قبور ثلاثة هي قبور أزواجهم وعن يمين المنبر بلصق جدار القبلة موضع يهبط منه على درج رخام محكمة العمل الى مسلك ضيق يفضي الى ساحة مفروشة بالرخام فيها صور القبور الثلاثة ويقال انها محاذية لها وكان هنالك مسلك الى الغار المبارك وهو الآن مسدود وقد نزلت بهذا الموضع مرات ومما ذكره أهل العلم دليلا على صحة كون القبور الثلاثة الشريفة هنالك ما نقلته من كتاب على بن جعفر الرازى الذى سماه (المسفر للقلوب عن صحة قبر ابراهيم واسحق ويعقوب) أسند فيه الى أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أسرى بي الى بيت المقدس مر بي جبريل على قبر ابراهيم فقال انزل فصل ركعتين فان هنا قبر أبيك ابراهيم ثم مر بي على بيت لحم وقال انزل فصل ركعتين فان هنا ولد أخوك عيسى عليه السلام ثم أتي بى الى الصخرة وذكر بقية الحديث ولما لقيت بهذه المدينة المدرس الصالح المعمر الامام الخطيب برهان الدين الجعبري أحد الصلحاء المرضيين والأئمة المشتهرين سألته عن صحة كون قبر الخليل عليه السلام هنالك فقال لي كل من لقيته من أهل العلم يصححون أن هذه القبور قبور ابراهيم واسحق ويعقوب على نبينا وعليهم السلام وقبور زوجاتهم ولا يطعن في ذلك الا أهل البدع وهو نقل الخلف عن السلف لا يشك فيه ويذكر أن بعض الأئمة دخل الي هذا الغار ووقف عند قبر سارة فدخل شيخ فقال له أى هذه القبور هو قبر ابراهيم فأشار له الى قبره المعروف ثم دخل شاب فسأله كذلك فأشار له اليه ثم دخل صبي فسأله أيضا فأشار له اليه فقال الفقيه أشهد أن هذا قبر ابراهيم عليه السلام لا شك ثم دخل الي المسجد فصلى به وارتحل من الغد وبداخل هذا المسجد أيضا قبر يوسف عليه السلام وبشرقي حرم الخليل تربة لوط عليه السلام وهي على تل مرتفع يشرف منه غور الشام وعلى قبره أبنية حسنة وهو في بيت منها حسن البناء مبيض ولا ستور عليه وهنالك بحيرة لوط وهى أجاج يقال انها موضع ديار قوم لوط وبمقربة من تربة لوط مسجد اليقين وهو على تل مرتفع له نور واشراق ليس لسواه ولا يجاوره الا دار واحدة يسكنها قيمه وفي المسجد بمقربة من بابه موضع منخفض في حجر صلد قد هيئ فيه صورة محراب لا يسع الا مصليا واحدا

ويقال ان ابراهيم سجد في ذلك الموضع شكر الله تعالى عند هلاك قوم لوط فتحرك موضع سجوده وساخ في الارض قليلا وبالقرب من هذا المسجد مغارة فيها قبر فاطمة بنت الحسين ابن علي عليهما السلام وبأعلى القبر وأسفله لوحان من الرخام في أحدهما مكتوب منقوش بخط بديع بسم الله الرحمن الرحيم لله العزة والبقاء وله ماذرأ وبرأ وعلى خلقه كتب الفناء وفي رسول الله أسوة هذا قبر أم سلمة فاطمة بنت الحسين رضى الله عنه وفي اللوح الآخر منقوش صنعه محمد بن أبي سهل النقاش بمصر وتحت ذلك هذه الابيات

أسكنت من كان في الاحشاء مسكنه ... بالرغم مني بين الترب والحجر

ياقبر فاطمة بنت ابن فاطمة ... بنت الائمة بنت الانجم الزهر

ياقبر مافيك من دين ومن ورع ... ومن عفاف ومن صون ومن خفر

ثم سافرت من هذه المدينه الى القدس فزرت في طريقي اليه تربة يونس عليه السلام وعليها بنية كبيرة ومسجد وزرت أيضا بيت لحم موضع ميلاد عيسى عليه السلام وبه أثر جذع النخلة وعليه عمارة كثيرة والنصارى يعظمونه أشد التعظيم ويضيفون من نزل به ثم وصلنا الى بيت المقدس شرفه الله ثالث المسجدين الشريفين في رتبة الفضل ومصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ومعرجه الى السماء والبلدة كبيرة منيفة مبنية بالصخر المنحوت وكان الملك الصالح الفاضل صلاح الدين بن ايوب جزاه الله عن الاسلام خيرا لما فتح هذه المدينة هدم بعض سورها ثم استنقض الملك الظاهر هدمه خوفا ان يقصدها الروم فيمتنعوا بها ولم يكن بهذه المدينة نهر فيما تقدم وجلب لها الماء في هذا العهد الامير سيف الدين تنكيز أمير دمشق

﴿ذكر المسجد المقدس﴾

وهو من المساجد العجيبة الرائقة الفائقة الحسن يقال انه ليس على وجه الارض مسجد أكبر منه وان طوله من شرق الى غرب سبعمائة واثنتان وخمسون ذراعا بالذراع المالكية وعرضه من القبلة الى الجوف اربعمائة ذراع وخمس وثلاثون ذراعا وله أبواب كثيرة في جهاته الثلاث واما الجهة القبلية منه فلا أعلم بها الا بابا واحدا وهو الذي يدخل منه الامام

والمسجد كله فضاء غير مسقف الا المسجد الاقصي فهو مسقف في النهاية من أحكام العمل واتقان الصنعة مموه بالذهب والاصبغة الرائقة وفي المسجد مواضع سواه مسقفة

﴿ذكر قبة الصخرة﴾

وهي من أعجب المباني واتقنها واغربها شكلا قد توفر حظها من المحاسن وأخذت من كل بديعة بطرف وهي قائمة على نشز في وسط المسجد يصعد اليها في درج رخام ولها أربعة أبواب والدائر بها مفروش بالرخام أيضا محكم الصنعة وكذلك داخلها وفي ظاهرها وباطنها من أنواع الزواقة ورائق الصنعة ما يعجز الواصف وأكثر ذلك مغشي بالذهب فهي تتلألأ نورا وتلمع لمعان البرق يحار بصر متأملها في محاسنها ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها وفي وسط القبة الصخرة الكريمة التي جاء ذكرها في الآثار فان النبي صلى الله عليه وسلم عرج منها الى السماء وهي صخرة صماء ارتفاعها نحو قامة وتحتها مغارة في مقدار بيت صغير ارتفاعها نحو قامة أيضا ينزل اليها على درج وهنالك شكل محراب وعلى الصخرة شباكان اثنان محكما العمل يغلقان عليها أحدهما وهو الذي يلي الصخرة من حديد بديع الصنعة والثاني من خشب وفي القبة درقة كبيرة من حديد معلقة هنالك والناس يزعمون انها درقة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه

﴿ذكر بعض المشاهد المباركة بالقدس الشريف﴾

فمنها بعدوة الوادي المعروف بوادي جهنم في شرقي البلد على تل مرتفع هنالك بنية يقال انها مصعد عيسى عليه السلام الى السماء ومنها أيضا قبر رابعة البدوية منسوبة الى البادية وهي خلاف رابعة العدوية الشهيرة وفي بطن الوادي المذكور كنيسة يعظمها النصارى ويقولون ان قبر مريم عليها السلام بها وهنالك أيضا كنيسة أخرى معظمة يحجها النصارى وهي التي يكذبون عليها ويعتقدون ان قبر عيسى عليه السلام بها وعلى كل من يحجها ضريبة معلومة للمسلمين وضروب من الاهانة يتحملها على رغم أنفه وهنالك موضع مهد عيسى عليه السلام يتبرك به

﴿ذكر بعض فضلاء القدس﴾

فمنهم قاضيه العالم شمس الدين محمد بن سالم الغزى (بفتح الغين) وهو من أهل غزة وكبرائها ومنهم خطيبه الصالح الفاضل عماد الدين النابلسى ومنهم المحدث المفتى شهاب الدين الطبرى ومنهم مدرس المالكية وشيخ الخانقاه الكريمة أبو عبد الله محمد بن مثبت الغرناطي نزيل القدس ومنهم الشيخ الزاهد أبو على حسن المعروف بالمحجوب من كبار الصالحين ومنهم الشيخ الصالح العابد كمال الدين المراغي ومنهم الشيخ الصالح العابد أبو عبد الرحيم عبد الرحمن بن مصطفى من أهل أرز الروم وهو من تلامذة تاج الدين الرفاعي صحبته ولبست منه خرقة التصوف ثم سافرت من القدس الشريف برسم زيارة ثغر عسقلان وهو خراب قد عاد رسوما طامسة واطلالا دارسه وقل بلد جمع من المحاسن ما جمعته عسقلان اتقانا وحسن وضع وأصالة مكان وجمعا بين مرافق البر والبحر وبها المشهد الشهير حيث كان رأس الحسين بن على عليه السلام قبل ان ينقل الى القاهرة وهو مسجد عظيم سامى العلو فيه جب للماء أمر ببنائه بعض العبيديين وكتب ذلك على بابه وفى قبلة هذا المزار مسجد كبير يعرف بمسجد عمر لم يبق منه الا حيطانه وفيه أساطين رخام لا مثل لها فى الحسن وهي ما بين قائم وحصيد ومن جملتها اسطوانة حمراء عجيبة يزعم الناس ان النصارى احتملوها الى بلادهم ثم فقدوها فوجدت في موضعها بعسقلان وفى القبلة من هذا المسجد بئر تعرف ببئر ابراهيم عليه السلام ينزل اليها في درج متسعة ويدخل منها الى بيوت وفى كل جهة من جهاتها الاربع عين تخرج من أسراب مطوية بالحجارة وماؤها عذب وليس بالغزير ويذكر الناس من فضائلها كثيرا وبظاهر عسقلان وادى النمل ويقال انه المذكور فى الكتاب العزيز وبجبانة عسقلان من قبور الشهداء والاولياء ما لا يحصر لكثرته أوقفنا عليهم قيم المزار المذكور وله جراية يجريها له ملك مصر مع ما يصل اليه من صدقات الزوار ثم سافرت منها الى مدينة الرملة وهى فلسطين مدينة كبيرة كثيرة الخيرات حسنة الاسواق وبها الجامع الابيض ويقال ان فى قبلته ثلاثمائة من الانبياء مدفونين عليهم السلام وفيها من كبار الفقهاء مجد الدين النابلسى ثم خرجت منها الى مدينة نابلس وهى مدينة عظيمة كثيرة الاشجار مطردة الانهار من أكثر بلاد الشام زيتونا ومنها يحمل الزيت الي مصر

ودمشق وبها تصنع حلواء الخروب وتجلب الي دمشق وغيرها وكيفية عملها ان يطبخ الخروب ثم يعصر ويؤخذ ما يخرج منه من الرب فتصنع منه الحلواء ويجلب ذلك الرب أيضاً الي مصر والشام وبها البطيخ المنسوب اليها وهو طيب عجيب والمسجد الجامع في نهاية من الاتقان والحسن وفي وسطه بركة ماء عذب ثم سافرت منها الي مدينة عجلون (وهي بفتح العين المهملة) وهي مدينة حسنة لها أسواق كثيرة وقلعة خطيرة ويشقها نهر ماؤه عذب ثم سافرت منها بقصد اللاذقية فمررت بالغور وهو واد بين تلال به قبر أبي عبيدة بن الجراح أمين هذه الامة رضي الله عنه زرناه وعليه زاوية فيها الطعام لأبناء السبيل وبتنا هنالك ليلة ثم وصلنا الى القصير وبه قبر معاذ بن جبل رضي الله عنه تبركت أيضا بزيارته ثم سافرت على الساحل فوصلت الي مدينة عكة وهي خراب وكانت عكة قاعدة بلاد الافرنج بالشام ومرسى سفنهم وتشبه قسطنطينيه العظمى وبشرقيها عين ماء تعرف بعين البقر يقال ان الله تعالى أخرج منها البقر لآدم عليه السلام وينزل اليها في درج وكان عليها مسجد بقي منه محرابه وبهذه المدينة قبر صالح عليه السلام ثم سافرت منها الي مدينة صور وهي خراب وبخارجها قرية معمورة وأكثر أهلها أرفاض ولقد نزلت بها مرة على بعض المياه أريد الوضوء فأتي بعض أهل تلك القرية ليتوضأ فبدأ بغسل رجليه ثم غسل وجهه ولم يتمضمض ولا استنشق ثم مسح بعض رأسه فأخذت عليه في فعله فقال لي ان البناء انما يكون ابتداؤه من الاساس ومدينة صور هي التي يضرب بها المثل في الحصانة والمنعة لان البحر محيط بها من ثلاث جهاتها ولها بابان أحدهما للبر والثاني للبحر ولبابها الذي يشرع للبر أربعة فصلات كلها في ستائر محيطة بالباب وأما الباب الذي للبحر فهو بين برجين عظيمين وبناؤها ليس في بلاد الدنيا أعجب ولا أغرب شأناً منه لان البحر محيط بها من ثلاث جهاتها وعلى الجهة الرابعة سور تدخل السفن تحت السور وترسو هنالك وكان فيما تقدم بين البرجين سلسلة حديد معترضة لا سبيل الى الداخل هنالك ولا الى الخارج الا بعد حطها وكان عليها الحراس والامناء فلا يدخل داخل ولا يخرج خارج الا على علم منهم وكان لعكة أيضا مينا مثلها ولكنها لم تكن تحمل الا السفن الصغار ثم سافرت منها الي مدينة

صيدا وهي على ساحل البحر حسنة كثيرة الفواكه يحمل منها التين والزبيب والزيت الى بلاد مصر نزلت عند قاضيها كمال الدين الأشموني المصري وهو حسن الاخلاق كريم النفس ثم سافرت منها الي مدينة طبرية وكانت فيما مضى مدينة كبيرة ضخمة ولم يبق منها الا رسوم تنبئ على ضخامتها وعظم شأنها وبها الحمامات العجيبة لها بيتان أحدهما للرجال والثاني للنساء وماؤها شديد الحرارة ولها البحيرة الشهيرة طولها نحو ستة فراسخ وعرضها أزيد من ثلاثة فراسخ وبطبرية مسجد يعرف بمسجد الانبياء فيه قبر شعيب عليه السلام وبنته زوج موسى الكليم عليه السلام وقبر سليمان عليه السلام وقبر يهوذا وقبر روبيل صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم وقصدنا منها زيارة الجب الذي ألقى فيه يوسف عليه السلام وهو في صحن مسجد صغير وعليه زاوية والجب كبير عميق شربنا من مائه المجتمع من ماء المطر وأخبرنا قيمه ان الماء ينبع منه أيضا ثم سرنا الى مدينة بيروت وهي صغيرة حسنة الاسواق وجامعها بديع الحسن وتجلب منها الي ديار مصر الفواكه والحديد وقصدنا منها زيارة أبي يعقوب يوسف الذي يزعمون انه من ملوك المغرب وهو بموضع يعرف بكرك نوح من بقاع العزيز وعليه زاوية يطعم بها الوارد والصادر ويقال ان السلطان صلاح الدين وقف عليها الاوقاف وقيل السلطان نور الدين وكان من الصالحين ويذكر انه كان ينسج الحصر ويقتات بثمنها

﴿ حكاية أبي يعقوب يوسف المذكور ﴾

يحكى انه دخل مدينة دمشق فمرض بها مرضاً شديداً وأقام مطروحا بالاسواق فلما برئ من مرضه خرج الي ظاهر دمشق ليلتمس بستانا يكون حارسا له فاستؤجر لحراسة بستان للملك نور الدين وأقام في حراسته ستة أشهر فلما كان في أوان الفاكهة أتى السلطان الي ذلك البستان وأمر وكيل البستان أبا يعقوب ان يأتي برمان يأكل منه السلطان فأتاه برمان فوجده حامضا فأمره ان يأتي بغيره ففعل ذلك فوجده أيضاً حامضاً فقال له الوكيل أتكون في حراسة هذا البستان منذ ستة أشهر ولا تعرف الحلو من الحامض فقال انما استأجرتني على الحراسة لا على الاكل فأتي الوكيل الي الملك فاعلمه بذلك فبعث اليه الملك

وكان قد رأي في المنام انه يجتمع مع أبي يعقوب وتحصل له منه فائدة فتفرس انه هو فقال له أنت أبو يعقوب قال نعم فقام اليه وعانقه وأجلسه الى جانبه ثم احتمله الي مجلسه فاضافه بضيافة من الحلال المكتسب بكد يمينه وأقام عنده أياما ثم خرج من دمشق فارآ بنفسه في أوان البرد الشديد فأتي قرية من قراها وكان بها رجل من الضعفاء فعرض عليه النزول عنده ففعل وصنع له مرقة وذبح دجاجة فأتاه بها وبخبز شعير فأكل من ذلك ودعا للرجل وكان عنده جملة أولادهم بنت قد آن بناء زوجها عليها ومن عوائدهم في تلك البلاد ان البنت يجهزها أبوها ويكون معظم الجهاز أواني النحاس وبه يتفاخرون وبه يتبايعون فقال أبو يعقوب للرجل هل عندك شيء من النحاس قال نعم قد اشتريت منه لتجهيز هذه البنت قال ائتني به فأتاه به فقال له استعر من جيرانك ما أمكنك منه ففعل وأحضر ذلك بين يديه فأوقد عليه النيران وأخرج صرة كانت عنده فيها الاكسير فطرح منه على النحاس فعاد كله ذهبا وتركه في بيت مقفل وكتب كتابا الى نور الدين ملك دمشق يعلمه بذلك وينبهه على بناء مارستان للمرضى من الغرباء ويوقف عليه الاوقاف ويبنى الزوايا بالطرق ويرضي أصحاب النحاس ويعطي صاحب البيت كفايته وقال له في آخر الكتاب وان كان ابراهيم بن أدهم قد خرج عن ملك خراسان فانا قد خرجت من ملك المغرب وعن هذه الصنعة والسلام وفر من حينه وذهب صاحب البيت بالكتاب الي الملك نور الدين فوصل الملك الى تلك القرية واحتمل الذهب بعد ان أرضي أصحاب النحاس وصاحب البيت وطلب أبا يعقوب فلم يجد له أثرا ولا وقع له على خبر فعاد الى دمشق وبنى المارستان المعروف باسمه الذى ليس في المعمور مثله ثم وصلت الى مدينة طرابلس وهي احدى قواعد الشام وبلدانها الضخام تخترقها الأنهار وتحفها البساتين والأشجار ويكنفها البحر بمرافقه العميمه والبر بخيراته المقيمه ولها الاسواق العجيبه والمسارح الخصيبه والبحر على ميلين منها وهي حديثة البناء وأما طرابلس القديمة فكانت على ضفة البحر وتملكها الروم زمانا فلما استرجعها الملك الظاهر خربت واتخذت هذه الحديثة وبهذه المدينة نحو أربعين من أمراء الاتراك وأميرها طيلان الحاجب المعروف بملك الامراء ومسكنه منها بالدار

المعروفة بدار السعادة ومن عوائده أن يركب في كل يوم اثنين وخميس ويركب معه الامراء والعساكر ويخرج الي ظاهر المدينة فاذا عاد اليها وقارب الوصول الي منزله ترحل الامراء ونزلوا عن دوابهم ومشوا بين يديه حتى يدخل منزله وينصرفون وتضرب الطبلخانة عند دار كل أمير منهم بعد صلاة المغرب من كل يوم وتوقد المشاعل وممن كان بها من الاعلام كاتب السر بهاء الدين بن غانم أحد الفضلاء الحسباء معروف بالسخاء والكرم وأخوه حسام الدين هو شيخ القدس الشريف وقد ذكرناه وأخوهما علاء الدين كاتب السر بدمشق ومنهم وكيل بيت المال قوام الدين بن مكين من أكابر الرجال ومنهم قاضي قضاتها شمس الدين بن النقيب من أعلام علماء الشام وبهذه المدينة حمامات حسان منها حمام القاضي القرمي وحمام سندمور وكان سندمور أمير هذه المدينة ويذكر عنه أخبار كثيرة في الشدة على أهل الجنايات منها ان امرأة شكت اليه بأن أحد مماليكه الخواص تعدى عليها في لبن كانت تبيعه فشربه ولم تكن لها بينة فامر به فوسط فخرج اللبن من مصرانه وقد اتفق مثل هذه الحكاية للعتريس أحد أمراء الملك الناصر أيام امارته على عيذاب واتفق مثلها للملك كبك سلطان تركستان ثم سافرت من طرابلس الى حصن الاكراد وهو بلد صغير كثير الاشجار والانهار بأعلي تل وبه زاوية تعرف بزاوية الابراهيمي نسبة الى بعض كبراء الامراء ونزلت عند قاضيها ولا أحقق الآن اسمه ثم سافرت الى مدينة حمص وهي مدينة مليحة ارجاؤها مونقة وأشجارها مورقة وأنهارها متدفقة وأسواقها فسيحة الشوارع وجامعها متميز بالحسن الجامع وفي وسطه بركة ماء وأهل حمص عرب لهم فضل وكرم وبخارج هذه المدينة قبر خالد بن الوليد سيف الله ورسوله وعليه زاوية ومسجد وعلى القبر كسوة سوداء وقاضي هذه المدينة جمال الدين الشريشي من أجمل الناس صورة وأحسنهم سيرة ثم سافرت منها الي مدينه حماة احدي أمهات الشام الرفيعه ومدائنها البديعه ذات الحسن الرائق والجمال الفائق تحفها البساتين والجنات عليها النواعير كالافلاك الدائرات يشقها النهر العظيم المسمى بالعاصي ولها ربض سمي بالمنصورية أعظم من المدينة فيه الاسواق الحافلة والحمامات الحسان وبحماة الفواكه الكثيرة ومنها المشمش اللوزي

اذا كسرت نواته وجدت في داخلها الوزة حلوة قال ابن جزى وفى هذه المدينة ونهرها ونواعيرها وبساتينها يقول الاديب الرحال نور الدين أبو الحسن على بن موسي بن سعيد العنسى العمارى الغرناطي نسبة لعمار بن ياسر رضى الله عنه (طويل)

حمى الله من شطى حماة مناظرا * وقفت عليها السمع والفكر والطرفا
تغنى حمام أو تميل خمائل * وتزهى مباني تمنع الواصف الوصفا
يلوموننى أن أعصي الصون والنهي * (٢) وأطيع الكأس واللهو والقصفا
اذا كان فيها النهر عاص فكيف لا * أحاكيه عصيانا وأشربها صرفا
وأشدو لدى تلك النواعر شدوها * وأغلبها رقصاً وأشبهها غرفا
تئن وتذرى دمعها فكأنها * تهيم بمرآها وتسألها العطفا

ولبعضهم في نواعيرها ذاهبا مذهب التورية (طويل)

وناعورة رقت لعظم خطيئتى * وقد عاينت قصدى من المنزل القاصي
بكت رحمة لي ثم باحت بشجوها * وحسبك ان الخشب تبكي على العاصى

ولبعض المتأخرين فيها أيضاً من التورية (كامل)

ياسادة سكنوا حماة وحقكم * ماحلت عن تقوي وعن اخلاصي
والطرف بعدكم اذا ذكر اللقا * يجري المدامع طائعاً كالعاصي

(رجع) ثم سافرت الى مدينة المعرة التي ينسب اليها الشاعر أبو العلاء المعرى وكثير سواه من الشعراء قال ابن جزى وانما سميت بمعرة النعمان لان النعمان بن بشير الانصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى له ولد أيام امارته على حمص فدفنه بالمعرة فعرفت به وكانت قبل ذلك تسمى ذات القصور وقيل ان النعمان جبل مطل عليها سميت به (رجع) والمعرة مدينة كثيرة حسنة أكثر شجرها التين والفستق ومنها يحمل الى مصر والشام وبخارجها على فرسخ منها قبر امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ولا زاوية عليه ولا خديم له وسبب ذلك انه وقع في بلاد صنف من الرافضة ارجاس يبغضون العشرة من الصحابة رضي الله عنهم ولمن مبغضهم ويبغضون كل من اسمه عمر وخصوصاً عمر بن

عبد العزيز رضي الله عنه لما كان من فعله في تعظيم علي رضى الله عنه ثم سرنا منها الى مدينة سرمين وهي حسنة كثيرة البساتين وأكثر شجرها الزيتون وبها يصنع الصابون الآجري ويجلب الى مصر والشام ويصنع بها أيضا الصابون المطيب لغسل الايدى ويصبغونه بالحمرة والصفرة ويصنع بها ثياب قطن حسان تنسب اليها وأهلها سبابون يبغضون العشرة ومن العجب انهم لا يذكرون لفظ العشرة وينادى سماسرتهم بالاسواق على السلع فاذا بلغوا الى العشرة قالوا تسعة وواحد وحضر بها بعض الاتراك يوما فسمع سمسارا ينادى تسعة وواحد فضربه بالدبوس على رأسه وقال قل عشرة بالدبوس وبها مسجد جامع فيه تسع قباب ولم يجعلوها عشرة قياما بمذهبهم القبيح ثم سرنا الى مدينة حلب المدينة الكبرى والقاعدة العظمى قال أبو الحسين بن جبير في وصفها قدرها خطير وذكرها في كل زمان يطير خطابها من الملوك كثير ومحلها من النفوس أثير فكم هاجت من كفاح وسل عليها من بيض الصفاح لها قلعة شهيرة الامتناع بائنة الارتفاع فنزهت حصانة من أن ترام أو تستطاع منحوتة الاجزاء موضوعة على نسبة اعتدال واستواء قد طاولت الايام والاعوام ووسعت الخواص والعوام أين أمراؤها الحمدانيون وشعراؤها فنى جميعهم ولم يبق الا بناؤها فيا عجبا البلاد تبقى ويذهب ملاكها ويهلكون ولا يقضى هلاكها وتخطب بعدهم فلا يتعذر املاكها وترام فيتيسر بأهون شيء ادراكها هذه حلب كم ادخلت ملوكها في خبر كان ونسخت صرف الزمان بالمكان أنث اسمها فتحلت بحلية الغوان وأتت بالغدر فيمن دان وانجلت عروسا بعد سيف دولتها ابن حمدان هيهات سيهرم شبابها ويعدم خطابها ويسرع فيها بعد حين خرابها وقلعة حلب تسمي الشهباء وبداخلها جبلان ينبع منهما الماء فلا تخاف الظماء ويطيف بها سوران وعليها خندق عظيم ينبع منه الماء وسورها متداني الابراج وقد انتظمت بها العلالي العجيبة المفتحة الطيقان وكل برج منها مسكون والطعام لا يتغير بهذه القلعة على طول العهد وبها مشهد يقصده بعض الناس يقال ان الخليل عليه السلام كان يتعبد به وهذه القلعة تشبه قلعة رحبة مالك بن طوق التي على الفرات بين الشام والعراق ولما قصد قازان طاغية التتر مدينة حلب حاصر هذه القلعة أياما

ونكص عنها خائباً قال ابن جزى وفي هذه القلعة يقول الخالدى شاعر سيف الدولة

وخرقاء قدقامت على من يرومها * بمرقبها العالى وجانبها الصعب
يجر عليها الجو جيب غمامه * ويلبسها عقداً بأنجمه الشهب
اذا ماسرى برق بدت من خلاله * كما لاحت العذراء من خلل السحب
فكم من جنود قدأماتت بغصة * وذى سطوات قد أبانت على عقب

وفيها يقول أيضاً وهو من بديع النظم (بسيط)

وقلعة عانق العنقاء سافلها * وجاز منطقة الجوزاء عاليها
لا تعرف القطر اذ كان الغمام لها * أرضاً توطأ قطريه مواشيها
اذا الغمامة راحت غاض ساكنها * حياضها قبل ان تهمي عزاليها
يعد من أنجم الافلاك مرقبها * لو أنه كان يجرى في مجاريها
ردت مكايد أقوام مكايدها * ونصرت لدواهيهم دواهيها

وفيها يقول جمال الدين على بن أبي المنصور (كامل)

كادت لبون سموها وعلوها * تستوقف الفلك المحيط الدائرا
وردت قواطنها المجرة منهلا * ورعت سوابقها النجوم زواهرا
ويظل صرف الدهر منها خائفا * وجلا فما يمسي لديها حاضرا

(رجع) ويقال في مدينة حلب حلب ابراهيم لان الخليل صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه كان يسكنها وكانت له الغنم الكثيرة فكان يسقى الفقراء والمساكين والوارد والصادر من ألبانها فكانوا يجتمعون ويسألون حلب ابراهيم فسميت بذلك وهى من أعز البلاد التي لا نظير لها في حسن الوضع واتقان الترتيب واتساع الاسواق وانتظام بعضها ببعض وأسواقها مسقفة بالخشب فأهلها دائماً في ظل ممدود وقيساريتها لا تماثل حسناً وكبراً وهي تحيط بمسجدها وكل سماط منها محاذى لباب من أبواب المسجد ومسجدها الجامع من أجمل المساجد في صحنه بركة ماء ويطيف به بلاط عظيم الاتساع ومنبرها بديع العمل مرصع بالعاج والأبنوس وبقرب جامعها مدرسة مناسبة له في حسن الوضع واتقان الصنعة

ينسب لأمراء بني حمدان وبالبلد ـ واها ثلاث مدارس وبها مارستان وأما خارج المدينة فهو بسيط أفيح عريض به المزارع العظيمة وشجرات الاعناب منتظمة به والبساتين على شاطئ نهرها وهو النهر الذي يمر بحماة ويسمى العاصي وقيل انه سمي بذلك لانه يخيل لناظره ان جريانه من أسفل الى علو والنفس تجد في خارج مدينة حلب انسراحا وسرورا ونشاطا لا يكون في سواها وهي من المدن التي تصلح للخلافة قال ابن جزي أطنبت الشعراء في وصف محاسن حلب وذكر داخلها وخارجها وفيها يقول أبو عبادة البحتري (كامل)

يا برق أسفر عن قويق فطرتي * حلب فاعلى القصر من بطياس

عن منبت الورد المعصفر صبغه * في كل ضاحية ومجنى الآس

أرض اذا استوحشت ثم بتذكر * حشدت على فأكثرت ايناسي

وقال فيها الشاعر المجيد أبو بكر الصنوبري (متقارب)

سقى حلب المزن مغنى حلب * فكم وصلت طربا بالطرب

وكم مستطاب من العيش لذ * بها اذ بها العيش لم يستطب

اذا نشر الزهر أعلامه * بها ومطارفه والعذب

غدا وحواشيه من فضة * تروق وأوساطه من ذهب

وقال فيها أبو العلاء المعري (خفيف)

حلب للوراد جنة عدن * وهي للغادرين نار سعير

والعظيم العظيم يكبر في عيـ * ـنيه منها قدر الصغير الصغير

فقويق في أنفس القوم بحر * وحصاة منه مكان ثبير

وقال فيها أبو الفتيان بن جبوس

ياصاحبي اذا أعياكما سقمي * فلقياني نسيم الريح من حلب

من البلاد التي كان الصبا سكنا * فيها وكان الهوى العذري من أربي

وقال فيها أبو الفتح كشاجم (متقارب)

وما أمتعت جارها بلدة * كما أمتعت حلب جارها
بها قد تجمع ما تشتهي * فزرها فطوبي لمن زارها

وقال فيها أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد الغرناطي العنسي (خفيف)

حادى العيس كم تنيخ المطايا * سق بروحي من بعدهم في سياق
حلب انها مقر غرامي * ومرامي وقبلة الاشواق
لك خلا جوشن و بطياس والعـ * ـين ومن كل وابل غيداق
كم بها مرتع لطرف وقلب * فيه سقى المنى بكأس دهاق
وتغنى طيورها لارتياح * وتثني غصونها لعناق
وعلو الشهباء حيث استدارت * أنجم الأفق حولها كالنطاق

(رجع) وبحلب ملك الامراء أرغون الدوادار أكبر أمراء الملك الناصر وهو من الفقهاء موصوف بالعدل لكنه بخيل والقضاة بحلب أربعة للمذاهب الاربعة فمنهم القاضي كمال الدين ابن الزملكاني شافعي المذهب عالي الهمة كبير القدر كريم النفس حسن الاخلاق متفنن بالعلوم وكان الملك الناصرقد بعث اليه ليوليه قضاء القضاة بحضرة ملكه فلم يقض له ذلك وتوفي ببلبيس وهو متوجه اليها ولما ولي قضاء حلب قصدته الشعراء من دمشق وسواها وكان فيمن قصده شاعر الشام شهاب الدين أبو بكر محمد بن الشيخ المحدث شمس الدين أبي عبد الله محمد بن نباتة القرشي الاموي الفارقي فامتدحه بقصيدة طويلة حافلة أولها (كامل)

أسفت لفقدك جلق الفيحاء * وتباشرت لقدومك الشهباء
وعلا دمشق وقد رحلت كآبة * وعلا ربا حلب سنا وسناء
قد أشرقت دار سكنت فناها * حتى غدت ولنورها لألاء
ياسائرا سبق المكارم والعلي * ممن يخل عنده الكرماء
هذا كمال الدين لذ بجنابه * تنعم ثم الفضل والنعماء
قاضي القضاة أجل من أيامه * تغنى بها الايتام والفقراء
قاض زكي أصلا وفرعا فاعتلى * شرفت به الآباء والأبناء

من الاله على بنى حلب به * لله وضع الفضل حيث يشاء
كشف المعمي فهمه وبيانه * فكأنما ذاك انذكاء ذكاء
يا حاكم الحكام تدرك سابق * عن ان تسرك رتبة شماء
ان المناصب دون همتك التي * فى الفضل دون محلها الجوزاء
لك في العلوم فضائل مشهورة * كالصبح شق له الظلام ضياء
ومناقب شهد العدو بفضلها * والفضل ماشهدت به الاعداء

وهي أزيد من خمسين بيتا وأجازه عليها بكسوة ودراهم وانتقد عليه الشعراء ابتداءه بلفظ أسمت قال ابن جزى وليس كلامه فى هذه القصيدة بذاك وهو في المقطعات أجود منه في القصائد واليه انتهت الرياسة في الشعر على هذا العهد في جميع بلاد المشرق وهو من ذرية الخطيب أبي يحيي عبد الرحيم بن نباتة منشيء الخطب الشهيرة ومن بديع مقطعاته فى التورية قوله (كامل)

علقتها غيداء حالية الحلي * تجنى على عقل المحب وقلبه
بخلت بلؤلؤ ثغرها عن لاثم * فغدت مطوقة بما بخلت به

(رجع) ومن قضاة حلب قاضي قضاة الحنفية الامام المدرس ناصر الدين بن العديم حسن الصورة والسيرة أصيل مدينة حلب (كامل)

تراه اذا ماجئته متهللا * كانك تعطيه الذى أنت سائله

ومنهم قاضى قضاة المالكية لاأذكره كان من الموثقين بمصر وأخذ الخطة عن غير استحقاق ومنهم قاضي قضاة الحنابلة لاأذكر اسمه وهو من أهل صالحية دمشق ونقيب الاشراف بحلب بدر الدين بن الزهراء ومن فقهائها شرف الدين بن العجمي وأقاربه هم كبراء مدينة حلب ثم سافرت منها الى مدينة تيزين وهى على طريق قنسرين (وضبط اسمها بتاء معلوة مكسورة وياء مدو زاى مكسورة وياء مد ثانية ونون) وهي حديثة اتخذها التركمان وأسواقها حسان ومساجدها في نهاية من الاتقان وقاضيها بدر الدين العسقلاني وكانت مدينة قنسرين قديمة كبيرة ثم خربت ولم يبق الارسومها ثم سافرت الي مدينة

انطاكية وهي مدينة عظيمة أصلية وكان عليها سور محكم لا نظير له في أسوار بلاد الشام فلما فتحها الملك الظاهر هدم سورها وانطاكية كثير العمارة ودورها حسنة البناء كثيرة الاشجار والمياه وبخارجها نهر العاصي وبها قبر حبيب النجار رضى الله عنه وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر شيخها الصالح المعمر محمد بن على سنه ينيف على المائة وهو ممتع بقوته دخلت عليه مرة في بستان له وقد جمع حطبا ورفعه على كاهله ليأتي به منزله بالمدينة ورأيت ابنه قد أناف على الثمانين الا انه محدودب الظهر لا يستطيع النهوض ومن يراهما يظن الوالد منهما ولدا والولد والدا ثم سافرت الى حصن بغراس (وضبط اسمه بباء موحدة مضمومة وغين معجمة مسكنة وراء وآخره سين مهمل) وهو حصن منيع لا يرام عليه البساتين والمزارع ومنه يدخل الي بلاد سيس وهي بلاد كفار الارمن وهم رعية للملك الناصر يؤدون اليه مالا ودراهمهم فضة خالصة تعرف بالبغلية وبها تصنع الثياب الدبيزية وأمير هذا الحصن صارم الدين بن الشيباني وله ولد فاضل اسمه علاء الدين وابن أخ اسمه حسام الدين فاضل كريم يسكن الموضع المعروف بالرصص (بضم الراء والصاد المهمل الاول) ويحفظ الطريق الي بلاد الارمن

﴿حكاية﴾

شكى الارمن مرة الى الملك الناصر بالامير حسام الدين وزوروا عليه امورا لا تليق فنفذ أمره لامير الامراء بحلب ان يخنقه فلما توجه الامير بلغ ذلك صديقا له من كبار الامراء فدخل على الملك الناصر وقال يا خوند ان الامير حسام الدين هو من خيار الامراء ينصح للمسلمين ويحفظ الطريق وهو من الشجعان والارمن يريدون الفساد في بلاد المسلمين فيمنعهم ويقهرهم وانما أرادوا اضعاف شوكة المسلمين بقتله ولم يزل به حتى أنفذ أمرا ثانيا بسراحه والخلع عليه ورده لموضعه ودعا الملك الناصر بريديا يعرف بالاقوش وكان لا يبعث الا في مهم وأمره بالاسراع والجد في السير فسار من مصر الي حلب في خمس وهي مسيرة شهر فوجد أمير حلب قد أحضر حسام الدين وأخرجه الى الموضع الذي يخنق به الناس فخلصه الله تعالى وعاد الي موضعه ولقيت هذا الامير ومعه قاضي بغراس شرف الدين الحموي بموضع يقال له العمق متوسط بين انطاكية

وتيزين وبغراس ينزله التركمان بمواشيهم لخصبه وسعته ثم سافرت الى حصن القصير تصغير قصر وهو حصن حسن أميره علاء الدين الكردى وقاضيه شهاب الدين الارمنتي من أهل الديار المصرية ثم سافرت الى حصن الشغر بكاس (وضبط اسمه بضم الشين المعجم واسكان الغين المعجم وضم الراء والباء الموحدة وآخره سين مهمل) وهو منيع في رأس شاهق أميره سيف الدين الطنطاش فاضل وقاضيه جمال الدين بن شجرة من أصحاب ابن التيمية ثم سافرت الى مدينة صهيون وهى حسنة بها الانهار المطردة والاشجار المورقة ولها قلعة جيدة وأميرها يعرف بالابراهيمي وقاضيها محيي الدين الحمصى وبخارجها زاوية فى وسط بستان فيها الطعام للوارد والصادر وهى على قبر الصالح العابد عيسى البدوى رحمه الله وقد زرت قبره ثم سافرت منها فمررت بحصن القدموس (وضبط اسمه بفتح القاف واسكان الدال المهمل وضم الميم وآخره سين مهمل) ثم بحصن المينقة (وضبط اسمه بفتح الميم واسكان الياء وفتح النون والقاف) ثم بحصن العليقة واسمه على لفظ واحدة العليق ثم بحصن مصياف (وصاده مهملة) ثم بحصن الكهف وهذه الحصون لطائفة يقال لهم الاسماعيلية ويقال لهم الفداوية ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم وهم سهام الملك الناصر بهم يصيب من يعدو عنه من أعدائه بالعراق وغيرها ولهم المرتبات واذا أراد السلطان ان يبعث أحدهم الى اغتيال عدو له أعطاه ديته فان سلم بعد تأتي ما يراد منه فهي له وان أصيب فهي لولده ولهم سكاكين مسمومة يضربون بها من بعثوا الى قتله وربما لم تصح حيلهم فقتلوا كما جرى لهم مع الامير قراسنقور فانه لما هرب الى العراق بعث اليه الملك الناصر جملة منهم فقتلوا ولم يقدروا عليه لاخذه بالحزم

(حكاية)

كان قراسنقور من كبار الامراء وممن حضر قتل الملك الاشرف أخى الملك الناصر وشارك فيه ولما تمهد الملك للملك الناصر وقر به القرار واشتدت أواخي سلطانه جعل يتتبع قتلة اخيه فيقتلهم واحدا واحدا اظهارا للاخذ بثار أخيه وخوفا أن يتجاسروا عليه بما تجاسروا على أخيه وكان قراسنقور أمير الامراء بحلب فكتب الملك الناصر الى جميع الامراء أن ينفروا بعساكرهم وجعل لهم ميعادا يكون فيه اجتماعهم بحلب ونزولهم

عليها حتى يقبضوا عليه فلما فعلوا ذلك خاف قراسنقور على نفسه وكان له ثمانمائة مملوك فركب فيهم وخرج على العساكر صباحا فاخترقهم وأعجزهم سبقا وكانوا في عشرين ألفاً وقصد منزل أمير العرب مهنا بن عيسى وهو على مسيرة يومين من حلب وكان مهنا في قنص له فقصد بيته ونزل عن فرسه وأتى العمامة في عنق نفسه ونادى الجوار يا أمير العرب وكانت هنالك أم الفضل زوج مهنا وبنت عمه فقالت له قد أجرناك وأجرنا من معك فقال إنما أطلب أولادي ومالي فقالت له لك ما تحب فانزل في جوارنا ففعل ذلك وأتى مهنا فأحسن نزله وحكمه في ماله فقال إنما أحب أهلي ومالي الذي تركته بحلب فدعا مهنا باخوته وبني عمه فشاورهم في أمره فمنهم من أجابه الى ما أراد ومنهم من قال له كيف نحارب الملك الناصر ونحن في بلاده بالشام فقال لهم مهنا أما أنا فأفعل لهذا الرجل ما يريده وأذهب معه الى سلطان العراق وفي أثناء ذلك ورد عليهم الخبر بأن أولاد قراسنقور سيروا على البريد الى مصر فقال مهنا لقراسنقور أما أولادك فلا حيلة فيهم وأما مالك فنجتهد في خلاصه فركب فيمن أطاعه من أهله واستنفر من العرب نحو خمسة وعشرين ألفا وقصدوا حلب فأحرقوا باب قلعتها وتغلبوا عليها واستخلصوا منها مال قراسنقور ومن بقي من أهله ولم يتعدوا الى سوى ذلك وقصدوا ملك العراق وصحبهم أمير حمص الأفرم ووصلوا الى الملك محمد خدابنده سلطان العراق وهو بموضع مصيفه المسمى قراباغ (بفتح القاف والراء والباء الموحدة والغين المعجمة) وهو ما بين السلطانية وتبريز فأكرم نزلهم وأعطى مهنا عراق العرب وأعطى قراسنقور مدينة مراغة من عراق العجم وتسمى دمشق الصغيرة وأعطى الأفرم همدان وأقاموا عنده مدة مات فيها الأفرم وعاد مهنا الى الملك الناصر بعد مواثيق وعهود أخذها منه وبقي قراسنقور على حاله وكان الملك الناصر يبعث له الفداوية مرة بعد مرة فمنهم من يدخل عليه داره فيقتل دونه ومنهم من يرمي بنفسه عليه وهو راكب فيضربه وقتل بسببه من الفداوية جماعة وكان لا يفارق الدرع أبداً ولا ينام الا في بيت العود والحديد فلما مات السلطان محمد وولي ابنه أبو سعيد وقع ما سنذكره من أمر الجوبان كبير أمرائه وفرار ولده

الدمرطاش الي الملك الناصر ووقعت المراسلة بين الملك الناصر وبين ابي سعيد واتفقا علي أن يبعث أبو سعيد الى الملك الناصر برأس قراسنقور ويبعث اليه الملك الناصر برأس الدمرطاش فبعث الملك الناصر برأس الدمرطاش الى أبي سعيد فلما وصله أمر بحمل قراسنقور اليه فلما عرف قراسنقور بذلك أخذ خاتما كان له مجوفا في داخله سم ناقع فنزع فصه وامتص ذلك السم فمات لحينه فعرف أبو سعيد بذلك الملك الناصر ولم يبعث له برأسه ثم سافرت من حصون الفداوية الي مدينة جبلة وهي ذات أنهار مطردة وأشجار والبحر على نحو ميل منها وبها قبر الولي الصالح الشهير ابراهيم بن أدهم رضي الله عنه وهو الذي نبذ الملك وانقطع الى الله تعالى حسبما شهر ذلك ولم يكن ابراهيم من بيت ملك كما يظنه الناس انما ورث الملك عن جده أبي أمه وأما أبوه أدهم فكان من الفقراء الصالحين السائحين المتعبدين الورعين المنقطعين

﴿حكاية أدهم﴾

يذكر انه مر ذات يوم ببساتين مدينة بخارى وتوضأ من بعض الأنهار التي تتخللها فاذا بتفاحة يحملها ماء النهر فقال هذه لاخطر لها فأكلها ثم وقع في خاطره من ذلك وسواس فعزم على أن يستحل من صاحب البستان فقرع باب البستان فخرجت اليه جارية فقال لها ادعي لي صاحب المنزل فقالت انه لامرأة فقال استأذني لي عليها ففعلت فأخبر المرأة بخبر التفاحة فقالت له ان هذا البستان نصفه لي ونصفه للسلطان والسلطان يومئذ ببلخ وهي مسيرة عشرة من بخارى وأحلته المرأة من نصفها وذهب الى بلخ فاعترض السلطان في موكبه فأخبره الخبر واستحله فأمره أن يعود اليه من الغد وكان للسلطان بنت بارعة الجمال قد خطبها ابناء الملوك فتمنعت وحببت اليها العبادة وحب الصالحين وهي تحب أن تتزوج من ورع زاهد في الدنيا فلما عاد السلطان الى منزله أخبر بنته بخبر أدهم وقال ما رأيت أورع من هذا يأتي من بخاري الى بلخ لاجل نصف تفاحة فرغبت في تزوجه فلما أتاه من الغد قال لا أحلك الا أن تتزوج بنتي فانقاد لذلك بعد استعصاء وتمنع فتزوج منها فلما دخل عليها وجدها متزينة والبيت مزين بالفرش وسواها فعمد الى ناحية من البيت وأقبل على

٩٠٢٢

صلاته حتى أصبح ولم يزل كذلك سبع ليال وكان السلطان ما أحله قبل فبعث اليه أن يحله فقال لا أحلك حتى يقع اجتماعك بزوجتك فلما كان الليل واقعها ثم اغتسل وقام الى الصلاة فصاح صيحة وسجد في مصلاه فوجد ميتاً رحمه الله وحملت منه فولدت ابراهيم ولم يكن لجده ولد فأسند الملك اليه وكان من تخليه عن الملك ما اشتهر وعلى قبر ابراهيم ابن أدهم زاوية حسنة فيها بركة ماء وبها الطعام للوارد والصادر وخادمها ابراهيم الجمحي من كبار الصالحين والناس يقصدون هذه الزاوية ليلة النصف من شعبان من سائر أقطار الشام ويقيمون بها ثلاثاً ويقوم بها خارج المدينة سوق عظيم فيه من كل شيء ويقدم الفقراء المتجردون من الآفاق بحضور هذا الموسم وكل من يأتي من الزوار لهذه التربة يعطي لخادمها شمعة فيجتمع من ذلك قناطير كثيرة وأكثر أهل هذه السواحل هم الطائفة النصيرية الذين يعتقدون أن علي بن أبي طالب اله وهم لا يصلون ولا يتطهرون ولا يصومون وكان الملك الظاهر ألزمهم بناء المساجد بقراهم فبنوا بكل قرية مسجداً بعيداً عن العمارة ولا يدخلونه ولا يعمرونه وربما آوت اليه مواشيهم ودوابهم وربما وصل الغريب اليهم فينزل بالمسجد ويؤذن للصلاة فيقولون له لا تنهق علفك يأتيك وعددهم كثير

(حكاية)

ذكر لي أن رجلاً مجهولاً وقع بين هذه الطائفة فادعى الهداية وتكاثروا عليه فوعدهم بملك البلاد وقسم بينهم بلاد الشام وكان يعين لهم البلاد ويأمرهم بالخروج اليها ويعطيهم من ورق الزيتون ويقول لهم استظهروا بها فانها كالاوامر لكم فاذا خرج أحدهم الى بلد أحضره أميرها فيقول له ان الامام المهدي أعطاني هذا البلد فيقول له أين الامر فيخرج ورق الزيتون فيضرب ويحبس ثم انه أمرهم بالتجهز لقتال المسلمين وأن يبدؤا بمدينة جبلة وأمرهم أن يأخذوا عوض السيوف قضبان الآس ووعدهم أنها تصير في أيديهم سيوفاً عند القتال فغدروا مدينة جبلة وأهلها في صلاة الجمعة فدخلوا الدور وهتكوا الحريم وثار المسلمون من مساجدهم فأخذوا السلاح وقتلوهم كيف شاؤا واتصل الخبر باللاذقية فاقبل أميرها بهادر عبد الله بعسكره وطيرت الحمام الى طرابلس

فاتى أمير الامراء بعساكره واتبعوهم حتى قتلوا منهم نحو عشرين ألفا وتحصن الباقون بالجبال وراسلوا ملك الامراء والتزموا ان يعطوه دينارا عن كل رأس ان هو حاول ابقاءهم وكان الخبر قد طير به الحمام الى الملك الناصر وصدر جوابه ان يحمل عليهم السيف فراجعه ملك الامراء وألقى له انهم عمال المسلمين في حراثة الارض وانهم ان قتلوا اضعف المسلمون لذلك فأمر بالابقاء عليهم ثم سافرت الى مدينة اللاذقية وهي مدينة عتيقة على ساحل البحر يزعمون انها مدينة الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصبا وكنت انما قصدتها لزيارة الولي الصالح عبد المحسن الاسكندري فلما وصلتها وجدته غائبا بالحجاز الشريف فلقيت من أصحابه الشيخين الصالحين سعيد البجائي ويحيي السلاوى وهما بمسجد علاء الدين بن البهاء احد فضلاء الشام وكبرائها صاحب الصدقات والمكارم وكان قد عمر لهما زاوية بقرب المسجد وجعل بها الطعام للوارد والصادر وقاضيها الفقيه الفاضل جلال الدين عبد الحق المصري المالكي فاضل كريم تعلق بطيلان ملك الأمراء فولاه قضاءها

حكاية

كان باللاذقية رجل يعرف بابن المؤيد هجاء لا يسلم أحد من لسانه متهم في دينه مستخف يتكلم بالقبائح من الالحاد فعرضت له حاجة عند طيلان ملك الامراء فلم يقضها له فقصد مصر وتقول عليه أمورا شنيعة وعاد الى اللاذقية فكتب طيلان الى القاضي جلال الدين ان يحيل في قتله بوجه شرعي فدعاه القاضي الى منزله وباحثه واستخرج كامن الحاده فتكلم بعظائم أيسرها يوجب القتل وقد أعد القاضي الشهود خلف الحجاب فكتبوا عقدا بمقاله وثبت عند القاضي وسجن واعلم ملك الامراء بقضيته ثم أخرج من السجن وخنق على بابه ثم لم يلبث ملك الامراء طيلان ان عزل عن طرابلس ووليها الحاج قرطية من كبار الامراء وممن تقدمت له فيها الولاية وبينه وبين طيلان عداوة فجعل يتبع سقطاته وقام لديه اخوة ابن المؤيد شاكين من القاضي جلال الدين فامر به وبالشهود الذين شهدوا على ابن المؤيد فاحضروا وأمر بخنقهم وأخرجوا الى ظاهر المدينة حيث يخنق الناس وأجلس

كل واحدمنهـم تحت حنتقه ونزعت عمائمهـم ومن عادة أمراء تلك البلاد انه متى أمر أحدهم بقتل أحد من الناس يمر الحاكم من مجلس الامير سبقا على فرسه الى حيث المأمور بقتله ثم يعود الى الامير فيكرر استئذانه يفعل ذلك ثلاثا فاذا كان بعـد الثلاث أنفذ الامر فلما فعـل الحاكم ذلك قامت الامراء في المرة الثالثـة وكشفوا رؤسهم وقالوا أيها الامير هذه سبة في الاسلام بقتل القاضي والشهود فقبل الامير شفاعتهـم وخلى سبيلهم وبخارج اللاذقيـة الدير المعروف بدير الفاروص وهو أعظـم دير بالشام ومصر يسكنه الرهبان ويقصده النصارى من الآفاق وكل من نزل به من المسلمين فالنصارى يضيفونه وطعامهم الخبز والجبن والزيتون والخـل والكبر وميناء هـذه المدينة عليها سلسلة بين برجين لا يدخلها أحـد ولا يخرج منها حتى تحط له السلسلة وهي من أحسـن المراسي بالشام ثم سافرت الى حصـن المرقب وهو من الحصون العظيمة يماثل حصن الكرك ومبناه على جبل شامخ وخارجه ربض ينزله الغرباء ولا يدخلون قلعته وافتتحه من أيدي الروم الملك المنصور قلاوون وعليـه ولد ابنه الملك الناصر وكان قاضـيه برهان الدين المصري من أفاضـل القضاة وكرمائهم ثم سافرت الى الجبل الاقرع وهو أعلى جبـل بالشام وأول ما يظهر منها من البحر وسكانه التركمان وفيه العيون والانهار وسافرت منه الى جبـل لبنان وهو من أخصب جبال الدنيا فيه أصناف الفواكه وعيون الماء والظلال الوافرة ولا يخلو من المنقطعين الى الله تعـالى والزهاد والصالحين وهو شهير بذلك ورأيت به جمـاعة من الصالحين قد انقطعوا الى الله تعالى ممن لم يشتهر اسمه

حكاية

أخبرني بعض الصالحين الذين لقيتهم به قال كنا بهذا الجبل مع جمـاعة من الفقراء في أيام البرد الشديد فأوقدنا نارا عظيمة وأحدقنا بها فقال بعض الحاضرين يصلح لهذه النار ما يشوي فيها فقال أحد الفقراء ممن تزدريه الاعين ولا يعبأ به اني كنت عند صلاة العصر بمتعبد ابراهيم ابن ادهم فرأيت بقربة منه حمار وحش قد أحدق الثلج به من كل جانب وأظنه لا يقدر على الحراك فلو ذهبتم اليه لقدرتم عليـه وشويتم لحمه في هـذه النار قال فقمنا اليه في خمسـة رجال فالفيناه كما وصـف لنا فقبضناه وأتينا به أصحابنا وذبحناه وأشوينا لحمه في تلك النـار

وطلبنا الفقير الذى نبه عليه فلم نجده ولا وقفنا له علي أثر نطال عجبنا منه ثم وصلنا من جبل لبنان الي مدينة بعلبك وهى حسنة قديمة من أطيب مدن الشام تحدق بها البساتين الشريفه والجنات المنيفه وتخترق ارضها الانهار الجاريه وتضاهي دمشق فى خيراتها المتناهيه وبها من حب الملوك ماليس في سواها وبها يصنع الدبس المنسوب اليها وهو نوع من الرب يصنعونه من العنب ولهم تربة يضعونها فيه فيجمد وتكسر القلة التي يكون بها فيبقى قطعة واحدة وتصنع منه الحلواء ويجعل فيها الفستق واللوز ويسمون حلواءه بالملبن ويسمونها أيضا بجلد الفرس وهى كثيرة الالبان وتجلب منها الي دمشق وبينهما مسيرة يوم للمجد وأما الرفاق فيخرجون من بعلبك فيبيتون ببلدة صغيرة تعرف بالزبداني كثيرة الفواكه ويغدون منها الي دمشق ويصنع ببعلبك الثياب المنسوبة اليها من الاحرام وغيره ويصنع بها أواني الخشب وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد وهم يسمون الصحاف بالدسوت وربما صنعوا الصحفة وصنعوا صحفة أخرى تسع فى جوفها وأخرى فى جوفها الي ان يبلغوا العشرة يخيل لرائيها انها صحفة واحدة وكذلك الملاعق يصنعون منها عشرة واحدة في جوف واحدة ويصنعون لها غشاء من جلد ويمسكها الرجل في حزامه واذا حضر طعاما مع أصحابه أخرج ذلك فيظن رائيه انها ملعقة واحدة ثم يخرج من جوفها تسعة وكان دخولي لبعلبك عشية النهار وخرجت منها بالغدو لفرط اشتياقي الى دمشق ووصلت يوم الخميس التاسع من شهر رمضان المعظم عام ستة وعشرين الى مدينة دمشق الشام فنزلت منها بمدرسة المالكية المعروفة بالشرابشية ودمشق هي التي تفضل جميع البلاد حسنا وتتقدمها جمالا وكل وصف وان طال فهو قاصر عن محاسنها ولا أبدع مما قاله أبو الحسين ابن جبير رحمه الله تعالى في ذكرها قال وأما دمشق فهي جنة المشرق ومطلع نورها المشرق وخاتمة بلاد الاسلام التي استقريناها وعروس المدن التي اجتليناها قد تحلت بأزاهير الرياحين وتجلت في حلل سندسية من البساتين وحلت من موضع الحسن بالمكان المكين وتزينت فى منصتها أجمل تزيين وتشرفت بأن آوى المسيح عليه السلام وأمه منها الي ربوة ذات قرار ومعين ظل ظليل وماء سلسبيل تنساب

مذانبه انسياب الاراقم بكل سبيل ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل وتناديهم هاموا الى معرس للحسن ومقيل وقد سئمت أرضها كثرة الماء حتي اشتاقت الى الظماء فتكاد تناديك بها الصم الصلاب أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب وقد أحدقت البساتين بها احداق الهالة بالقمر والاكمام بالثمر وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر وكل موضع لحظت بجهاتها الاربع نضرته اليانعة قيد البصر ولله صدق القائلين عنها ان كانت الجنة في الارض فدمشق لاشك فيها وان كانت في السماء فهي تساميها وتحاذيها قال ابن جزى وقد نظم بعض شعرائها في هذا المعنى فقال (خفيف)

ان تكن جنة الخلود بأرض * فدمشق ولا تكون سواها
أو تكن في السماء فهي عليها * قد أبدت هواءها وهواها
بلد طيب ورب غفور * فاغتنمها عشية وضحاها

وذكر شيخنا المحدث الرحال شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر بن حسان القيسي الوادي أشي نزيل تونس ونص كلام ابن جبير ثم قال ولقد أحسن فيما وصف منها وأجاد وتوق الأنفس للتطلع على صور تها بما أفاد هذا وان لم تكن له بها اقامه فيعرب عنها بحقيقة علامه ولا وصف ذهبيات أصيلها وقد حان من الشمس غروبها ولا ازمان جفولها المنوعات ولا أوقات سرورها المنبهات وقد اختصر من قال الفيتها كما تصف الألسن وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين قال ابن جزي والذى قالته الشعراء في وصف محاسن دمشق لا يحصر كثرة وكان والدى رحمه الله كثيرا ما ينشد في وصفها هذه الابيات وهي لشرف الدين بن محسن رحمه الله تعالي (طويل)

دمشق بنا شوق اليها مبرح * وان لج واش أو ألح عذول
بلاد بها الحصباء درو تربها * عبير وأنفاس الشمال شمول
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق * وصح نسيم الروض وهو عليل

وهذا من النمط العالي من الشعر وقال فيها عرقلة الدمشقي الكلبي (كامل)

الشام شامة وجنة الدنيا كما * انسان مقلتها الغضيضة جلق
من آسهالك جنة لاتنقضي * ومن الشقيق جهنم لاتحرق

وقال أيضا فيها (بسيط)

اما دمشق فجنات معجلة * للطالبين بها الولدان والحور
ماصاح فيها على أوتاره قمر * الا يغنيه قمري وشحرور
ياحبذا ودروع الماء تنسجها * أنامل الريح الا انها زور

وله فيها أشعار كثيرة سوى ذلك وقال فيها أبو الوحش سبع بن خلف الاسدى (رجز)

سقى دمشق الله غيثا محسنا * من مستهل ديمة دهاقها
مدينة ليس يضاهى حسنها * في سائر الدنيا ولا آفاقها
تود زوراء العراق انها * منها ولا تعزى الى عراقها
فأرضها مثل السماء بهجة * وزهرها كالزهر في اشراقها
نسيم روضها متى ماقد سرى * فك أخا الهموم من وثاقها
قد رتع الربيع في ربوعها * وسيقت الدنيا الى أسواقها
لا تسأم العيون والانوف من * رؤيتها يوما ولا استنشاقها

ومما يناسب هذا القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني فيها من قصيدة وقد نسبت أيضا لابن المنير (كامل)

يابرق هل لك في احتمال تحية * عذبت فصارت مثل مائك سلسلا
باكر دمشق بعشق اقلام الحيا * زهر الرياض مرصعا ومكللا
واجرر بجيرن ذيولك واختصص * مغنى تأزر بالعلا وتسربلا
حيث الحيا الربعي محلول الحبا * والوابل الرفعي مفرى الكلا

وقال فيها أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد العنسي الغرناطي المدعو نور الدين (بسيط)

دمشق منزلنا حيث النعيم بدا * مكملا وهو فى الآفاق مختصر
القصب راقصة والطير صادحة * والزهر مرتفع والماء منحدر

وقد تجلت من اللذات أوجهها * لكنها بظلال الدوح تستتر
وكل وادبه موسى يفجره * وكل روض على حافاته الخضر

وقال أيضا فيها (بسيط)

خيم بجلق بين الكأس والوتر * في جنة هي ملء السمع والبصر
ومتع الطرف في مرأى محاسنه * وروض الفكر بين الروض والنهر
وانظر الى ذهبيات الاصيل بها * واسمع الى نغمات الطير في الشجر
وقل لمن لام في لذاته بشرا * دعني فانك عندي من سوى البشر

وقال فيها أيضا (كامل)

أما دمشق فجنة * ينسي بها الوطن الغريب
لله أيام السبو * ت بها ومنظرها العجيب
انظر بعينك هل تري * الا محبا أو حبيب
في موطن غنى الحما * م به على رقص القضيب
وغدت ازاهر روضه * تختال في فرح وطيب

وأهل دمشق لا يعملون يوم السبت عملا انما يخرجون الى المتنزهات وشطوط الانهار ودوحات الاشجار بين البساتين النضيرة والمياه الجارية فيكونون بها يومهم الى الليل وقد طال بنا الكلام في محاسن دمشق فلنرجع الى كلام الشيخ ابي عبد الله

﴿ذكر جامع دمشق المعروف بجامع بني أمية﴾

وهو أعظم مساجد الدنيا احتفالا وأتقنها صناعة وابدعها حسنا وبهجة وكمالا ولا يعلم له نظير ولا يوجد له شبيه وكان الذي تولى بناءه واتقانه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان ووجه الى ملك الروم بقسطنطينية يأمره ان يبعث اليه الصناع فبعث اليه اثنى عشر الف صانع وكان موضع المسجد كنيسة فلما افتتح المسلمون دمشق دخل خالد بن الوليد رضي الله عنه من احدى جهاتها بالسيف فانتهي الى نصف الكنيسة ودخل أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه من الجهة الغربية صلحا فانتهي الى نصف الكنيسة فصنع المسلمون

من نصف الكنيسة الذي دخلوه عنوة مسجداً وبقي النصف الذي صالحوا عليه كنيسة
فلما عزم الوليد على زيادة الكنيسة في المسجد طلب من الروم ان يبيعوا منه كنيستهم
تلك بما شاؤا من عوض فأبوا عليه فانتزعها من أيديهم وكانوا يزعمون ان الذي يهدمها
يجن فذكروا ذلك للوليد فقال انا اول من يجن في سبيل الله وأخذ الفأس وجعل يهدم
بنفسه فلما رأى المسلمون ذلك تتابعوا على الهدم وأكذب الله زعم الروم وزين هذا
المسجد بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء تخالطها أنواع الاصبغة الغريبة الحسن
وذرع المسجد في الطول من الشرق الى الغرب مائتا خطوة وهي ثلاثمائة ذراع وعرضه
من القبلة الى الجوف مائة وخمس وثلاثون خطوة وهي مائتا ذراع وعدد شمسات الزجاج
الملونة التي فيه أربع وسبعون وبلاطاته ثلاثة مستطيلة من شرق الى غرب سعة كل بلاط
منها ثماني عشرة خطوة وقد قامت على أربع وخمسين سارية وثماني أرجل جصية
تتخللها وست أرجل مرخمة مرصعة بالرخام الملون قد صور فيها أشكال محاريب وسواها
وهي تقل قبة الرصاص التي امام المحراب المسماة بقبة النسر كأنهم شبهوا المسجد نسرا
طائرا والقبة رأسه وهي من أعجب مباني الدنيا ومن أي جهة استقبلت المدينة بدت لك
قبة النسر ذاهبة في الهواء منيفة على جميع مباني البلد وتستدير بالصحن بلاطات ثلاثة من
جهاته الشرقية والغربية والجوفية سعة كل بلاط منها عشر خطا وبها من السواري ثلاث
وثلاثون ومن الارجل أربع عشرة وسعة الصحن مائة ذراع وهو من أجمل المناظر
وأتمها حسنا وبه يجتمع أهل المدينة بالعشايا فمن قارئ ومحدث وذاهب ويكون انصرافهم
بعد العشاء الاخيرة واذا لقي أحد كبرائهم من الفقهاء وسواهم صاحبا له اسرع كل منهما
نحو صاحبه وحط رأسه وفي هذا الصحن ثلاث من القباب احداها في غربيه وهي
أكبرها وتسمى قبة عائشة أم المؤمنين وهي قائمة على ثمان سوارى من الرخام مزخرفة
بالفصوص والاصبغة الملونة مسقفة بالرصاص يقال ان مال الجامع كان يختزن بها وذكر لي
ان فوائد مستغلات الجامع ومجابيه نحو خمسة وعشرين الف دينار ذهبا في كل سنة والقبة
الثانية من شرقي الصحن علي هيئة الاخرى الا انها أصغر منها قائمة على ثمان من سواري

الرخام وتسمي قبة زين العابدين والقبة الثالثة في وسط الصحن وهي صغيرة مثمنة من رخام عجيب محكم الالصاق قائمة على أربع سوارى من الرخام الناصع وتحتها شباك حديد في وسطه أنبوب نحاس يمج الماء الى علو فيرتفع ثم ينثنى كأنه قضيب لجين وهم يسمونه قفص الماء ويستحسن الناس وضع افواههم فيه للشرب وفي الجانب الشرقي من الصحن باب يفضى الى مسجد بديع الوضع يسمي مشهد على بن أبي طالب رضي الله عنه ويقابله من الجهة الغربية حيث يلتقي البلاطان الغربي والجوفى موضع يقال ان عائشة رضى الله عنها سمعت الحديث هنالك وفى قبلة المسجد المقصورة العظمي التي يؤم فيها امام الشافعية وفي الركن الشرقي منها ازاء المحراب خزانة كبيرة فيها المصحف الكريم الذي وجهه أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه الي الشام وتفتح تلك الخزانة كل يوم جمعة بعد الصلاة فيزدحم الناس على لثم ذلك المصحف الكريم وهنالك يحلف الناس غرماءهم ومن ادعوا عليه شيأ وعن يسار المقصورة محراب الصحابة ويذكر أهل التاريخ انه اول محراب وضع في الاسلام وفيه يؤم امام المالكية وعن يمين المقصورة محراب الحنفية وفيه يؤم امامهم ويليه محراب الحنابلة وفيه يؤم امامهم ولهذا المسجد ثلاث صوامع احداها بشرقيه وهي من بناء الروم وبابها داخل المسجد وباسفلها مطهرة وبيوت للوضوء يغتسل فيها المعتكفون والملتزمون للمسجد ويتوضؤن والصومعة الثانية بغربيه وهي أيضاً من بناء الروم والصومعة الثالثة بشماله وهي من بناء المسلمين وعدد المؤذنين به سبعون مؤذنا وفي شرقي المسجد مقصورة كبيرة فيها صهريج ماء وهي لطائفة الزيالمة السودان وفي وسط المسجد قبر زكريا عليه السلام وعليه تابوت معترض بين اسطوانتين مكسو بثوب حرير اسود معلم فيه مكتوب بالابيض (يازكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيي) وهذا المسجد شهير الفضل وقرأت في فضائل دمشق عن سفيان الثوري ان الصلاة في مسجد دمشق بثلاثين ألف صلاة وفى الاثر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يعبد الله فيه بعد خراب الدنيا اربعين سنة ويقال ان الجدار القبلى منه وضعه نبي الله هود عليه السلام وان قبره به وقد رأيت على مقربة من مدينة ظفار اليمن بموضع يقال له الاحقاف بنية فيها قبر مكتوب

عليه هذا قبر هود بن عابر صلى الله عليه وسلم ومن فضائل هذا المسجد انه لا يخلو من قراءة القرآن والصلاة الا قليلا من الزمان كما سنذكره والناس يجتمعون به كل يوم اثر صلاة الصبح فيقرؤن سبعا من القرآن ويجتمعون بعد صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية يقرؤن فيها من سورة الكوثر الى آخر القرآن وللمجتمعين على هذه القراءة مرتبات تجرى لهم وهم نحو ستمائة انسان ويدور عليهم كاتب الغيبة فمن غاب منهم قطع له عند دفع المرتب بقدر غيبته وفى هذا المسجد جماعة كثيرة من المجاورين لا يخرجون منه مقبلون على الصلاة والقراءة والذكر لا يفترون عن ذلك ويتوضؤن من المطاهر التي بداخل الصومعة الشرقية التي ذكرناها وأهل البلد يعينونهم بالمطاعم والملابس من غير أن يسألوهم شيأ من ذلك وفي هذا المسجد أربعة أبواب باب قبلي يعرف بباب الزيادة وباعلاه قطعة من الرمح الذي كانت فيه راية خالد بن الوليد رضي الله عنه ولهذا الباب دهليز كبير متسع فيه حوانيت السقاطين وغيرهم ومنه يذهب الي دار الخيل وعن يسار الخارج منه سماط الصفارين وهي سوق عظيمة ممتدة مع جدار المسجد القبلي من أحسن اسواق دمشق وبموضع هذه السوق كانت دار معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه ودور قومه وكانت تسمى الخضراء فهدمها بنو العباس رضي الله عنهم وصار مكانها سوقا وباب شرقي وهو أعظم أبواب المسجد ويسمي بباب جيرون وله دهليز عظيم يخرج منه الى بلاط عظيم طويل امامه خمسة أبواب لها ستة أعمدة طوال وفي جهة اليسار منه مشهد عظيم كان فيه رأس الحسين رضى الله عنه وبازائه مسجد صغير ينسب الى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وبه ماء جار وقد انتظمت امام البلاط درج ينحدر فيها الى الدهليز وهو كالخندق العظيم يتصل بباب عظيم الارتفاع تحته اعمدة كالجذوع طوال وبجانبي هذا الدهليز أعمدة قد قامت عليها شوارع مستديرة فيها دكاكين البزازين وغيرهم وعليها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكتبيين وصناع أواني الزجاج العجيبة وفى الرحبة المتصلة بالباب الاول دكاكين لكبار الشهود منها دكانان للشافعية وسائرها لاصحاب المذاهب يكون فى

الذ كان منها الخمسة والستة من العدول والعاقد للانكحة من قبل القاضي وسائر الشهود مفترقون في المدينة وبعقربة من هذه الدكاكين سوق الوراقين الذين يبيعون الكاغد والاقلام والمداد وفي وسط الدهليز المذكور حوض من الرخام كبير مستدير عليه قبة لا سقف لها تقلها أعمدة رخام وفي وسط الحوض أنبوب نحاس يزعج الماء بقوة فيرتفع في الهواء أزيد من قامة الانسان يسمونه الفوارة منظره عجيب وعن يمين الخارج من باب جيرون وهو باب الساعات غرفة لها هيئة طاق كبير فيه طيقان صغار مفتحة لها أبواب على عدد ساعات النهار والابواب مصبوغ باطنها بالخضرة وظاهرها بالصفرة فاذا ذهبت ساعة من النهار انقلب الباطن الاخضر ظاهرا والظاهر الاصفر باطنا ويقال ان بداخل الغرفة من يتولى قلبها بيده عند مضي الساعات والباب الغربي يعرف بباب البريد وعن يمين الخارج منه مدرسة للشافعية وله دهليز فيه حوانيت للشماعين وسماط لبيع الفواكه وباعلاه باب يصعد اليه في درج له اعمدة سامية في الهواء وتحت الدرج سقايتان عن يمين وشمال مستديرتان والباب الجوفي يعرف بباب النطفانيين وله دهليز عظيم وعن يمين الخارج منه خانقاه تعرف بالشميعانية في وسطها صهريج ماء ولها مطاهر يجري فيها الماء ويقال انها كانت دار عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وعلى كل باب من أبواب المسجد الاربعة دار وضوء يكون فيها نحو مائة بيت تجري فيها المياه الكثيرة

﴿ذكر الائمة بهذا المسجد﴾

وائمته ثلاثة عشر اماما أولهم امام الشافعية وكان في عهد دخولي اليها امامهم قاضي القضاة جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني من كبار الفقهاء وهو الخطيب بالمسجد وسكناه بدار الخطابة ويخرج من باب الحديد ازاء المقصورة وهو الباب الذي كان يخرج منه معاوية رضي الله عنه وقد تولى جلال الدين بعد ذلك قضاء القضاة بالديار المصرية بعد ان أدى عنه الملك الناصر نحو مائة الف درهم كانت عليه دينا بدمشق واذا سلم امام الشافعية من صلاته أقام الصلاة امام مشهد علي ثم امام مشهد الحسين ثم امام الكلاسة ثم امام مشهد أبي بكر ثم امام مشهد عمر ثم امام مشهد عثمان رضى الله عنهم اجمعين ثم امام المالكية وكان امامهم

في عهد دخولي اليها الفقيه أبو عمر بن أبي الوليد بن الحاج التجيبي القرطبي الاصل الغرناطي المولد نزيل دمشق وهو يتناوب الامامة مع أخيه رحمهما الله ثم امام الحنفية وكان امامهم في عهد دخولي اليها الفقيه عماد الدين الحنفي المعروف بابن الرومي وهو من كبار الصوفية وله شياخة الخانقاه الخاتونية وله أيضا خانقاه بالشرف الاعلى ثم امام الحنابلة وكان في ذلك العهد الشيخ عبد الله الكفيف أحد شيوخ القراءة بدمشق ثم بعد هؤلاء خمسة أئمة لقضاء الفوائت فلا تزال الصلاة في هذا المسجد من أول النهار الى ثلث الليل وكذلك قراءة القرآن وهذا من مفاخر هذا الجامع المبارك

﴿ذكر المدرسين والمعلمين به﴾

ولهذا المسجد حلقات التدريس في فنون العلم والمحدثون يقرؤن كتب الحديث على كراسي مرتفعة وقراء القرآن يقرؤن بالاصوات الحسنة صباحا ومساء وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم الى سارية من سوارى المسجد يلقن الصبيان ويقرئهم وهم لا يكتبون القرآن في الالواح تنزيها لكتاب الله تعالى وانما يقرؤن القرآن تلقينا ومعلم الخط غير معلم القرآن يعلمهم بكتب الاشعار وسواها فينصرف الصبي من التعليم الى التكتيب وبذلك جاد خطه لان المعلم للخط لا يعلم غيره ومن المدرسين بالمسجد المذكور العالم الصالح برهان الدين بن الفركح الشافعي ومنهم العالم الصالح نور الدين أبو اليسر بن الصائغ من المشتهرين بالفضل والصلاح ولما ولى القضاء بمصر جلال الدين القزويني وجه الى أبي اليسر الخلعة والامر بقضاء دمشق فامتنع من ذلك ومنهم الامام العالم شهاب الدين بن جهبل من كبار العلماء هرب من دمشق لما امتنع أبو اليسر من قضائها خوفا من أن يقلد القضاء فاتصل ذلك بالملك الناصر فولى قضاء دمشق شيخ الشيوخ بالديار المصرية قطب العارفين لسان المتكلمين علاء الدين القونوي وهو من كبار الفقهاء ومنهم الامام الفاضل بدر الدين على السخاوي المالكي رحمة الله عليهم أجمعين

﴿ذكر قضاة دمشق﴾

قدذكرنا قاضي القضاة الشافعي بها جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني واما قاضي المالكية فهو شرف الدين بن خطيب الفيوم حسن الصورة والهيئة من كبار الرؤساء وهو شيخ شيوخ الصوفية والنائب عنه في القضاء شمس الدين بن القفصي ومجلس حكمه بالمدرسة الصمصامية واما قاضي قضاة الحنفية فهو عماد الدين الحوراني وكان شديد السطوة واليه تحاكم النساء وأزواجهن وكان الرجل اذا سمع اسم القاضي الحنفي أنصف من نفسه قبل الوصول اليه وأما قاضي الحنابلة فهو الامام الصالح عز الدين بن مسلم من خيار القضاة يتصرف على حمار له ومات بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما لما توجه للحجاز الشريف

حكاية

وكان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقي الدين بن تيمية كبير الشام يتكلم في الفنون الا ان في عقله شيأ وكان أهل دمشق يعظمونه أشد التعظيم ويعظهم على المنبر وتكلم مرة بأمر انكره الفقهاء ورفعوه الى الملك الناصر فأمر باشخاصه الى القاهرة وجمع القضاة والفقهاء بمجلس الملك الناصر وتكلم شرف الدين الزواوي المالكي وقال ان هذا الرجل قال كذا وكذا وعدد ما أنكر على ابن تيمية وأحضر العقود بذلك ووضعها بين يدي قاضي القضاة وقال قاضي القضاة لابن تيمية ماتقول قال لا اله الا الله فاعاد عليه فأجاب بمثل قوله فأمر الملك الناصر بسجنه فسجن أعواما وصنف في السجن كتابا في تفسير القرآن سماه بالبحر المحيط في نحو أربعين مجلدا ثم ان أمه تعرضت للملك الناصر وشكت اليه فأمر باطلاقه الى ان وقع منه مثل ذلك ثانية وكنت اذ ذاك بدمشق فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم فكان من جملة كلامه ان قال ان الله ينزل الى سماء الدنيا كنزولي هذا ونزل درجة من درج المنبر فعارضه فقيه مالكي يعرف بابن الزهراء وانكر ماتكلم به فقامت العامة الى هذا الفقيه وضربوه بالايدي والنعال ضربا كثيرا حتى سقطت عمامته وظهر على رأسه شاشية حرير فانكروا عليه لباسها واحتملوه الى دار عز الدين بن مسلم قاضي الحنابلة فامر بسجنه وعزره بعد ذلك فانكر فقهاء المالكية والشافعية ما كان من تعزيره ورفعوا الامر الى ملك الامراء سيف الدين

تنكيز وكان من خيار الامراء وصلحائهم فكتب الى الملك الناصر بذلك وكتب عقدا شرعيا على ابن تيمية بامور منكرة منها ان المطلق بالثلاث في كلمة واحدة لا تلزمه الا طلقة واحدة ومنها المسافر الذى ينوي بسفره زيارة القبر الشريف زاده الله طيبا لا يقصر الصلاة وسوى ذلك مما يشبهه وبعث العقد الى الملك الناصر فامر بسجن ابن تيمية بالقلعة فسجن بها حتى مات في السجن

﴿ذكر مدارس دمشق﴾

اعلم ان للشافعية بدمشق جملة من المدارس أعظمها العادلية وبها يحكم قاضي القضاة وتقابلها المدرسة الظاهرية وبها قبر الملك الظاهر وبها جلوس نواب القاضي ومن نوابه فخر الدين القبطي كان والده من كتاب القبط وأسلم ومنهم جمال الدين بن جملة وقد تولى قضاء قضاة الشافعية بعد ذلك وعزل لامر أوجب عزله

﴿حكاية﴾

كان بدمشق الشيخ الصالح ظهير الدين العجمي وكان سيف الدين تنكيز ملك الامراء يتتلمذ له ويعظمه فحضر يوما بدار العدل عند ملك الامراء وحضر القضاة الاربعة فحكى قاضى القضاة جمال الدين بن جملة حكاية فقال له ظهير الدين كذبت فاغتاظ القاضي من ذلك وامتعض له فقال للامير كيف يكذبني بحضرتك فقال له الامير احكم عليه وسلمه اليه وظنه انه يرضي بذلك فلا يناله بسوء فأحضره القاضى بالمدرسة العادلية وضربه مائتي سوط وطيف به على حمار في مدينة دمشق ومناد ينادى عليه فمتى فرغ من ندائه ضربه على ظهره ضربة وهكذا العادة عندهم فبلغ ذلك ملك الامراء فأنكره أشد الانكار وأحضر القضاة والفقهاء فأجمعوا على خطا القاضى وحكمه بغير مذهبه فان التعزير عند الشافعي لا يبلغ به الحد وقال قاضي القضاة المالكية شرف الدين قد حكمت بتفسيقه فكتب الى الملك الناصر بذلك فعزله وللحنفية مدارس كثيرة وأكبرها مدرسة السلطان نور الدين وبها يحكم قاضي قضاة الحنفية وللمالكية بدمشق ثلاث مدارس احداها الصمصامية وبها سكن قاضي القضاة المالكية وقعوده للاحكام والمدرسة النورية عمرها

السلطان نور الدين محمود بن زنكي والمدرسة الشرابشية عمرها شهاب الدين الشرابشي التاجر وللحنابلة مدارس كثيرة أعظمها المدرسة النجمية

﴿ذكر أبواب دمشق﴾

ولمدينة دمشق ثمانية أبواب منها باب الفراديس ومنها باب الجابية ومنها الباب الصغير وفيما بين هذين البابين مقبرة فيها العدد الجم من الصحابة والشهداء فمن بعدهم قال محمد ابن جزي لقد أحسن بعض المتأخرين من أهل دمشق في قوله (رجز)

دمشق في أوصافها * جنة خلد راضيه
أما ترى أبوابها * قد جملت ثمانيه

﴿ذكر بعض المشاهد والمزارات بها﴾

فمنها بالمقبرة التي بين البابين باب الجابية والباب الصغير قبر أم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين وقبر أخيها أمير المؤمنين معاوية وقبر بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم أجمعين وقبر أويس القرني وقبر كعب الاحبار رضي الله عنهما ووجدت في كتاب المعلم في شرح صحيح مسلم للقرطبي ان جماعة من الصحابة صحبهم أويس القرني من المدينة الي الشام فتوفى في أثناء الطريق في برية لا عمارة فيها ولا ماء فتحيروا في أمره فنزلوا فوجدوا حنوطا وكفنا وماء فعجبوا من ذلك وغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه ثم ركبوا فقال بعضهم كيف نترك قبره بغير علامة فعادوا للموضع فلم يجدوا للقبر من أثر قال ابن جزي ويقال ان أويسا قتل بصفين مع على عليه السلام وهو الاصح ان شاء الله ويلي باب الجابية باب شرقي عنده جبانة فيها قبر أبي بن كعب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها قبر العابد الصالح رسلان المعروف بالباز الاشهب

﴿حكاية في سبب تسميته بذلك﴾

يحكى أن الشيخ الولي أحمد الرفاعي رضي الله عنه كان مسكنه بام عبيدة بقرية من مدينة واسط وكانت بين ولي الله تعالى ابي مدين شعيب بن الحسين وبينه مؤاخاة ومراسلة ويقال ان كل واحد منهما كان يسلم على صاحبه صباحا ومساء فيرد عليه الآخر وكانت

للشيخ أحمد نخيلات عند زاويته فلما كان في احدى السنين جذها على عادته وترك عذقا منها وقال هذا برسم أخي شعيب فحج الشيخ أبومدين تلك السنة واجتمعا بالموقف الكريم بعرفة ومع الشيخ أحمد خديمه رسلان فتفاوضا الكلام وحكي الشيخ حكاية العذق فقال له رسلان عن أمرك ياسيدي آتيه به فأذن له فذهب من حينه وأتاه به ووضعه بين أيديهما فأخبر أهل الزاوية انهم رأوا عشية يوم عرفة بازا أشهب تدا انقض على النخلة فقطع ذلك العذق وذهب به في الهواء وبغربي دمشق جبانة تعرف بقبور الشهداء فيها قبر أبي الدرداء وزوجة أم الدرداء وقبر فضالة بن عبيد وقبر واثلة بن الاسقع وقبر سهل بن حنظلة من الذين بايعوا تحت الشجرة رضى الله عنهم أجمعين وبقرية تعرف بالمنيحة شرقي دمشق وعلى أربعة أميال منها قبر سعد بن عبادة رضي الله عنه وعليه مسجد صغير حسن البناء وعلى رأسه حجر فيه مكتوب هذا قبر سعد بن عبادة رأس الخزرج صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وبقرية قبلي البلد وعلى فرسخ منها مشهد أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب من فاطمة عليهم السلام ويقال ان اسمها زينب وكناها النبي صلى الله عليه وسلم أم كلثوم لشبهها بخالتها أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه مسجد كبير وحوله مساكن وله أوقاف ويسميه أهل دمشق قبر الست أم كلثوم وقبر آخر يقال انه قبر سكينة بنت الحسين بن علي عليه السلام وبجامع النيرب من قري دمشق في بيت بشرقيه قبر يقال انه قبر أم مريم عليها السلام وبقرية تعرف بداريا غربي البلد وعلى أربعة أميال منها قبر أبي مسلم الخولاني وقبر أبي سليمان الداراني رضي الله عنهما ومن مشاهد دمشق الشهيرة البركة مسجد الأقدام وهو في قبلي دمشق على ميلين منها على قارعة الطريق الأعظم الآخذ الي الحجاز الشريف والبيت المقدس وديار مصر وهو مسجد عظيم كثير البركة وله أوقاف كثيرة ويعظمه أهل دمشق تعظيما شديداً والأقدام التي ينسب اليها هي اقدام مصورة في حجر هنالك يقال انها أثر قدم موسى عليه السلام وفي هذا المسجد بيت صغير فيه حجر مكتوب عليه كان بعض الصالحين يرى المصطفى صلى الله عليه وسلم في النوم فيقول له ههنا قبر أخي موسى عليه السلام وبقربة من هذا المسجد على الطريق

موضع يعرف بالكثيب الاحمر وبقربة من بيت المقدس وأريحا موضع يعرف أيضاً بالكثيب الاحمر تعظمه اليهود

(حكاية)

شاهدت أيام الطاعون الاعظم بدمشق في أواخر شهر ربيع الثاني سنة تسع وأربعين من تعظيم أهل دمشق لهذا المسجد ما يعجب منه وهو أن ملك الامراء نائب السلطان أرغون شاه أمر منادياً ينادي بدمشق أن يصوم الناس ثلاثة أيام ولا يطبخ أحد بالسوق ما يؤكل نهاراً وأوا كثر الناس بها انما يأكلون الطعام الذي يصنع بالسوق فصام الناس ثلاثة أيام متوالية كان آخرها يوم الخميس ثم اجتمع الامراء والشرفاء والقضاة والفقهاء وسائر الطبقات على اختلافها في الجامع حتى غص بهم وباتوا ليلة الجمعة به ما بين مصلٍ وذاكر وداع ثم صلوا الصبح وخرجوا جميعاً على أقدامهم وبأيديهم المصاحف والامراء حفاة وخرج جميع أهل البلد ذكوراً وإناثاً صغاراً وكباراً وخرج اليهود بتوراتهم والنصارى بانجيلهم ومعهم النساء والولدان وجميعهم باكون متضرعون متوسلون الى الله بكتبه وأنبيائه وقصدوا مسجد الاقدام وأقاموا به في تضرعهم ودعائهم الي قرب الزوال وعادوا الي البلد فصلوا الجمعة وخفف الله تعالى عنهم ما انتهى عدد الموتى الى ألفين في اليوم الواحد وقد انتهى عددهم بالقاهرة ومصر الي أربعة وعشرين ألفاً في يوم واحد وبالباب الشرقي من دمشق منارة بيضاء يقال انها التي ينزل عيسى عليه السلام عندها حسبما ورد في صحيح مسلم

(ذكر أرباض دمشق)

وتدور بدمشق من جهاتها ما عدا الشرقية أرباض فسيحة الساحات دواخلها أملح من داخل دمشق لاجل الضيق الذي في سككها بالجهة الشمالية منها ربض الصالحية وهي مدينة عظيمة لها سوق لا نظير لحسنه وفيها مسجد جامع ومارستان وبها مدرسة تعرف بمدرسة ابن عمر موقوفة على من أراد أن يتعلم القرآن الكريم من الشيوخ والكهول وتجري لهم ولمن يعلمهم كفايتهم من المآكل والملابس وبداخل البلد أيضاً مدرسة مثل هذه تعرف بمدرسة ابن منجا وأهل الصالحية كلهم على مذهب الامام أحمد بن حنبل رضي الله عنه

(ذكر قاسيون ومشاهده المباركة)

وقاسيون جبل في شمال دمشق والصالحية في سفحه وهو شهير البركة لانه مصعد الانبياء عليهم السلام ومن مشاهده الكريمة الغار الذي ولد فيه ابراهيم الخليل عليه السلام وهو غار مستطيل ضيق عليه مسجد كبير وله صومعة عالية ومن ذلك الغار رأى الكوكب والقمر والشمس حسبما ورد في الكتاب العزيز وفي ظهر الغار مقامه الذى كان يخرج اليه وقد رأيت ببلاد العراق قرية تعرف ببرص (بضم الباء الموحدة وآخرها صاد مهمل) ما بين الحلة وبغداد يقال ان مولد ابراهيم عليه السلام كان بها وهي بمقربة من بلد ذي الكفل عليه السلام وبها قبره ومن مشاهده بالقرب منه مغارة الدم وفوقها بالجبل دم هابيل بن آدم عليه السلام وقد أبقى الله منه في الحجارة أثرا احمر او هو الموضع الذي قتله اخوه به واجتره الى المغارة ويذكر ان تلك المغارة صلى فيها ابراهيم وموسى وعيسى وأيوب ولوط صلى الله عليهم أجمعين وعليها مسجد متقن البناء يصعد اليه على درج وفيه بيوت ومرافق للسكنى ويفتح في كل يوم اثنين وخميس والشمع والسرج توقد في المغارة ومنها كهف بأعلى الجبل ينسب لآدم عليه السلام وعليه بناء وأسفل منه مغارة تعرف بمغارة الجوع يذكر انه آوى اليها سبعون من الانبياء عليهم السلام وكان عندهم رغيف فلم يزل يدور عليهم وكل منهم يؤثر صاحبه به حتى ماتوا جميعا صلى الله عليهم وعلى هذه المغارة مسجد مبني والسرج تقد به ليلا ونهارا ولكل مسجد من هذه المساجد أوقاف كثيرة معينة ويذكر ان فيما بين باب الفراديس وجامع قاسيون مدفن سبعمائة نبي وبعضهم يقول سبعين ألفا وخارج المدينة المقبرة العتيقة وهي مدفن الانبياء والصالحين وفي طرفها مما يلي البساتين أرض منخفضة غلب عليها الماء يقال انها مدفن سبعين نبيا وقد عادت قرارا للماء ونزهت من ان يدفن فيها أحد

﴿ذكر الربوة والقرى التي تواليها﴾

وفي آخر جبل قاسيون الربوة المباركة المذكورة في كتاب الله ذات القرار والمعين ومأوى المسيح عيسى وأمه عليهما السلام وهي من أجمل مناظر الدنيا ومتنزهاتها بها القصور المشيدة والمباني الشريفة والبساتين البديعة والمأوى المبارك مغارة صغيرة في وسطها

كالبيت الصغير وازاءها بيت يقال انه مصلى الخضر عليه السلام يبادر الناس الى الصلاة فيها وللمأوى باب حديد صغير والمسجد يدور به وله شوارع دائرة وسقاية حسنة ينزل لها الماء من علو وينصب في شاذر وان في الجدار يتصل بحوض من رخام ويقع فيه الماء ولا نظير له في الحسن وغرابة الشكل وبقرب ذلك مطاهر للوضوء يجري فيها الماء وهذه الربوة المباركة هي رأس بساتين دمشق وبها منابع مياهها وينقسم الماء الخارج منها على سبعة أنهار كل نهر آخذ في جهة ويعرف ذلك الموضع بالمقاسم وأكبر هذه الانهار النهر المسمى بتورة وهو يشق تحت الربوة وقد نحت له مجرى في الحجر الصلد كالغار الكبير وربما انغمس ذو الجسارة من العوامين في النهر من أعلى الربوة واندفع في الماء حتى يشق مجراه ويخرج من أسفل الربوة وهي مخاطرة عظيمة وهذه الربوة تشرف على البساتين الدائرة بالبلد ولها من الحسن واتساع مسرح الابصار ماليس لسواها وتلك الانهار السبعة تذهب في طرق شتى فتحار الاعين في حسن اجتماعها وافتراقها واندفاعها وانصبابها وجمال الربوة وحسنها التام أعظم من ان يحيط به الوصف ولها الاوقاف الكثيرة من المزارع والبساتين والرباع تقام منها وظائفها الامام والمؤذن والصادر والوارد وباسفل الربوة قرية النيرب وقد تكاثرت بساتينها وتكاثفت ظلالها وتدانت أشجارها فلا يظهر من بنائها الا ما سما ارتفاعه ولها حمام مليح ولها جامع بديع مفروش صحنه بفصوص الرخام وفيه سقاية ماء رائقة الحسن ومطهرة فيها بيوت عدة يجري فيها الماء وفي القبلي من هذه القرية قرية المزة وتعرف بمزة كلب نسبة الى قبيلة كلب بن وبرة بن ثعلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة وكانت اقطاعاً لهم واليها ينسب الامام حافظ الدنيا جمال الدين يوسف ابن الزكي الكلبي المزي وكثير سواه من العلماء وهي من أعظم قرى دمشق بها جامع كبير عجيب وسقاية معينة وأكثر قرى دمشق فيها الحمامات والمساجد الجامعة والاسواق وسكانها كأهل الحاضرة في مناحيهم وفي شرقي البلد قرية تعرف ببيت الاهية وكانت فيها كنيسة يقال ان آزر كان ينحت فيها الاصنام فيكسرها الخليل عليه السلام وهي الآن مسجد جامع بديع مزين بفصوص الرخام الملونة المنظمة باعجب نظام وأزين التئام

﴿ذكر الاوقاف بدمشق وبعض فضائل أهلها وعوائدهم﴾

والاوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها فمنها أوقاف على العاجز عن الحج يعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته ومنها أوقاف على تجهيز البنات الي أزواجهن وهي اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن ومنها أوقاف لفكاك الاسارى ومنها أوقاف لأبناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم ومنها أوقاف على تعديل الطرق ورصفها لان أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبيه يمر عليهما المترجلون ويمر الركبان بين ذلك ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير

﴿حكاية﴾

مررت يوما ببعض أزقة دمشق فرأيت به مملوكا صغيرا قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني وهم يسمونها الصحن فتكسرت واجتمع عليه الناس فقال له بعضهم اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الاواني فجمعها وذهب الرجل معه اليه فأراه اياها فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن وهذا من أحسن الاعمال فان سيد الغلام لا بد له ان يضربه على كسر الصحن أو ينهره وهو أيضا ينكسر قلبه ويتغير لاجل ذلك فكان هذا الوقف جبرا للقلوب جزى الله خيرا من تسامت همته في الخير الي مثل هذا وأهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد وهم يحسنون الظن بالمغاربة ويطمئنون اليهم بالاموال والأهلين والاولاد وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لا بد ان يتأتي له وجه من المعاش من امامة مسجد أو قراءة بمدرسة أو ملازمة مسجد يجيء اليه فيه رزقه أو قراءة القرآن أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة أو يكون كجملة الصوفية بالخوانق تجرى له النفقة والكسوة فمن كان بها غريبا على خير لم يزل مصونا عن بذل وجهه محفوظا عما يزرى بالمروءة ومن كان من أهل المهنة والخدمة فله أسباب أخر من حراسة بستان أو أمانة طاحونة أو كفالة صبيان يغدو معهم الى التعلم ويروح ومن أراد طلب العلم أو التفرغ للعبادة وجد الاعانة التامة على ذلك ومن فضائل أهل دمشق انه لا يفطر أحد منهم في ليالي رمضان وحده البتة فمن كان من الامراء والقضاة والكبراء فانه يدعو أصحابه والفقراء

يفطرون عنده ومن كان من التجار وكبار السوقة صنع مثل ذلك ومن كان من الضعفاء والبادية فانهم يجتمعون كل ليلة في دار أحدهم أو في مسجد ويأتي كل أحد بما عنده فيفطرون جميعا ولما وردت دمشق وقعت بيني وبين نور الدين السخاوي مدرس المالكية صحبة فرغب مني ان أفطر عنده في ليالي رمضان فحضرت عنده أربع ليال ثم أصابتني الحمى فغبت عنه فبعث في طلبي فاعتذرت بالمرض فلم يسعني عذرا فرجعت اليه وبت عنده فلما أردت الانصراف بالغد منعني من ذلك وقال لي احسب داري كأنها دارك أو دار أبيك أو أخيك وأمر باحضار طبيب وان يصنع لي بداره كل مايشتهيه الطبيب من دواء أو غذاء وأقمت كذلك عنده الى يوم العيد وحضرت المصلى وشفاني الله تعالى مما أصابني وقد كان ما عندي من النفقة نفد فعلم بذلك فاكترى لي جمالا وأعطاني الزاد وسواه وزادني دراهم وقال لي تكون لما عسى ان يعتريك من أمر مهم جزاه الله خيرا وكان بدمشق فاضل من كتاب الملك الناصر يسمى عماد الدين القيصراني من عادته انه متى سمع ان مغربيا وصل الى دمشق بحث عنه وأضافه وأحسن اليه فان عرف منه الدين والفضل أمره بملازمته وكان يلازمه منهم جماعة وعلى هذه الطريقة أيضا كاتب السر الفاضل علاء الدين بن غانم وجماعة غيره وكان بها فاضل من كبرائها وهو الصاحب عز الدين القلانسي له مآثر ومكارم وفضائل وايثار وهو ذو مال عريض وذكروا ان الملك الناصر لما قدم دمشق أضافه وجميع أهل دولته ومماليكه وخواصه ثلاثة أيام فسماه اذ ذاك بالصاحب * ومما يؤثر من فضائلهم ان أحد ملوكهم السالفين لما نزل به الموت أوصي ان يدفن بقبلة الجامع المكرم ويخفى قبره وعين أوقافا عظيمة لقراء يقرؤن سبعا من القرآن الكريم في كل يوم إثر صلاة الصبح بالجهة الشرقية من مقصورة الصحابة رضى الله عنهم حيث قبره فصارت قراءة القرآن على قبره لاتنقطع أبدا وبقي ذلك الرسم الجميل بعده مخلدا ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد انهم يخرجون بعد صلاة العصر من يوم عرفة فيقفون بصحون المساجد كبيت المقدس وجامع بني أمية وسواهما ويقف بهم أئمتهم كاشفي رؤسهم داعين خاضعين خاشعين ملتمسين البركة ويتوخون الساعة التي يقف فيها وفد الله تعالى وحجاج بيته

بعرفات ولا يزالون في خضوع ودعاء وابتهال وتوسل الى الله تعالى بحجاج بيته الى ان
تغيب الشمس فينفرون كما ينفر الحاج باكين على ما حرموه من ذلك الموقف الشريف
بعرفات داعين الى الله تعالى ان يوصلهم اليها ولا يخليهم من بركة القبول فيما فعلوه ولهم أيضا
في اتباع الجنائز رتبة عجيبة وذلك انهم يمشون امام الجنازة والقراء يقرؤن القرآن بالاصوات
الحسنة والتلاحين المبكية التي تكاد النفوس تطير لها رقة وهم يصلون على الجنائز بالمسجد
الجامع قبالة المقصورة فان كان الميت من أئمة الجامع أو مؤذنيه أو خدامه أدخلوه بالقراءة
الى موضع الصلاة عليه وان كان من سواهم قطعوا القراءة عند باب المسجد ودخلوا
الجنازة وبعضهم يجتمع له بالبلاط الغربي من الصحن بمقربة من باب البريد فيجلسون
وامامهم ربعات القرآن يقرؤن فيها ويرفعون أصواتهم بالنداء لكل من يصل للعزاء من
كبار البلدة وأعيانها ويقولون باسم الله فلان الدين من كمال وجمال وشمس وبدر وغير
ذلك فاذا أتموا القراءة قام المؤذنون فيقولون افتكروا واعتبروا صلاتكم على فلان
الرجل الصالح العالم ويصفونه بصفات من الخير ثم يصلون عليه ويذهبون به الى مدفنه
ولاهل الهند رتبة عجيبة في الجنائز أيضا زائدة على ذلك وهي انهم يجتمعون بروضة الميت
صبيحة الثالث من دفنه وتفرش الروضة بالثياب الرفيعة ويكسى القبر بالكسي الفاخرة
وتوضع حوله الرياحين من الورد والنسرين والياسمين وذلك النوار لا ينقطع عندهم
ويأتون باشجار الليمون والاترج ويجعلون حباتها بها ان لم تكن فيها ويجعل صيوان يظلل
الناس نحوه ويأتي القضاة والامراء ومن يماثلهم فيقعدون ويقابلهم القراء ويؤتي بالربعات
الكرام فيأخذ كل واحد منهم جزأ فاذا تمت القراءة من القراء بالاصوات الحسان يدعو
القاضي ويقوم قائما ويخطب خطبة معدة لذلك ويذكر فيها الميت ويرثيه بأبيات شعر
ويذكر أقاربهم ويعزيهم عنه ويذكر السلطان داعيا له وعند ذكر السلطان يقوم الناس
ويحطون رؤسهم الى سمت الجهة التي بها السلطان ثم يقعد القاضي ويأتون بماء الورد
فيصب على الناس صبا يبتدأ بالقاضي ثم من يليه كذلك الى ان يعم الناس أجمعين ثم يؤتى
بأواني السكر وهو الجلاب محلولا بالماء فيسقون الناس منه ويبدؤن بالقاضي ومن يليه

ثم يؤتي بالتنبول وهم يعظمونه ويكرمون من يأتى لهم به فاذا أعطي السلطان أحداً منه فهو أعظم من اعطاء الذهب والخلع واذا مات الميت لم يأكل أهله التنبول الا في ذلك اليوم فيأخذ القاضي أو من يقوم مقامه أوراقه فيعطيها لولي الميت فيأكلها وينصرفون حينئذ وسيأتي ذكر التنبول ان شاء الله تعالى

﴿ذكر سماعي بدمشق ومن أجازني من أهلها﴾

سمعت بجامع بني أمية عمره الله بذكره جميع صحيح الامام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل الجعفي البخاري رضي الله عنه على الشيخ المعمر رحلة الآفاق ملحق الاصاغر بالاكابر شهاب الدين أحمد بن أبي طالب بن أبي النعم بن حسن بن علي بن بيان الدين مقري الصالحي المعروف بابن الشحنة الحجازي في أربعة عشر مجلساً أولها يوم الثلاثاء منتصف شهر رمضان المعظم سنة ست وعشرين وسبعمائة وآخرها يوم الاثنين الثامن والعشرين منه بقراءة الامام الحافظ مؤرخ الشام علم الدين أبي محمد القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي الاشبيلي الاصل الدمشقي في جماعة كبيرة كتب أسماءهم محمد بن طغريل بن عبد الله بن الغزال الصيرفي بسماع الشيخ أبي العباس الحجازي جميع الكتاب من الشيخ الامام سراج الدين أبي عبد الله الحسين بن أبي بكر المبارك بن محمد بن يحيى بن علي بن المسيح بن عمران الربعي البغدادي الزبيدي الحنبلي في أواخر شوال وأوائل ذي القعدة من سنة ثلاثين وستمائة بالجامع المظفري بسفح جبل قاسيون ظاهر دمشق وباجازته في جميع الكتاب من الشيخين أبي الحسن محمد بن أحمد بن عمر بن الحسين بن الخلف القطيعي المؤرخ وعلي بن أبي بكر بن عبد الله بن روبة القلانسي العطار البغدادي، ومن باب غيرة النساء ووجدهن الي آخر الكتاب من أبي المنجا عبد الله بن عمر بن علي بن زيد بن اللتي الخزاعي البغدادي بسماع أربعتهم من الشيخ سديد الدين أبي الوقت عبد الاول بن عيسي بن شعيب بن ابراهيم السجزي الهروي الصوفي في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ببغداد قال أخبرنا الامام جمال الاسلام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر بن محمد بن داود بن أحمد بن معاذ بن سهل بن الحكم الداودي قراءة عليه وأنا أسمع ببوشنج سنة خمس

وستين وأربعمائة قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حوية بن يوسف بن أعين السرخسي قراءة عليه وأنا أسمع في صفر سنة احدى وثمانين وثلاثمائة قال أخبرنا عبد الله محمد بن يوسف بن مطر بن صالح بن بشر بن ابراهيم الفربرى قراءة عليه وأنا أسمع سنة ست عشرة وثلاثمائة بفربر قال أخبرنا الامام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري رضي الله عنه سنة ثمان وأربعين ومائتين بفربر ومرة ثانية بعدها سنة ثلاث وخمسين وممن أجازني من أهل دمشق أجازة عامة الشيخ أبو العباس الحجازى المذكور سبق الى ذلك وتلفظ لي به ومنهم الشيخ الامام شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد المقدسي ومولده في ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين وستمائة ومنهم الشيخ الامام الصالح عبد الرحمن ابن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن النجدى ومنهم امام الائمة جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن الزكى عبد الرحمن بن يوسف المزنى الكلبي حافظ الحفاظ ومنهم الشيخ الامام علاء الدين على بن يوسف بن محمد بن عبد الله الشافعي والشيخ الامام الشريف محي الدين يحيي بن محمد بن على العلوي ومنهم الشيخ الامام المحدث مجد الدين القاسم بن عبد الله بن أبي عبد الله بن المعلى الدمشقي ومولده سنة أربع وخمسين وستمائة ومنهم الشيخ الامام العالم شهاب الدين أحمد بن ابراهيم بن فلاح بن محمد الاسكندرى ومنهم الشيخ الامام ولي الله تعالى شمس الدين بن عبد الله بن تمام والشيخان الاخوان شمس الدين محمد وكمال الدين عبد الله ابنا ابراهيم بن عبد الله بن أبي عمر المقدسي والشيخ العابد شمس الدين محمد بن أبي الزهراء بن سالم الهكارى والشيخة الصالحة أم محمد عائشة بنت محمد بن مسلم بن سلامة الحرانى والشيخة الصالحة رحلة الدنيا زينب بنت كمال الدين أحمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي كل هؤلاء أجازني اجازة عامة في سنة ست وعشرين بدمشق ولما استهل شوال من السنة المذكورة خرج الركب الحجازى الى خارج دمشق ونزلوا القرية المعروفة بالكسوة فأخذت في الحركة معهم وكان أمير الركب سيف الدين الجوبان من كبار الامراء وقاضيه شرف الدين الاذرعي الحوراني وحج في تلك السنة مدرس المالكية صدر الدين الغماري وكان سفري مع طائفة من العرب تدعى العجارمة

أميرهم محمد بن رافع كبير القدر في الامراء وارتحلنا من الكسوة الى قرية تعرف بالصنمين عظيمة ثم ارتحلنا منها الي بلدة زرعة وهي صغيرة من بلاد حوران نزلنا بالقرب منها ثم ارتحلنا الي مدينة بصرى وهي صغيرة ومن عادة الركب ان يقيم بها أربعا ليلحق بهم من تخلف بدمشق لقضاء مآربه والي بصري وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعث في تجارة خديجة وبها مبرك ناقته قد بنى عليه مسجد عظيم ويجتمع أهل حوران لهذه المدينة ويتزود الحاج منها ثم يرحلون الى بركة زيزة (زيزا) ويقيمون عليها يوما ثم يرحلون الى اللجون وبها الماء الجاري ثم يرحلون الى حصن الكرك وهو من أعجب الحصون وأمنعها وأشهرها ويسمي بحصن الغراب والوادى يطيف به من جميع جهاته وله باب واحد قد نحت المدخل اليه في الحجر الصلد ومدخل دهليزه كذلك وبهذا الحصن يتحصن الملوك واليه يلجؤن في النوائب وله لجأ الملك الناصر لانه ولي الملك وهو صغير السن فاستولي على التدبير مملوكه سلار النائب عنه فاظهر الملك الناصر انه يريد الحج ووافقه الامراء على ذلك فتوجه الى الحج فلما وصل عقبة أيلة لجأ الي الحصن وأقام به اعواما الي ان قصده أمراء الشام واجتمعت عليه المماليك وكان قد ولي الملك في تلك المدة بيبرس الششنكير وهو أمير الطعام وتسمي بالملك المظفر وهو الذى بنا الخانقاه البيبرسية بمقربة من خانقاه سعيد السعداء التي بناها صلاح الدين بن أيوب فقصده الملك الناصر بالعساكر ففر بيبرس الى الصحراء فتبعته العساكر وقبض عليه وأوتي به الى الملك الناصر فامر بقتله فقتل وقبض على سلار وحبس في جب حتي مات جوعا ويقال انه أكل جيفة من الجوع نعوذ بالله من ذلك وأقام الركب بخارج الكرك أربعة أيام بموضع يقال له الثنية وتجهزوا لدخول البرية ثم ارتحلنا الي معان وهو آخر بلاد الشام ونزلنا من عقبة الصوان الى الصحراء التي يقال فيها داخلها مفقود وخارجها مولود وبعد مسيرة يومين نزلنا ذات حج وهي حسيان لا عمارة بها ثم الي وادى بلدح ولا ماء به ثم الي تبوك وهو الموضع الذى غزاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها عين ماء كانت تبض بشيء من الماء فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوضأ منها جادت بالماء المعين ولم تزل الي هذا العهد

ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن عادة حجاج الشام اذا وصلوا منزل تبوك أخذوا اسلحتهم وجردوا سيوفهم وحملوا على المنزل وضربوا النخيل بسيوفهم ويقولون هكذا دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وينزل الركب العظيم على هذه العين فيروى منها جميعهم ويقيمون أربعة أيام للراحة وارواء الجمال واستعداد الماء للبرية المخوفة التي بين العلا وتبوك ومن عادة السقائين انهم ينزلون على جوانب هذه العين ولهم أحواض مصنوعة من جلود الجواميس كالصهاريج الضخام يسقون منها الجمال ويملؤن الروايا والقرب ولكل أمير أو كبير حوض يسقى منه جماله وجمال أصحابه ويملأ رواياهم وسواهم من الناس يتفق مع السقائين على سقي جملة وملء قربته بشيء معلوم من الدراهم ثم يرحل الركب من تبوك ويجدون السير ليلا ونهارا خوفا من هذه البرية وفي وسطها الوادي الاخيضر كانه وادي جهنم اعاذنا الله منها وأصاب الحجاج به في بعض السنين مشقة بسبب ريح السموم التي تهب فانتشفت المياه وانتهت شربة الماء الى ألف دينار ومات مشتريها وبائعها وكتب ذلك في بعض صخر الوادي ومن هنالك ينزلون بركة المعظم وهي ضخمة نسبتها الى الملك المعظم من أولاد أيوب ويجتمع بها ماء المطر في بعض السنين وربما جف في بعضها وفي الخامس من أيام رحيلهم عن تبوك يصلون الى بئر الحجر حجر ثمود وهي كثيرة الماء ولكن لا يردها أحد من الناس مع شدة عطشهم اقتداء بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بها في غزوة تبوك فأسرع براحلته وأمر أن لا يسقى منها أحد ومن عجن به أطعمه الجمال وهنالك ديار ثمود في جبال من الصخر الاحمر منحوتة لها عتب منقوشة يظن رائيها انها حديثة الصنعة وعظامهم نخرة في داخل تلك البيوت ان في ذلك لعبرة ومبرك ناقة صالح عليه السلام بين جبلين هنالك وبينهما أثر مسجد يصلي الناس فيه وبين الحجر والعلا نصف يوم أو دونه والعلا قرية كبيرة حسنة لها بساتين النخل والمياه المعينة يقيم بها الحجاج أربعا يتزودون ويغسلون ثيابهم ويدعون بها ما يكون عندهم من فضل زاد ويستصحبون قدر الكفاية وأهل هذه القرية أصحاب أمانة والنصارى تجار

نصارى الشام لا يتعدونها ويبايعون الحجاج بها الزاد وسواه ثم يرحل الركب من العلا فينزلون في غد رحيلهم الوادي المعروف بالعطاس وهو شديد الحر تهب فيه السموم المهلكة هبت بعض السنين على الركب فلم يخلص منهم الا اليسير وتعرف تلك السنة بسنة الامير الجالقي ومنه ينزلون هدية وهي حسيان ماء بواد يحفرون به فيخرج الماء وهو زعاق وفي اليوم الثالث ينزلون بظاهر البلد المقدس الكريم الشريف

﴿طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم﴾

وفي عشي ذلك اليوم دخلنا الحرم الشريف وانتهينا الى المسجد الكريم فوقفنا بباب السلام مسلمين وصلينا بالروضة الكريمة بين القبر والمنبر الكريم واستلمنا القطعة الباقية من الجذع الذي حن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي ملصقة بعمود قائم بين القبر والمنبر عن يمين مستقبل القبلة وأدينا حق السلام على سيد الاولين والآخرين وشفيع العصاة والمذنبين الرسول النبي الهاشمي الابطحي محمد صلى الله عليه وسلم تسليما وشرف وكرم وحق السلام على ضجيعيه وصاحبيه أبي بكر الصديق وأبي حفص عمر الفاروق رضي الله عنهما وانصرفنا الى رحلنا مسرورين بهذه النعمة العظمى مستبشرين بنيل هذه المنة الكبرى حامدين لله تعالى على البلوغ الى معاهد رسوله الشريفه ومشاهده العظيمة المنيفه داعين أن لا يجعل ذلك آخر عهدنا بها وأن يجعلنا ممن قبلت زيارته وكتبت في سبيل الله سفرته

﴿ذكر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وروضته الشريفة﴾

المسجد المعظم مستطيل تحفه من جهاته الاربع بلاطات دائرة به ووسطه صحن مفروش بالحصى والرمل ويدور بالمسجد الشريف شارع مبلط بالحجر المنحوت والروضة المقدسة صلوات الله وسلامه على ساكنها في الجهة القبلية مما يلي الشرق من المسجد الكريم وشكلها عجيب لا يتأتى تمثيله وهي مدورة بالرخام البديع النحت الرائق النعت قد علاها تضميخ المسك والطيب مع طول الازمان وفي الصفحة القبلية منها مسمار فضة هو قبالة الوجه الكريم وهنالك يقف الناس للسلام مستقبلين الوجه الكريم مستدبرين القبلة

فيسلمون وينصرفون يمينا الى وجه أبي بكر الصديق ورأس أبي بكر رضي الله عنه عند قدمي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ينصرفون الى عمر بن الخطاب ورأس عمر عند كتفي أبي بكر رضي الله عنهما وفي الجوفي من الروضة المقدسة زادها الله طيبا حوض صغير مرخم في قبلته شكل محراب يقال انه كان بيت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ويقال أيضاً هو قبرها والله أعلم وفي وسط المسجد الكريم دفة مطبقة على وجه الارض مقفلة على سرداب له درج يفضى الى دار أبي بكر رضي الله عنه خارج المسجد على ذلك السرداب كان طريق بنته عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها الى داره ولا شك انه هو الخوخة التي ورد ذكرها في الحديث وأمر النبي صلى الله عليه وسلم تسليما بابقائها وسد ما سواها وبازاء دار أبي بكر رضي الله عنه دار عمر ودار ابنه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما وبشرقي المسجد الكريم دار امام المدينة أبي عبد الله مالك بن أنس رضى الله عنه وبمقربة من باب السلام سقاية ينزل اليها على درج ماؤها معين وتعرف بالعين الزرقاء

(ذكر ابتداء بناء المسجد الكريم)

قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما المدينة الشريفة دار الهجرة يوم الاثنين الثالث عشر من شهر ربيع الاول فنزل على بني عمرو بن عوف واقام عندهم ثنتين وعشرين ليلة وقيل أربع عشرة ليلة وقيل أربع ليال ثم توجه الي المدينة فنزل على بني النجار بدار أبي أيوب الانصاري رضى الله عنه وأقام عنده سبعة أشهر حتى بنى مساكنه ومسجده وكان موضع المسجد مربدا لسهل وسهيل ابني رافع بن أبي عمر بن عائذ بن ثعلبة بن غانم بن ملك بن النجار وهما يتيمان في حجر أسعد بن زرارة رضي الله عنهم أجمعين وقيل كانا في حجر أبي أيوب رضى الله عنه فابتاع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ذلك المربد وقيل بل أرضاهما أبو أيوب عنه وقيل انهما وهباه لرسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما المسجد وعمل فيه مع أصحابه وجعل عليه حائطا ولم يجعل له سقفا ولا أساطين وجعله مربعا طوله مائة ذراع وعرضه مثل ذلك وقيل ان عرضه كان دون ذلك وجعل ارتفاع حائطه قدر القامة فلما اشتد الحر تكلم أصحابه في تسقيفه فاقام له

أساطين من جذوع النخل وجعل سقفه من جريدها فلما أمطرت السماء وكف المسجد فكلم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمله بالطين فقال كلا عريش كعريش موسى أو ظلة كظلة موسى والامر أقرب من ذلك قيل وما ظلة موسى قال صلى الله عليه وسلم كان اذا قام أصاب السقف رأسه وجعل للمسجد ثلاثة أبواب ثم سد الجنوبي منها حين حولت القبلة وبقي المسجد على ذلك حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وحياة أبي بكر رضي الله عنه فلما كانت أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه زاد في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وقال لولا اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما يقول ينبغي ان نزيد في المسجد مازدت فيه فانزل أساطين الخشب وجعل مكانها أساطين اللبن وجعل الاساس حجارة الى القامة وجعل الابواب ستة منها في كل جهة ماعدا القبلة بابان وقال في باب منها ينبغي ان يترك هذا للنساء فما رؤي فيه حتى لقي الله عز وجل وقال لو زدنا في هذا المسجد حتى يبلغ الجبانة لم يزل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأراد عمر ان يدخل في المسجد موضعا للعباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ورضي عنهما فمنعه منه وكان فيه ميزاب يصب في المسجد فنزعه عمر وقال انه يؤذي الناس فنازعه العباس وحكما بينهما أبي بن كعب رضي الله عنهما فأتيا داره فلم يأذن لهما الا بعد ساعة ثم دخلا اليه فقال كانت جاريتي تغسل رأسي فذهب عمر ليتكلم فقال له أبي دع أبا الفضل يتكلم لمكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فقال العباس خطة خطها لي رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وبنيتها معه وما وضعت الميزاب الا ورجلاي على عاتق رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء عمر فطرحه وأراد ادخاله في المسجد فقال أبي ان عندي من هذا علما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما يقول أراد داود عليه السلام أن يبني بيت الله المقدس وكان فيه بيت ليتيمين فراودهما على البيع فأبيا ثم راودهما فباعاه ثم قاما بالغبن فرد البيع واشتراه منهما ثم رداه كذلك فاستعظم داود الثمن فأوحى الله اليه ان كنت تعطي من شيء هو لك فأنت أعلم وان كنت تعطيهما من رزقنا فأعطهما حتى يرضيا وان أغنى البيوت عن مظلمة بيت هو لي وقد حرمت عليك بناءه

قال يارب فأعطه اياه فأعطاه سليمان عليه السلام فقال عمر من لي بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما قاله فخرج أبي الى قوم من الانصار فاثبتوا له ذلك فقال عمر رضي الله عنه أما اني لو لم أحد غيرك أخذت قولك ولكني أحببت أن أثبت ثم قال للعباس رضي الله عنه والله لا ترد الميزاب الا وقدماك على عاتقي ففعل العباس ذلك ثم قال أما اذا أثبتت لي فهي صدقة لله فهدمها عمر وأدخلها في المسجد ثم زاد فيه عثمان رضي الله عنه وبناه بقوة وباشره بنفسه فكان يظل فيه نهاره وبيضه وأتقن عمله بالحجارة المنقوشة ووسعه من جهاته الا جهة الشرق منها وجعل له سواري حجارة مثبتة بأعمدة الحديد والرصاص وسقفه بالساج وصنع له محرابا وقيل ان مروان هو أول من بني المحراب وقيل عمر بن عبد العزيز في خلافة الوليد ثم زاد فيه الوليد بن عبد الملك تولى ذلك عمر بن عبد العزيز فوسعه وحسنه وبالغ في اتقانه وعمله بالرخام والساج المذهب وكان الوليد بعث الى ملك الروم اني أريد ان أبني مسجد نبينا صلى الله عليه وسلم تسليما فأعني فيه فبعث اليه الفعلة وثمانين ألف مثقال من الذهب وأمر الوليد بادخال حجر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم تسليما فيه فاشترى عمر من الدور مازاده في ثلاث جهات من المسجد فلما صار الى القبلة امتنع عبيد الله بن عبد الله بن عمر من بيع دار حفصة وطال بينهما الكلام حتى ابتاعها عمر على أن لهم ما بقي منها وعلى أن يخرجوا من باقيها طريقاً الى المسجد وهي الخوخة التي في المسجد وجعل عمر للمسجد أربع صوامع في أربعة أركانه وكانت احداها مطلة على دار مروان فلما حج سليمان بن عبد الملك نزل بها فاطل عليه المؤذن حين الاذان فأمر بهدمها وجعل عمر للمسجد محرابا ويقال هو أول من أحدث المحراب ثم زاد فيه المهدي ابن أبي جعفر المنصور وكان أبوه هم بذلك ولم يقض له وكتب اليه الحسن بن زيد يرغبه في الزيادة فيه من جهة الشرق ويقول انه ان زيد في شرقيه توسطت الروضة الكريمة المسجد الكريم فاتهمه أبو جعفر بانه انما أراد هدم دار عثمان رضي الله عنه فكتب اليه اني قد عرفت الذي أردت فاكفف عن دار عثمان وأمر أبو جعفر ان يظلل الصحن أيام القيظ بستور تنشر على حبال ممدودة على خشب تكون في الصحن لتكن المصلين من الحر وكانت

طول المسجد في بناء الوليد مائتي ذراع فبلغه المهدي الى ثلاثمائة ذراع وسوي المقصورة بالارض وكانت مرتفعة عنها بقدار ذراعين وكتب اسمه على مواضع من المسجد ثم أمر الملك المنصور قلاوون ببناء دار للوضوء عند باب السلام فتولى بناءها الامير الصالح علاء الدين المعروف بالاقر واقامها متسعة الفناء تستدير بها البيوت واجري اليها الماء واراد ان يبني بمكة شرفها الله تعالى مثل ذلك فلم يتم له نبناه ابنه الملك الناصر بين الصفا والمروة وسيذكر ان شاء الله وقبلة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما قبلة قطع لانه صلى الله عليه وسلم تسليما اقامها وقيل اقامها جبريل عليه السلام وقيل كان يشير جبريل له الى سمتها وهو يقيمها وروى ان جبريل عليه السلام اشار الى الجبال فتواضعت فتنحت حتى بدت الكعبة فكان صلى الله عليه وسلم تسليما يبنى وهو ينظر اليها عيانا وبكل اعتبار فهي قبلة قطع وكانت القبلة اول ورود النبي صلى الله عليه وسلم تسليما المدينة الى بيت المقدس ثم حولت الى الكعبة بعد ستة عشر شهراً وقيل بعد سبعة عشر شهراً

﴿ذكر المنبر الكريم﴾

وفي الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما كان يخطب الى جذع نخلة بالمسجد فلما صنع له المنبر وتحول اليه حن الجذع حنين الناقة الى حوارها وروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما نزل اليه فالتزمه فسكن وقال لو لم ألتزمه لحن الى يوم القيامة واختلفت الروايات فيمن صنع المنبر الكريم فروى ان تميما الدارى رضى الله عنه هو الذي صنعه وقيل ان غلاما للعباس رضي الله عنه صنعه وقيل غلام لامرأة من الانصار وورد ذلك فى الحديث الصحيح وصنع من طرفاء الغابة وقيل من الاثل وكان له ثلاث درجات فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد على علياهن ويضع رجليه الكريمتين فى وسطاهن فلما ولي أبو بكر الصديق رضي الله عنه قعد على وسطاهن وجعل رجليه على أولاهن فلما ولي عمر رضى الله عنه جلس على أولاهن وجعل رجليه على الارض وفعل ذلك عثمان رضى الله عنه صدرا من خلافته ثم ترقي الى الثالثة ولما ان صار الامر الى معاوية رضي الله عنه أراد نقل المنبر الى الشام فضج المسلمون وعصفت ريح شديدة وخسفت

الشمس وبدت النجوم نهارا وأظلمت الارض فكان الرجل يصادم الرجل ولا يتبين مسلك فاما رأى ذلك معاوية تركه وزاد فيه ست درجات من أسفله فبلغ تسع درجات

﴿ذكر الخطيب والامام بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم﴾

وكان الامام بالمسجد الشريف في عهد دخولي الى المدينة بهاء الدين بن سلامة من كبار أهل مصر وينوب عنه العالم الصالح الزاهد بقية المشايخ عز الدين الواسطي نفع الله به وكان يخطب قبله ويقضي بالمدينة الشريفة سراج الدين عمر المصري ﴿حكاية﴾

يذكر ان سراج الدين هذا أقام في خطة القضاء بالمدينة والخطابة بها نحو أربعين سنة ثم انه أراد الخروج بعد ذلك الى مصر فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم ثلاث مرات في كل مرة ينهاه عن الخروج منها وأخبره باقتراب أجله فلم ينته عن ذلك وخرج فمات بموضع يقال له سويس على مسيرة ثلاث من مصر قبل ان يصل اليها نعوذ بالله من سوء الخاتمة وكان ينوب عنه الفقيه أبو عبد الله محمد بن فرحون رحمه الله وأبناؤه الآن بالمدينة الشريفة أبو محمد عبد الله مدرس المالكية ونائب الحكم وأبو عبد الله محمد وأصلهم من مدينة تونس ولهم بها حسب واصالة وتولى الخطابة والقضاء بالمدينة الشريفة بعد ذلك جمال الدين الاسيوطي من أهل مصر وكان قبل ذلك قاضيا بحصن الكرك

﴿ذكر خدام المسجد الشريف والمؤذنين به﴾

وخدام هذا المسجد الشريف وسدنته فتيان من الاحابيش وسواهم وهم على هيآت حسان وصور نظاف وملابس ظراف وكبيرهم يعرف بشيخ الخدام وهو في هيئة الامراء الكبار ولهم المرتبات بديار مصر والشام ويؤتى اليهم بها في كل سنة ورئيس المؤذنين بالحرم الشريف الامام المحدث الفاضل جمال الدين المطري من مطرية قرية بمصر وولده الفاضل عفيف الدين عبد الله والشيخ المجاور الصالح أبو عبد الله محمد بن محمد الغرناطي المعروف بالتراس قديم المجاورة وهو الذي جب نفسه خوفا من الفتنة ﴿حكاية﴾

يذكر ان أبا عبد الله الغرناطي كان خديما لشيخ يسمى عبد الحميد العجمي وكان الشيخ حسن الظن به يطمئن اليه بأهله وماله ويتركه متى سافر بداره فسافر مرة وتركه على عادته

بمنزله فعلقت به زوجة الشيخ عبد الحميد وراودته عن نفسه فقال اني أخاف الله ولا أخون من ائتمنني على أهله وماله فلم تزل تراوده وتعارضه حتى خاف عن نفسه الفتنة وجب نفسه وغشي عليه ووجده الناس على تلك الحالة فعالجوه حتى برئ وصار من خدام المسجد الكريم ومؤذنابه ورأس الطائفتين وهو باق بقيد الحياة الى هذا العهد

﴿ذكر المجاورين بالمدينة الشريفة﴾

منهم الشيخ الصالح الفاضل أبو العباس أحمد بن محمد بن مرزوق كثير العبادة والصوم والصلاة بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما صابرا محتسبا وكان ربما جاور بمكة المعظمة رأيته بها في سنة ثمان وعشرين وهو أكثر الناس طوافا وكنت أعجب من ملازمته الطواف مع شدة الحر بالمطاف والمطاف مفروش بالحجارة السود وتصير بحر الشمس كانها الصفائح المحماة ولقد رأيت السقائين يصبون الماء عليها فما يجاوز الموضع الذي يصب فيه الا ويلتهب الموضع من حينه وأكثر الطائفين في ذلك الوقت يلبسون الجوارب وكان أبو العباس بن مرزوق يطوف حافي القدمين ورأيته يوما يطوف فاحببت ان أطوف معه فوصلت المطاف وأردت استلام الحجر الاسود فلحقني لهب تلك الحجارة وأردت الرجوع بعد تقبيل الحجر فما وصلته الا بعد جهد عظيم ورجعت فلم أطف وكنت أجعل بجادي على الارض وأمشي عليه حتى بلغت الرواق وكان في ذلك العهد بمكة وزير غرناطة وكبيرها أبو القاسم محمد بن محمد بن الفقيه أبي الحسن سهل بن مالك الازدي وكان يطوف كل يوم سبعين أسبوعا ولم يكن يطوف في وقت القائلة لشدة الحر وكان ابن مرزوق يطوف في شدة القائلة زيادة عليه ومن المجاورين بالمدينة كرمها الله الشيخ الصالح العابد سعيد المراكشي الكفيف ومنهم الشيخ أبو مهدي عيسى بن حزرون المكناسي (حكاية) جاور الشيخ أبو مهدي بمكة سنة ثمان وعشرين وخرج الى جبل حراء مع جماعة من المجاورين فلما صعدوا الجبل ووصلوا المتعبد النبي صلى الله عليه وسلم تسليما ونزلوا عنه تأخر أبو مهدي عن الجماعة ورأى طريقا في الجبل فظنه قاصرا فسلك عليه ووصل الصحابة الى أسفل الجبل فانتظروه فلم يأت فتطلعوا فيما حولهم فلم يروا له أثرا فظنوا انه

سبقهم فمضوا الي مكة شرفها الله تعالي ومر عيسى على طريقه فافضي به الي جبل آخر وتاه
عن الطريق واجهده العطش والحر وتمزقت نعله فكان يقطع من ثيابه ويلف على رجليه
الي ان ضعف عن المشي واستظل بشجرة ام غيلان فبعث الله اعرابيا على جمل حتى وقف
عليه فأعامه بحاله فاركبه واوصله الي مكة وكان على وسطه هميان فيه ذهب فسلمه اليه واقام
نحو شهر لا يستطيع القيام علي قدميه وذهبت جلدتهما ونبتت لهما جلدة أخرى وقد جرى
مثل ذلك لصاحب لي اذكره ان شاء الله ومن المجاورين بالمدينة الشريفة أبو محمد الشروى
من القراء المحسنين وجاور بمكة في السنة المذكورة وكان يقرأ بها كتاب الشفاء للقاضي
عياض بعد صلاة الظهر وأم في التراويح بها ومن المجاورين الفقيه أبو العباس الفاسي
مدرس المالكية بها وتزوج بنت الشيخ الصالح شهاب الدين الزرندي (حكاية)
يذكر ان أبا العباس الفاسي تكلم يوما مع بعض الناس فانتهي به الكلام الي ان تكلم بعظيمة
ارتكب فيها بسبب جهله بعلم النسب وعدم حفظه للسانه مرتكبا صعبا عفا الله عنه فقال ان
الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام لم يعقب فبلغ كلامه الي أمير المدينة طفيل بن
منصور بن جماز الحسني فانكر كلامه وحق انكاره واراد قتله فكلم فيه فنفاه عن المدينة
ويذكر انه بعث من اغتاله والى الآن لم يظهر له أثر نعوذ بالله من عثرات اللسان وزلله

﴿ذكر أمير المدينة الشريفة﴾

كان أمير المدينة كبيش بن منصور بن جماز وكان قد قتل عمه مقبلا ويقال انه توضأ بدمه
ثم ان كبيشا خرج سنة سبع وعشرين الى الفلاة في شدة الحر ومعه أصحابه فادركتهم القائلة
في بعض الايام فتفرقوا تحت ظلال الاشجار فما راعهم الا وابناء مقبل في جماعة من
عبيدهم ينادون يالثارات مقبل فقتلوا كبيش بن منصور صبرا ولعقوا دمه وتولي بعده
أخوه طفيل بن منصور الذي ذكرنا انه نفى أبا العباس الفاسي

﴿ذكر بعض المشاهد الكريمة بخارج المدينة الشريفة﴾

فمنها بقيع الغرقد وهو بشرقي المدينة المكرمة ويخرج اليه على باب يعرف بباب البقيع فاول
مايلقى الخارج اليه على يساره عند خروجه من الباب قبر صفية بنت عبد المطلب رضي الله

عنهما وهي عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وأم الزبير بن العوام رضي الله عنه وامامها قبر امام المدينة أبي عبد الله مالك بن أنس رضي الله عنه وعليه قبة صغيرة مختصرة البناء وامامه قبر السلالة الطاهرة المقدسة النبوية الكريمة ابراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وعليه قبة بيضاء وعن يمينها تربة عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وهو المعروف بأبي شحمة وبازائه قبر عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه وقبر عبد الله ابن ذي الجناحين جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما وبازائهم روضة يذكر ان قبور أمهات المؤمنين بها رضي الله عنهن ويليها روضة فيها قبر العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام وهي قبة ذاهبة في الهواء بديعة الاحكام عن يمين الخارج من باب البقيع ورأس الحسن الى رجلي العباس عليهما السلام وقبراهما مرتفعان عن الارض متسعان مغشيان بالواح بديعة الالصاق مرصعة بصفائح الصفر البديعة العمل وبالبقيع قبور المهاجرين والانصار وسائر الصحابة رضي الله عنهم الا انها لا يعرف أكثرها وفي آخر البقيع قبر أمير المؤمنين أبي عمر عثمان ابن عفان رضي الله عنه وعليه قبة كبيرة وعلى مقربة منه قبر فاطمة بنت أسد بن هاشم أم علي ابن أبي طالب رضي الله عنها وعن ابنها ومن المشاهد الكريمة قباء وهو قبلي المدينة على نحو ميلين منها والطريق بينهما في حدائق النخل وبه المسجد الذي اسس على التقوى والرضوان وهو مسجد مربع فيه صومعة بيضاء طويلة تظهر على البعد وفي وسطه مبرك الناقة بالنبي صلى الله عليه وسلم تسليما يتبرك الناس بالصلاة فيه وفي الجهة القبلية من صحنه محراب على مسطبة هو أول موضع ركع فيه النبي صلى الله عليه وسلم تسليما وفي قبلي المسجد دار كانت لابي أيوب الانصاري رضي الله عنه ويليها دور تنسب لابي بكر وعمر وفاطمة وعائشة رضي الله عنهم وبازائه بئر اريس وهي التي عاد ماؤها عذبا لما تفل فيه النبي صلى الله عليه وسلم تسليما بعد أن كان أجاجا وفيها وقع الخاتم الكريم من عثمان رضي الله عنه ومن المشاهد قبة حجر الزيت بخارج المدينة الشريفة يقال ان الزيت رشح من حجر هنالك للنبي صلى الله عليه وسلم تسليما والى جهة الشمال منه بئر بضاعة وبازائها جبل الشيطان حيث

صرخ يوم أحد وقال قتل نبيكم وعلى شفير الخندق الذي حفره رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما عند تحزب الاحزاب حصن خرب يعرف بحصن العزاب يقال ان عمر بناه لعزاب المدينة وامامه الي جهة الغرب بئر رومة التي اشترى أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه نصفها بعشرين الفا ومن المشاهد الكريمة أحد وهو الجبل المبارك الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ان أحدا جبل يحبنا ونحبه وهو يجوفي المدينة الشريفة على نحو فرسخ منها وبازائه الشهداء المكرمون رضي الله عنهم وهنالك قبر حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ورضي الله عنه وحوله الشهداء المستشهدون في أحد رضي الله عنهم وقبورهم اقبلي أحد وفي طريق أحد مسجد ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ومسجد ينسب الي سلمان الفارسي رضي الله عنه ومسجد الفتح حين أنزلت سورة الفتح على رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وكانت اقامتنا بالمدينة الشريفة في هذه الوجهة أربعة أيام وفي كل ليلة نبيت بالمسجد الكريم والناس قد حلقوا في صحنه حلقا وأوقدوا الشمع الكثير وبينهم ربعات القرآن الكريم يتلونه وبعضهم يذكرون الله وبعضهم في مشاهدة التربة الطاهرة زادها الله طيبا والحداة بكل جانب يترنمون بمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وهكذا دأب الناس في تلك الليالي المباركة ويجودون بالصدقات الكثيرة على المجاورين والمحتاجين وكان في صحبتي في هذه الوجهة من الشام الي المدينة الشريفة رجل من أهلها فاضل يعرف بمنصور بن شكل وأضافني بها واجتمعنا بعد ذلك بحلب وبخاري وكان في صحبتي أيضاً قاضي الزيدية شرف الدين قاسم بن سنان وصحبني أيضاً أحد الصالحاء الفقراء من أهل غرناطة يسمي بعلي بن حجر الاموي (حكاية) لما وصلنا الي المدينة كرمها الله على ساكنها أفضل الصلاة ذكر لي علي بن حجر المذكور انه رأي تلك الليلة في النوم قائلا يقول له اسمع مني واحفظ عني (طويل)

هنيأ لكم يازائرين ضريحه * أمنتم به يوم المعاد من الرجس

وصلتم الى قبر الحبيب بطيبة * فطوبى لمن يضحي بطيبة أو يمسي

وجاور هذا الرجل بعد صحبه بالمدينة ثم رحل الي مدينة دهلي قاعدة بلاد الهند في سنة

ثلاث وأربعين فنزل في جواري وذكرت حكاية رؤياه بين يدي ملك الهند فأمر باحضاره فحضر بين يديه وحكى له ذلك فأعجبه واستحسنه وقال له كلاما جميلا بالفارسية وأمر بانزاله واعطاه ثلاثمائة تنكة من ذهب ووزن التنكة من دنانير المغرب ديناران ونصف دينار واعطاه فرسا محلى السرج واللجام وخلعة وعين له مرتبا في كل يوم وكان هنالك فقيه طيب من أهل غرناطة ومولده ببجاية يعرف هنالك بجمال الدين المغربي فصحبه علي بن حجر المذكور وواعده على ان يزوجه بنته وأنزله بدويرة خارج داره واشترى جارية وغلاما وكان يترك الدنانير في مفرش ثيابه ولا يطمئن بها لاحد فاتفق الغلام والجارية على أخذ ذلك الذهب واخذاه وهربا فلما اتى الدار لم يجد لهما أثرا ولا للذهب فامتنع من الطعام والشراب واشتد به المرض أسفا على ماجرى عليه فعرضت قضيته بين يدي الملك فامر أن يخلف له ذلك فبعث اليه من يعلمه بذلك فوجده قد مات رحمه الله تعالى وكان رحيلنا من المدينة نريد مكة شرفهما الله تعالى فنزلنا بقرب مسجد ذي الحليفة الذي أحرم منه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما والمدينة منه على خمسة أميال وهو منتهى حرم المدينة وبالقرب منه وادي العقيق وهنالك تجردت من مخيط الثياب واغتسلت ولبست ثوب احرامي وصليت ركعتين واحرمت بالحج مفردا ولم أزل ملبيا في كل سهل وجبل وصعود وحدور الى ان أتيت شعب علي عليه السلام وبه نزلت تلك الليلة ثم رحلنا منه ونزلنا بالروحاء وبها بئر تعرف ببئر ذات العلم ويقال ان عليا عليه السلام قاتل بها الجن ثم رحلنا ونزلنا بالصفراء وهو واد معمور فيه ماء ونخل وبنيان وقصر يسكنه الشرفاء الحسنيون وسواهم وفيها حصن كبير وتواليه حصون كثيرة وقرى متصلة ثم رحلنا منه ونزلنا ببدر حيث نصر الله رسوله صلى الله عليه وسلم تسليما وانجز وعده الكريم واستأصل صناديد المشركين وهي قرية فيها حدائق نخل متصلة وبها حصن منيع يدخل اليه من بطن واد بين جبال وببدر عين فوارة يجري ماؤها وموضع القليب الذي سحب به أعداء الله المشركون هو اليوم بستان وموضع الشهداء رضي الله عنهم خلفه وجبل الرحمة الذي نزلت به الملائكة على يسار الداخل منه الى الصفراء وبازائه جبل الطبول وهو شبه كثيب الرمل

ممتد ويزعم أهل تلك البلدة أنهم يسمعون هنالك مثل أصوات الطبول في كل ليلة جمعة وموضع عريش رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان به يوم بدر يناشد ربه جل وتعالى متصل بسفح جبل الطبول وموضع الوقيعة امامه وعند نخل القليب مسجد يقال له مبرك ناقة النبي صلى الله عليه وسلم تسليما وبين بدر والصفراء نحو بريد في واد بين جبال تطرد فيه العيون وتتصل حدائق النخل ورحلنا من بدر الى الصحراء المعروفة بقاع البزواء وهي برية يضل بها الدليل ويذهل عن خليله الخليل مسيرة ثلاث وفي منتهاها وادي رابغ يتكون فيه بالمطر غدران يبقى بها الماء زمانا طويلا ومنه يحرم حجاج مصر والمغرب وهو دون الجحفة وسرنا من رابغ ثلاثا الى خليص ومررنا بعقبة السويق وهي على مسافة نصف يوم من خليص كثيرة الرمل والحجاج يقصدون شرب السويق بها ويستصحبونه من مصر والشام برسم ذلك ويسقونه الناس مخلطا بالسكر والامراء يملؤن منه الاحواض ويسقونها الناس ويذكران رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بها ولم يكن مع أصحابه طعام فأخذ من رملها فاعطاهم اياه فشربوه سويقا ثم نزلنا بركة خليص وهي في بسيط من الارض كثيرة حدائق النخل لها حصن مشيد في قنة جبل وفي البسيط حصن خرب وبها عين فوارة قد صنعت لها أخاديد في الارض وسربت الى الضياع وصاحب خليص شريف حسني النسب وعرب تلك الناحية يقيمون هنالك سوقا عظيمة يجلبون اليها الغنم والتمر والادام ثم رحلنا الي عسفان وهي في بسيط من الارض بين جبال وبها آبار ماء معين تنسب احداها الي عثمان بن عفان رضي الله عنه والمدرج المنسوب الي عثمان أيضا على مسافة نصف يوم من خليص وهو مضيق بين جبلين وفي موضع منه بلاط على صورة درج أثر عمارة قديمة وهنالك بئر تنسب الي علي عليه السلام ويقال انه أحدثها وبعسفان حصن عتيق وبرج مشيد قد أوهنه الخراب وبه من شجر المقل كثير ثم ارحلنا من عسفان ونزلنا بطن مر ويسمى أيضا مر الظهران وهو واد مخصب كثير النخل ذو عين فوارة سيالة تسقى تلك الناحية ومن هذا الوادي تجلب الفواكه والخضر الي مكة شرفها الله تعالي ثم أدلجنا من هذا الوادي المبارك والنفوس مستبشرة ببلوغ

آمالهما مسرورة بحالها ومآلها فوصلنا عند الصباح الي البلد الامين مكة شرفها الله تعالي فوردنا منها على حرم الله تعالي ومبوأ خليله ابراهيم ومبعث صفيه محمد صلى الله عليه وسلم ودخلنا البيت الحرام الشريف الذي من دخله كان آمنا من باب بني شيبة وشاهدنا الكعبة الشريفة زادها الله تعظيما وهي كالعروس تجلي على منصة الجلال وترفل في برود الجمال محفوفة بوفود الرحمن موصلة الى جنة الرضوان وطفنا بها طواف القدوم واستلمنا الحجر الكريم وصلينا ركعتين بمقام ابراهيم وتعلقنا بأستار الكعبة عند الملتزم بين الباب والحجر الاسود حيث يستجاب الدعاء وشربنا من ماء زمزم وهو لما شرب له حسبما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم تسليما ثم سعينا بين الصفا والمروة ونزلنا هنالك بدار بتربة من باب ابراهيم والحمد لله الذي شرفنا بالوفادة على هذا البيت الكريم وجعلنا ممن بلغته دعوة الخليل عليه الصلاة والتسليم ومتع أعيننا بمشاهدة الكعبة الشريفة والمسجد المعظم والحجر الكريم وزمزم والحطيم ومن عجائب صنع الله تعالي انه طبع القلوب على النزوع الى هذه المشاهد المنيفة والشوق الى المثول بمعاهدها الشريفة وجعل حبها متمكنا في القلوب فلا يحلها أحد الا أخذت بمجامع قلبه ولا يفارقها الا أسفا لفراقها متولها لبعاده عنها شديد الحنين اليها ناويا لتكرار الوفادة عليها فارضها المباركة نصب الاعين ومحبتها حشو القلوب حكمة من الله بالغة وتصديقا لدعوة خليله عليه السلام والشوق يحضرها وهي نائية ويمثلها وهي غائبة ويهون على قاصدها ما يلقاه من المشاق ويعانيه من العناء وكم من ضعيف يرى الموت عيانا دونها ويشاهد التلف في طريقها فاذا جمع الله بها شمله تلقاها مسرورا مستبشرا كأنه لم يذق لها مرارة ولا كابد محنة ولا نصبا انه لامر الالهي وصنع رباني ودلالة لا يشوبها لبس ولا تغشاها شبهة ولا يطرقها تمويه وتعز في بصيرة المستبصرين وتبدو في فكرة المتفكرين ومن رزقه الله تعالي الحلول بتلك الارجاء والمثول بذلك الفناء فقد أنعم الله عليه النعمة الكبرى وخوله خير الدارين الدنيا والاخرى فحق عليه ان يكثر الشكر على ما خوله ويديم الحمد على ما أولاه جعلنا الله تعالي ممن قبلت زيارته وربحت في قصدها تجارته وكتبت في سبيل الله آثاره ومحيت بالقبول أوزاره بمنه وكرمه

﴿ذكر مدينة مكة المعظمة﴾

وهي مدينة كبيرة متصلة البنيان مستطيلة في بطن واد تحف به الجبال فلا يراها قاصدها حتى يصل اليها وتلك الجبال المطلة عليها ليست بمفرطة الشموخ والاخشبان من جبالها هما جبل أبي قبيس وهو في جهة الجنوب منها وجبل قعيقعان وهو في جهة منها وفي الشمال منها الجبل الاحمر ومن جهة أبي قبيس أجياد الاكبر وأجياد الاصغر وهما شعبان والخندمة وهي جبل وستذكر والمناسك كلها منى وعرفة والمزدلفة بشرقي مكة شرفها الله ولمكة من الابواب ثلاثة باب المعلى باعلاها وباب الشبيكة من أسفلها ويعرف أيضا بباب الزاهر وباب العمرة وهو الى جهة المغرب وعليه طريق المدينة الشريفة ومصر والشام وجدة ومنه يتوجه الي التنعيم وسيذكر ذلك وباب المسفل وهو من جهة الجنوب ومنه دخل خالد بن الوليد رضي الله عنه يوم الفتح ومكة شرفها الله كما أخبر الله في كتابه العزيز حاكيا عن نبيه الخليل بواد غير ذي زرع ولكن سبقت لها الدعوة المباركة فكل طرفة تجلب اليها وثمرات كل شيء تجبي لها ولقد أكلت بها من الفواكه العنب والتين والخوخ والرطب ما لا نظير له في الدنيا وكذلك البطيخ المجلوب اليها لا يماثله سواه طيبا وحلاوة واللحوم بها سمان لذيذات الطعوم وكل ما يفترق في البلاد من السلع فيها اجتماعه وتجلب لها الفواكه والخضر من الطائف ووادي نخلة وبطن مر لطفا من الله بسكان حرمه الأمين ومجاوري بيته العتيق

﴿ذكر المسجد الحرام شرفه الله وكرمه﴾

والمسجد الحرام في وسط البلد وهو متسع الساحة طوله من شرق الى غرب أزيد من أربعمائة ذراع حكى ذلك الازرقي وعرضه يقرب من ذلك والكعبة العظمى في وسطه ومنظره بديع ومرآه جميل لا يتعاطى اللسان وصف بدائعه ولا يحيط الواصف بحسن كماله وارتفاع حيطانه نحو عشرين ذراعا وسقفه على أعمدة طوال مصطفة ثلاثة صفوف بأتقن صناعة وأجملها وقد انتظمت بلاطاته الثلاثة انتظاما عجيبا كأنها بلاط واحد وعدد سواريه الرخامية أربعمائة واحدى وتسعون سارية ماعدا الجصية التي في دار الندوة

المزيدة في الحرم وهي داخلة في البلاط الآخذ في الشمال ويقابلها المقام مع الركن العراقي وفضاؤها متصل يدخل من هذا البلاط اليه ويتصل بجدار هذا البلاط مساطب تحت قسي حنايا يجلس بها المقرؤن والنساخون والخياطون وفي جدار البلاط الذي يقابله مساطب تماثلها وسائر البلاطات تحت جداراتها مساطب بدون حنايا وعند باب ابراهيم مدخل من البلاط الغربي فيه سواري جصية وللخليفة المهدي محمد بن الخليفة أبي جعفر المنصور رضي الله عنهما آثار كريمة في توسيع المسجد الحرام واحكام بنائه وفي أعلى جدار البلاط الغربي مكتوب أمر عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين أصلحه الله بتوسعة المسجد الحرام لحاج بيت الله وعمارته في سنة سبع وستين ومائة

﴿ذكر الكعبة المعظمة الشريفة زادها الله تعظيما وتكريما﴾

والكعبة ماثلة في وسط المسجد وهي بنية مربعة ارتفاعها في الهواء من الجهات الثلاث ثمان وعشرون ذراعا ومن الجهة الرابعة التي بين الحجر الاسود والركن اليماني تسع وعشرون ذراعا وعرض صفحتها التي من الركن العراقي الى الحجر الاسود أربعة وخمسون شبرا وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن اليماني الى الركن الشامي وعرض صفحتها التي من الركن العراقي الى الركن الشامي من داخل الحجر ثمانية وأربعون شبرا وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن الشامي الى الركن العراقي وأما خارج الحجر فانه مائة وعشرون شبرا والطواف انما هو خارج الحجر وبناؤها بالحجارة الصم السمر قد ألصقت بابدع الالصاق وأحكمه وأشده فلا تغيرها الايام ولا تؤثر فيها الازمان وباب الكعبة المعظمة في الصفح الذي بين الحجر الاسود والركن العراقي بينه وبين الحجر الاسود عشرة أشبار وذلك الموضع هو المسمي بالملتزم حيث يستجاب الدعاء وارتفاع الباب عن الارض أحد عشر شبرا ونصف شبر وسعته ثمانية أشبار وطوله ثلاثة عشر شبرا وعرض الحائط الذي ينطوي عليه خمسة أشبار وهو مصفح بصفائح الفضة بديع الصنعة وعضادتاه وعتبته العليا مصفحات بالفضة وله نقارتان كبيرتان من فضة عليهما قفل ويفتح الباب الكريم في كل يوم جمعة بعد الصلاة ويفتح في يوم

مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ورسمهم في فتحه ان يضعوا كرسيا شبه المنبر له درج وقوائم خشب لها أربع بكرات يجري الكرسي عليها ويلصقونه الى جدار الكعبة الشريفة فيكون درجه الاعلى متصلا بالعتبة الكريمة ثم يصعد كبير الشيبيين وبيده المفتاح الكريم ومعه السدنة فيمسكون الستر المسبل على باب الكعبة المسمى بالبرقع بخلاف ما يفتح رئيسهم الباب فاذا فتحه قبل العتبة الشريفة ودخل البيت وحده وسد الباب وأقام قدر ما يركع ركعتين ثم يدخل سائر الشيبيين ويسدون الباب أيضا ويركعون ثم يفتح الباب ويبادر الناس بالدخول وفي أثناء ذلك يقفون مستقبلين الباب الكريم بابصار خاشعة وقلوب ضارعة وأيد مبسوطة الى الله تعالى فاذا فتح كبروا ونادوا اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك يا أرحم الراحمين وداخل الكعبة الشريفة مفروش بالرخام المجزع وحيطانه كذلك وله أعمدة ثلاثة طوال مفرطة الطول من خشب الساج بين كل عمود منها وبين الآخر أربع خطا وهي متوسطة في الفضاء داخل الكعبة الشريفة يقابل الاوسط منها نصف عرض الصفح الذي بين الركنين العراقي والشامي وستور الكعبة الشريفة من الحرير الاسود مكتوب فيها بالابيض وهي تتلألأ عليها نورا واشراقا وتكسو جميعها من الاعلى الى الارض. ومن عجائب الآيات في الكعبة الكريمة ان بابها يفتح والحرم غاص بأمم لا يحصيها الا الله الذي خلقهم ورزقهم فيدخلونها أجمعين ولا تضيق عنهم ومن عجائبها انها لا تخلو عن طائف أبدا ليلا ولا نهارا ولم يذكر أحد انه رآها قط دون طائف ومن عجائبها ان حمام مكة على كثرته وسواه من الطير لا ينزل عليها ولا يعلوها في الطيران وتجد الحمام يطير على أعلى الحرم كله فاذا حاذى الكعبة الشريفة عرج عنها الى احدى الجهات ولم يعلها ويقال انه لا ينزل عليها طائر الا اذا كان به مرض فاما ان يموت لحينه أو يبرأ من مرضه فسبحان الذي خصها بالتشريف والتكريم وجعل لها المهابة والتعظيم

﴿ ذكر الميزاب المبارك ﴾

والميزاب في اعلى الصفح الذي على الحجر وهو من الذهب وسعته شبر واحد وهو بارز

بمقدار ذراعين والموضع الذي تحت الميزاب مظنة استجابة الدعاء وتحت الميزاب في الحجر هو قبر اسمعيل عليه السلام وعليه رخامة خضراء مستطيلة على شكل محراب متصلة برخامة خضراء مستديرة وكلتاهما سعتها مقدار شبر ونصف شبر وكلتاهما غريبة الشكل رائقة المنظر والى جانبه مما يلي الركن العراقي قبر أمه هاجر عليها السلام وعلامته رخامة خضراء مستديرة سعتها مقدار شبر ونصف وبين القبرين سبعة اشبار

﴿ذكر الحجر الاسود﴾

وأما الحجر فارتفاعه عن الارض ستة أشبار فالطويل من الناس يتطامن لتقبيله والصغير يتطاول اليه وهو ملصق في الركن الذي الي جهة المشرق وسعته ثلثا شبر وطوله شبر وعقد ولا يعلم قدر مادخل منه في الركن وفيه أربع قطع ملصقة ويقال ان القرمطي لعنه الله كسره وقيل ان الذي كسره سواه ضربه بدبوس فكسره وتبادر الناس الى قتله وقتل بسببه جماعة من المغاربة وجوانب الحجر مشدودة بصفيحة من فضة يلوح بياضها على سواد الحجر الكريم فيجتلي منه العيون حسنا باهرا ولتقبيله لذة يتنعم بها الفم ويود لاثمه ان لا يفارق لثمه خاصية مودعة فيه وعناية ربانية به وكفى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم انه يمين الله في أرضه نفعنا الله باستلامه ومصافحته واوفد عليه كل شيق اليه وفي القطعة الصحيحة من الحجر الاسود مما يلي جانبه الموالي ليمين مستلمه نقطة بيضاء صغيرة مشرقة كأنها خال في تلك الصفحة البهية وترى الناس اذا طافوا بها يتساقط بعضهم على بعض ازدحاما على تقبيله فقلما يتمكن أحد من ذلك الا بعد المزاحمة الشديدة وكذلك يصنعون عند دخول البيت الكريم ومن عند الحجر الاسود ابتداء الطواف وهو اول الاركان التي يلقاها الطائف فاذا استلمه تقهقر عنه قليلا وجعل الكعبة الشريفة عن يساره ومضى في طوافه ثم يلقى بعده الركن العراقي وهو الى جهة الشمال ثم يلقى الركن الشامي وهو الى جهة الغرب ثم يلقى الركن اليماني وهو الى جهة الجنوب ثم يعود الى الحجر الاسود وهو الي جهة الشرق

﴿ذكر المقام الكريم﴾

اعلم ان بين باب الكعبة شرفها الله و بين الركن العراقي موضعا طوله اثنا عشر شبرا و عرضه نحو نصف من ذلك وارتفاعه نحو شبرين وهو موضع المقام في مدة ابراهيم عليه السلام ثم صرفه النبي صلى الله عليه وسلم الى الموضع الذي هو الآن مصلى و بقي ذلك الموضع شبه الحوض واليه ينصب ماء البيت الكريم اذا غسل وهو موضع مبارك يزدحم الناس للصلاة فيه وموضع المقام الكريم يقابل ما بين الركن العراقي والباب الكريم وهو الي الباب أميل وعليه قبة تحتها شباك حديد متجاف عن المقام الكريم قدر ما تصل أصابع الانسان اذا أدخل يده من ذلك الشباك الى الصندوق والشباك مقفل ومن ورائه موضع محوز قد جعل مصلى لركعتي الطواف وفي الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما لما دخل المسجد أتى البيت فطاف به سبعا ثم أتي المقام فقرأ واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وركع خلفه ركعتين وخلف المقام مصلي امام الشافعية في الحطيم الذي هنالك

﴿ذكر الحجر والمطاف﴾

ودور جدار الحجر تسع وعشرون خطرة وهي أربعة وتسعون شبرا من داخل الدائرة وهو بالرخام البديع المجزع المحكم الالصاق وارتفاعه خمسة اشبار ونصف شبر وسعته اربعة أشبار ونصف شبر وداخل الحجر بلاط واسع مفروش بالرخام المجزع المنتظم معجز الصنعة البديع الاتقان وبين جدار الكعبة الشريفة الذي تحت الميزاب وبين ما يقابله من جدار الحجر على خط استواء أربعون شبرا وللحجر مدخلان أحدهما بينه وبين الركن العراقي وسعته ستة أذرع وهذا الموضع هو الذي تركته قريش من البيت حين بنته كما جاءت الآثار الصحاح والمدخل الآخر عند الركن الشامي وسعته ايضا ستة أذرع بين المدخلين ثمانية وأربعون شبرا وموضع الطواف مفروش بالحجارة السود محكمة الالصاق وقد اتسعت عن البيت بمقدار تسع خطا الا في الجهة التي تقابل المقام الكريم فانها امتدت اليه حتى احاطت به وسائر الحرم مع البلاطات مفروش برمل أبيض وطواف النساء في آخر الحجارة المفروشة

﴿ذكر زمزم المباركة﴾

وقبة بئر زمزم تقابل الحجر الاسود وبينهما أربع وعشرون خطوة والمقام الكريم عن

يمين القبة ومن ركنها اليه عشر خطا وداخل القبة مفروش بالرخام الابيض وتنور البئر المباركة في وسط القبة مائلا الى الجدار المقابل للكعبة الشريفة وهو من الرخام البديع الالصاق مفروغ بالرصاص ودوره أربعون شبرا وارتفاعه أربعة أشبار ونصف شبر وعمق البئر أحد عشرة قامة وهم يذكرون ان ماءها يتزايد في كل ليلة جمعة وباب القبة الى جهة الشرق وقد استدارت بداخل القبة سقاية سعتها شبر وعمقها مثل ذلك وارتفاعها عن الارض نحو خمسة أشبار تملأ ماء للوضوء وحولها مسطبة دائرة يقعد الناس عليها للوضوء ويلي قبة زمزم قبة الشراب المنسوبة الى العباس رضي الله عنه وبابها الى جهة الشمال وهي الآن يجعل بها ماء زمزم في قلال يسمونها الدوارق وكل دورق له مقبض واحد وتترك بها ليبرد فيها الماء فيشربه الناس وبها اختزان المصاحف الكريمة والكتب التي للحرم الشريف وبها خزانة تحتوي على تابوت مبسوط متسع فيه مصحف كريم بخط زيد بن ثابت رضي الله عنه منتسخ سنة ثماني عشرة من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وأهل مكة اذا أصابهم قحط أو شدة أخرجوا هذا المصحف الكريم وفتحوا باب الكعبة الشريفة ووضعوه على العتبة الشريفة ووضعوه في مقام ابراهيم عليه السلام واجتمع الناس كاشفين رؤسهم داعين متضرعين متوسلين بالمصحف العزيز والمقام الكريم فلا ينفصلون الا وقد تداركهم الله برحمته وتغمدهم بلطفه ويلي قبة العباس رضي الله عنه على انحراف القبة المعروفة بقبة اليهودية

﴿ذكر أبواب المسجد الحرام وما دار به من المشاهد الشريفة﴾

وابواب المسجد الحرام شرفه الله تعالى تسعة عشر بابا أكثرها مفتحة على أبواب كثيرة فمنها باب الصفا وهو مفتح على خمسة أبواب وكان قديما يعرف بباب بني مخزوم وهو أكبر أبواب المسجد ومنه يخرج الى المسعى ويستحب للوافد على مكة ان يدخل المسجد الحرام شرفه الله من باب بني شيبة ويخرج بعد طوافه من باب الصفا جاعلا طريقه بين الاسطوانتين اللتين أقامهما أمير المؤمنين المهدي رحمه الله علما على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما الى الصفا ومنها باب أجياد الاصغر مفتح على بابين ومنها باب الخياطين

مفتح على بابين ومنها باب العباس رضي الله عنه مفتح على ثلاثة أبواب ومنها باب النبي صلى الله عليه وسلم تسليما مفتح على بابين ومنها باب بني شيبة وهو في ركن الجدار الشرقي من جهة الشمال امام باب الكعبة الشريفة متياسرا وهو مفتح على ثلاثة أبواب وهو باب بني عبد شمس ومنه كان دخول الخلفاء ومنها باب صغير ازاء باب بني شيبة لا اسم له وقيل يسمى باب الرباط نه يدخل منه لرباط السدرة ومنها باب الندوة ويسمي بذلك ثلاثة أبواب اثنان منتظمان والثالث في الركن الغربي من دار الندوة ودار الندوة قد جعلت مسجدا شارعا في الحرم مضافا اليه وهي تقابل الميزاب ومنها باب صغير لدار العجلة محدث ومنها باب السدرة واحد ومنها باب العمرة واحد وهو من أجمل أبواب الحرم ومنها باب ابراهيم واحد والناس مختلفون في نسبته فبعضهم ينسبه الى ابراهيم الخليل عليه السلام والصحيح انه منسوب الي براهيم الخوزي من الاعاجم ومنها باب الحزورة مفتح على بابين ومنها باب اجياد الاكبر مفتح على بابين ومنها باب ينسب الى اجياد ايضاً مفتح على بابين وباب ثالث ينسب اليه مفتح على بابين ويتصل لباب الصفا ومن الناس من ينسب البابين من هذه الاربعة المنسوبة لاجياد الي الدقاقين وصوامع المسجد الحرام خمس احداهن على ركن أبي قبيس عند بابه الصفا والاخرى على ركن باب بني شيبة والثالثة على باب دار الندوة والرابعة على ركن باب السدرة والخامسة على ركن اجياد وبمقربة من باب العمرة مدرسة عمرها السلطان المعظم يوسف بن رسول ملك اليمن المعروف بالملك المظفر الذي تنسب اليه الدراهم المظفرية باليمن وهو كان يكسو الكعبة الى أن غلبه على ذلك الملك المنصور قلاوون وبخارج باب ابراهيم زاوية كبيرة فيها دار امام المالكية الصالح أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن المدعو بخليل وعلى باب ابراهيم قبة عظيمة مفرطة السمو قد صنع في داخلها من غرائب صنع الجص ما يعجز عنه الوصف وبازاء هذا الباب عن يمين الداخل اليه كان يقعد الشيخ العابد جلال الدين محمد بن أحمد الاقشهري وخارج باب ابراهيم بئر تنسب كنسبته وعنده يضا دار الشيخ الصالح دانيال العجمي الذي كانت صدقات العراق في أيام السلطان أبي سعيد تأتي على يديه وبمقربة منه رباط الموفق وهو من أحسن الرباطات سكنته أيام

مجاورتي بمكة المعظمة وكان به في ذلك العهد الشيخ الصالح أبو عبد الله الزواوي المغربي وسكن به أيضا الشيخ الصالح الطيار سعادة الجراني ودخل يوما الي بيته بعد صلاة العصر فوجد ساجدا مستقبل الكعبة الشريفة ميتاما من غير مرض كان به رضي الله عنه وسكن به الشيخ الصالح شمس الدين محمد الشامي نحوا من أربعين سنة وسكن به الشيخ الصالح شعيب المغربي من كبار الصالحين دخلت عليه يوما فلم يقع بصري في بيته على شيء سوى حصير فقلت له في ذلك فقال لي استر على ما رأيت وحول الحرم الشريف دور كثيرة لها مناظر وسطوح يخرج منها الى سطح الحرم وأهلها في مشاهدة البيت الشريف على الدوام ودور لها أبواب تفضي الى الحرم منها دار زبيدة زوج الرشيد أمير المؤمنين ومنها دار العجلة ودار الشرابي وسواها ومن المشاهد الكريمة بمقربة من المسجد الحرام قبة الوحي وهي في دار خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها بمقربة من باب النبي صلى الله عليه وسلم وفي البيت قبة صغيرة حيث ولدت فاطمة عليها السلام وبمقربة منها دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه ويقابلها جدار مبارك فيه حجر مبارك بارز طرفه من الحائط يستلمه الناس ويقال انه كان يسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ويذكر ان النبي صلى الله عليه وسلم تسليما جاء يوما الي دار أبي بكر الصديق ولم يكن حاضرا فناداه النبي صلى الله عليه وسلم تسليما فنطق ذلك الحجر وقال يا رسول الله انه ليس بحاضر

﴿ ذكر الصفا والمروة ﴾

ومن باب الصفا الذي هو أحد أبواب المسجد الحرام الي الصفا ست وسبعون خطوة وسعة الصفا سبع عشر خطوة وله أربع عشرة درجة علياهن كأنها مسطبة وبين الصفا والمروة أربعمائة وثلاث وتسعون خطوة منها من الصفا الى الميل الاخضر ثلاث وتسعون خطوة ومن الميل الاخضر الى الميلين الاخضرين خمس وسبعون خطوة ومن الميلين الاخضرين الى المروة ثلاثمائة وخمس وعشرون خطوة وللمروة خمس درجات وهي ذات قوس واحد كبير وسعة المروة سبع عشرة خطوة والميل الاخضر هو سارية خضراء مثبتة مع ركن الصومعة التي على الركن الشرقي من الحرم عن يسار الساعي الي المروة والميلان

الاخضران هما ساريتان خضراوان ازاء باب علي من أبواب الحرم أحدهما في جدار الحرم عن يسار الخارج من الباب والاخرى تقابلها وبين الميل الاخضر والميلين الاخضرين يكون الرمل ذاهباً وعائداً وبين الصفا والمروة مسيل فيه سوق عظيمة يباع فيها الحبوب واللحم والتمر والسمن وسواها من الفواكه والساعون بين الصفا والمروة لا يكادون يخلصون لازدحام الناس على حوانيت الباعة وليس بمكة سوق منتظمة سوى هذه الا البزازون والعطارون عند باب بني شيبة وبين الصفا والمروة دار العباس رضى الله عنه وهي الآن رباط يسكنه المجاورون عمره الملك الناصر رحمه الله وبني أيضاً دار وضوء فيما بين الصفا والمروة سنة ثمان وعشرين وجعل لها بابين أحدهما في السوق المذكور والآخر في سوق العطارين وعليها ربع يسكنه خدامها وتولى بناء ذلك الامير علاء الدين بن هلال وعن يمين المروة دار أمير مكة سيف الدين عطيفة بن أبي نمي وسنذكره

﴿ذكر الجبانة المباركة﴾

وجبانة مكة خارجة باب المعلي ويعرف ذلك الموضع أيضاً بالحجون واياه عنى الحرث بن مضاض الجرهمي بقوله (طويل)

كان لم يكن بين الحجون الي الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا * صروف الليالى والجدود العواثر

وبهذه الجبانة مدفن الجم الغفير من الصحابة والتابعين والعلماء والصالحين والاولياء الا أن مشاهدهم دثرت وذهب عن أهل مكة علمها فلا يعرف منها الا القليل فمن المعروف منها قبر أم المؤمنين ووزير سيد المرسلين خديجة بنت خويلد أم أولاد النبي صلى الله عليه وسلم تسليما كلهم ماعدا ابراهيم وجدة السبطين الكريمين صلوات الله وسلامه على النبي صلى الله عليه وسلم تسليما وعليهم أجمعين وبتربة منه قبر الخليفة أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور عبد الله ابن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنهم أجمعين وفيها الموضع الذي صلب فيه عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما وكان به بنية هدمها أهل الطائف غيرة منهم لما كان يلحق حجاجهم المبير من اللعن وعن يمين مستقبل الجبانة مسجد خراب يقال انه المسجد الذي

بايعت الجن فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وعلى هذه الجبانة طريق الصاعد الي عرفات وطريق الذاهب الي الطائف والي العراق

﴿ذكر بعض المشاهد خارج مكة﴾

فمنها الحجون وقد ذكرناه ويقال أيضاً ان الحجون هو الجبل المطل على الجبانة ومنها المحصب وهو أيضاً الابطح وهو يلي الجبانة المذكورة وفيه خيف بني كنانة الذي نزل به رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ومنها ذو طوى وهو واد يهبط على قبور المهاجرين التي بالحصحاص دون ثنية كداء ويخرج منه الي الاعلام الموضوعة حجزا بين الحل والحرم وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنه اذا قدم مكة شرفها الله تعالي بيت بذي طوى ثم يغتسل منه ويغدو الى مكة ويذكر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فعل ذلك ومنها ثنية كدي (بضم الكاف) وهي باعلى مكة ومنها دخل رسول الله صلى الله عليه سلم في حجة الوداع الى مكة ومنها ثنية كداء (بفتح الكاف) ويقال لها الثنية البيضاء وهي بأسفل مكة ومنها خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما عام الوداع وهي بين جبلين وفي مضيقها كوم حجارة موضوع على الطريق وكل من يمر به يرجمه بحجر ويقال انه قبر أبي لهب وزوجه حمالة الحطب وبين هذه الثنية وبين مكة بسيط سهل ينزله الركب اذا صدروا عن منى وبمقربة من هذا الموضع على نحو ميل من مكة شرفها الله مسجد بازائه حجر موضوع على الطريق كأنه مسطبة يعلوه حجر آخر كان فيه نقش فدثر رسمه يقال ان النبي صلى الله عليه وسلم تسليما قعد بذلك الموضع مستريحاً عند مجيئه من عمرته فيتبرك الناس بتقبيله ويستندون اليه • ومنها التنعيم وهو على فرسخ من مكة ومنه يعتمر أهل مكة وهو أدني الحل الى الحرم ومنه اعتمرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حين بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما في حجة الوادع مع أخيها عبد الرحمن رضي الله عنه وأمره أن يعمرها من التنعيم وبنيت هنالك مساجد ثلاثة على الطريق تنسب كلها الى عائشة رضي الله عنها وطريق التنعيم طريق فسيح والناس يتحرون كنسه في كل يوم رغبة في الاجر والثواب لان من المعتمرين من يمشي فيه حافياً وفي هذا الطريق الآبار العذبة التي تسمي الشبيكة ومنها الزاهر وهو على نحو ميلين

من مكة على طريق التنعيم وهو موضع على جانبي الطريق فيه أثر دور وبساتين وأسواق وعلى جانب الطريق دكان مستطيل تصف عليه كيزان الشرب وأواني الوضوء يملؤها خديم ذلك الموضع من آبار الزاهر وهي بعيدة القعر جدا والخديم من الفقراء المجاورين وأهل الخير يعينونه على ذلك لما فيه من المرافقة للمعتمرين من الغسل والشرب والوضوء وذو طوي يتصل بالزاهر

﴿ذكر الجبال المطيفة بمكة﴾

فمنها جبل أبي قبيس وهو في جهة الجنوب والشرق من مكة حرسها الله وهو أحد الاخشبين وادنى الجبال من مكة شرفها الله ويقابل ركن الحجر الاسود وبأعلاه مسجد وأثر رباط وعمارة وكان الملك الظاهر رحمه الله أراد أن يعمره وهو مطل على الحرم الشريف وعلى جميع البلد ومنه يظهر حسن مكة شرفها الله وجمال الحرم واتساعه والكعبة المعظمة ويذكر أن جبل أبي قبيس هو أول جبل خلقه الله تعالى وفيه استودع الحجر زمان الطوفان وكانت قريش تسميه الامين لأنه أدى الحجر الذي استودع فيه الى الخليل ابراهيم عليه السلام ويقال ان قبر آدم عليه السلام به وفي جبل أبي قبيس موضع موقف النبي صلى الله عليه وسلم حين انشق له القمر ومنها قعيقعان وهو أحد الاخشبين ومنها الجبل الاحمر وهو في جهة الشمال من مكة شرفها الله ومنها الخندمة وهو جبل عند الشعبين المعروفين بأجياد الاكبر وأجياد الاصغر ومنها جبل الطير وهو على أربعة عن جهتي طريق التنعيم يقال انها الجبال التي وضع عليها الخليل عليه السلام أجزاء الطير ثم دعاها حسبما نص الله في كتابه العزيز وعليها أعلام من حجارة ومنها جبل حراء وهو في الشمال من مكة شرفها الله تعالى على نحو فرسخ منها وهو مشرف على منى ذاهب في الهواء عالي القنة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعبد فيه كثيرا قبل المبعث وفيه أتاه الحق من ربه وبدء الوحي وهو الذي اهتز تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اثبت فما عليك الا نبي وصديق وشهيد واختلف فيمن كان معه يومئذ وروى أن العشرة كانوا معه وقد روى أيضا أن جبل ثبير اهتز تحته أيضا ومنها جبل ثور وهو على مقدار فرسخ من مكة شرفها

الله تعالى على طريق اليمن وفيه الغار الذي آوى اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما حين خروجه مهاجرا من مكة شرفها الله ومعه الصديق رضي الله عنه حسبما ورد في الكتاب العزيز وذكر الازرقي في كتابه أن الجبل المذكور نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وقال الي يا محمد الي الي فقد آويت قبلك سبعين نبيا فلما دخل رسول الله الغار واطمأن به وصاحبه الصديق معه نسجت العنكبوت من حينها على باب الغار وصنعت الحمامة عشا وفرخت فيه باذن الله تعالى فانتهى المشركون ومعهم قصاص الاثر الى الغار فقالوا ههنا انقطع الاثر ورأوا العنكبوت قد نسج على فم الغار والحمام مفرخة فقالوا ما دخل احد هنا وانصرفوا فقال الصديق يا رسول الله لو ولجوا علينا منه قال كنا نخرج من هنا وأشار بيده المباركة الى الجانب الآخر ولم يكن فيه باب فانفتح فيه باب للحين بقدرة الملك الوهاب والناس يقصدون زيارة هذا الغار المبارك فيرومون دخوله من الباب الذي دخل منه النبي صلى الله عليه وسلم تبركا بذلك فمنهم من يتأتى له ومنهم من لا يتأتى له وينشب فيه حتى يتناول بالجذب العنيف ومن الناس من يصلي امامه ولا يدخله وأهل تلك البلاد يقولون انه من كان لرشدة دخله ومن كان لزنية لم يقدر على دخوله ولهذا يتحاماه كثير من الناس لانه مخجل فاضح قال ابن جزي اخبرني بعض أشياخنا الحجاج الاكياس ان سبب صعوبة الدخول اليه هو ان بداخله مما يلي هذا الشق الذي يدخل منه حجرا كبيرا معترضا فمن دخل من ذلك الشق مبطحا على وجهه وصل رأسه الى ذلك الحجر فلم يمكنه التولج ولا يمكنه أن ينطوي الى العلو ووجهه وصدره يليان الارض فذلك هو الذي ينشب ولا يخلص الا بعد الجهد والجبذ الى خارج ومن دخل منه مستلقيا على ظهره امكنه لانه اذا وصل رأسه الى الحجر المعترض رفع رأسه واستوى قاعدا فكان ظهره مستندا الى الحجر المعترض وأوسطه في الشق ورجلاه من خارج الغار ثم يقوم قائما بداخل الغار رجع (حكاية)

ومما اتفق بهذا الجبل لصاحبين من أصحابي أحدهما الفقيه المكرم أبو محمد عبد الله بن فرحان الافريقي التوزري والآخر أبو العباس أحمد الاندلسي الوادي آشي انهما قصدا (الغار) في حين مجاورتهما بمكة شرفها الله تعالى في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة وذهبا

منفردين لم يستصحبا دليلا عارفا بطريقه فتاها وضلا طريق الغار وسلكا طريقا سواها منقطعة وذلك في أوان اشتداد الحر وحمي القيظ فلما نفذ ما كان عندهما من الماء وهما لم يصلا الى الغار اخذا في الرجوع الى مكة شرفها الله تعالى فوجدا طريقا فاتبعاه وكان يفضي الى جبل آخر واشتد بهما الحر وأجهدهما العطش وعاينا الهلاك وعجز الفقيه أبو محمد بن فرحان عن المشي جملة والقى بنفسه الى الارض ونجا الاندلسي بنفسه وكان فيه فضل قوة ولم يزل يسلك تلك الجبال حتي أفضي به الطريق الي أجياد فدخل الي مكة شرفها الله تعالى وقصدني واعلمني بهذه الحادثة وبما كان من أمر عبد الله التوزري وانقطاعه بالجبل وكان ذلك في آخر النهار ولعبد الله المذكور ابن عم اسمه حسن وهو من سكان وادي نخلة وكان اذ ذاك بمكة فاعلمته بما جرى على ابن عمه وقصدت الشيخ الصالح الامام أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بخليل امام المالكية نفع الله به فاعلمته بخبره فبعث جماعة من أهل مكة عارفين بتلك الجبال والشعاب في طلبه وكان من أمر عبد الله التوزري انه لما فارقه رفيقه لجأ الى حجر كبير فاستظل بظله واقام على هذه الحالة من الجهد والعطش والغربان تطير فوق رأسه وتنتظر موته فلما انصرم النهار وأتي الليل وجد في نفسه قوة ونعشه برد الليل فقام عند الصباح على قدميه ونزل من الجبل الى بطن واد حجبت الجبال عنه الشمس فلم يزل ماشيا الى أن بدت له دابة فقصد قصدها فوجد خيمة للعرب فلما رآها وقع الي الارض ولم يستطع النهوض فرأته صاحبة الخيمة وكان زوجها قد ذهب الى ورد الماء فسقته ما كان عندها من الماء فلم يرو وجاء زوجها فسقاه قربة ماء فلم يرو واركبه حمارا له وقدم به مكة فوصلها عند صلاة العصر من اليوم الثاني متغيرا كانه قام من قبر

﴿ ذكر أميري مكة ﴾

وكانت امارة مكة في عهد دخولي اليها الاشريفين الاجلين الاخوين أسد الدين رميثة وسيف الدين عطيفة ابني الامير أبي نمي بن أبي سعد بن علي بن قتادة الحسنيين ورميثة أكبرهما سنا ولكنه كان يقدم اسم عطيفة في الدعاء له بمكة لعدله ولرميثة من الاولاد أحمد وعجلان وهو أمير مكة في هذا العهد وتقية وسند وأم قاسم ولعطيفة من الاولاد محمد ومبارك

ومسعود دار عطيفة عن يمين المروة ودار أخيه رميثة برباط الشرابي عند باب بني شيبة وتضرب الطبول على باب كل واحد منهما عند صلاة المغرب من كل يوم

﴿ذكر أهل مكة وفضائلهم﴾

ولاهل مكة الافعال الجميلة والمكارم التامة والاخلاق الحسنة والايثار الى الضعفاء والمنقطعين وحسن الجوار للغرباء ومن مكارمهم انهم متى صنع أحدهم وليمة يبدأ فيها باطعام الفقراء المنقطعين المجاورين ويستدعيهم بتلطف ورفق وحسن خلق ثم يطعمهم وأكثر المساكين المنقطعين يكونون بالافران حيث يطبخ الناس أخبازهم فاذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله الى منزله فيتبعه المساكين فيعطى لكل واحد منهم ماقسم له ولا يردهم خائبين ولو كانت له خبزة واحدة فانه يعطي ثلثها أو نصفها طيب النفس بذلك من غير ضجر ومن أفعالهم الحسنة ان الايتام الصغار يقعدون بالسوق ومع كل واحد منهم قفتان كبرى وصغرى وهم يسمون القفة مكتلا فيأتي الرجل من أهل مكة الى السوق فيشتري الحبوب واللحم والخضر ويعطى ذلك للصبي فيجعل الحبوب فى احدى قفتيه واللحم والخضر في الاخرى ويوصل ذلك الى دار الرجل ليهيأ له طعامه منها ويذهب الرجل الى طوافه وحاجته فلا يذكر ان احدا من الصبيان خان الامانة في ذلك قط بل يؤدي ما حمل على اتم الوجوه ولهم على ذلك أجرة معلومة من فلوس وأهل مكة لهم ظرف ونظافة فى الملابس وأكثر لباسهم البياض فترى ثيابهم ابدا ناصعة ساطعة ويستعملون الطيب كثيرا ويكتحلون ويكثرون السواك بعيدان الاراك الاخضر ونساء مكة فائقات الحسن بارعات الجمال ذوات صلاح وعفاف وهن يكثرن التطيب حتى ان احداهن لتبيت طاوية وتشترى بقوتها طيبا وهن يقصدن الطواف بالبيت في كل ليلة جمعة فيأتين فى أحسن زي وتغلب على الحرم رائحة طيبهن وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقا ولاهل مكة عوائد حسنة في الموسم وغيره سنذكرها ان شاء الله تعالى اذا فرغنا من ذكر فضلائها ومجاوريها

﴿ذكر قاضي مكة وخطيبها وامام الموسم وعلمائها وصلحائها﴾

قاضي مكة العالم الصالح العابد نجم الدين محمد بن الامام العالم محيي الدين الطبري وهو فاضل

كثير الصدقات والمواساة للمجاورين حسن الأخلاق كثير الطواف والمشاهدة للكعبة الشريفة يطعم الطعام الكثير في الواسم المعظمة وخصوصا في مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فانه يطعم فيه شرفاء مكة وكبراءها وفقراءها وخدام الحرم الشريف وجميع المجاورين وكان سلطان مصر الملك الناصر رحمه الله يعظمه كثيرا وجميع صدقاته وصدقات أمرائه تجري على يديه وولده شهاب الدين فاضل وهو الآن قاضي مكة شرفها الله وخطيب مكة الامام خليل ابن الامام ابراهيم عليه السلام الفصيح المصقع وحيد عصره بهاء الدين الطبري وهو أحد الخطباء الذين ليس بالمعمورة مثلهم بلاغة وحسن بيان وذكر لي انه ينشئ لكل جمعة خطبة ثم لا يكررها فيما بعد وامام الموسم وامام المالكية بالحرم الشريف هو الشيخ الفقيه العالم الصالح الخاشع الشهير أبو عبد الله محمد بن الفقيه الامام الصالح الورع أبي زيد عبد الرحمن وهو المشتهر بخليل نفع الله به وأمتع ببقائه وأهله من بلاد الجريد من افريقية ويعرفون بها ببني حيون وهم من كبارها ومولده ومولد أبيه بمكة شرفها الله وهو أحد الكبار من أهل مكة بل واحدها وقطبها باجماع الطوائف على ذلك مستغرق العبادة في جميع أوقاته مستحي كريم النفس حسن الأخلاق كثير الشفقة لا يرد من سأله خائبا

حكاية مباركة

رأيت أيام مجاورتي بمكة شرفها الله وأنا اذ ذاك ساكن منها بالمدرسة المظفرية رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما في النوم وهو قاعد بمجلس التدريس من المدرسة المذكورة بجانب الشباك الذي تشاهد منه الكعبة الشريفة والناس يبايعونه فكنت أرى الشيخ أبا عبد الله المدعو بخليل قد دخل وقعد القرفصاء بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وجعل يده في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أبايعك على كذا وكذا وعدد أشياء منها وأن لا أرد من يأتي مسكينا خائبا وكان ذلك آخر كلامه فكنت أعجب من قوله وأقول في نفسي كيف يقول هذا ويقدر عليه مع كثرة فقراء مكة واليمن والزيالمة والعراق والعجم ومصر والشام وكنت أراه حين ذاك لابسا جبة بيضاء قصيرة من ثياب القطن المدعوة بالقفطان كان يلبسها في بعض الاوقات فلما صليت الصبح غدوت عليه وأعلمته برؤياي فسر بها وبكى

وقال لي تلك الجبة أهداها بعض الصالحين لجدي فانا البسها تبركا وما رأيته بعد ذلك يرد سائلا الا خائبا وكان يأمر خدامه يخبزون الخبز ويطبخون الطعام ويأتون به الى بعد صلاة العصر من كل يوم وأهل مكة لا يأكلون في اليوم الا مرة واحدة بعد العصر ويقتصرون عليها الى مثل ذلك الوقت ومن أراد الاكل في سائر النهار أكل التمر ولذلك صحت أبدانهم وقلت فيهم الامراض والعاهات وكان الشيخ خليل متزوجا بنت القاضي نجم الدين الطبري فشك في طلاقها وفارقها وتزوجها بعده الفقيه شهاب الدين النويري من كبار المجاورين وهو من صعيد مصر وأقامت عنده أعواما وسافر بها الى المدينة الشريفة ومعها أخوها شهاب الدين فحنث في يمين بالطلاق ففارقها على ضنانته بها وراجعها الفقيه خليل بعد سنين عدة ومن أعلام مكة امام الشافعية شهاب الدين بن البرهان ومنهم امام الحنفية شهاب الدين أحمد بن علي من كبار أئمة مكة وفضلائها يطعم المجاورين وأبناء السبيل وهو أكرم فقهاء مكة ويدان في كل سنة أربعين ألف درهم وخمسين ألفا فيؤديها الله عنه وأمراء الاتراك يعظمونه ويحسنون الظن به لانه امامهم ومنهم امام الحنابلة المحدث الفاضل محمد بن عثمان البغدادي الأصل المكي المولد وهو نائب القاضي نجم الدين والمحتسب بعد قتل تقي الدين المصري والناس يهابونه لسطوته

﴿حكاية﴾

كان تقي الدين المصري محتسبا بمكة وكان له دخول فيما يعنيه وفيما لا يعنيه فاتفق في بعض السنين ان أتى أمير الحاج بصبي من ذوي الدعارة بمكة قد سرق بعض الحجاج فامر بقطع يده فقال له تقي الدين ان لم تقطعها بحضرتك والا غلب أهل مكة خدامك عليه فاستنقذوه منهم وخاصموه فامر بقطع يده في حضرته فقطعت وحقدها تقي الدين ولم يزل يتربص به الدوائر ولا قدرة له عليه لان له حسبا من الاميرين بمنية وعطيفة والحسب عندهم ان يعطي أحدهم هدية من عمامة أو شاشية بمحضر الناس تكون جوار المن أعطيته ولا تزول حرمتها معه حتى يريد الرحلة والتحول عن مكة فاقام تقي الدين بمكة أعواما ثم عزم على الرحلة وودع الاميرين وطاف طواف الوداع وخرج من باب الصفا فلقيه صاحب الاقطع وتشكى له ضعف حاله وطلب منه ما يستعين به على حاجته فانتهره تقي الدين وزجره فاستل

خنجرا له يعرف عندهم بالجنبية وضربه ضربة واحدة كان فيها حتفه ومنهم الفقيه الصالح زين الدين الطبري شقيق نجم الدين المذكور من أهل الفضل والاحسان للمجاورين ومنهم الفقيه المبارك محمد بن فهد القرشي من فضلاء مكة وكان ينوب عن القاضي نجم الدين بعد وفاة الفقيه محمد بن عثمان الحنبلي ومنهم العدل الصالح محمد بن البرهان زاهد ورع مبتلى بالوسواس رأيته يوما يتوضأ من بركة المدرسة المظفرية فيغسل ويكرر ولما مسح رأسه أعاد مسحه مرات ثم لم يقنعه ذلك فغطس رأسه في البركة وكان اذا أراد الصلاة ربما صلى الامام الشافعي وهو يقول نويت نويت فيصلي مع غيره وكان كثير الطواف والاعتمار والذكر

﴿ذكر المجاورين بمكة﴾

فمنهم الامام العالم الصالح الصوفي المحقق العابد عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليمني الشافعي الشهير باليافعي كثير الطواف آناء الليل وأطراف النهار وكان اذا طاف من الليل يصعد الى سطح المدرسة المظفرية فيقعد مشاهدا للكعبة الشريفة الى أن يغلبه النوم فيجعل تحت رأسه حجرا وينام يسيرا ثم يجدد الوضوء ويعود لحاله من الطواف حتى يصلي الصبح وكان متزوجا ببنت الفقيه العابد شهاب الدين بن البرهان وكانت صغيرة السن فلا تزال تشكو الى أبيها حالها فيأمرها بالصبر فاقامت معه على ذلك سنين ثم فارقته ومنهم الصالح العابد نجم الدين الاصفوني كان قاضيا ببلاد الصعيد فانقطع الى الله تعالى وجاور بالحرم الشريف وكان يعتمر في كل يوم من التنعيم ويعتمر في رمضان مرتين في اليوم اعتمادا على ما في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم تسليما أنه قال عمرة في رمضان تعدل حجة معي ومنهم الشيخ الصالح العابد شمس الدين محمد الحلبي كثير الطواف والتلاوة من قدماء المجاورين مات بمكة شرفها الله ومنهم الصالح أبو بكر الشيرازي المعروف بالصامت كثير الطواف أقام بمكة أعواما لا يتكلم فيها ومنهم الصالح خضر العجمي كثير الصوم والتلاوة والطواف ومنهم الشيخ الصالح برهان الدين العجمي الواعظ كان ينصب له كرسي تجاه الكعبة الشريفة فيعظ الناس ويذكرهم بلسان فصيح وقلب خاشع يأخذ بمجامع القلوب ومنهم الصالح المجود برهان الدين ابراهيم المصري مقرئ مجيد ساكن رباط السدرة ويقصده أهل مصر والشام

بصدقاتهم ويعلم الايتام كتاب الله تعالى ويقوم بمؤنتهم ويكسوهم ومنهم الصالح العابد عز الدين الواسطي من أصحاب الأموال الطائلة يحمل اليه من بلده المال الكثير في كل سنة فيبتاع الحبوب والتمر ويفرقها على الضعفاء والمساكين ويتولى حملها الى بيوتهم بنفسه ولم يزل ذلك دأبه الى ان توفي ومنهم الفقيه الصالح الزاهد أبو الحسن علي بن رزق الله الانجري من أهل قطر طنجة من كبار الصالحين جاور بمكة أعواما وبها وفاته كانت بينه وبين والدي صحبة قديمة ومتى أتى بلدنا طنجة نزل عندنا وكان له بيت بالمدرسة المظفرية يعلم العلم فيها نهارا ويأوي بالليل الى مسكنه برباط ربيع وهو من أحسن الرباطات بمكة بداخله بئر عذبة لا تماثلها بئر بمكة وسكانه الصالحون وأهل ديار الحجاز يعظمون هذا الرباط تعظيما شديدا وينذرون له النذور وأهل الطائف يأتونه بالفواكه ومن عادتهم ان كل من له بستان من النخيل والعنب والفرسك وهو الخوخ والتين وهم يسمونه الخط يخرج منه العشر لهذا الرباط ويوصلون ذلك اليه على جمالهم ومسيرة ما بين مكة والطائف يومان ومن لم يف بذلك نقصت فواكهه في السنة الآتية وأصابتها الجوائح

﴿ حكاية في فضله ﴾

أتي يوما غلمان الامير أبي نمي صاحب مكة الى هذا الرباط ودخلوا بخيل الامير وسقوها من تلك البئر فلما عادوا بالخيل الي مرابطها أصابتها الاوجاع وضربت بانفسها الارض وبرؤسها وأرجلها واتصل الخبر بالامير أبي نمي فاتي باب الرباط بنفسه واعتذر الي المساكين الساكنين به واستصحب واحدا منهم فمسح على بطون الدواب بيده فأراقت ما كان في أجوافها من ذلك الماء وبرئت مما أصابها ولم يتعرضوا بعدها للرباط الا بالخير ومنهم الصالح المبارك أبو العباس الغماري من أصحاب أبي الحسن بن رزق الله وسكن رباط ربيع ووفاته بمكة شرفها الله ومنهم الصالح أبو يعقوب يوسف من بادية سبتة كان خديما للشيخين المذكورين فلما توفيا صار شيخ الرباط بعدهما ومنهم الصالح السائح السالك أبو الحسن علي بن فرغوس التلمساني ومنهم الشيخ سعيد الهندي شيخ رباط كلالة

حكاية

كان الشيخ سعيد قد قصد ملك الهند محمد شاه فأعطاه مالا عظيما قدم به مكة فسجنه الامير عطيفة وطلبه باداء المال فامتنع فعذب بعصر رجليه فاعطى خمسة وعشرين ألف درهم نقرة وعاد الى بلاد الهند ورأيته بها ونزل بدار الامير سيف الدين غدا بن هبة الله بن عيسى ابن مهنا أمير عرب الشام وكان غدا ساكنا ببلاد الهند متزوجا باخت ملكها وسيذكر أمره فاعطى ملك الهند للشيخ سعيد جملة مال وتوجه صحبة حاج يعرف بوشل من ناس الامير غدا ووجه الامير المذكور ليأتيه ببعض ناسه ووجه معه أموالا وتحفا منها الخلعة التي خلعها عليه ملك الهند ليلة زفافه باخته وهي من الحرير الازرق مزركشة بالذهب ومرصعة بالجوهر بحيث لا يظهر لونها لغلبة الجوهر عليها وبعث معه خمسين ألف درهم ليشتري له الخيل العتاق فسافر الشيخ سعيد صحبة وشل واشتريا سلعا بما عندهما من الاموال فلما وصلا الجزيرة سقطرة المنسوب اليها الصبر السقطري خرج عليهم لصوص الهند في مراكب كثيرة فقاتلوهم قتالا شديدا مات فيه من الفريقين جملة وكان وشل راميا فقتل منهم جماعة ثم تغلب السراق عليهم وطعنوا وشلا طعنة مات منها بعد ذلك وأخذوا ما كان عندهم وتركوا لهم مركبهم بآلة سفره وزاده فذهبوا الى عدن ومات بها وشل وعادة هؤلاء السراق أنهم لا يقتلون أحدا إلا في حين القتال ولا يغرقونه وانما يأخذون ماله ويتركونه يذهب بمركبه حيث شاء ولا يأخذون المماليك لانهم من جنسهم وكان الحاج سعيد قد سمع من ملك الهند أنه يريد اظهار الدعوة العباسية ببلده كمثل ما فعله ملوك الهند ممن تقدمه مثل السلطان شمس الدين للمش وولده (بفتح اللام الاولى واسكان الثانية وكسر الميم وشين معجم) وولده ناصر الدين ومثل السلطان جلال الدين فيروز شاه والسلطان غياث الدين بلبن وكانت الخلع تأتي اليهم من بغداد فلما توفى وشل قصد الشيخ سعيد الى الخليفة أبي العباس بن الخليفة أبي الربيع سليمان العباسي بمصر وأعلمه بالامر فكتب له كتابا بخطه بالنيابة عنه ببلاد الهند فاستصحب الشيخ سعيد الكتاب وذهب الى اليمن واشترى بها

ثلاث خلع سوداوركب البحر الى الهند فلما وصل كنبايت وهي على مسيرة أربعين يوما من دهلي حضرة ملك الهند كتب صاحب الخبر الي الملك يعلمه بقدوم الشيخ سعيد وأن معه أمر الخليفة وكتابه فورد الامر ببعثه الى الحضرة مكرما فلما قرب من الحضرة بعث الامراء والقضاة والفقهاء لتلقيه ثم خرج هو بنفسه لتلقيه فتلقاه وعانقه ودفع له الامر فقبله ووضعه على رأسه ودفع له الصندوق الذي فيه الخلع فاحتمله الملك على كاهله خطوات ولبس احدى الخلع وكسى الاخرى الامير غياث الدين محمد بن عبد القادر بن يوسف بن عبد العزيز بن الخليفة المنتصر العباسي وكان مقيما عنده وسيذكر خبره وكسى الخلعة الثالثة الامير قبولة الملقب بالملك الكبير وهو الذي يقوم على رأسه ويشرد عنه الذباب وأمر السلطان فخلع على الشيخ سعيد ومن معه وأركبه على الفيل ودخل المدينة كذلك والسلطان أمامه على فرسه وعن يمينه وشماله الاميران اللذان كساهما الخلعتين العباسيتين والمدينة قد زينت بانواع الزينة وصنع بها احدى عشرة قبة من الخشب كل قبة منها أربع طبقات في كل طبقة طائفة من المغنيين رجالا ونساء والراقصات وكلهم مماليك السلطان والقبة مزينة بثياب الحرير المذهب أعلاها وأسفلها وداخلها وخارجها وفي وسطها ثلاثة أحواض من جلود الجواميس مملوءة ماء قد حل فيه الجلاب يشرب به كل وارد وصادر لا يمنع منه أحد وكل من يشرب منه يعطى بعد ذلك خمس عشرة ورقة من أوراق التنبول والفوفل والنورة فيأكلها فتطيب نكهته ويزيد في حمرة وجهه ولثاته وتقمع عنه الصفراء وتهضم ما أكل من الطعام ولما ركب الشيخ سعيد على الفيل فرشت له ثياب الحرير بين يدي الفيل يطأ عليها الفيل من باب المدينة الى دار السلطان وأنزل بدار تقرب من الملك وبعث له أموالا طائلة وجميع الاثواب المعلقة والمفروشة بالقباب والموضوعة بين يدي الفيل لا تعود الى السلطان بل يأخذها أهل الطرب وأهل الصناعات الذين يصنعون القباب وخدام الاحواض وغيرهم وهكذا فعلهم متى قدم السلطان من سفر وأمر الملك بكتاب الخليفة أن يقرأ على المنبر بين الخطبتين في كل يوم جمعة وأقام الشيخ سعيد شهرا ثم بعث معه الملك هدايا الى الخليفة فوصل كنبايت وأقام بها حتى تيسرت أسباب حركته في البحر وكان

ملك الهند قد بعث أيضاً من عنده رسولا الى الخليفة وهو الشيخ رجب البرقعي أحد شيوخ الصوفية وأصله من مدينة القرم من صحراء قبجق وبعث معه هدايا للخليفة منها حجر ياقوت قيمته خمسون ألف دينار وكتب له يطلب منه أن يعقد له النيابة عنه ببلاد الهند والسند ويبعث لها سواه من يظهر له هكذا نص عليه كتابه اعتقاداً منه في الخلافة وحسن نية وكان للشيخ رجب أخ بديار مصر يدعي بالامير سيف الدين الكاشف فلما وصل رجب الى الخليفة أبي أن يقرأ الكتاب ويقبل الهدية الا بمحضر الملك الصالح اسماعيل ابن الملك الناصر فأشار سيف الدين على أخيه رجب ببيع الحجر فباعه واشترى بثمنه وهو ثلاثمائة الف درهم أربعة أحجار وحضر بين يدي الملك الصالح ودفع له الكتاب وأحد الاحجار ودفع سائرها الامرائه واتفقوا على أن يكتب لملك الهند بما طلبه فوجهوا الشهود الى الخليفة وأشهد على نفسه انه قدمه نائبا عنه ببلاد الهند وما يليها وبعث الملك الصالح رسولا من قبله وهو شيخ الشيوخ بمصر ركن الدين العجمي ومعه الشيخ رجب وجماعة من الصوفية وركبوا بحر فارس من الابلة الى هرمز وسلطانها يومئذ قطب الدين تمهتن بن طوران شاه فأكرم مثواهم وجهز لهم مركبا الى بلاد الهند فوصلوا مدينة كنبايت والشيخ سعيد بها وأميرها يومئذ مقبول التلتكي أحد خواص ملك الهند فاجتمع الشيخ رجب بهذا الامير وقال له ان الشيخ سعيدا انما جاءكم بالتزوير والخلع التي ساقها انما اشتراها بعدن فينبغي أن تثقفوه وتبعثوه لخوندعالم وهو السلطان فقال له الامير الشيخ سعيد معظم عند السلطان فما يفعل به هذا الا بامره ولكني أبعثه معكم ليرى فيه السلطان رأيه وكتب الامير بذلك كله الى السلطان وكتب به أيضاً صاحب الاخبار فوقع في نفس السلطان تغير وانقبض عن الشيخ رجب لكونه تكلم بذلك على رؤس الاشهاد بعد ماصدر من السلطان للشيخ سعيد من الاكرام ماصدر فمنع رجبا من الدخول عليه وزاد في اكرام الشيخ سعيد ولما دخل شيخ الشيوخ على السلطان قام اليه وعانقه وأكرمه وكان متى دخل اليه يقوم له وبقي الشيخ سعيد المذكور بارض الهند معظما مكرما وبها تركته سنة ثمان وأربعين وكان بمكة أيام مجاورتي بها حسن المغربي المجنون وأمره غريب وشأنه عجيب وكان قبل ذلك صحيح العقل

خدمة الولي الله تعالى نجم الدين الاصبهاني أيام حياته

﴿حكاية﴾ كان حسن المجنون كثير الطواف بالليل وكان يرى في طوافه بالليل فقير يكثر الطواف ولا يراه بالنهار فلقيه ذلك الفقير ليلة وسأله عن حاله وقال له ياحسن ان أمك تبكي عليك وهي مشتاقة الي رؤيتك وكانت من اماء الله الصالحات أفتحب أن تراها قال له نعم ولكني لا قدرة لي على ذلك فقال له نجتمع ههنا فى الليلة المقبلة ان شاء الله تعالي فلما كانت الليلة المقبلة وهي ليلة الجمعة وجده حيث واعده فطافا بالبيت ماشاء الله ثم خرج وهو في أثره الي باب المعلى فأمره أن يسد عينيه ويمسك بثوبه ففعل ذلك ثم قال بعد ساعة أتعرف بلدك قال نعم قال هاهو هذا ففتح عينيه فاذا به على دار أمه فدخل عليها ولم يعلمها بشيء مما جرى وأقام عندها نصف شهر وأظن ان بلده مدينة أسفي ثم خرج الي الجبانة فوجد الفقير صاحبه فقال له كيف أنت فقال ياسيدي اني اشتقت الي رؤية الشيخ نجم الدين وكنت خرجت على عادتي وغبت عنه هذه الايام واحب ان تردني اليه فقال له نعم وواعده الجبانة ليلا فلما وافاه بها امره أن يفعل كفعله في مكة شرفها الله من تغميض عينيه والامساك بذيله ففعل ذلك فاذا به في مكة شرفها الله وأوصاه ان لا يحدث نجم الدين بشيء مما جرى ولا يحدث به غيره فلما دخل على نجم الدين قال له أين كنت ياحسن في غيبتك فأبي أن يخبره فعزم عليه فأخبره بالحكاية فقال أرني الرجل فاتى معه ليلا وأتي الرجل على عادته فلما مر بهما قال له ياسيدي هو هذا فسمعه الرجل فضرب بيده على فمه وقال أسكت أسكتك الله فخرس لسانه وذهب عقله وبقي بالحرم موطاً يطوف بالليل والنهار من غير وضوء ولا صلاة والناس يتبركون به ويكسونه واذا جاع خرج الي السوق الذي بين الصفا والمروة فيقصد حانوتا من الحوانيت فيأكل منها ما احب لا يصده أحد ولا يمنعه بل يسر كل من أكل له شيئاً وتظهر له البركة والنماء في بيعه وربحه ومتى أتي السوق تطاولوا اليه باعناقهم اليه كل منهم يحرص على أن يأكل من عنده ما يحبه من بركته وكذلك فعله مع السقائين متى أحب أن يشرب ولم يزل دأبه كذلك الي سنة ثمان وعشرين فحج فيها الامير سيف الدين يلملك فاستصحبه معه الي ديار مصر فانقطع خبره نفع الله تعالى به

﴿ذكر عادة أهل مكة في صلواتهم ومواضع أئمتهم﴾

فمن عادتهم أن يصلي اول الائمة امام الشافعية وهو المقدم من قبل أولي الامر وصلاته خلف المقام الكريم مقام ابراهيم الخليل عليه السلام في حطيم له هنالك بديع وجمهور الناس بمكة على مذهبه والحطيم خشبتان موصول ما بينهما باذرع شبه السلم تقابلهما خشبتان على صفتهما وقد عقدت على أرجل مجصصة وعرض على أعلى الخشب خشبة أخرى فيها خطاطيف حديد يعلق منها قناديل زجاج فاذا صلى الامام الشافعي صلى بعده امام المالكية في محراب قبالة الركن اليماني ويصلي امام الحنبلية معه في وقت واحد مقابلا ما بين الحجر الاسود والركن اليماني ثم يصلي امام الحنفية قبال الميزاب المكرم تحت حطيم له هنالك ويوضع بين ايدي الائمة في محاريبهم الشمع وترتيبهم هكذا في الصلوات الاربع وأما صلاة المغرب فانهم يصلونها في وقت واحد كل امام يصلي بطائفته ويدخل على الناس من ذلك سهو وتخليط فربما ركع المالكي بركوع الشافعي وسجد الحنفي بسجود الحنبلي وتراهم مصيخين كل واحد الى صوت المؤذن الذي يسمع طائفته لئلا يدخل عليه السهو

﴿ذكر عادتهم في الخطبة وصلاة الجمعة﴾

وعادتهم في يوم الجمعة أن يلصق المنبر المبارك الى صفح الكعبة الشريفة فيما بين الحجر الاسود والركن العراقي ويكون الخطيب مستقبلا المقام الكريم فاذا خرج الخطيب أقبل لابسا ثوب سواد معتما بعمامة سوداء وعليه طيلسان اسود كل ذلك من كسوة الملك الناصر وعليه الوقار والسكينة وهو يتهادى بين رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من المؤذنين وبين يديه أحد القومة في يده الفرقعة وهي عود في طرفه جلد رقيق مفتول ينفضه في الهواء فيسمع له صوت عال يسمعه من بداخل الحرم وخارجه فيكون اعلاما بخروج الخطيب ولا يزال كذلك الى ان يقرب من المنبر فيقبل الحجر الاسود ويدعو عنده ثم يقصد المنبر والمؤذن الزمزمي وهو رئيس المؤذنين بين يديه لابسا السواد وعلى عاتقه السيف ممسكا له بيده وتركز الرايتان عن جانبي المنبر فاذا صعد أول درج من درج المنبر قلده المؤذن السيف فيضرب بنصل السيف ضربة في الدرج يسمع بها الحاضرين ثم يضرب في الدرج الثاني ضربة

ثم في الثالث أخرى فاذا استوى في عايا الدرجات ضرب ضربة رابعة ووقف داعيا بدعاء خفي مستقبل الكعبة ثم يقبل على الناس فيسلم عن يمينه وشماله ويرد عليه الناس ثم يقعد ويؤذن المؤذنون في أعلى قبة زمزم في حين واحد فاذا فرغ الاذان خطب الخطيب خطبة يكثر بها من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ويقول في أثنائها اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ما طاف بهذا البيت طائف ويشير باصبعه الى البيت الكريم اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ما وقف بعرفة واقف ويرضى عن الخلفاء الاربعة وعن سائر الصحابة وعن عمي النبي صلى الله عليه وسلم وسبطيه وأمهما وخديجة جدتهما على جميعهم السلام ثم يدعو للملك الناصر ثم للسلطان المجاهد نور الدين علي بن الملك المؤيد داود بن الملك المظفر يوسف بن علي بن رسول ثم يدعو للسيدين الشريفين الحسنيين أميري مكة سيف الدين عطيفة وهو أصغر الاخوين ويقدم اسمه لعدله واسد الدين رميثة ابني ابي نمي بن ابي سعد ابن علي بن قتادة وقد دعا لسلطان العراق مرة ثم قطع ذلك فاذا فرغ من خطبته صلى وانصرف والرايتان عن يمينه وشماله والفرقعة امامه اشعارا بانقضاء الصلاة ثم يعاد المنبر الى مكانه ازاء المقام الكريم

﴿ذكر عادتهم في استهلال الشهور﴾

وعادتهم في ذلك ان يأتي امير مكة في اول يوم من الشهر وقواده يحفون به وهو لابس البياض معتم متقلد سيفا وعليه السكينة والوقار فيصلي عند المقام الكريم ركعتين ثم يقبل الحجر ويشرع في طواف أسبوع ورئيس المؤذنين على اعلى قبة زمزم فعندما يكمل الامير شوطا واحدا ويقصد الحجر لتقبيله يندفع رئيس المؤذنين بالدعاء له والتهنئة بدخول الشهر رافعا بذلك صوته ثم يذكر شعرا في مدحه ومدح سلفه الكريم ويفعل به هكذا في السبعة اشواط فاذا فرغ منها ركع عند الملتزم ركعتين ثم ركع خلف المقام أيضا ركعتين ثم انصرف ومثل هذا سواء يفعل اذا اراد سفرا او اذا قدم من سفر ايضا

﴿ذكر عادتهم في شهر رجب﴾

واذا اهل هلال رجب امر امير مكة بضرب الطبول والبوقات اشعارا بدخول الشهر ثم

يخرج في اول يوم منه راكبا ومعه أهل مكة فرسانا ورجالا على ترتيب عجيب وكلهم بالاسلحة يلعبون بين يديه والفرسان يجولون ويجرون والرجالة يتواثبون ويرمون بحرابهم الى الهواء ويلقفونها والامير رميثة والامير عطيفة معهما أولادهما وقوادهما مثل محمد بن ابراهيم وعلي وأحمد ابني صبيح وعلي بن يوسف وشداد بن عمر وعامر الشرق ومنصور ابن عمر وموسى المزرق وغيرهم من كبار أولاد الحسن ووجوه القواد وبين أيديهم الرايات والطبول والدبادب وعليهم السكينة والوقار ويسيرون حتى ينتهون الى الميقات ثم يأخذون في الرجوع على معهود ترتيبهم الى المسجد الحرام فيطوف الامير بالبيت والمؤذن الزمزمي باعلى قبة زمزم يدعو له عند كل شوط على ماذكرناه من عادته فاذا طاف صلى ركعتين عند الملتزم وصلى عند المقام وتمسح به وخرج الى المسعى فسعى راكبا والقواد يحفون به والحرابة بين يديه ثم يسير الى منزله وهذا اليوم عندهم عيد من الاعياد ويلبسون فيه أحسن الثياب ويتنافسون في ذلك

﴿ذكر عمرة رجب﴾

وأهل مكة يحتفلون بعمرة رجب الاحتفال الذي لا يعهد مثله وهي متصلة ليلا ونهارا وأوقات الشهر كله معمورة بالعبادة وخصوصا أول يوم منه ويوم خمسة عشر والسابع والعشرين فانهم يستعدون لها قبل ذلك بايام شاهدتهم في ليلة السابع والعشرين منه وشوارع مكة قد غصت بالهوادج عليها كساء الحرير والكتان الرفيع كل أحد يفعل بقدر استطاعته والجمال مزينة مقلدة بقلائد الحرير واستار الهوادج ضافية تكاد تمس الارض فهي كالقباب المضروبة ويخرجون الى ميقات التنعيم فتسيل أباطح مكة بتلك الهوادج والنيران مشعلة بجنبتي الطريق والشمع والمشاعل امام الهوادج والجبال تجيب بصداها اهلال المهلين فترق النفوس وتنهمل الدموع فاذا قضوا العمرة وطافوا بالبيت خرجوا الى السعي بين الصفا والمروة بعد مضى شيء من الليل والمسعى متقد السرج غاص بالناس والساعيات في هوادجهن والمسجد الحرام يتلألأ نورا وهم يسمون هذه العمرة بالعمرة الاكمية لانهم يحرمون بها من اكمة أمام مسجد عائشة رضي الله عنها بمقدار غلوة على مقربة من المسجد المنسوب الى علي رضي الله عنه والاصل في هذه العمرة ان عبد الله بن الزبير

رضي الله عنهما لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة خرج ماشيا حافيا معتمرا ومعه أهل مكة وذلك في اليوم السابع والعشرين من رجب وانتهى الى الاكمة فاحرم منها وجعل طريقه على ثنية الحجون الى المعلى من حيث دخل المسلمون يوم الفتح فبقيت تلك العمرة سنة عند أهل مكة الى هذا العهد وكان يوم عبدالله مذكورا أهدى فيه بدنا كثيرة اهدى اشراف مكة وأهل الاستطاعة منهم واقاموا اياما يطعمون ويطعمون شكرا لله تعالى على ماوهبهم من التيسير والمعونة في بناء بيته الكريم على الصفة التي كان عليها في أيام الخليل صلوات الله عليه ثم لما قتل ابن الزبير نقض الحجاج الكعبة وردها الى بنائها في عهد قريش وكانوا قد اقتصروا في بنائها وأبقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك لحدثان عهدهم بالكفر ثم أراد الخليفة أبو جعفر المنصور ان يعيدها الى بناء ابن الزبير فنهاه مالك رحمه الله عن ذلك وقال يا أمير المؤمنين لا تجعل البيت ملعبة للملوك متى أراد أحدهم أن يغيره فعل فتركه على حاله سدا للذريعة وأهل الجهات الموالية لمكة مثل بجيلة وزهران وغامد يبادرون لحضور عمرة رجب ويجلبون الى مكة الحبوب والسمن والعسل والزبيب والزيت واللوز فترخص الاسعار بمكة ويرغد عيش أهلها وتعمهم المرافق ولولا أهل هذه البلاد لكان أهل مكة في شظف من العيش ويذكر انهم متى أقاموا ببلادهم ولم يأتوا بهذه الميرة أجدبت بلادهم ووقع الموت في مواشيهم ومتى أوصلوا الميرة أخصبت بلادهم وظهرت فيها البركة ونمت أموالهم فهم اذا حان وقت ميرتهم وأدركهم كسل عنها اجتمعت نساؤهم فاخرجنهم وهذا من لطائف صنع الله تعالى وعنايته ببلده الامين وبلاد السرو التي يسكنها بجيلة وزهران وغامد وسواهم من القبائل مخصبة كثيرة الاعناب وافرة الغلات وأهلها فصحاء الالسن لهم صدق نية وحسن اعتقاد وهم اذا طافوا بالكعبة يتطارحون عليها لائذين بجوارها متعلقين باستارها داعين بادعية تتصدع لرقتها القلوب وتدمع العيون الجامدة فترى الناس حولهم باسطي أيديهم مؤمنين على أدعيتهم ولا يتمكن لغيرهم الطواف معهم ولا استلام الحجر لتزاحمهم على ذلك وهم شجعان انجاد ولباسهم الجلود واذا وردوا مكة هابت اعراب الطريق مقدمهم وتجنبوا اعتراضهم ومن صحبهم من الزوار حمد صحبتهم

وذكر ان النبي صلى الله عليه وسلم ذكرهم وأثني عليهم خيرا وقال علموهم الصلاة يعلموكم الدعاء وكفاهم شرفا دخولهم في عموم قوله صلى الله عليه وسلم الايمان يمان والحكمة يمانية وذكر ان عبدالله بن عمر رضي الله عنهما كان يتحرى وقت طوافهم ويدخل في جملتهم تبركا بدعائهم وشأنهم عجيب كله وقد جاء في أثر زاحموهم في الطواف فان الرحمة تنصب عليهم صبا

﴿ذكر عادتهم في ليلة النصف من شعبان﴾

وهذه الليلة من الليالي المعظمة عند أهل مكة يبادرون فيها الى أعمال البر من الطواف والصلاة جماعات وأفذاذا والاعتمار ويجتمعون في المسجد الحرام جماعات لكل جماعة امام ويوقدون السرج والمصابيح والمشاعل ويقابل ذلك ضوء القمر فتتلألأ الارض والسماء نورا ويصلون مائة ركعة يقرؤن في كل ركعة بأم القرآن وسورة الاخلاص يكررونها عشرا وبعض الناس يصلون في الحجر منفردين وبعضهم يطوفون بالبيت الشريف وبعضهم قد خرجوا للاعتمار

﴿ذكر عادتهم في شهر رمضان المعظم﴾

واذا أهل هلال رمضان تضرب الطبول والدبادب عند أمير مكة ويقع الاحتفال بالمسجد الحرام من تجديد الحصر وتكثير الشمع والمشاعل حتى يتلألأ الحرم نورا ويسطع بهجة واشراقا وتتفرق الائمة فرقا وهم الشافعية والحنفية والحنبلية والزيدية وأما المالكية فيجتمعون على أربعة من القراء يتناوبون القراءة ويوقدون الشمع ولا تبقى في الحرم زاوية ولا ناحية الا وفيها قارئ يصلي بجماعة فيرتج المسجد لاصوات القراء وترق النفوس وتحضر القلوب وتهمل الاعين ومن الناس من يقتصر على الطواف والصلاة في الحجر منفردا والشافعية أكثر الائمة اجتهادا وعادتهم انهم اذا أكملوا التراويح المعتادة وهي عشرون ركعة يطوف امامهم وجماعته فاذا فرغ من الاسبوع ضربت الفرقعة التي ذكرنا انها تكون بين يدي الخطيب يوم الجمعة كأن ذلك اعلاما بالعودة الى الصلاة ثم يصلي ركعتين ثم يطوف أسبوعا هكذا الي ان يتم عشرين ركعة أخرى ثم يصلون الشفع والوتر

وينصرفون وسائر الائمة لا يزيدون على العادة شيأ واذا كان وقت السحور يتولى المؤذن الزمزمي التسحير في الصومعة التي بالركن الشرقى من الحرم فيقوم داعيا ومذكرا ومحرضا على السحور والمؤذنون فى سائر الصوامع فاذا تكلم أحدهم أجابه صاحبه وقد نصبت فى أعلى كل صومعة خشبة على رأسها عود معترض قد علق فيه قنديلان من الزجاج كبيران يقدان فاذا قرب الفجر ووقع الايذان بالقطع مرة بعد مرة حط القنديلان وابتدأ المؤذنون بالاذان وأجاب بعضهم بعضا ولديار مكة شرفها الله سطوح فمن بعدت داره بحيث لا يسمع الاذان يبصر القنديلين المذكورين فيتسحر حتى اذا لم يبصرهما أقلع عن الاكل وفى كل ليلة وتر من ليالي العشر الاواخر من رمضان يختمون القرآن ويحضر الختم القاضي والفقهاء والكبراء ويكون الذي يختم بهم أحد أبناء كبراء أهل مكة فاذا ختم نصب له منبر مزين بالحرير وأوقد الشمع وخطب فاذا فرغ من خطبته استدعى أبوه الناس الى منزله فأطعمهم الاطعمة الكثيرة والحلاوات وكذلك يصنعون فى جميع ليالي الوتر وأعظم تلك الليالي عندهم ليلة سبع وعشرين واحتفالهم لها أعظم من احتفالهم لسائر الليالي ويختم بها القرآن العظيم خلف المقام الكريم وتقام ازاء حطيم الشافعية خشب عظام توصل بالحطيم وتعرض بينها ألواح طوال وتجعل ثلاث طبقات وعليها الشمع وقناديل الزجاج فيكاد يغشي الابصار شعاع الانوار ويتقدم الامام فيصلي فريضة العشاء الآخرة ثم يبتدي قراءة سورة القدر واليها يكون انتهاء قراءة الائمة في الليلة التي قبلها وفى تلك الساعة يمسك جميع الائمة عن التراويح تعظيما لختمة المقام ويحضرونها متبركين فيختم الامام في تسليمتين ثم يقوم خطيبا مستقبل المقام فاذا فرغ من ذلك عاد الائمة الى صلاتهم وانفض الجمع ثم يكون الختم ليلة تسع وعشرين في المقام المالكي في منظر مختصر وعن المباهاة منزه موقر فيختم ويخطب

﴿ذكر عادتهم فى شوال﴾

وعادتهم فى شوال وهو مفتتح أشهر الحج المعلومات أن يوقدوا المشاعل ليلة استهلاله ويسرجون المصابيح والشمع على نحو فعلهم فى ليلة سبع وعشرين من رمضان وتوقد

السرج في الصوامع من جميع جهاتها ويوقد سطح الحرم كله وسطح المسجد الذي بأعلى أبي قبيس ويقيم المؤذنون ليلتهم تلك في تهليل وتكبير وتسبيح والناس ما بين طواف وصلاة وذكر ودعاء فاذا صلوا صلاة الصبح أخذوا في أهبة العيد ولبسوا أحسن ثيابهم وبادروا لأخذ مجالسهم بالحرم الشريف وبه يصلون صلاة العيد لانه لا موضع أفضل منه ويكون أول من يبكر الى المسجد الشيبيون فيفتحون باب الكعبة المقدسة ويقعد كبيرهم في عتبتها وسائرهم بين يديه الى أن يأتي أمير مكة فيتلقونه ويطوف بالبيت أسبوعاً والمؤذن الزمزمي فوق سطح قبة زمزم على العادة رافعاً صوته بالثناء عليه والدعاء له ولاخيه كما ذكر ثم يأتي الخطيب بين الرايتين السوداوين والفرقعة امامه وهو لابس السواد فيصلي خلف المقام الكريم ثم يصعد المنبر ويخطب خطبة بليغة ثم اذا فرغ منها أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام والمصافحة والاستغفار ويقصدون الكعبة الشريفة فيدخلونها أفواجا ثم يخرجون الى مقبرة باب المعلى تبركا بمن فيها من الصحابة وصدور السلف ثم ينصرفون

﴿ ذكر احرام الكعبة ﴾

وفي اليوم السابع والعشرين من شهر ذي القعدة تشمر أستار الكعبة الشريفة زادها الله تعظيما الى نحو ارتفاع قامة ونصف من جهاتها الاربع صونا لها من الايدي أن تنتهبها ويسمون ذلك احرام الكعبة وهو يوم مشهود بالحرم الشريف ولا تفتح الكعبة المقدسة من ذلك اليوم حتى تنقضي الوقفة بعرفة

﴿ ذكر شعائر الحج واعماله ﴾

واذا كان في أول يوم من شهر ذي الحجة تضرب الطبول والدبادب في أوقات الصلوات وبكرة وعشية اشعاراً بالموسم المبارك ولا تزال كذلك الى يوم الصعود الى عرفات فاذا كان اليوم السابع من ذي الحجة خطب الخطيب اثر صلاة الظهر خطبة بليغة يعلم الناس فيها مناسكهم ويعلمهم بيوم الوقفة فاذا كان اليوم الثامن بكر الناس بالصعود الى منى وامراء مصر والشام والعراق وأهل العلم يبيتون تلك الليلة بمنى وتقع المباهاة والمفاخرة بين أهل مصر والشام والعراق في ايقاد الشمع ولكن الفضل في ذلك لاهل الشام دائما فاذا كان

اليوم التاسع رحلوا من منى بعد صلاة الصبح الى عرفة فيمرون في طريقهم بوادي محسر ويهرولون وذلك سنة ووادي محسر هو الحد ما بين مزدلفة ومنى ومزدلفة بسيط من الارض فسيح بين جبلين وحولها مصانع وصهاريج للماء مما بنته زبيدة ابنة جعفر بن أبي جعفر المنصور زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد وبين منى وعرفة خمسة أميال وكذلك بين منى ومكة أيضاً خمسة أميال ولعرفة ثلاثة أسماء وهي عرفة وجمع والمشعر الحرام وعرفات بسيط من الارض فسيح افيح تحدق به جبال كثيرة وفي آخر بسيط عرفات جبل الرحمة وفيه الموقف وفيما حوله والعلمان قبله بنحو ميل وهما الحد ما بين الحل والحرم ويقربة منهما مما يلي عرفة بطن عرنة الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالارتفاع عنه ويجب التحفظ منه ويجب أيضا الامساك عن النفور حتى يتمكن سقوط الشمس فان الجمالين ربما استحثوا كثيراً من الناس وحذروهم الزحام في النفر واستدرجوهم الى أن يصلوا بهم بطن عرنة فيبطل حجهم وجبل الرحمة التي ذكرناه قائم في وسط بسيط جمع منقطع عن الجبال وهو من حجارة منقطع بعضها عن بعض وفي أعلاه قبة تنسب الى أم سلمة رضي الله عنها وفي وسطها مسجد يتزاحم الناس للصلاة فيه وحوله سطح فسيح يشرف على بسيط عرفات وفي قبليه جدار فيه محاريب منصوبة يصلي فيه الناس وفي أسفل هذا الجبل عن يسار المستقبل للكعبة دار عتيقة البناء تنسب الى آدم عليه السلام وعن يسارها الصخرات التي كان موقف النبي صلى الله عليه وسلم عندها وحول ذلك صهاريج وجباب للماء وبمقربة منه الموضع الذي يقف فيه الامام ويخطب ويجمع بين الظهر والعصر وعن يسار العلمين للمستقبل أيضاً وادي الاراك وبه أراك أخضر يمتد في الارض امتدادا طويلا واذا حان وقت النفر أشار الامام المالكي بيده ونزل عن موقفه فدفع الناس بالنفر دفعة ترتج لها الارض وترجف الجبال فياله موقفا كريما ومشهدا عظيما ترجو النفوس حسن عقباه وتطمح الآمال الى نفحات رحماه جعلنا الله ممن خصه فيه برضاه وكانت وقفتي الاولى يوم الخميس سنة ست وعشرين وأمير الركب المصري يومئذ أرغون الدوادار نائب الملك الناصر وحجت في تلك السنة ابنة الملك الناصر وهي زوجة أبي بكر بن أرغون

المذكور وحجت فيها زوجة الملك الناصر المسماة بالخوندة وهي بنت السلطان المعظم محمد اوزبك ملك السرا وخوارزم وأمير الركب الشامي سيف الدين الجوبان ولما وقع النفر بعد غروب الشمس وصلنا مزدلفة عند العشاء الآخرة فصلينا بها المغرب والعشاء جمعا بينهما حسبما جرت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما صلينا الصبح بمزدلفة غدونا منها الى منى بعد الوقوف والدعاء بالمشعر الحرام ومزدلفة كلها موقف الا وادي محسر ففيه تقع الرولة حتى يخرج عنه ومن مزدلفة يستصحب أكثر الناس حصيات الجمار وذلك مستحب ومنهم من يلقطها حول مسجد الخيف والامر في ذلك واسع ولما انتهى الناس الى منى بادروا الرمي جمرة العقبة ثم نحروا وذبحوا ثم حلقوا وحلوا من كل شيء الا النساء والطيب حتى يطوفوا طواف الافاضة ورمي هذه الجمرة عند طلوع الشمس من يوم النحر ولما رموها توجه أكثر الناس بعد أن ذبحوا وحلقوا الى طواف الافاضة ومنهم من أقام الى اليوم الثاني وفى اليوم الثانى رمي الناس عند زوال الشمس بالجمرة الاولى سبع حصيات وبالوسطي كذلك ووقفوا للدعاء بهاتين الجمرتين اقتداء بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما كان اليوم الثالث تعجل الناس الانحدار الى مكة شرفها الله بعد أن كمل لهم رمي تسع وأربعين حصاة وكثير منهم أقام اليوم الثالث بعد يوم النحر حتى رمى سبعين حصاة

﴿ذكر كسوة الكعبة﴾

وفي يوم النحر بعثت كسوة الكعبة الشريفة من الركب المصري الى البيت الكريم فوضعت في سطحه فلما كان اليوم الثالث بعد يوم النحر أخذ الشيبيون في اسبالها على الكعبة الشريفة وهي كسوة سوداء حالكة من الحرير مبطنة بالكتان وفي أعلاها طراز مكتوب فيه بالبياض جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما الآية وفي سائر جهاتها طرز مكتوبة بالبياض فيها آيات من القرآن وعليها نور لائح مشرق من سوادها ولما كسيت شمرت اذيالها صونا من أيدي الناس والملك الناصر هو الذي يتولى كسوة الكعبة الكريمة ويبعث مرتبات القاضي والخطيب والائمة والمؤذنين والفراشين والقومة وما يحتاج له الحرم

الشريف من الشمع والزيت في كل سنة وفي هذه الايام تفتح الكعبة الشريفة في كل يوم للعراقيين والخراسانيين وسواهم ممن يصل مع الركب العراقي وهم يقيمون بمكة بعد سفر الركبين الشامي والمصري اربعة أيام فيكثرون فيها الصدقات على المجاورين وغيرهم ولقد شاهدتهم يطوفون بالحرم ليلا فمن لقوه في الحرم من المجاورين أو المكيين أعطوه الفضة والثياب وكذلك يعطون للمشاهدين الكعبة الشريفة وربما وجدوا انسانا نائما فجعلوا في فيه الذهب والفضة حتى يفيق ولما قدمت معهم من العراق سنة ثمان وعشرين فعلوا من ذلك كثيرا وأكثروا الصدقة حتى رخص سوم الذهب بمكة وانتهى صرف المثقال الى ثمانية عشر درهما نقرة لكثرة ما تصدقوا به من الذهب وفي هذه السنة ذكر اسم السلطان أبي سعيد ملك العراق على المنبر وقبة زمزم

﴿ذكر الانفصال عن مكة شرفها الله تعالى﴾

وفي الموفي عشرين لذي الحجة خرجت من مكة صحبة أمير ركب العراق البهلوان محمد الحويح (بحاءين مهملين) وهو من أهل الموصل وكان يلي امارة الحاج بعد موت الشيخ شهاب الدين قلندر وكان شهاب الدين سخيا فاضلا عظيم الحرمة عند سلطانه يحلق لحيته وحاجبيه على طريقة القلندرية ولما خرجت من مكة شرفها الله تعالى في صحبة الامير البهلوان المذكور اكترى لي شقة محارة الى بغداد ودفع اجارتها من ماله وأنزلني في جواره وخرجنا بعد طواف الوداع الى بطن مر في جمع من العراقيين والخراسانيين والفارسيين والاعاجم لا يحصي عديدهم تموج بهم الارض موجا ويسيرون سير السحاب المتراكم فمن خرج عن الركب لحاجة ولم تكن له علامة يستدل بها على موضعه ضل عنه لكثرة الناس وفي هذا الركب نواضح كثيرة لأبناء السبيل يستقون منها الماء وجمال لرفع الزاد للصدقة ولرفع الادوية والاشربة والسكر لمن يصيبه مرض واذا نزل الركب طبخ الطعام في قدور نحاس عظيمة تسمى الدسوت وأطعم منها أبناء السبيل ومن لا زاد معه وفي الركب جملة من الجمال يحمل عليها من لا قدرة له على المشي كل ذلك من صدقات السلطان أبي سعيد ومكارمه قال ابن جزي كرم الله هذه الكنية الشريفة فما أعجب أمر

فى الكرم وحسبك بمولانا بحر المكارم ورافع رايات الجود الذي هو آية في الندى والفضل أمير المسلمين أبي سعيد ابن مولانا قامع الكفار والآخذ للاسلام بالثار أمير المسلمين أبي يوسف قدس الله أرواحهم الكريمة وأبقى الملك في عقبهم الطاهر الي يوم الدين (رجع) وفي هذا الركب الاسواق الحافلة والمرافق العظيمة وأنواع الاطعمة والفواكه وهم يسيرون بالليل ويوقدون المشاعل امام القطار والمحارات فترى الارض تتلألأ نورا والليل قد عاد نهارا ساطعا ثم رحلنا من بطن مر الى عسفان ثم الي خليص ثم رحلنا أربع مراحل ونزلنا وادي السمك ثم رحلنا خمسا ونزلنا فى بدر وهذه المراحل ثنتان فى اليوم احداهما بعد الصبح والاخرى بالعشي ثم رحلنا من بدر فنزلنا الصفراء وأقمنا بها يوما مستريحين ومنها الي المدينة الشريفة مسيرة ثلاث ثم رحلنا فوصلنا الي طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحصلت لنا زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثانيا وأقمنا بالمدينة كرمها الله تعالى ستة أيام واستصحبنا منها الماء لمسيرة ثلاث ورحلنا عنها فنزلنا في الثالثة بوادي العروس فتزودنا منه الماء من حسيان يحفرون عليها فى الارض فينبطون ماء عذبا معينا ثم رحلنا من وادي العروس ودخلنا أرض نجد وهو بسيط من الارض مد البصر فتنسمنا نسيمة الطيب الارج ونزلنا بعد أربع مراحل على ماء يعرف بالعسيلة ثم رحلنا عنه ونزلنا ماء يعرف بالنقرة فيه آثار مصانع كالصهاريج العظيمة ثم رحلنا الى ماء يعرف بالقارورة وهي مصانع مملوءة بماء المطر مما صنعته زبيدة ابنة جعفر رحمها الله ونفعها وهذا الموضع هو وسط أرض نجد فسيح طيب النسيم صحيح الهواء نقى التربة معتدل فى كل فصل ثم رحلنا من القارورة ونزلنا بالحاجر وفيه مصانع للماء وربما جفت فيحفر عن الماء في الجفار ثم رحلنا ونزلنا سميرة وهى أرض غائرة فى بسيط فيه شبه حصن مسكون وماؤها كثير في آبار الا انه زعاق ويأتى عرب تلك الارض بالغنم والسمن واللبن فيبيعون ذلك من الحجاج بالثياب الخام ولا يبيعون بسوى ذلك ثم رحلنا ونزلنا بالجبل المخروق وهو في بيداء من الارض وفى أعلاه ثقب نافذ تخرقه الريح ثم رحلنا منه الى وادي الكروش ولا ماء به ثم اسرينا ليلا وصبحنا حصن فيد وهو حصن كبير في بسيط من

الارض يدور به سور وعليه ربض وساكنوه عرب يتعيشون مع الحاج في البيع والتجارة وهنالك يترك الحجاج بعض أزوادهم حين وصولهم من العراق الى مكة شرفها الله تعالى فاذا عادوا اوجدوه وهو نصف الطريق من مكة الى بغداد ومنه الى الكوفة مسيرة اثني عشر يوما في طريق سهل به المياه في المصانع ومن عادة الركب ان يدخلوا هذا الموضع على تعبئة وأهبة للحرب ارهابا للعرب المجتمعين هنالك وقطعا لاطماعهم عن الركب وهنالك لقينا أميري العرب وهما فياض وحيار وابنا مهنى (بكسر الحاء واهمال الياء آخر الحروف) وهما أبناء الامير مهنى بن عيسى ومعهما من خيل العرب ورجالهم من لا يحصون كثرة فظهر منهما المحافظة على الحاج والرحال والحوطة لهم واتى العرب بالجمال والغنم فاشترى منهم الناس ما قدروا عليه ثم رحلنا ونزلنا الموضع المعروف بالاجفر ويشتهر باسم العاشقين جميل وبثينة ثم رحلنا ونزلنا بالبيداء ثم أسرينا ونزلنا زرود وهي بسيط من الارض فيه رمال منهالة وبه دور صغار قد اداروها شبه الحصن وهنالك ابار ماء ليست بالعذبة ثم رحلنا ونزلنا الثعلبية ولها حصن خرب بازائه مصنع هائل ينزل اليه في درج وبه من ماء المطر ما يعم الركب ويجتمع من العرب بهذا الموضع جمع عظيم فيبيعون الجمال والغنم والسمن واللبن ومن هذا الموضع الى الكوفة ثلاث مراحل ثم رحلنا فنزلنا ببركة المرجوم وهو مشهد على الطريق عليه كوم عظيم من حجارة وكل من مر به رجمه ويذكر ان هذا المرجوم كان رافضيا سافر مع الركب يريد الحج فوقعت بينه وبين أهل السنة من الاتراك مشاجرة فسب بعض الصحابة فقتلوه بالحجارة وبهذا الموضع بيوت كثيرة للعرب ويقصدهم الركب بالسمن واللبن وسوى ذلك وبه مصنع كبير يعم سقي الركب مما احدثته زبيدة رحمة الله عليها وكل مصنع أو بركة أو بئر بهذه الطريق التي بين مكة وبغداد فهي من كريم آثارها جزاها الله خيرا ووفى لها أجرها ولولا عنايتها بهذه الطريق ما سلكها أحد ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالمشقوق فيه مصنعان بهما الماء العذب الصافي وأراق الناس ما كان عندهم من الماء وتزودوا منهما ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالتنانير وفيه مصنع مملوء بالماء ثم أسرينا منه واجتزنا ضحوة بزمالة وهي قرية معمورة بها قصر

ومصنعان للماء وآبار كثيرة وهي من مناهل هـذا الطريق ثم رحلنا فنزلنا الهيثمين وفيه مصنعان للماء ثم رحلنا فنزلنا دون العقبة المعروفة بعقبة الشيطان وصعدنا العقبة في اليوم الثاني وليس بهذا الطريق وعر سواها على انها ليست بصعبة ولا طائلة ثم نزلنا موضعا يسمي واقصة فيه قصر كبير ومصانع للماء معمور بالعرب وهو آخر مناهل هذا الطريق وليس فيما بعده الي الكوفة منهل مشهور الا مشارع ماء الفرات وبه يتلقى كثير من أهل الكوفة الحاج ويأتون بالدقيق والخبز والتمر والفواكه ويهني الناس بعضهم بعضا بالسلامة ثم نزلنا موضعا يعرف بلورة فيه مصنع كبير للماء ثم نزلنا موضعا يعرف بالمساجد فيه ثلاث مصانع ثم نزلنا موضعا يعرف بمنارة القرون وهي منارة في بيداء من الارض بائنة الارتفاع مجللة بقرون الغزلان ولا عمارة حولها ثم نزلنا موضعا يعرف بالعذيب وهو واد مخصب عليه عمارة وحوله فلاة خصبة فيها مسرح للبصر ثم نزلنا القادسية حيث كانت الوقعة الشهيرة على الفرس التي أظهر الله فيها دين الاسلام وأذل المجوس عبدة النار فلم تقم لهم بعدها قائمة واستأصل الله شأفتهم وكان أمير المسلمين يومئذ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وكانت القادسية مدينة عظيمة افتتحها سعد رضي الله عنه وخربت فلم يبق منها الآن الا مقدار قرية كبيرة وفيها حدائق النخل وبها مشارع من ماء الفرات ثم رحلنا منها فنزلنا مدينة مشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالنجف وهي مدينة حسنة في أرض فسيحة صلبة من أحسن مدن العراق وأكثرها ناسا وأتقنها بناء ولها أسواق حسنة نظيفة دخلناها من باب الحضرة فاستقبلنا سوق البقالين والطباخين والخبازين ثم سوق الفاكهة ثم سوق الخياطين والقسارية ثم سوق العطارين ثم باب الحضرة حيث القبر الذي يزعمون انه قبر علي عليه السلام وبازائه المدارس والزوايا والخوانق معمورة أحسن عمارة وحيطانها بالقاشاني وهو شبه الزليج عندنا لكن لونه أشرق ونقشه أحسن

﴿ ذكر الروضة والقبور التي بها ﴾

ويدخل من باب الحضرة الي مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة ولكل

وارد عليها ضيافة ثلاثة أيام من الخبز واللحم والتمر مرتين في اليوم ومن تلك المدرسة يدخل الى باب القبة وعلى بابها الحجاب والنقباء والطواشية فعندما يصل الزائر يقوم اليه أحدهم أو جميعهم وذلك على قدر الزائر فيقفون معه على العتبة ويستأذنون له ويقولون عن أمركم يا أمير المؤمنين هذا العبد الضعيف يستأذن على دخوله للروضة العلية فان أذنتم له والا رجع وان لم يكن أهلا لذلك فأنتم أهل المكارم والستر ثم يأمرونه بتقبيل العتبة وهي من الفضة وكذلك العضادتان ثم يدخل القبة وهي مفروشة بأنواع البسط من الحرير وسواه وبها قناديل الذهب والفضة منها الكبار والصغار وفي وسط القبة مسطبة مربعة مكسوة بالخشب عليه صفائح الذهب المنقوشة المحكمة العمل مسمرة بمسامير الفضة قد غلبت على الخشب بحيث لا يظهر منه شيء وارتفاعها دون القامة وفوقها ثلاثة من القبور يزعمون ان أحدها قبر آدم عليه الصلاة والسلام والثاني قبر نوح عليه الصلاة والسلام والثالث قبر علي رضي الله عنه وبين القبور طسوت ذهب وفضة فيها ماء الورد والمسك وانواع الطيب يغمس الزائر يده في ذلك ويدهن به وجهه تبركا وللقبة باب آخر عتبته أيضاً من الفضة وعليه ستور من الحرير الملون يفضي الي مسجد مفروش بالبسط الحسان مستورة حيطانه وسقفه بستور الحرير وله أربعة أبواب عتبها فضة وعليها ستور الحرير وأهل هذه المدينة كلهم رافضية وهذه الروضة ظهرت لها كرامات ثبت بها عندهم أن بها قبر علي رضي الله عنه فمنها ان في ليلة السابع والعشرين من رجب وتسمى عندهم ليلة المحيا يؤتى الى تلك الروضة بكل مقعد من العراقين وخراسان وبلاد فارس والروم فيجتمع منهم الثلاثون والاربعون ونحو ذلك فاذا كان بعد العشاء الآخرة جعلوا فوق الضريح المقدس والناس ينتظرون قيامهم وهم ما بين مصل وذاكر وتال ومشاهد للروضة فاذا مضى من الليل نصفه أو ثلثاه أو نحو ذلك قام الجميع اصحاء من غير سوء وهم يقولون لا اله الا الله محمد رسول الله علي ولي الله وهذا أمر مستفيض عندهم سمعته من الثقات ولم أحضر تلك الليلة لكني رأيت بمدرسة الضياف ثلاثة من الرجال أحدهم من أرض الروم والثاني من أصبهان والثالث من خراسان وهم مقعدون فاستخبرتهم على

شأنهم فاخبروني انهم لم يدركوا ليلة المحيا وانهم منتظرون أوانها من عام آخر وهذه الليلة يجتمع لها الناس من البلاد ويقيمون سوقا عظيمة مدة عشرة أيام وليس بهذه المدينة مغرم ولا مكاس ولا وال وانما يحكم عليهم نقيب الاشراف وأهلها تجار يسافرون في الاقطار وهم أهل شجاعة وكرم ولا يضام جارهم صحبتهم في الاسفار فحمدت صحبتهم لكنهم غلوا فى على رضي الله عنه ومن الناس فى بلاد العراق وغيرها من يصيبه المرض فينذر للروضة نذرا اذا برئ ومنهم من يمرض رأسه فيصنع رأسا من ذهب أو فضة ويأتي به الي الروضة فيجعله النقيب في الخزانة وكذلك اليد والرجل وغيرهما من الاعضاء وخزانة الروضة عظيمة فيها من الاموال مالا يضبط لكثرته

﴿ذكر نقيب الاشراف﴾

ونقيب الاشراف مقدم من ملك العراق ومكانه عنده مكين ومنزلته رفيعة وله ترتيب الامراء الكبار في سفره وله الاعلام والاطبال وتضرب الطبلخانة عند بابه مساء وصباحاً واليه حكم هذه المدينة ولا والي بها سواه ولا مغرم فيها للسلطان ولا لغيره وكان النقيب فى عهد دخولي اليها نظام الدين حسين بن تاج الدين الآوى نسبة الي بلدة آوة من عراق العجم أهلها رافضة وكان قبله جماعة يلي كل واحد منهم بعد صاحبه منهم جلال الدين ابن الفقيه ومنهم قوام الدين بن طاوس ومنهم ناصر الدين مطهر ابن الشريف الصالح شمس الدين محمد الاوهري من عراق العجم وهو الآن بارض الهند من ندماء ملكها ومنهم أبو غرة بن سالم بن مهنى بن جماز بن شيحة الحسيني المدني

﴿حكاية﴾

كان الشريف أبو غرة قد غلب عليه في أول أمره العبادة وتعلم العلم واشتهر بذلك وكان ساكنا بالمدينة الشريفة كرمها الله في جوار ابن عمه منصور بن جماز أمير المدينة ثم انه خرج عن المدينة واستوطن العراق وسكن منها بالحلة فمات النقيب قوام الدين بن طاوس فاتفق أهل العراق على تولية أبي غرة نقابة الاشراف وكتبوا بذلك الى السلطان أبي سعيد فامضاه ونفذ له البرليغ وهو الظهير بذلك وبعث له الخلعة والاعلام والطبول على عادة النقباء ببلاد العراق فغلبت عليه الدنيا وترك العبادة والزهد وتصرف في الاموال تصرفا

قبيحا فرفع أمره الي السلطان فلما علم بذلك أعمل السفر مظهرا انه يريد خراسان قاصدا زيارة قبر علي بن موسى الرضي بطوس وكان قصده الفرار فلما زار قبر علي بن موسي قدم مراوده في آخر بلاد خراسان وأعلم أصحابه انه يريد بلاد الهند فرجع أكثرهم عنه وتجاوز هو أرض خراسان الي السند فلما جاز وادي السند المعروف بنج آب ضرب طبوله وانفاره فراع ذلك أهل القرى وظنوا ان التتر أتوا للاغارة عليهم وأجفلوا الى المدينة المسماة بأوجا وأعلموا أميرها بما سمعوه فركب في عساكره واستعد للحرب وبعث الطلائع فرأوا نحو عشرة من الفرسان وجماعة من الرجال والتجار ممن صحب الشريف في طريقه معهم الاطبال والاعلام فسألوهم عن شأنهم فاخبروهم ان الشريف نقيب العراق أتى وافدا على ملك الهند فرجع الطلائع الى الامير وأخبروه بكيفية الحال فاستضعف عقل الشريف لرفعه العلامات وضربه الطبول في غير بلاده ودخل الشريف مدينة أوجا وأقام بها مدة تضرب الاطبال على باب داره غدوة وعشيا وكان مولعا بذلك ويذكر انه كان في أيام نقابته بالعراق تضرب الاطبال على رأسه فاذا أمسك النقار عن الضرب يقول له زد نقرة يا نقار حتى لقب بذلك وكتب صاحب مدينة اوجا الى ملك الهند بخبر الشريف وضربه الاطبال بالطريق وعلى باب داره غدوة وعشيا ورفعه الاعلام وعادة أهل الهند أن لا يرفع علما ولا يضرب طبلا الا من أعطاه الملك ذلك ولا يفعله الا في السفر وأما في حال الاقامة فلا يضرب الطبل الا على باب الملك خاصة بخلاف مصر والشام والعراق فان الطبول تضرب على أبواب الامراء فلما بلغ خبره الي ملك الهند كره فعله وأنكره وفعل في نفسه ثم خرج الامير الي حضرة الملك وكان الامير كشلي خان والخان عندهم أعظم الامراء وهو الساكن بملتان كرسي بلاد السند وهو عظيم القدر عند ملك الهند يدعوه بالعم لانه كان ممن أعان أباه السلطان غياث الدين تغلق شاه على قتال السلطان ناصر الدين خسرو شاه وقد قدم على حضرة ملك الهند فخرج الملك الي لقائه فاتفق ان كان وصول الشريف في ذلك اليوم وكان الشريف قد سبق الامير باميال وهو على حاله من ضرب الاطبال فلم يرعه الا السلطان في موكبه فتقدم الشريف الي السلطان فسلم عليه وسأله

السلطان عن حاله وما الذي جاء به فأخبره ومضي السلطان حتي لقى الامير كشلى خان وعاد الى حضرته ولم يلتفت الي الشريف ولا أمر له بانزال ولا غيره وكان الملك عازما على السفر الى مدينة دولة أباد وتسمي أيضاً بالكتكة (بفتح الكافين والتاء المملوة التى بينهما) وتسمي أيضاً بالدويجر (دوكير) وهي على مسيرة أربعين يوما من مدينة دهلى حضرة الملك فلما شرع فى السفر بعث الي الشريف بخمسمائة دينار دراهم وصرفها من ذهب المغرب مائة وخمسة وعشرون ديناراً وقال لرسوله اليه قل له ان أراد الرجوع الى بلاده فهذا زاده وان أراد السفر معنا فهي نفقته بالطريق وان أراد الاقامة بالحضرة فهي نفقته حتي نرجع فاغتم الشريف لذلك وكان قصده أن يجزل له العطاء كما هي عادته مع أمثاله واختار السفر صحبة السلطان وتعلق بالوزير أحمد بن اياس المدعو بخواجه جهان وبذلك سماه الملك وبه يدعوه وبه يدعوه سائر الناس فان من عادتهم انه متى سمي الملك أحداً باسم مضاف الى الملك من عماد أو ثقة أو قطب أو باسم مضاف الي الجهان من صدر وغيره فبذلك يخاطبه الملك وجميع الناس ومن خاطبه بسوي ذلك لزمته العقوبة فتأكدت المودة بين الوزير والشريف فأحسن اليه ورفع قدره ولاطف الملك حتى حسن فيه رأيه وأمر له بقريتين من قرى دولة أباد وأمره أن تكون اقامته بها وكان هذا الوزير من أهل الفضل والمروءة ومكارم الاخلاق والمحبة فى الغرباء والاحسان اليهم وفعل الخير واطعام الطعام وعمارة الزوايا فأقام الشريف يستغل القريتين ثمانية أعوام وحصل من ذلك مالا عظيما ثم أراد الخروج فلم يمكنه فانه من خدم السلطان لا يمكنه الخروج الا باذنه وهو محب في الغرباء فقليلا ما يأذن لاحدهم في السراح فاراد الفرار من طريق الساحل فردمنه وقدم الحضرة ورغب من الوزير أن يحاول قضية انصرافه فتلطف الوزير فى ذلك حتى أذن له السلطان في الخروج عن بلاد الهند واعطاه عشرة آلاف دينار من دراهمهم وصرفها من ذهب المغرب ألفان وخمسمائة دينار فأتى بها فى بدرة فجعلها تحت فراشه ونام عليها لمحبته في الدنانير وفرحه بها وخوفه أن يتصل لاحد من اصحابه شيء منها فانه كان بخيلا فأصابه وجع في جنبه بسبب رقاده عليها ولم يزل يتزايد به وهو آخذ في حركة سفره الى أن توفى بعد

عشرين يوما من وصول البدرة اليه وأوصي بذلك المال للشريف حسن الجراني فتصدق بجملته على جماعة من الشيعة المقيمين بدهلي من أهل الحجاز والعراق وأهل الهند لا يورثون بيت المال ولا يتعرضون لمال الغرباء، لا يسألون عنه ولو بلغ ما عسي أن يبلغ وكذلك السودان لا يتعرضون لمال الابيض ولا يأخذونه انما يكون عند الكبار من أصحابه حتي يأتي مستحقه وهذا الشريف أبو غرة له أخ اسمه قاسم سكن غرناطة مدة وبها تزوج بنت الشريف أبي عبد الله بن ابراهيم الشهير بالمكي ثم انتقل الى جبل طارق فسكنه الي ان استشهد بوادي كرة من نظر الجزيرة الخضراء وكان بهمة من البهم لا يصطلي بناره خرق المعتاد في الشجاعة وله فيها أخبار شهيرة عند الناس وترك ولدين هما في كفالة ربيبهما الشريف الفاضل أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم بن نفيس الحسيني الكربلائي الشهير ببلاد المغرب بالعراقي وكان تزوج أمهما بعد موت أبيهما وهو محسن لهما جزاه الله خيراً

ولما تحصلت لنا زيارة أمير المؤمنين علي عليه السلام سافر الركب الي بغداد وسافرت الى البصرة صحبة رفقة كبيرة من عرب خفاجة وهم أهل تلك البلاد ولهم شوكة عظيمة وبأس شديد ولا سبيل للسفر في تلك الاقطار الا في صحبتهم فاكتريت جملا علي يد أمير تلك القافلة شامر بن دراج الخفاجي وخرجنا من مشهد علي عليه السلام فنزلنا الخورنق موضع سكني النعمان بن المنذر وآبائه من ملوك بني ماء السماء وبه عمارة وبقايا قباب ضخمة في فضاء فسيح على نهر يخرج من الفرات ثم رحلنا عنه فنزلنا موضعا يعرف بقائم الواثق وبه أثر قرية خربة ومسجد خرب لم يبق منه الا صومعته ثم رحلنا عنه آخذين مع جانب الفرات بالموضع المعروف بالعذار وهو غابة قصب في وسط الماء يسكنها اعراب يعرفون بالمعادي وهم قطاع الطريق رافضية المذهب خرجوا على جماعة من الفقراء تأخروا عن رفقتنا فسلبوهم حتي النعال والكشاكل وهم يتحصنون بتلك الغابة ويمتنعون بها ممن يريدهم والسباع بها كثيرة ورحلنا مع هذا العذار ثلاث مراحل ثم وصلنا مدينة واسط

﴿مدينة واسط﴾

وهي حسنة الاقطار كثيرة البساتين والاشجار بها اعلام يهدي الخير شاهدهم وتهدي

الاعتبار مشاهدهم وأهلها من خيار أهل العراق بل هم خيرهم على الاطلاق أكثرهم يحفظون القرآن الكريم ويجيدون تجويده بالقراءة الصحيحة واليهم يأتي أهل بلاد العراق برسم تعلم ذلك وكان في القافلة التي وصلنا فيها جماعة من الناس أتوا برسم تجويد القرآن على من بها من الشيوخ وبها مدرسة عظيمة حافلة فيها نحو ثلاثمائة خلوة ينزلها الغرباء القادمون لتعلم القرآن عمرها الشيخ تقي الدين عبد المحسن الواسطي وهو من كبار أهلها وفقهائها ويعطي لكل متعلم بها كسوة في السنة ويجري له نفقته في كل يوم ويقعد هو واخوانه وأصحابه لتعليم القرآن بالمدرسة وقد لقيته وأضافني وزودني تمرا ودراهم ولما نزلنا مدينة واسط أقامت القافلة ثلاثا بخارجها للتجارة فسنح لي زيارة قبر الولي أبي العباس أحمد الرفاعي وهو بقرية تعرف بأم عبيدة على مسيرة يوم من واسط فطلبت من الشيخ تقي الدين أن يبعث معي من يوصلني اليها فبعث معي ثلاثة من عرب بني أسد وهم قطان تلك الجهة وأركبني فرساً له وخرجت ظهراً فبت تلك الليلة بحوش بني أسد ووصلنا في ظهر اليوم الثاني الى الرواق وهو رباط عظيم فيه آلاف من الفقراء وصادفنا به قدوم الشيخ أحمد قوجك حفيد ولي الله أبي العباس الرفاعي الذي قصدنا زيارته وقد قدم من موضع سكناه من بلاد الروم برسم زيارة قبر جده واليه انتهت الشياخة بالرواق ولما انقضت صلاة العصر ضربت الطبول والدفوف وأخذ الفقراء في الرقص ثم صلوا المغرب وقدموا السماط وهو خبز الأرز والسمك واللبن والتمر فأكل الناس ثم صلوا العشاء الآخرة وأخذوا في الذكر والشيخ أحمد قاعد على سجادة جده المذكور ثم أخذوا في السماع وقد أعدوا احمالا من الحطب فأججوها نارا ودخلوا في وسطها يرقصون ومنهم من يتمرغ فيها ومنهم من يأكلها بفمه حتى أطفؤها جميعا وهذا دأبهم وهذه الطائفة الاحمدية مخصوصون بهذا وفيهم من يأخذ الحية العظيمة فيعض بأسنانه على رأسها حتى يقطعه

﴿حكاية﴾

كنت مررت بموضع يقال له أفقانبور من عمالة هزارأمروها وبينها وبين دهلي حضرة الهند مسيرة خمس وقد نزلنا بها على نهر يعرف بنهر السرور وذلك في أوان الشكال والشكال عندهم هو المطر وينزل في ابان القيظ وكان السيل يحدر في هذا النهر من جبال

قراجيل فكل من يشرب منه من انسان أو بهيمة يموت لنزول المطر على الحشائش المسمومة فأقمنا على النهر أربعة أيام لا يقربه أحد ووصل الى هنالك جماعة من الفقراء في أعناقهم أطواق الحديد وفي أيديهم وكبيرهم رجل أسود حالك اللون وهم من الطائفة المعروفة بالحيدرية فباتوا عندنا ليلة وطلب مني كبيرهم أن آتيه بالحطب ليوقدوه عند رقصهم فكلفت والي تلك الجهة وهو عزيز المعروف بالخمار وسيأتي ذكره أن يأتي بالحطب فوجه منه نحو عشرة أحمال فأضرموا فيه النار بعد صلاة العشاء الآخرة حتى صارت جمرا واخذوا في السماع ثم دخلوا في تلك النار فمازالوا يرقصون ويتمرغون فيها وطلب مني كبيرهم قميصاً فأعطيته قميصاً في النهاية من الرقة فلبسه وجعل يتمرغ به في النار ويضربها بأكمامه حتى طفئت تلك النار وخمدت وجاء الي بالقميص والنار لم تؤثر فيه شيأ البتة فطال عجبي منه ولما حصلت لي زيارة الشيخ أبي العباس الرفاعي نفع الله به عدت الى مدينة واسط فوجدت الرفقة التي كنت فيها قد رحلت فلحقتها في الطريق ونزلنا ماء يعرف بالهضيب ثم رحلنا ونزلنا بوادي الكراع وليس به ماء ثم رحلنا ونزلنا موضعاً يعرف بالمشيرب ثم رحلنا منه ونزلنا بالقرب من البصرة ثم رحلنا فدخلنا ضحوة النهار الى مدينة البصرة

﴿ مدينة البصرة ﴾

فنزلنا بها رباط مالك دينار وكنت رأيت عند قدومي عليها على نحو ميلين منها بناء عاليا مثل الحصن فسألت عنه فقيل له هو مسجد علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكانت البصرة من اتساع الخطة وانفساح الساحة بحيث كان هذا المسجد في وسطها وبينه الآن وبينها ميلان وكذلك بينه وبين السور الاول المحيط بها نحو ذلك فهو متوسط بينهما ومدينة البصرة احدى أمهات العراق الشهيرة الذكر في الآفاق الفسيحة الارجاء المؤنقة الافناء ذات البساتين الكثيرة والفواكه الاثيرة توفر قسمها من النضارة والخصب لما كانت مجمع البحرين الاجاج والعذب وليس في الدنيا أكثر نخلا منها فيباع التمر في سوقها بحساب أربعة عشر رطلا عراقية بدرهم ودرهمهم ثلث النقرة ولقد بعث الى قاضيها حجة الدين بقوصرة تمر يحملها الرجل على تكلف فأردت بيعها فبيعت بتسعة دراهم أخذ الحمال

منها ثلثها عن أجرة حملها من المنزل الى السوق ويصنع بها من التمر عسل يسمى السيلان وهو طيب كأنه الجلاب والبصرة ثلاث محلات احداها محلة هذيل وكبيرها الشيخ الفاضل علاء الدين بن الاثير من الكرماء الفضلاء أضافني وبعث الي بثياب ودراهم والمحلة الثانية محلة بني حرام كبيرها السيد الشريف مجد الدين موسي الحسني ذو مكارم وفواضل أضافني وبعث الي التمر والسيلان والدراهم والمحلة الثالثة محلة العجم كبيرها جمال الدين ابن اللوكي واهل البصرة لهم مكارم أخلاق وايناس للغريب وقيام بحقه فلا يستوحش فيما بينهم غريب وهم يصلون الجمعة في مسجد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه الذي ذكرته ثم يسد فلا يأتونه الا في الجمعة وهذا المسجد من أحسن المساجد وصحنه متناهي الانفساح مفروش بالحصباء الحمراء التي يؤتي بها من وادي السباع وفيه المصحف الكريم الذي كان عثمان رضي الله عنه يقرأ فيه لما قتل وأثر تغيير الدم في الورقة التي فيها قوله تعالى (فسيكفيكم الله وهو السميع العليم)

(حكاية اعتبار)

شهدت مرة بهذا المسجد صلاة الجمعة فلما قام الخطيب به الى الخطبة وسردها لحن فيها لحنا كثيرا جليا فعجبت من أمره وذكرت ذلك للقاضي حجة الدين فقال لي ان هذا البلد لم يبق به من يعرف شيئاً من علم النحو وهذه عبرة لمن تفكر فيها سبحانه مغير الاشياء ومقلب الامور هذه البصرة التي الى أهلها انتهت رياسة النحو وفيها أصله وفرعه ومن أهلها امامه الذي لا ينكر سبقه لا يقيم خطيبها خطبة الجمعة على دوبه عليها ولهذا المسجد سبع صوامع احداها الصومعة التي تتحرك بزعمهم عند ذكر علي بن أبي طالب رضي الله عنه صعدت اليها من أعلى سطح المسجد ومعي بعض أهل البصرة فوجدت في ركن من أركانها مقبض خشب مسمرا فيها كأنه مقبض مملسة البناء فجعل الرجل الذي كان معي يده في ذلك المقبض وقال بحق رأس أمير المؤمنين علي رضي الله عنه تحركي وهز المقبض فتحركت الصومعة فجعلت أنا يدي في المقبض وقلت له وأنا أقول بحق رأس أبي بكر خليفة رسول الله صلي الله عليه وسلم تحركي وهززت المقبض فتحركت الصومعة فعجبوا من ذلك وأهل البصرة على مذهب السنة والجماعة ولا يخاف من يفعل مثل فعلي عندهم ولو جرى مثل هذا بمشهد علي

أو مشهد الحسين أو بالحلة أو بالبحرين أو قم أو قاشان أو ساوة أو آوة أو طوس لهلك فاعله لأنهم رافضة غالية قال ابن جزي قد عاينت بمدينة برشانة من وادي المنصورة من بلاد الاندلس حاطها الله صومعة تهتز من غير أن يذكر لها أحد من الخلفاء أو سواهم وهي صومعة المسجد الاعظم بها وبناؤها ليس بالقديم وهي كأحسن ما أنت راء من الصوامع حسن منظر واعتدالا وارتفاعا لاميل فيها ولا زيغ صعدت اليها مرة ومعي جماعة من الناس فأخذ بعض من كان معي بجوانب جامورها وهزوها فاهتزت حتى أشرت اليهم أن يكفوا فكفوا عن هزها (رجع)

﴿ ذكر المشاهد المباركة بالبصرة ﴾

فمنها مشهد طلحة بن عبيد الله أحد العشرة رضي الله عنهم وهو بداخل المدينة وعليه قبة ومسجد وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر وأهل البصرة يعظمونه تعظيماً شديداً وحق له ومنها مشهد الزبير بن العوام حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته رضي الله عنهما وهو بخارج البصرة ولا قبة عليه وله مسجد وزاوية فيها الطعام لابناء السبيل ومنها قبر حليمة السعدية أم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاعة رضي الله عنها والى جانبها قبر ابنها رضيع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنها قبر أبي بكرة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه قبة وعلى ستة أميال منها بقرب وادي السباع قبر أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا سبيل لزيارته الا في جمع كثيف لكثرة السباع وعدم العمران ومنها قبر الحسن بن أبي الحسن البصري سيد التابعين رضي الله عنه ومنها قبر محمد بن سيرين رضي الله عنه ومنها قبر محمد بن واسع رضي الله عنه ومنها قبر عتبة الغلام رضي الله عنه ومنها قبر مالك بن دينار رضي الله عنه ومنها قبر حبيب العجمي رضي الله عنه ومنها قبر سهل بن عبد الله التستري رضي الله عنه وعلى كل قبر منها قبرية مكتوب فيها اسم صاحب القبر ووفاته وذلك كله داخل السور القديم وهي اليوم بينها وبين البلد نحو ثلاثة أميال وبها سوى ذلك قبور الجم الغفير من الصحابة والتابعين المستشهدين يوم الجمل وكان أمير البصرة حين ورودي عليها يسمى بركن الدين العجمي التوريزي أضافني فأحسن الى

والبصرة على ساحل الفرات والدجلة وبها المد والجزر كمثل ما هو بوادي سلا من بلاد المغرب وسواه والخليج المالح الخارج من بحر فارس على عشرة أميال منها فاذا كان المد غلب الماء المالح على العذب واذا كان الجزر غلب الماء الحلو على المالح فيستسقى أهل البصرة الماء لدورهم ولذلك يقال ان ماءهم زعاق قال ابن جزي وبسبب ذلك كان هواء البصرة غير جيد وألوان أهلها مصفرة كاسفة حتى ضرب بهم المثل وقال بعض الشعراء وقد أحضرت بين يدي الصاحب اترجة (سريع)

لله اترج غدا بيننا * معبرا عن حال ذي عبرة
لما كسي الله ثياب الضنا * أهل الهوى وساكني البصرة

(رجع) ثم ركبت من ساحل البصرة في صنبوق وهو القارب الصغير الى الابلة وبينها وبين البصرة عشرة أميال في بساتين متصلة ونخيل مظلة عن اليمين واليسار والباعة في ظلال الاشجار يبيعون الخبز والسمك والتمر واللبن والفواكه وفيما بين البصرة والابلة متعبد سهل بن عبد الله التستري فاذا حاذاه الناس بالسفن تراهم يشربون الماء مما يحاذيه من الوادي ويدعون عند ذلك تبركا بهذا الولي رضي الله عنه والنواتية يجرفون في هذه البلاد وهم قيام وكانت الابلة مدينة عظيمة يقصدها تجار الهند وفارس فخربت وهي الآن قرية بها آثار قصور وغيرها دالة على عظمها ثم ركبنا في الخليج الخارج من بحر فارس في مركب صغير لرجل من أهل الابلة يسمى بمغامس وذلك فيما بعد المغرب فصبحنا عبادان وهي قرية كبيرة في سبخة لا عمارة بها وفيها مساجد كثيرة ومتعبدات ورباطات للصالحين وبينها وبين الساحل ثلاثة أميال قال ابن جزي عبادان كانت بلدا فيما تقدم وهي مجدبة لا زرع بها وانما يجلب اليها والماء أيضا بها قليل وقد قال فيها بعض الشعراء (سريع)

من مبلغ اندلسا انني * حللت عبادان أقصى الثرا
اوحش ما أبصرت لكنني * قصدت فيها ذكرها في الورى
الخبز فيها يتهادونه * وشربة الماء بها تشترى

(رجع) وعلى ساحل البحر منها رابطة تعرف بالنسبة الى الخضر والياس عليهما السلام وبازائها زاوية يسكنها أربعة من الفقراء بأولادهم يخدمون الرابطة والزاوية ويتعيشون من فتوحات الناس وكل من يمر بهم يتصدق عليهم وذكر لي أهل هذه الزاوية ان بعبادان عابداً كبير القدر ولا أنيس له يأتي هذا البحر مرة في الشهر فيصطاد فيه ما يقوته شهراً ثم لا يرى الا بعد تمام شهر وهو على ذلك منذ أعوام فلما وصلنا عبادان لم يكن لي شأن الا طلبه فاشتغل من كان معي بالصلاة في المساجد والمتعبدات وانطلقت طالباله فجئت مسجداً خرباً فوجدته يصلي فيه فجلست الى جانبه فأوجز في صلاته ولما سلم أخذ بيدي وقال لي بلغك الله مرادك في الدنيا والآخرة فقد بلغت بحمد الله مرادي في الدنيا وهو السياحة في الارض وبلغت من ذلك ما لم يبلغه غيري فيما أعلمه وبقيت الاخرى والرجاء قوى في رحمة الله وتجاوزه وبلوغ المراد من دخول الجنة ولما أتيت أصحابي أخبرتهم خبر الرجل وأعلمتهم بموضعه فذهبوا اليه فلم يجدوه ولا وقعوا له على خبر فعجبوا من شأنه وعدنا بالعشى الى الزاوية فبتنا بها ودخل علينا أحد الفقراء الاربعة بعد صلاة العشاء الآخرة ومن عادة ذلك الفقير أن يأتي عبادان كل ليلة فيسرج السرج بمساجدها ثم يعود الى زاويته فلما وصل الى عبادان وجد الرجل العابد فأعطاه سمكة طرية وقال له اوصل هذه الى الضيف الذي قدم اليوم فقال لنا الفقير عند دخوله علينا من رأى منكم الشيخ اليوم فقلت له أنا رأيته فقال يقول لك هذه ضيافتك فشكرت الله على ذلك وطبخ لنا الفقير تلك السمكة فأكلنا منها أجمعين وما أكلت قط سمكا أطيب منها وهجس في خاطري الاقامة بقية العمر في خدمة ذلك الشيخ ثم صرفتني النفس اللجوج عن ذلك ثم ركبنا البحر عند الصبح بقصد بلدة ماجول ومن عادتي في سفري أن لا أعود على طريق سلكتها ما أمكنني ذلك وكنت أحب قصد بغداد العراق فأشار على بعض أهل البصرة بالسفر الى أرض اللور ثم الى عراق العجم ثم الى عراق العرب فعملت بمقتضى اشارته ووصلنا بعد أربعة أيام الى بلدة ماجول على وزن فاعول وجيمها معقودة وهى صغيرة على ساحل هذا الخليج الذي ذكرنا انه يخرج من بحر فارس وأرضها سبخة لا شجر فيها ولا نبات ولها سوق عظيمة

من أكبر الاسواق وأقمت بها يوماً واحـدا ثم اكتريت دابة لركوبي من الذين يجلبون الحبوب من رامز الى ماجول وسرنا ثلاثاً في صحراء يسكنها الاكراد في بيوت الشعر ويقال ان أصلهم من العرب ثم وصلنا الي مدينة رامز وأول حروفها (راء وآخرها زاي وميمها مكسورة) وهي مدينة حسنة ذات فواكه وأنهار ونزلنا بها عنـد القاضي حسام الدين محمود ولقيت عنده رجـلا من أهل العلم والدين والورع هندي الاصـل يدعى بهاء الدين ويسمى اسماعيـل وهو من أولاد الشيخ بهـاء الدين أبي زكريا الملتاني وقرأ على مشايخ توريز وغيرها واقمت بمدينة رامز ليلة واحدة ثم رحلنا منها ثلاثاً في بسيط فيه قرى يسكنها الاكراد وفي كل مرحلة منها زاوية فيها للوارد الخبز واللحم والحلواء وحلواؤهم من رب العنب مخلوط بالدقيـق والسمن وفي كل زاوية الشيخ والامام والمؤذن والخادم للفقراء والعبيد والخدم يطبخون الطعام ثم وصلت الى مدينـة تستر وهي آخر البسيط من بلاد اتابك وأول الجبال مدينة كبيرة رائقة نضيرة وبها البساتين الشريفة والرياض المنيفة ولها المحاسن البارعة والاسواق الجامعة وهي قديمة البناء افتتحها خالد بن الوليد والي هـذه المدينة ينسب سهل بن عبـد الله ويحيط بها النهر المعروف بالازرق وهو عجيب في نهاية من الصفاء شديد البرودة في أيام الحر ولم أر كزرقته الا نهر بلخشان ولهـا باب واحد للمسافرين يسمى دروازة دسبول والدروازة عندهم البـاب ولها ابواب غيره شارعة الى النهر وعلى جانبي النهر البساتين والدواليب والنهر عميق وعلى باب المسافرين منه جسر على القوارب كجسر بغداد والحلة قال ابن جزي وفي هذا النهر يقول بعضهم (كامل)

انظر لشاذروان تستر واعتجب * من جمعـه ماء لري بلاده
كمليك قـوم جمعت امواله * فغـدا يفرقه على اجنـاده

والفواكه بتستر كثيرة والخيرات متيسرة غزيرة ولا مثل لاسواقها في الحسن وبخارجها تربة معظمة يقصـدها اهل تلك الاقطار للزيارة وينذرون لهـا النذور ولهـا زاوية بها جماعة من الفقراء وهم يزعمون انها تربة زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وكان نزولي من مدينة تستر في مدرسة الشيخ الامام الصالح المتفنن شرف الدين موسي ابن

الشيخ الصالح الامام العالم صدر الدين سليمان وهو من ذرية سهل بن عبدالله وهذا الشيخ ذو مكارم وفضائل جامع بين العلم والدين والصلاح والايثار وله مدرسة وزاوية وخدامها فتيان له اربعة سنبل وكافور وجوهر وسرور واحدهم موكل بأوقاف الزاوية والثاني متصرف فيما يحتاج اليه من النفقات في كل يوم والثالث خديم السماط بين ايدي الواردين ومرتب الطعام لهم والرابع موكل بالطباخين والسقائين والفراشين فأقمت عنده ستة عشر يوما فلم أر اعجب من ترتيبه ولا ارغد من طعامه يقدم بين يدي الرجل مايكفي الاربعة من طعام الارز المفلفل المطبوخ في السمن والدجاج المقلي والخبز واللحم والحلواء وهذا الشيخ من أحسن الناس صورة واقومهم سيرة وهو يعظ الناس بعد صلاة الجمعة بالمسجد الجامع ولما شاهدت مجالسه في الوعظ صغر لدي كل واعظ رأيته قبله بالحجاز والشام ومصر ولم ألق فيمن لقيتهم مثله حضرت يوما عنده ببستان له على شاطئ النهر وقد اجتمع فقهاء المدينة وكبراؤها وأتي الفقراء من كل ناحية فأطعم الجميع ثم صلى بهم صلاة الظهر وقام خطيبا وواعظا بعد ان قرأ القراء امامه بالتلاحين المبكية والنغمات المحركة المهيجة وخطب خطبة بسكون ووقار وتصرف فنون العلم من تفسير كتاب الله وايراد حديث رسول الله والتكلم على معانيه ثم ترامت عليه الرقاع من كل ناحية ومن عادة الاعاجم أن يكتبوا المسائل في رقاع ويرمونها الي الواعظ فيجيب عنها فلما رمي اليه بتلك الرقاع جمعها في يده وأخذ يجيب عنها واحدة بعد واحدة بأبدع جواب وأحسنه وحان وقت صلاة العصر فصلى بالقوم وانصرفوا وكان مجلسه مجلس علم ووعظ وبركة وتبادر التائبون فأخذ عليهم العهد وجز نواصيهم وكانوا خمسة عشر رجلا من الطلبة قدموا من البصرة برسم ذلك وعشرة رجال من عوام تستر

(حكاية)

لما دخلت هذه المدينة أصابني مرض الحمى وهذه البلاد يحم داخلها في زمان الحر كما يعرض في دمشق وسواها من البلاد الكثيرة المياه والفواكه وأصابت الحمى أصحابي أيضاً فمات منهم شيخ اسمه يحيي الخراساني وقام الشيخ بتجهيزه من كل مايحتاج اليه الميت وصلى عليه وتركت بها صاحباً لي يدعي بهاء الدين الختني فمات بعد سفري وكنت حين

مرضي لا أشتهي الأطعمة التي تصنع لي بمدرسته فذكر لي الفقيه شمس الدين السندي من طلبتها طعاما فاشتهيته ودفعت له دراهم وطبخ لي ذلك الطعام بالسوق وأتى به الي فأكلت منه وبلغ ذلك الشيخ فشق عليه وأتى الي وقال لي كيف تفعل هذا وتطبخ الطعام في السوق وهلا أمرت الخدام أن يصنعوا لك ما اشتهيته ثم احضر جميعهم وقال لهم جميع ما يطلب منكم من أنواع الطعام والسكر وغير ذلك فأتوا اليه به واطبخوا له ما يشاؤه وأكد عليهم في ذلك أشد التأكيد جزاه الله خيرا ثم سافرنا من مدينة تستر ثلاثا في جبال شامخة وبكل منزل زاوية كما تقدم ذكر ذلك ووصلنا الى مدينة ايذج (وضبط اسمها) بكسر الهمزة وياء مد وذال معجم مفتوح وجيم وتسمى أيضا مال الأمير وهي حضرة السلطان أتابك وعند وصولي اليها اجتمعت بشيخ شيوخها العالم الورع نور الدين الكرماني وله النظر في جميع الزوايا وهم يسمونها المدرسة والسلطان يعظمه ويقصد زيارته وكذلك أرباب الدولة وكبراء الحضرة يزورونه غدوا وعشيا فأكرمني وأضافني وأنزلني بزاوية تعرف باسم الدينوري وأقمت بها أياما وكان وصولي في أيام القيظ وكنا نصلي صلاة الليل ثم ننام بأعلى سطحها ثم ننزل الي الزاوية ضحوة وكان في صحبتي اثنا عشر فقيرا منهم امام وقارئان مجيدان وخادم ونحن على أحسن ترتيب

﴿ ذكر ملك إيذج وتستر ﴾

وملك ايذج في عهد دخولي اليها السلطان اتابك افراسياب ابن السلطان أتابك أحمد واتابك عندهم سمة لكل من يلي هذه البلاد من ملك وتسمى هذه البلاد بلاد اللور وولي هذا السلطان بعد أخيه أتابك يوسف وولي يوسف بعد أبيه أتابك أحمد وكان أحمد المذكور ملكا صالحا سمعت من الثقاة ببلاده انه عمر اربعمائة وستين زاوية ببلاده منها بحضرة ايذج أربع وأربعون وقسم خراج بلاده اثلاثا فالثلث منه لنفقة الزوايا والمدارس والثلث منه لمرتب العساكر والثلث لنفقته ونفقة عياله وعبيده وخدامه ويبعث منه هدية لملك العراق في كل سنة وربما وفد عليه بنفسه وشاهدت من آثاره الصالحة ببلاده ان أكثرها في جبال شامخة وقد نحتت الطرق في الصخور والحجارة وسويت ووسعت بحيث

تصعدها الدواب بأحمالها وطول هذه الجبال مسيرة سبعة عشر في عرض عشرة وهي شاهقة متصل بعضها ببعض تشقها الانهار وشجرها البلوط وهم يصنعون من دقيقه الخبز وفي كل منزل من منازلها زاوية يسمونها المدرسة فاذا وصل المسافر الى مدرسة منها أتي بما يكفيه من الطعام والعلف لدابته سواء طلب ذلك أو لم يطلبه فان عادتهم أن يأتي خادم المدرسة فيعد من نزل بها من الناس ويعطى كل واحد منهم قرصين من الخبز ولحما وحلواء وكل ذلك من أوقاف السلطان عليها وكان السلطان أتابك أحمد زاهدا صالحاً كما ذكرناه يلبس تحت ثيابه مما يلي جسده ثوب شعر

﴿حكاية﴾

قدم السلطان أتابك أحمد مرة على ملك العراق أبي سعيد فقال له بعض خواصه ان أتابك يدخل عليك وعليه الدرع وظن ثوب الشعر الذي تحت ثيابه درعا فأمرهم باختبار ذلك على جهة من الانبساط ليعرف حقيقته فدخل عليه يوما فقام اليه الامير الجوبان عظيم امراء العراق والامير سويته أمير ديار بكر والشيخ حسن الذى هو الآن سلطان العراق وامسكوا بثيابه كانهم يمازحونه ويضاحكونه فوجدوا تحت ثيابه ثوب الشعر ورآه السلطان أبو سعيد وقام اليه رعانقه وأجلسه الي جانبه وقال له سن آطا ومعناه بالتركية أنت أبي وعوضه عن هديته باضعافها وكتب له اليرليغ وهو الظهير ان لا يطالبه بهدية بعدها هو ولا أولاده وفي تلك السنة توفي وولي ابنه أتابك يوسف عشرة أعوام ثم ولي أخوه أفراسياب ولما دخلت مدينة ايذج أردت رؤية السلطان افراسياب المذكور فلم يتأت لي ذلك بسبب انه لا يخرج الا يوم الجمعة لادمانه على الخمر وكان له ابن هو ولي عهده وليس له سواه فمرض في تلك الايام ولما كان في احدى الليالي أتاني أحد خدامه وسألني عن حالي فعرفته وذهب عني ثم جاء بعد صلاة المغرب ومعه طيفوران كبيران أحدهما بالطعام والآخر بالفاكهة وخريطة فيها دراهم ومعه أهل السماع بآلاتهم فقال اعملوا السماع حتى يرهج الفقراء ويدعون لابن السلطان فقلت له ان أصحابي لا يدرون بالسماع ولا بالرقص ودعونا للسلطان ولولده وقسمت الدراهم على الفقراء ولما كان نصف الليل سمعنا الصراخ والنواح وقدمات المريض المذكور ولما كان من الغد دخل على شيخ الزاوية

وأهل البلد وقالوا ان كبراء المدينة من القضاة والفقهاء والاشراف والامراء قد ذهبوا الى دار السلطان للعزاء فينبغي لك ان تذهب في جملتهم فأبيت عن ذلك فعزموا على فلم يكن لى بد من المسير فسرت معهم فوجدت مشور دار السلطان ممتلئا رجالا وصبيانا من المماليك وأبناء الملوك والوزراء والاجناد وقد لبسوا التراليس وجلال الدواب وجعلوا فوق رؤسهم التراب والتبن وبعضهم قد جز ناصيته وانقسموا فرقتين فرقة بأعلى المشور وفرقة بأسفله وتزحف كل فرقة الى جهة الاخري وهم ضاربون بأيديهم على صدورهم قائلون خوندكارما ومعناه مولاي أنا (مولانا) فرأيت من ذلك أمرا هائلا ومنظرا فظيعا لم أعهد مثله

حكاية

ومن غريب ما اتفق لي يومئذ اني دخلت فرأيت القضاة والخطباء والشرفاء قد استندوا الى حيطان المشور وهو غاص بهم من جميع جهاته وهم بين باك ومتباك ومطرق وقد لبسوا فوق ثيابهم ثيابا خامة من غليظ القطن غير محكمة الخياطة بطائنها الى أعلى ووجوهها مما يلي أجسادهم وعلى رأس كل واحد منهم قطعة خرقة أو مئزر أسود وهكذا يكون فعلهم الى تمام أربعين يوما وهي نهاية الحزن عندهم وبعدها يبعث السلطان لكل من فعل ذلك كسوة كاملة فلما رأيت جهات المشور غاصة بالناس نظرت يمينا وشمالا أرتاد موضعا للجلوس فرأيت هنالك سقيفة مرتفعة عن الارض بمقدار شبر وفي احدى زواياها رجل منفرد عن الناس قاعد عليه ثوب صوف شبه اللبد يلبسه بتلك البلاد ضعفاء الناس أيام المطر والثلج وفي الاسفار فتقدمت الى حيث الرجل وانقطع عني أصحابي لما رأوا اقدامي نحوه وعجبوا مني وأنا لا علم عندى بشيء من حاله فصعدت السقيفة وسلمت على الرجل فرد على السلام وارتفع عن الارض كأنه يريد القيام وهم يسمون ذلك نصف القيام وقعدت في الركن المقابل له ثم نظرت الى الناس وقد رموني بأبصارهم جميعاً فعجبت منهم ورأيت الفقهاء والمشايخ والاشراف مستندين الى الحائط تحت السقيفة وأشار الى أحد القضاة ان أنحط الى جانبه فلم أفعل وحينئذ استشعرت انه السلطان فلما كان بعد ساعة أتى شيخ المشايخ نور

الدين الكرماني الذى ذكرناه قبل فصعد الى السقيفة وسلم على الرجل فقام اليه وجلس فيما بيني وبينه فحينئذ علمت ان الرجل هو السلطان ثم جئ بالجنازة وهي بين أشجار الاترج والليمون والنارنج وقد ملؤا أغصانها بثمارها والاشجار بأيدي الرجال فكان الجنازة تمشي في بستان والمشاعل في رماح طوال بين يديها والشمع كذلك فصلى عليها وذهبت الناس معها الى مدفن الملوك وهو بموضع يقال له هلا نيحان على أربعة أميال من المدينة وهنالك مدرسة عظيمة يشقها النهر وبداخلها مسجد تقام فيه الجمعة وبخارجها حمام ويحف بها بستان عظيم وبها الطعام للوارد والصادر ولم أستطع ان أذهب معهم الى مدفن الجنازة لبعد الموضع فعدت الى المدرسة فلما كان بعد أيام بعث الي السلطان رسوله الذي أتاني بالضيافة أولا يدعوني اليه فذهبت معه الى باب يعرف بباب السر وصعدنا في درج كثيرة الي ان انتهينا الي موضع لا فرش به لاجل ماهم فيه من الحزن والسلطان جالس فوق مخدة وبين يديه آنيتان قد غطيتا احداهما من الذهب والاخرى من الفضة وكانت بالمجلس سجادة خضراء ففرشت لي بالقرب منه وقعدت عليها وليس بالمجلس الا حاجبه الفقيه محمود ونديم له لا أعرف اسمه فسألني عن حالي وبلادي وسألني عن الملك الناصر وبلاد الحجاز فأجبته عن ذلك ثم جاء فقيه كبير هو رئيس فقهاء تلك البلاد فقال لي السلطان هذا مولانا فضيل والفقيه ببلاد الاعاجم كلها انما يخاطب بمولانا وبذلك يدعوه السلطان وسواه ثم أخذ في الثناء على الفقيه المذكور وظهر لي ان السكر غالب عليه وكنت قد عرفت ادمانه على الخمر ثم قال لي باللسان العربي وكان يحسنه تكلم فقلت له ان كنت تسمع مني أقول لك أنت من أولاد السلطان أتابك أحمد المشهور بالصلاح والزهد وليس فيك مايقدح في سلطنتك غير هذا وأشرت الي الآنيتين فخجل من كلامي وسكت وأردت الانصراف فأمرني بالجلوس وقال لي الاجتماع مع أمثالك رحمة ثم رأيته يتمايل ويريد النوم فانصرفت وكنت تركت نعلي بالباب فلم أجده فنزل الفقيه محمود في طلبه وصعد الفقيه فضيل يطلبه في داخل المجلس فوجده في طاق هنالك فأتى الي به فأخجلني بره واعتذرت اليه فقبل نعلي حينئذ ووضعه على رأسه وقال لي بارك الله فيك هذا الذى قلته لسلطاننا لا يقدر أحد أن يقوله له

غيرك والله اني لأرجو أن يؤثر ذلك فيه ثم كان رحيلي من حضرة ايذج بعد أيام فنزلت بمدرسة السلاطين التي بها قبورهم وأقمت بها أياما وبعث الي السلطان بجملة دنانير وبعث بمثلها لاصحابي وسافرنا في بلاد هذا السلطان عشرة أيام في جبال شامخة وفي كل ليلة ننزل بمدرسة فيها الطعام فمنها ما هو في العمارة ومنها ما لاعمارة حوله ولكن يجلب اليها جميع ما تحتاج اليه وفي اليوم العاشر نزلنا بمدرسة تعرف بمدرسة كريوا الرخ وهي آخر بلاد هذا الملك وسافرنا منها في بسيط من الارض كثير المياه من عمالة مدينة أصفهان ثم وصلنا الى بلدة أشتركان (وضبط اسمها بضم الهمزة واسكان الشين المعجم وضم التاء المعلوة واسكان الراء وآخره نون) وهي بلدة حسنة كثيرة المياه والبساتين ولها مسجد بديع يشقه النهر ثم رحلنا منها الى مدينة فيروزان واسمها كأنه تثنية فيروز وهي مدينة صغيرة ذات أنهار وأشجار وبساتين وصلناها بعد صلاة العصر فرأينا أهلها قد خرجوا لتشييع جنازة وقد أوقدوا خلفها وامامها المشاعل واتبعوها بالمزامير والمغنين بأنواع الاغاني المطربة فعجبنا من شأنهم وبتنا بها ليلة ومررنا بالغد بقرية يقال لها نبلان وهي كبيرة على نهر عظيم والى جانبه مسجد في النهاية من الحسن يصعد اليه في درج وتحفه البساتين وسرنا يومنا فيما بين البساتين والمياه والقرى الحسان الكثيرة أبراج الحمام ووصلنا بعد العصر الى مدينة أصفهان من عراق العجم (واسمها يقال بالفاء الخالصة ويقال بالفاء المعقودة المفخمة) ومدينة أصفهان من كبار المدن وحسانها الا أنها الآن قد خرب أكثرها بسبب الفتنة التي بها بين أهل السنة والروافض وهي متصلة بينهم حتى الآن فلا يزالون في قتال وبها الفواكه الكثيرة ومنها المشمش الذي لا نظير له يسمونه بقمر الدين وهم ييبسونه ويدخرونه ونواه ينكسر عن لوز حلو ومنها السفرجل الذي لا مثل له في طيب المطعم وعظم الجرم والاعناب الطيبة والبطيخ العجيب الشأن الذي ليس في الدنيا مثله الا ما كان من بطيخ بخاري وخوارزم وقشره أخضر وداخله أحمر ويدخر كما تدخر الشريحة بالمغرب وله حلاوة شديدة ومن لم يكن ألف أكله فانه في أول أمره يسهله وكذلك اتفق لي لما أكلته باصفهان وأهل أصفهان حسان الصور وألوانهم بيض زاهرة مشوبة

بالحمرة والغالب عليهم الشجاعة والنجدة وفيهم كرم وتنافس عظيم فيما بينهم في الاطعمة تؤثر عنهم فيه أخبار غريبة وربما دعا أحدهم صاحبه فيقول له اذهب معي لنأكل نان وماس والنان بلسانهم الخبز والماس اللبن فاذا ذهب معه أطعمه أنواع الطعام العجيب مباهيا له بذلك وأهل كل صناعة يقدمون على أنفسهم كبيرا منهم يسمونه الكلو وكذلك كبار المدينة من غير أهل الصناعات وتكون الجماعة من الشبان الاعزاب وتتفاخر تلك الجماعات ويضيف بعضهم بعضا مظهرين لما قدروا عليه من الامكان محتفلين في الاطعمة وسواها الاحتفال العظيم ولقد ذكر لي ان طائفة منهم أضافت أخرى فطبخوا طعامهم بنار الشمع ثم اضافتها الاخرى فطبخوا طعامهم بالحرير وكان نزولي باصفهان في زاوية تنسب للشيخ علي بن سهل تلميذ الجنيد وهي معظمة يقصدها أهل تلك الآفاق ويتبركون بزيارتها وفيها الطعام للوارد والصادر وبها حمام عجيب مفروش بالرخام وحيطانه بالقاشاني وهو موقوف في السبيل لا يلزم أحدا في دخوله شيء وشيخ هذه الزاوية الصالح العابد الورع قطب الدين حسين بن الشيخ الصالح ولي الله شمس الدين محمد بن محمود بن علي المعروف بالرجاء وأخوه العالم المفتي شهاب الدين أحمد أقمت عند الشيخ قطب الدين بهذه الزاوية أربعة عشر يوما فرأيت من اجتهاده في العبادة وحبه في الفقراء والمساكين وتواضعه لهم ما قضيت منه العجب وبالغ في اكرامي وأحسن ضيافتي وكساني كسوة حسنة وساعة وصولي الزاوية بعث الي بالطعام وبثلاث بطيخات من البطيخ الذي وصفناه آنفا ولم أكن رأيته قبل ولا أكلته

(كرامة لهذا الشيخ)

دخل علي يوما بموضع نزولي من الزاوية وكان ذلك الموضع يشرف على بستان للشيخ وكانت ثيابه قد غسلت في ذلك اليوم ونشرت في البستان ورأيت في جملتها جبة بيضاء مبطنة تدعى عندهم هزرميخي فأعجبتني وقلت في نفسي مثل هذه كنت اريد فلما دخل علي الشيخ نظر في ناحية البستان وقال لبعض خدامه ائتني بذلك الثوب الهزرميخي فأتوا به فكساني اياه فأهويت الى قدميه اقبلهما وطلبت منه ان يلبسني طاقية من رأسه ويجيزني في ذلك بما اجازه والده عن شيوخه فألبسني اياها في الرابع عشر لجمادي الاخيرة سنة سبع وعشرين

وسبعمائة بزاويته المذكورة كما لبس من والده شمس الدين ولبس والده من أبيه تاج الدين محمود ولبس محمود من أبيه شهاب الدين علي الرجاء ولبس علي من الامام شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد بن عبد الله السهروردي ولبس عمر من الشيخ الكبير ضياء الدين أبي النجيب السهروردي ولبس أبو النجيب من عمه الامام وحيد الدين عمر ولبس عمر من والده محمد بن عبد الله المعروف بعمويه ولبس محمد من الشيخ اخي فرج الزنجاني ولبس أخو فرج من الشيخ أحمد الدينوري ولبس أحمد من الامام ممشاد الدينوري ولبس ممشاد من الشيخ المحقق علي بن سهل الصوفي ولبس علي من أبي القاسم الجنيد ولبس الجنيد من سري السقطي ولبس سري السقطي من داود الطائي ولبس داود من الحسن ابن أبي الحسن البصري ولبس الحسن بن ابي الحسن البصري من أمير المؤمنين علي بن ابي طالب قال ابن جزي هكذا اورد الشيخ ابو عبد الله هذا السند والمعروف فيه ان سريا السقطي صحب معروفا الكرخي وصحب معروف داود الطائي وكذلك داود الطائي بينه وبين الحسن حبيب العجمي وأخو فرج الزنجاني انما المعروف انه صحب ابا العباس النهاوندي وصحب النهاوندي ابا عبد الله بن خفيف وصحب ابن خفيف أبا محمد رويما وصحب رويم ابا القاسم الجنيد واما محمد بن عبد الله عمويه فهو الذي صحب الشيخ احمد الدينوري الاسود وليس بينهما أحد والله أعلم والذي صحب اخا فرج الزنجاني هو عبد الله بن محمد بن عبد الله والد أبي النجيب (رجع) ثم سافرنا من اصفهان بقصد زيارة الشيخ مجد الدين بشيراز وبينهما مسيرة عشرة أيام فوصلنا الي بلدة كليل (وضبطها بفتح الكاف وكسر اللام وياء مد) وبينها وبين أصفهان مسيرة ثلاثة وهي بلدة صغيرة ذات انهار وبساتين وفواكه رأيت التفاح يباع في سوقها خمسة عشر رطلا عراقية بدرهم ودرهمهم ثلث النقرة ونزلنا منها بزاوية عمرها كبير هذه البلدة المعروف بخواجه كافي وله مال عريض قد اعانه الله على انفاقه في سبيل الخيرات من الصدقة وعمارة الزوايا واطعام الطعام لابناء السبيل ثم سرنا من كليل يومين ووصلنا الى قرية كبيرة تعرف بصوماء وبها زاوية فيها الطعام للوارد والصادر عمرها خواجه كافي المذكور ثم سرنا منها الى يزد خاص (وضبط اسمها بفتح الياء آخر الحروف

واسكان الزاي وضم الدال المهمل وخاء معجم والف وصاد مهمل) بلدة صغيرة متقنة العمارة حسنة السوق والمسجد الجامع بها عجيب مبنى بالحجارة مسقف بها والبلدة على ضفة خندق فيه بساتينها ومياهها وبخارجها رباط ينزل به المسافر عليه باب حديد وهو في النهاية من الحصانة والمنعة وبداخله حوانيت يباع فيها كل ما يحتاجه المسافرون وهذا الرباط عمره الامير محمد شاه ينجو والد السلطان ابي اسحق ملك شيراز وفي يزدخاص يصنع الجبن اليزدخاصي ولا نظير له في طيبه ووزن الجبنة منه من اوقيتين الى أربع ثم سرنا منها على طريق دشت الروم وهي صحراء يسكنها الاتراك ثم سافرنا الى مايين (واسمها بيائين مسفولتين أولاهما مكسورة) وهي بلدة صغيرة كثيرة الانهار والبساتين حسنة الاسواق وأكثر أشجارها الجوز ثم سافرنا منها الى مدينة شيراز وهي مدينة أصلية البناء فسيحة الارجاء شهيرة الذكر منيفة القدر لها البساتين المؤنقه والانهار المتدفقه والاسواق البديعه والشوارع الرفيعه وهي كثيرة العمارة متقنة المباني عجيبة الترتيب وأهل كل صناعة في سوقها لا يخالطهم غيرهم وأهلها حسان الصور نظاف الملابس وليس في المشرق بلدة تداني مدينة دمشق في حسن أسواقها وبساتينها وأنهارها وحسن صور ساكنيها الا شيراز وهي في بسيط من الارض تحف بها البساتين من جميع الجهات وتشقها خمسة أنهار أحدها النهر المعروف بركن آباد وهو عذب الماء شديد البرودة في الصيف سخن في الشتاء فينبعث من عين في سفح جبل هنالك يسمى القليعة ومسجدها الاعظم يسمى بالمسجد العتيق وهو من أكبر المساجد ساحة وأحسنها بناء وصحنه متسع مفروش بالمرمر ويغسل في أوان الحر كل ليلة ويجتمع فيه كبار أهل المدينة كل عشية ويصلون به المغرب والعشاء وبشماله باب يعرف بباب حسن يفضي الى سوق الفاكهة وهي من أبدع الاسواق وأنا أقول بتفضيلها على سوق باب البريد من دمشق وأهل شيراز أهل صلاح ودين وعفاف وخصوصا نساؤها وهن يلبسن الخفاف ويخرجن متلحفات متبرقعات فلا يظهر منهن شيء ولهن الصدقات والايثار ومن غريب حالهن انهن يجتمعن لسماع الواعظ في كل يوم اثنين وخميس وجمعة بالجامع الاعظم فربما اجتمع منهن

الالف والالفان بأيديهن المراوح يروحن بها على أنفسهن من شدة الحر ولم ار اجتماع النساء في مثل عددهن في بلدة من البلاد وعند دخولي الى مدينة شيراز لم يكن لي هم الا قصد الشيخ القاضي الامام قطب الاولياء فريد الدهر ذى الكرامات الظاهرة مجد الدين اسماعيل ابن محمد بن خداداد ومعني خداداد عطية الله فوصلت الى المدرسة المجدية المنسوبة اليه وبها سكناه وهي من عمارته فدخلت اليه رابع أربعة من أصحابي ووجدت الفقهاء وكبار أهل المدينة في انتظاره فخرج الي صلاة العصر ومعه محب الدين وعلاء الدين أبناأخيه شقيقه روح الدين أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله وهما نائباه في القضاء لضعف بصره وكبر سنه فسلمت عليه وعانقني وأخذ بيدي الى أن وصل الي مصلاه فأرسل يدي وأومأ الي أن أصلي الي جانبه ففعلت وصلى صلاة العصر ثم قرئ بين يديه من كتاب المصابيح وشوارق الانوار للصاغاني وطالعاه نائباه بما جرى لديهما من القضايا وتقدم كبار المدينة للسلام عليه وكذلك عادتهم معه صباحاً ومساء ثم سألني عن حالي وكيفية قدومي وسألني عن المغرب ومصر والشام والحجاز فأخبرته بذلك وأمر خدامه فأنزلوني بدويرة صغيرة بالمدرسة وفي غد ذلك اليوم وصل اليه رسول ملك العراق السلطان أبي سعيد وهو ناصر الدين الدرقندي من كبار الامراء خراساني الاصل فعند وصوله اليه نزع شاشيته عن رأسه وهم يسمونها الكلا وقبل رجل القاضي وقعد بين يديه ممسكا اذن نفسه بيده وهكذا فعل أمراء التتر عند ملوكهم وكان هذا الامير قد قدم في نحو خمسمائة فارس من مماليكه وخدامه وأصحابه ونزل خارج المدينة ودخل الي القاضي في خمسة نفر ودخل مجلسه وحده منفرداً تأدبا

﴿ حكاية في السبب في تعظيم هذا الشيخ وهي من الكرامات الباهرة ﴾

كان ملك العراق السلطان محمد خدابنده قد صحبه في حال كفره فقيه من الروافض الامامية يسمى جمال الدين بن مطهر فلما أسلم السلطان المذكور وأسلمت باسلامه التتر زاد في تعظيم هذا الفقيه فزين له مذهب الروافض وفضله على غيره وشرح له حال الصحابة والخلافة وقرر لديه ان أبابكر وعمر كانا وزيرين لرسول الله وان علياً ابن عمه وصهره فهو وارث الخلافة ومثل له ذلك بما هو مألوف عنده من ان الملك الذى بيده انما هو ارث

عن أجداده وأقاربه مع حداثان عهد السلطان بالكفر وعدم معرفته بقواعد الدين فأمر السلطان بحمل الناس على الرفض وكتب بذلك الى العراقين وفارس واذربيجان واصفهان وكرمان وخراسان وبعث الرسل الي البلاد فكان أول بلاد وصل اليها ذلك بغداد وشيراز واصفهان فأما أهل بغداد فامتنع أهل باب الازج منهم وهم أهل السنة وأكثرهم على مذهب الامام أحمد بن حنبل وقالوا لا سمع ولا طاعة وأتوا المسجد الجامع يوم الجمعة في السلاح وبه رسول السلطان فلما صعد الخطيب المنبر قاموا اليه وهم نحو اثنى عشر ألفا في سلاحهم وهم حماة بغداد والمشار اليهم فيها فحلفوا اله انه ان غير الخطبة المعتادة أو زاد فيها أو نقص منها فانهم قاتلوه وقاتلو رسول الملك ومستسلمون بعد ذلك لما شاء الله وكان السلطان أمر بأن تسقط أسماء الخلفاء وسائر الصحابة من الخطبة ولا يذكر الا اسم على ومن تبعه كعمار رضي الله عنهم فخاف الخطيب من القتل وخطب الخطبة المعتادة وفعل أهل شيراز واصفهان كفعل أهل بغداد فرجعت الرسل الى الملك فاخبروه بما جرى في ذلك فأمر أن يؤتى بقضاة المدن الثلاث فكان أول من أوتى به منهم القاضى مجد الدين قاضي شيراز والسلطان اذ ذاك فى موضع يعرف بقراباغ وهو موضع مصيفه فلما وصل القاضى أمر أن يرمي به الي الكلاب التى عنده وهي كلاب ضخام في أعناقها السلاسل معدة لأكل بني آدم فاذا أوتي بمن يسلط عليه الكلاب جعل فى رحبة كبيرة مطلقا غير مقيد ثم بعثت تلك الكلاب عليه فيفر امامها ولا مفر له فتدركه فتمزقه وتأكل لحمه فلما أرسلت الكلاب على القاضي مجد الدين ووصلت اليه بصبصت اليه وحركت اذنابها بين يديه ولم تهجم عليه بشيء فبلغ ذلك السلطان فخرج من داره حافى القدمين فأكب على رجلى القاضى يقبلهما وأخذ بيده وخلع عليه جميع ما كان عليه من الثياب وهي أعظم كرامات السلطان عندهم واذا خلع ثيابه كذلك على أحد كانت شرفا له ولبنيه واعقابه يتوارثونه مادامت تلك الثياب أو شيء منها وأعظمها في ذلك السراويل ولما خلع السلطان ثيابه على القاضى مجد الدين أخذ بيده وأدخله الي داره وأمر نساءه بتعظيمه والتبرك به ورجع السلطان عن مذهب الرفض وكتب الى بلاده ان يقر الناس على مذهب أهل السنة والجماعة وأجزل للعلماء

للقاضي وصرفه الى بلاده مكرما معظما واعطاه في جملة عطاياه مائة قرية من قرى جمكان وهو خندق بين جبلين طوله أربعة وعشرون فرسخا يشقه نهر عظيم والقرى منتظمة بجانبيه وهو أحسن موضع بشيراز ومن قراه العظيمة التي تضاهي المدن قرية ميمن وهي للقاضي المذكور ومن عجائب هذا الموضع المعروف بجمكان ان نصفه مما يلي شيراز وذلك مسافة اثنى عشر فرسخا شديد البرد ينزل فيه الثلج وأكثر شجره الجوز والنصف الآخر مما يلي بلاد هنج وبال وبلاد اللار في طريق هرمز شديد الحر وفيه شجر النخيل وقد تقرر لي لقاء القاضي مجد الدين ثانية حين خروجي من الهند قصدته من هرمز متبركا بلقائه وذلك سنة ثمان وأربعين وبين هرمز وشيراز مسيرة خمسة وثلاثين يوما فدخلت عليه وهو قد ضعف عن الحركة فسلمت عليه فعرفني وقام الي فعانقني ووقعت يدي على مرفقه وجلده لاصق بالعظم لا لحم بينهما وانزلني بالمدرسة حيث أنزلني أول مرة وزرته يوما فوجدت ملك شيراز السلطان أبا اسحق وسيقع ذكره قاعدا بين يديه ممسكا باذن نفسه وذلك هو غاية الادب عندهم ويفعله الناس اذا قعدوا بين يدي الملك وأتيته مرة أخرى الى المدرسة فوجدت بابها مسدودا فسألت عن سبب ذلك فأخبرت ان أم السلطان وأخته نشأت بينهما خصومة في ميراث فصرفهما الي القاضي مجد الدين فوصلتا اليه الى المدرسة وتحاكمتا عنده وفصل بينهما بواجب الشرع وأهل شيراز لا يدعونه بالقاضي وانما يقولون له مولانا أعظم وكذلك يكتبون في التسجيلات والعقود التي تفتقر الى ذكر اسمه فيها وكان آخر عهدي به في شهر ربيع الثاني من عام ثمانية واربعين ولاحت على أنواره وظهرت لي بركاته نفع الله به وبأمثاله

﴿ذكر سلطان شيراز﴾

وسلطان شيراز في عهد قدومي عليها الملك الفاضل أبو اسحق بن محمد شاه ينجو سماه أبوه باسم الشيخ أبي اسحق الكازروني نفع الله به وهو من خيار السلاطين حسن الصورة والسيرة والهيئة كريم النفس جميل الاخلاق متواضع صاحب قوة وملك كبير وعسكره ينيف على خمسين ألفا من الترك والاعاجم وبطانته الادنون اليه اهل أصفهان وهو

لا يأمن أهل شيراز على نفسه ولا يستخدمهم ولا يقربهم ولا يبيح لاحد منهم حمل السلاح لانهم أهل نجدة وبأس شديد وجراءة على الملوك ومن وجد بيده السلاح منهم عوقب ولقد شاهدت مرة رجلا تجره الجنادرة وهم الشرط الي الحاكم وقد ربطوه في عنقه فسألت عن شأنه فأخبرت انه وجدت في يده قوس بالليل فذهب السلطان المذكور الى قهر أهل شيراز وتفضيل الاصفهانيين عليهم لانه يخافهم على نفسه وكان أبوه محمد شاه ينجو واليا على شيراز من قبل ملك العراق وكان حسن السيرة محببا الي اهلها فلما توفي ولى السلطان أبو سعيد مكانه الشيخ حسينا وهو ابن الجوبان أمير الامراء وسيأتي ذكره وبعث معه العساكر الكثيرة فوصل اي شيراز وملكها وضبط مجابيها وهي من أعظم بلاد الله مجبي ذكر لي الحاج قوام الدين الطمغجي وهو والى المجبى بها انه ضمنها بعشرة آلاف دينار دراهم في كل يوم وصرفها من ذهب المغرب الفان وخمسمائة دينار ذهبا وأقام بها الامير حسين مدة ثم اراد القدوم على ملك العراق فقبض على أبي اسحق بن محمد شاه ينجو وعلى أخويه ركن الدين ومسعود بك وعلى والدته طاش خاتون واراد حملهم الي العراق ليطلبوا بأموال أبيهم فلما توسطوا السوق بشيراز كشفت طاش خاتون وجهها وكانت متبرقعة حياء ان ترى في تلك الحال فان عادة نساء الاتراك أن لا يغطين وجوههن واستغاثت بأهل شيراز وقالت أهكذا يا أهل شيراز أخرج من بينكم وأنا فلانة زوجة فلان فقام رجل من النجارين يسمى بهلوان محمود قد رأيته بالسوق حين قدومي على شيراز فقال لا نتركها تخرج من بلدنا ولا نرضى بذلك فتابعه الناس على قوله وثارت عامتهم ودخلوا في السلاح وقتلوا كثيراً من العسكر واخذوا الاموال وخلصوا المرأة وأولادها وفر الامير حسين ومن معه وقدم على السلطان أبي سعيد مهزوما فاعطاه العساكر الكثيفة وأمره بالعود الي شيراز والتحكم في أهلها بما شاء فلما بلغ أهلها ذلك علموا انهم لا طاقة لهم به فقصدوا القاضي مجد الدين وطلبوا منه ان يحقن دماء الفريقين ويوقع الصلح فخرج الي الامير حسين فترجل له الامير عن فرسه وسلم عليه ووقع الصلح ونزل الامير حسين ذلك اليوم خارج المدينة فلما كان من الغد برز أهلها للقائه في اجمل ترتيب وزينوا البلد واوقدوا الشمع

الكثير ودخل الامير حسين في ابهة وحفل عظيم وسار فيهم باحسن سيرة فلما مات السلطان أبو سعيد وانقرض عقبه وتغلب كل امير علي ما بيده خافهم الامير حسين على نفسه وخرج عنهم وتغلب السلطان ابو اسحق عليها وعلى أصفهان وبلاد فارس وذلك مسيرة شهر ونصف شهر واشتدت شوكته وطمحت همته الي تملك ما يليه من البلاد فبدأ بالاقرب منها وهي مدينة يزد مدينة حسنة نظيفة عجيبة الاسواق ذات أنهار مطردة وأشجار نضيرة وأهلها تجار شافعية المذهب فحاصرها وتغلب عليها وتحصن الامير مظفر شاه ابن الامير محمد شاه ابن مظفر بقلعة على ستة أميال منها منيعة تحدق بها الرمال فحاصره بها فظهر من الامير مظفر من الشجاعة ما خرق المعتاد ولم يسمع بمثله فكان يضرب على عسكر السلطان أبي اسحق ليلا ويقتل ما شاء ويخرق المضارب والفساطيط ويعود الي قلعته فلا يقدر على النيل منه وضرب ليلة على دوار السلطان وقتل هنالك جماعة وأخذ من عتاق خيله عشرة وعاد الي قلعته فامر السلطان ان تركب في كل ليلة خمسة آلاف فارس ويصنعون له الكمائن ففعلوا ذلك وخرج على عادته في مائة من أصحابه فضرب على العسكر واحاطت به الكمائن وتلاحقت العساكر فقاتلهم وخلص الي قلعته ولم يصب من أصحابه الا واحد أتى به الى السلطان أبي اسحق فخلع عليه واطلقه وبعث معه أمانا لمظفر لينزل اليه فأبى ذلك ثم وقعت بينهما المراسلة ووقعت له محبة في قلب السلطان أبي اسحق لما رأى من شجاعته فقال أريد أن أراه فاذا رأيته انصرفت عنه فوقف السلطان في خارج القلعة ووقف هو ببابها وسلم عليه فقال له السلطان انزل على الامان فقال له مظفر اني عاهدت الله أن لا أنزل اليك حتي تدخل أنت قلعتي وحينئذ أنزل اليك فقال له افعل ذلك فدخل اليه السلطان في عشرة من أصحابه الخواص فلما وصل باب القلعة ترجل مظفر وقبل ركابه ومشى بين يديه مترجلا فأدخله داره وأكل من طعامه ونزل معه الي المحلة راكبا فأجلسه السلطان الي جانبه وخلع عليه ثيابه وأعطاه مالا عظيما ووقع الاتفاق بينهما أن تكون الخطبة باسم السلطان أبي اسحق وتكون البلاد لمظفر وأبيه وعاد السلطان الى بلاده وكان السلطان أبو اسحق طمح ذات مرة الي بناء ايوان كايوان كسرى وأمر أهل شيراز ان يتولوا حفر اساسه

فأخذوا فى ذلك وكان أهل كل صناعة يباهون كل من عداهم فانتهوا فى المباهاة الى ان صنعوا القفاف لنقل التراب من الجلد وكسوها ثياب الحرير المزركش وفعلوا نحو ذلك في برادع الدواب وأخراجها وصنع بعضهم الفؤس من الفضة وأوقدوا الشمع الكثير وكانوا حين الحفر يلبسون أجمل ثيابهم ويربطون فوط الحرير على أوساطهم والسلطان يشاهد أفعالهم فى منظرة له وقد شاهدت هذا المبنى وقد ارتفع عن الارض نحو ثلاثة أذرع ولما بني أساسه رفع عن أهل المدينة التخديم فيه وصارت الفعلة تخدم فيه بالاجرة ويحشر لذلك آلاف منهم وسمعت والي المدينة يقول ان معظم جباها ينفق فى ذلك البناء وقد كان الموكل به الامير جلال الدين بن الفلكي التوريزي وهو من الكبار كان أبوه نائبا عن وزير السلطان أبي سعيد المسمي على شاة جيلان ولهذا الامير جلال الدين الفلكي أخ فاضل اسمه هبة الله ويلقب بهاء الملك وفد على ملك الهند حين وفودي عليه ووفد معنا شرف الملك أمير بخت فخلع ملك الهند علينا جميعاً وقدم كل واحد في شغل يليق به وعين لنا المرتب والاحسان وسنذكر ذلك وهذا السلطان أبو اسحق يريد التشبه بملك الهند المذكور في الايثار واجزال العطايا ولكن أين الثريا من الثرى واعظم ما تعرفناه من عطيات أبي اسحق انه أعطي الشيخ زاده الخراساني الذي أتاه رسولا عن ملك هراة سبعين ألف دينار وأما ملك الهند فلم يزل يعطي اضعاف ذلك لمن لا يحصي كثرة من أهل خراسان وغيرهم ﴿حكاية﴾ ومن عجيب فعل ملك الهند مع الخراسانيين انه قدم عليه رجل من فقهاء خراسان هروي الدار من سكان خوارزم يسمي بالامير عبدالله بعثته الخاتون ترابك زوج الامير قطلودمور صاحب خوارزم بهدية الى ملك الهند المذكور فقبلها وكافأ عنها باضعافها وبعث ذلك اليها واختار رسولها المذكور الاقامة عنده فصيره فى ندمائه لما كان ذات يوم قال له ادخل الي الخزانة فارفع منها قدر ما تستطيع ان تحمله من الذهب فذهب الي داره فأتي بثلاث عشرة خريطة وجعل في كل خريطة قدر ما وسعته وربط كل خريطة بعضو من أعضائه وكان صاحب قوة وقام بها فلما خرج عن الخزانة وقع ولم يستطع النهوض فأمر السلطان بوزن ما خرج به فكان جملته ثلاثة عشر منا بمن دهلى والمن الواحد منها خمسة وعشرون

رطلا مصرية فأمره ان يأخذ جميع ذلك فأخذه وذهب به ﴿حكاية تناسبها﴾
اشتكي مرة أمير بخت الملقب بشرف الملك الخراساني وهو الذي تقدم ذكره آنفا بحضرة ملك الهند فأتاه الملك عائدا ولما دخل عليه أراد القيام فحلف له الملك أن لا ينزل عن كته والكت هو السرير ووضع للسلطان متكأة يسمونها المورة فقعد عليها ثم دعا بالذهب والميزان فجيء بذلك وأمر المريض ان يقعد في احدى كفتي الميزان فقال ياخوند عالم لو علمت انك تفعل هذا لبست علي ثيابا كثيرة فقال له البس الآن جميع ما عندك من الثياب فلبس ثيابه المعدة للبرد المحشوة بالقطن وقعد في كفة الميزان ووضع الذهب في الكفة الاخرى حتى رجحه الذهب وقال له خذ هذا فتصدق به على رأسك وخرج عنه
﴿حكاية تناسبها﴾ وفد عليه الفقيه عبد العزيز الاردويلي وكان قد قرأ علم الحديث بدمشق وتفقه فيه فجعل مرتبه مائة دينار دراهم في اليوم وصرف ذلك خمسة وعشرون دينارا ذهبا وحضر مجلسه يوما فسأله السلطان عن حديث فسرد له أحاديث كثيرة في ذلك المعنى فأعجبه حفظه وحلف له برأسه ان لا يزول من مجلسه حتى يفعل معه ما يراه ثم نزل الملك عن مجلسه فقبل قدميه وأمر باحضار صينية ذهب وهي مثل الطيفور الصغير وأمر أن يلقى فيها ألف دينار من الذهب وأخذها السلطان بيده فصبها عليه وقال هي لك مع الصينية ووفد عليه مرة رجل خراساني يعرف بابن الشيخ عبد الرحمن الاسفرايني وكان أبوه نزل بغداد فأعطاه خمسين ألف دينار دراهم وخيلا وعبيدا وخلعا وسنذكر كثيراً من أخبار هذا الملك عند ذكر بلاد الهند وانما ذكرنا هذا لما قدمناه من ان السلطان أبا اسحق يريد التشبه به في العطايا وهو وان كان كريما فاضلا فلا يلحق بطبقة ملك الهند في الكرم والسخاء

﴿ذكر بعض المشاهد بشيراز﴾

فمنها مشهد أحمد بن موسي أخي علي الرضا ابن موسي بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وهو مشهد معظم عند أهل شيراز يتبركون به ويتوسلون الى الله بفضله وبنت عليه طاش خاتون أم السلطان أبي اسحق مدرسة كبيرة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر والقراء يقرؤن القرآن على التربة دائما ومن عادة

الخاتون انها تأتي الى هذا المشهد في كل ليلة اثنين ويجتمع في تلك الليلة القضاة والفقهاء والشرفاء وشيراز من أكثر بلاد الله شرفاء سمعت من الثقات ان الذين لهم بها المرتبات من الشرفاء ألف وأربعمائة ونيف بين صغير وكبير ونقيبهم عضد الدين الحسيني فاذا حضر القوم بالمشهد المبارك المذكور ختموا القرآن قراءة في المصاحف وقرء القراء بالاصوات الحسنة وأتي بالطعام والفواكه والحلواء فاذا أكل القوم وعظ الواعظ ويكون ذلك كله من بعد صلاة الظهر الى العشي والخاتون في غرفة مطلة على المسجد لها شباك ثم تضرب الطبول والانفار والبوقات على باب التربة كما يفعل عند أبواب الملوك ومن المشاهد بها مشهد الامام القطب الولي أبي عبد الله بن خفيف المعروف عندهم بالشيخ وهو قدوة بلاد فارس كلها ومشهده معظم عندهم يأتون اليه بكرة وعشيا فيتمسحون به وقد رأيت القاضي مجد الدين أتاه زائرا واستلمه وتأتي الخاتون الى هذا المسجد في كل ليلة جمعة وعليه زاوية ومدرسة ويجتمع به القضاة والفقهاء ويفعلون به كفعلهم في مشهد أحمد بن موسى وقد حضرت الموضعين جميعا وتربة الامير محمد شاه ينجو والد السلطان أبي اسحق متصلة بهذه التربة والشيخ أبو عبد الله بن خفيف كبير القدر في الاولياء شهير الذكر وهو الذي أظهر طريق جبل سرنديب بجزيرة سيلان من أرض الهند (كرامة لهذا الشيخ) يحكى انه قصد مرة جبل سرنديب ومعه نحو ثلاثين من الفقراء فاصابتهم مجاعة في طريق الجبل حيث لا عمارة وتاهوا عن الطريق وطلبوا من الشيخ أن يأذن لهم في القبض على بعض الفيلة الصغار وهي في ذلك المحل كثيرة جدا ومنه تحمل الى حضرة ملك الهند فنهاهم الشيخ عن ذلك فغلب عليهم الجوع فتعدوا قول الشيخ وقبضوا على فيل صغير منها وذكوه وأكلوا لحمه وامتنع الشيخ من أكله فلما ناموا تلك الليلة اجتمعت الفيلة من كل ناحية وأتت اليهم فكانت تشم الرجل منهم وتقتله حتى أتت على جميعهم وشمت الشيخ ولم تتعرض له واخذه فيل منها ولف عليه خرطومه ورمى به على ظهره وأتى به الموضع الذي فيه العمارة فلما رآه أهل تلك الناحية عجبوا منه واستقبلوه ليتعرفوا امره فلما قرب منهم امسكه الفيل بخرطومه ووضعه على ظهره الى الارض بحيث يرونه فجاؤا اليه وتمسحوا به

وذهبوا به الى ملكهم فعرفوه خبره وهم كفار وأقام عندهم أياما وذلك الموضع على خور يسمي خور الخيزران والخور هو النهر وبذلك الموضع مغاص الجوهر ويذكر ان الشيخ غاص في تلك الايام بحضر ملكهم وخرج وقد ضم يديه معا وقال للملك اختر ما في احداهما فاختار ما في اليمنى فرمي اليه بما فيها وكانت ثلاثة احجار من الياقوت لا مثل لها وهي عند ملوكهم في التاج يتوارثونها وقد دخلت جزيرة سيلان هذه وهم مقيمون على الكفر الا انهم يعظمون فقراء المسلمين ويأوونهم الى دورهم ويطعمونهم الطعام ويكونون في بيوتهم بين اهليهم واولادهم خلافا لسائر كفار الهند فانهم لا يقربون المسلمين ولا يطعمونهم في آنيتهم ولا يسقونهم فيها مع انهم لا يؤذونهم ولا يهجونهم ولقد كنا نضطر الى ان يطبخ لنا بعضهم اللحم فيأتون به في قدورهم ويقعدون على بعد منا ويأتون باوراق الموز فيجعلون عليها الارز وهو طعامهم ويصبون عليه الكوشان وهو الادام ويذهبون فنأكل منه وما فضل علينا تأكله الكلاب والطير وان أكل منه الولد الصغير الذي لا يعقل ضربوه واطعموه روث البقر وهو الذي يطهر ذلك في زعمهم * ومن المشاهد بها مشهد الشيخ الصالح القطب روزجهان القبلي من كبار الاولياء وقبره في مسجد جامع يخطب فيه وبذلك المسجد يصلي القاضي مجد الدين الذي تقدم ذكره رضى الله عنه وبهذا المسجد سمعت عليه كتاب مسند الامام أبي عبد الله محمد ابن ادريس الشافعي قال أخبرتنا به وزيرة بنت عمر بن المنجا قالت اخبرنا ابو عبد الله الحسين بن أبي بكر بن المبارك الزبيدي قال اخبرنا أبو زرعة طاهر بن محمد بن طاهر المقدسي قال أخبرنا أبو الحسن المكي بن محمد بن منصور ابن علان العرضي قال أخبرنا القاضي أبو بكر أحمد بن الحسن الحرشي عن ابي العباس بن يعقوب الاصم عن الربيع بن سليمان المرادي عن الامام ابى عبد الله الشافعي وسمعت أيضاً عن القاضي مجد الدين بهذا المسجد المذكور كتاب مشارق الانوار للامام رضى الدين ابى الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن الصاغانى بحق سماعه له من الشيخ جلال الدين أبي هاشم محمد بن محمد بن أحمد الهاشمي الكوفي بروايته عن الامام نظام الدين محمود ابن محمد بن عمر الهروي عن المصنف ومن المشاهد بها مشهد الشيخ الصالح زركوب

وعليه زاوية لاطعام الطعام وهذه المشاهد كلها بداخل المدينة وكذلك معظم قبور أهلها فان الرجل منهم يموت ولده أو زوجه فيتخذ له تربة من بعض بيوت داره ويدفنه هناك ويفرش البيت بالحصر والبسط ويجعل الشمع الكثير عند رأس الميت ورجليه ويصنع للبيت بابا الى ناحية الزقاق وشباك حديد فيدخل منه القراء يقرؤن بالاصوات الحسان وليس في معمور الارض أحسن أصواتا بالقرآن من أهل شيراز ويقوم أهل الدار بالتربة ويفرشونها ويوقدون السرج بها فكان الميت لم يبرح وذكر لي انهم يطبخون في كل يوم نصيب الميت من الطعام ويتصدقون به عنه

﴿ حكاية ﴾

مررت يوما ببعض أسواق مدينة شيراز فرأيت بها مسجدا متقن البناء جميل الفرش وفيه مصاحف موضوعة في خرائط حرير موضوعة فوق كرسي وفي الجهة الشمالية من المسجد زاوية فيها شباك مفتح الى جهة السوق وهنالك شيخ جميل الهيئة واللباس وبين يديه مصحف يقرأ فيه فسلمت عليه وجلست اليه فسألني عن مقدمي فأخبرته وسألته عن شأن هذا المسجد فاخبرني انه هو الذي عمره ووقف عليه اوقافا كثيرة للقراء وسواهم وان تلك الزاوية التي جلست اليه فيها هي موضع قبره ان قضي الله موته بتلك المدينة ثم رفع بساطا كان تحته والقبر مغطي عليه ألواح خشب وأراني صندوقا كان بازائه فقال في هذا الصندوق كفني وحنوطي ودراهم كنت استأجرت بها نفسي في حفر بئر لرجل صالح فدفع لي هذه الدراهم فتركتها لتكون نفقة مواراتي وما فضل منها يتصدق بها فعجبت من شأنه وأردت الانصراف فحلف علي وأضافني بذلك الموضع ومن المشاهد بخارج شيراز قبر الشيخ الصالح المعروف بالسعدي وكان أشعر أهل زمانه باللسان الفارسي وربما ألمع في كلامه بالعربي وله زاوية كان قد عمرها بذلك الموضع حسنة بداخلها بستان مليح وهي بقرب رأس النهر الكبير المعروف بركن آباد وقد صنع الشيخ هنالك أحواضا صغارا من المرمر لغسل الثياب فيخرج الناس من المدينة لزيارته ويأكلون من سماطه ويغسلون ثيابهم بذلك النهر وينصرفون وكذلك فعلت عنده رحمه الله وبمقربة من هذه الزاوية زاوية أخرى تتصل بها مدرسة مبنيتان على قبر شمس الدين السمناني وكان من الامراء

الفقهاء و دفن هنالك بوصية منه بذلك و بمدينة شيراز من كبار الفقهاء الشريف مجيد الدين وأمره في الكرم عجيب وربما جاد بكل ماعنده وبالثياب التي كانت عليه ويلبس مرقعة له فيدخل عليه كبراء المدينة فيجدونه على تلك الحال فيكسونه ومرتبه في كل يوم من السلطان خمسون دينارا دراهم ثم كان خروجي من شيراز برسم زيارة قبر الشيخ الصالح أبي اسحق الكازروني بكازرون وهي على مسيرة يومين من شيراز فنزلنا أول يوم ببلاد الشول وهم طائفة من الاعاجم يسكنون البرية وفيهم الصالحون ﴿كرامة لبعضهم﴾
كنت يوما ببعض المساجد بشيراز وقد قعدت أتلو كتاب الله عز وجل أثر صلاة الظهر فخطر بخاطري انه لو كان لي مصحف كريم أتلو فيه فدخل على في اثناء ذلك شاب وقال لي بكلام قوي خذ فرفعت رأسي اليه فألقى في حجري مصحفا كريما وذهب عني فختمته ذلك اليوم قراءة وانتظرته لأرده له فلم يعد الي فسألت عنه فقيل لي ذلك بهلول الشولى ولم أره بعد ووصلنا في عشي اليوم الثاني الى كازرون فقصدنا زاوية الشيخ أبي اسحق نفع الله به وبتنا تلك الليلة ومن عادتهم أن يطعموا الوارد كائنا من كان من الهريسة المصنوعة من اللحم والقمح والسمن وتؤكل بالرقاق ولا يتركون الوارد عليهم للسفر حتى يقيم في الضيافة ثلاثة أيام ويعرض على الشيخ الذي بالزاوية حوائجه ويذكرها الشيخ للفقراء الملازمين للزاوية وهم يزيدون على مائة منهم المتزوجون ومنهم الاعزاب المتجردون فيختمون القرآن ويذكرون الذكر ويدعون له عند ضريح الشيخ أبي اسحق فتقضى حاجته باذن الله وهذا الشيخ ابواسحق معظم عند أهل الهند والصين ومن عادة ركاب بحر الصين انهم اذا تغير عليهم الهواء وخافوا اللصوص نذروا لابي اسحق نذورا وكتب كل منهم على نفسه مانذره فاذا وصلوا بر السلامة صعد خدام الزاوية الي المركب واخذوا الزمام وقبضوا من كل ناذر نذره ومامن مركب يأتي من الصين أو الهند الاوفيه آلاف من الدنانير فيأتي الوكلاء من جهة خادم الزاوية فيقبضون ذلك ومن الفقراء من يأتي طالبا صدقة الشيخ فيكتب له أمر بها وفيه علامة الشيخ منقوشة في قالب من الفضة فيضعون

القراب في صبغ احمر ويلصقونه بالامر فيبقى أثر الطابع فيه ويكون مضمنه انه من سنده نذر للشيخ أبي اسحق فليعط منه الالف كذا فيكون الامر بالألف والمائة وما بين ذلك ودونه على قدر النقير فاذا وجد من عنده شيء من النذر قبض منه وكتب له رسما في ظهر الامر بما قبضه ولقد نذر ملك الهند مرة للشيخ أبي اسحق بعشرة آلاف دينار فبلغ خبرها الى فقراء الزاوية فأتى أحدهم الى الهند وقبضها وانصرف بها الى الزاوية ثم سافرنا من كازرون الى مدينة الزيدين وسميت بذلك لان بها قبر زيد بن ثابت وقبر زيد بن أرقم الانصاريين صاحبي رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهما وهي مدينة حسنة كثيرة البساتين والمياه مليحة الاسواق عجيبة المساجد ولاهلها صلاح وأمانة وديانة ومن أهلها قاضي نور الدين الزيداني وكان ورد على أهل الهند فولي القضاء منها بذيبة المهل وهي جزائر كثيرة ملكها جلال الدين بن صلاح الدين بن صالح وتزوج بأخت هذا الملك وسيأتي ذكره وذكر بنته خديجة التي تولت الملك بعده بهذه الجزائر وبها توفي القاضي نور الدين المذكور ثم سافرنا منها الى الحويزاء بالزاي وهي مدينة صغيرة يسكنها العجم بينها وبين البصرة مسيرة أربع وبينها وبين الكوفة مسيرة خمس ومن أهلها الشيخ الصالح العابد جمال الدين الحويزائي شيخ خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة ثم سافرنا منها قاصدين الكوفة في برية لاماء بها الا في موضع واحد يسمي الطرفاوي وردناه في اليوم الثالث من سفرنا ثم وصلنا بعد اليوم الثاني من ورودنا عليه الى مدينة الكوفة

﴿ مدينة الكوفة ﴾

وهي أحد أمهات البلاد العراقية المتميزة فيها بفضل المزية مثوى الصحابة والتابعين ومنزل العلماء والصالحين وحضرة علي بن أبي طالب أمير المؤمنين الا ان الخراب قد استولى عليها بسبب ايدي العدوان التي امتدت اليها وفسادها من عرب خفاجة المجاورين لها فانهم يقطعون طريقها ولا سور عليها وبناؤها بالآجر وأسواقها حسان وأكثر ما يباع فيها التمر والسمك وجامعها الاعظم جامع كبير شريف بلاطاته سبعة قائمة على سواري حجارة ضخمة منحوتة قد صنعت قطعا ووضع بعضها على بعض وأفرغت بالرصاص وهي مفرطة

لطول وبهذا المسجد آثار كريمة فمنها بيت ازاء المحراب عن يمين مستقبل القبلة يقال ان الخليل صلوات الله عليه كان له مصلى بذلك الموضع وعلى مقربة منه محراب محلق عليه باعواد الساج مرتفع وهو محراب علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهنالك ضربه الشقي بن ملجم والناس يقصدون الصلاة به وفي الزاوية من آخر هذا البلاط مسجد صغير محلق عليه أيضا باعواد الساج يذكر انه الموضع الذي فار منه التنور حين طوفان نوح عليه السلام وفي ظهره خارج المسجد بيت يزعمون انه بيت نوح عليه السلام وازاءه بيت يزعمون انه متعبد ادريس عليه السلام ويتصل بذلك فضاء متصل بالجدار القبلي من المسجد يقال انه موضع انشاء سفينة نوح عليه السلام وفي آخر هذا الفضاء دار علي بن أبي طالب رضي الله عنه والبيت الذي غسل فيه ويتصل به بيت يقال أيضا انه بيت نوح عليه السلام والله أعلم بصحة ذلك كله وفي الجهة الشرقية من الجامع بيت مرتفع يصعد اليه فيه قبر مسلم بن عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه وبمقربة منه خارج المسجد قبر عاتكة وسكينة بنتي الحسين عليه السلام وأما قصر الامارة بالكوفة الذي بناه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فلم يبق منه الا أساسه والفرات من الكوفة على مسافة نصف فرسخ في الجانب الشرقي منها وهو منتظم بحدائق النخل الملتفة المتصل بعضها ببعض ورأيت بغربي جبانة الكوفة موضعا مسودا شديد السواد في بسيط أبيض فاخبرت انه قبر الشقي ابن ملجم وان أهل الكوفة يأتون في كل سنة بالحطب الكثير فيوقدون النار على موضع قبره سبعة أيام وعلى قرب منه قبة أخبرت انها على قبر المختار بن أبي عبيد ثم رحلنا ونزلنا ببئر ملاحة وهي بلدة حسنة بين حدائق نخل ونزلت بخارجها وكرهت دخولها لأن أهلها روافض ورحلنا منها الصبح فنزلنا مدينة الحلة وهي مدينة كبيرة مستطيلة مع الفرات وهو بشرقيها ولها أسواق حسنة جامعة للمرافق والصناعات وهي كثيرة العمارة وحدائق النخل منتظمة بها داخلا وخارجا ودورها بين الحدائق ولها جسر عظيم معقود على مراكب متصلة منتظمة فيما بين الشطين تحف بها من جانبيها سلاسل من حديد مربوطة في كلا الشطين الى خشبة عظيمة مثبتة بالساحل وأهل هذه المدينة كلها امامية اثنا عشرية وهم طائفتان

احداهما تعرف بالاكراد والأخرى تعرف بأهل الجامعين والفتنة بينهم متصلة والقتال قائم أبدا وبمقربة من السوق الاعظم بهذه المدينة مسجد على بابه ستر حرير مسدول وهم يسمونه مشهد صاحب الزمان ومن عادتهم انه يخرج فى كل ليلة مائة رجل من أهل المدينة عليهم السلاح وبأيديهم سيوف مشهورة فيأتون أمير المدينة بعد صلاة العصر فيأخذون منه فرسا مسرجا ملجما او بغلة كذلك ويضربون الطبول والانفار والبوقات امام تلك الدابة ويتقدمها خمسون منهم ويتبعها مثلهم ويمشي آخرون عن يمينها وشمالها ويأتون مشهد صاحب الزمان فيقفون بالباب ويقولون باسم الله ياصاحب الزمان باسم الله اخرج قد ظهر الفساد وكثر الظلم وهذا أوان خروجك فيفرق الله بك بين الحق والباطل ولا يزالون كذلك وهم يضربون الأبواق والأطبال والأنفار الى صلاة المغرب وهم يقولون ان محمد بن الحسن العسكري دخل ذلك المسجد وغاب فيه وانه سيخرج وهو الامام المنتظر عندهم وقد كان غلب على مدينة الحلة بعد موت السلطان أبي سعيد الامير أحمد بن رميثة بن أبي نمي أمير مكة وحكمها أعواما وكان حسن السيرة يحمده أهل العراق الي أن غلب عليه الشيخ حسن سلطان العراق فعذبه وقتله وأخذ الاموال والذخائر التي كانت عنده ثم سافرنا منها الي مدينة كربلاء مشهد الحسين بن على عليهما السلام وهى مدينة صغيرة تحفها حدائق النخل ويسقيها ماء الفرات والروضة المقدسة داخلها وعليها مدرسة عظيمة وزاوية كريمة فيها الطعام للوارد والصادر وعلى باب الروضة الحجاب والقومة لا يدخل أحد الاعن إذنهم فيقبل العتبة الشريفة وهى من الفضة وعلى الضريح المقدس قناديل الذهب والفضة وعلى الابواب أستار الحرير وأهل هذه المدينة طائفتان أولاد رخيك وأولاد فائز وبينهما القتال ابدا وهم جميعا امامية يرجعون الى أب واحد ولاجل فتنهم تخربت هذه المدينة ثم سافرنا منها الى بغداد

﴿ مدينة بغداد ﴾

مدينة دار السلام وحضرة الاسلام ذات القدر الشريف والفضل المنيف مثوى الخلفاء ومقر العلماء قال أبو الحسين بن جبير رضي الله عنه وهذه المدينة العتيقة

وان لم تزل حضرة الخلافة العباسيه ومثابة الدعوة لامامية القرشيه فقد ذهب رسمها ولم يبق الا اسمها وهي بالاضافة الي ما كانت عليه قبل انحاء الحوادث عليها والتفات أعين النوائب اليها كالطلل الدارس أو تمثال الخيال الشاخص فلا حسن فيها يستوقف البصر ويستدعي من المستوفز الغفلة والنظر الا دجلتها التي هي بين شرقيها وغربيها كالمرآة المجلوة بين صفحتين أو العقد المنتظم بين لبتين فهي تردها ولا تظمأ وتتطلع منها في مرآة صقيلة لا تصدأ والحسن الحريمي بين هوائها ومائها ينشأ قال ابن جزي وكأن أبا تمام حبيب بن أوس اطلع على ما آل اليه أمرها حين قال فيها (بسيط)

لقد أقام على بغداد ناعيها * فليبكها لخراب الدهر باكيها

كانت على مائها والحرب موقدة * والنار تطفأ حسنا في نواحيها

ترجي لها عودة في الدهر صالحة * فالآن أضمر منها اليأس راجيها

مثل العجوز التي ولت شبيبتها * وبان عنها جمال كان يحظيها

وقد نظم الناس في مدحها وذكر محاسنها فاطنبوا ووجدوا مكان القول ذا سعة فأطالوا وأطابوا وفيها قال الامام القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر المالكي البغدادي وأنشدنيه والدي رحمه الله مرات (بسيط)

طيب الهواء ببغداد يشوقني * قربا اليها وان عاقت مقادير

وكيف أرحل عنها اليوم اذ جمعت * طيب الهواءين ممدود ومقصور

وفيها يقول أيضا رحمه الله تعالي ورضي عنه (طويل)

سلام على بغداد في كل موطن * وحق لها مني السلام المضاعف

فوالله ما فارقتها عن قلي لها * واني بشطي جانبيها لعارف

ولكنها ضاقت علي برحبها * ولم تكن الأقدار فيها تساعف

وكانت كخل كنت أهوى دنوه * وأخلاقه تنأي به وتخالف

وفيها يقول أيضا مغاضبا لها وأنشدنيه والدي رحمه الله غير ما مرة (بسيط)

بغداد دار لأهل المال واسعة * وللصعاليك دار الضنك والضيق

ظللت امشي مضاعا في آزقتها * كأنني مصحف في بيت زنديق

وفيها يقول القاضي أبو الحسن علي بن النبيه من قصيدة (خفيف)

آنست بالعراق بدراً منيراً * فطوت غيبا وخاضت هجيرا

واستطابت ريا نسائم بغدا * دفكادت لولا البرى ان تطيرا

ذكرت من مسارح الكرخ روضا * لم يزل ناضرا وماء نميرا

واجتنت من ربا المحول نورا * واجتلت من مطالع التاج نورا

ولبعض نساء بغداد في ذكرها (كامل)

آها على بغدادها وعراقها * وظبائها والسحر في احداقها

ومجالها عند الفرات بأوجه * تبدو أهلتها على أطواقها

متبخترات في النعيم كأنما * خلق الهوى العذري من أخلاقها

نفسي الفداء لها فأي محاسن * في الدهر تشرق من سنا اشراقها

(رجع) وابغداد جسران اثنان معقودان على نحو الصفة التي ذكرناها في جسر مدينة الحلة والناس يعبرونهما ليلا ونهارا رجالا ونساء فهم في ذلك في نزهة متصلة وببغداد من المساجد التي يخطب فيها وتقام فيها الجمعة أحد عشر مسجدا منها بالجانب الغربي ثمانية وبالجانب الشرقي ثلاثة والمساجد سواها كثيرة جداً وكذلك المدارس الا انها خربت وحمامات بغداد كثيرة وهي من أبدع الحمامات وأكثرها مطلية بالقار مسطحة به فيخيل لرائيه انه رخام اسود وهذا القار يجلب من عين بين الكوفة والبصرة تنبع أبدا به ويصير في جوانبها كالصلصال فيجرف منها ويجلب الي بغداد وفي كل حمام منها خلوات كثيرة كل خلوة منها مفروشة بالقار مطلي نصف حائطها مما يلي الأرض به والنصف الأعلى مطلي بالجص الابيض الناصع فالضدان بها مجتمعان متقابل حسنهما وفي داخل كل خلوة حوض من الرخام فيه انبوبان أحدهما يجري بالماء الحار والآخر بالماء البارد فيدخل الانسان الخلوة منها منفردا لا يشاركه أحد الا ان أراد ذلك وفي زاوية كل خلوة أيضاً حوض آخر للاغتسال فيه أيضاً انبوبان يجريان بالحار والبارد وكل داخل يعطى

ثلاثا من الفوط أحدها يتزر بها عند دخوله والاخرى يتزر بها عند خروجه والاخرى
ينشف بها الماء عن جسده ولم أر هذا الاتقان كله في مدينة سوى بغداد وبعض البلاد
تقاربها في ذلك

﴿ ذكر الجانب الغربي من بغداد ﴾

الجانب الغربي منها هو الذي عمر أولا وهو الآن خراب أكثره وعلى ذلك فقد بقي منه
ثلاث عشرة محلة كل محلة كأنها مدينة بها الحمامان والثلاثة وفي ثمان منها المساجد
الجامعة ومن هذه المحلات محلة باب البصرة وبها جامع الخليفة أبي جعفر المنصور رحمه الله
والمارستان فيما بين محلة باب البصرة ومحلة الشارع على الدجلة وهو قصر كبير خرب
بقيت منه الآثار وفي هذا الجانب الغربي من المشاهد قبر معروف الكرخي رضي الله عنه
وهو في محلة باب البصرة وبطريق باب البصرة مشهد حافل البناء في داخله قبر متسع السنام
عليه مكتوب هذا قبر عون من أولاد علي بن أبي طالب وفي هذا الجانب قبر موسى الكاظم
ابن جعفر الصادق والد علي بن موسى الرضا والى جانبه قبر الجواد والقبران داخل الروضة
عليهما دكانة ملبسة بالخشب عليه ألواح الفضة

﴿ ذكر الجانب الشرقي منها ﴾

وهذه الجهة الشرقية من بغداد حافلة الاسواق عظيمة الترتيب وأعظم أسواقها سوق
العجيبة بسوق الثلاثاء كل صناعة فيها على حدة وفي وسط هذا السوق المدرسة النظامية
يعرف التي صارت الامثال تضرب بحسنها وفي آخره المدرسة المستنصرية ونسبتها الى أمير
المؤمنين المستنصر بالله أبي جعفر ابن أمير المؤمنين الظاهر ابن أمير المؤمنين الناصر وبها
المذاهب الأربعة لكل مذهب ايوان فيه المسجد وموضع التدريس وجلوس المدرس في
قبة خشب صغيرة على كرسي عليه البسط ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار لابسا ثياب
السواد معتما وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه وهكذا ترتيب كل مجلس من
هذه المجالس الاربعة وفي داخل هذه المدرسة الحمام للطلبة ودار الوضوء وبهذه الجهة
الشرقية من المساجد التي تقام فيها الجمعة ثلاثة أحدها جامع الخليفة وهو المتصل بقصور

الخلفاء ودورهم وهو جامع كبير فيه سقايات ومطاهر كثيرة للوضوء والغسل لقيت بهذا المسجد الشيخ الامام العالم الصالح مسند العراق سراج الدين اباحفص عمر بن علي بن عمر القزويني وسمعت عليه فيه جميع مسند أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي وذلك في شهر رجب الفرد عام سبعة وعشرين وسبعمائة قال أخبرتنا به الشيخة الصالحة المسندة بنت الملوك فاطمة بنت العدل تاج الدين أبي الحسن علي بن علي بن أبي البدر قالت اخبرنا الشيخ أبو بكر محمد بن مسعود بن بهروز الطبيب المارستاني قال اخبرنا أبو الوقت عبد الاول بن شعيب السنجري الصوفي قال اخبرنا الامام أبو الحسن عبد الرحمن ابن محمد بن المظفر الداودي قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن احمد بن حموية السرخسي عن ابي عمران عيسى بن عمر بن العباس السمرقندي عن ابي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمي والجامع الثاني جامع السلطان وهو خارج البلد وتتصل به قصور تنسب للسلطان والجامع الثالث جامع الرصافة وبينه وبين جامع السلطان نحو الميل

﴿ذكر قبور الخلفاء ببغداد وقبور بعض العلماء والصالحين بها﴾

وقبور الخلفاء العباسيين رضي الله عنهم بالرصافة وعلى كل قبر منها اسم صاحبه فمنهم قبر المهدي وقبر الهادي وقبر الأمين وقبر المعتصم وقبر الواثق وقبر المتوكل وقبر المنتصر وقبر المستعين وقبر المعتز وقبر المهتدي وقبر المعتمد وقبر المعتضد وقبر المكتفي وقبر المقتدر وقبر القاهر وقبر الراضي وقبر المتقي وقبر المستكفي وقبر المطيع وقبر الطائع وقبر القائم وقبر القادر وقبر المستظهر وقبر المسترشد وقبر الراشد وقبر المقتفي وقبر المستنجد وقبر المستضيء وقبر الناصر وقبر الظاهر وقبر المستنصر وقبر المستعصم وهو آخرهم وعليه دخل التتر بغداد بالسيف وذبحوه بعد أيام من دخولهم وانقطع من بغداد اسم الخلافة العباسية وذلك في سنة أربع وخمسين وستمائة وبقرب الرصافة قبر الامام أبي حنيفة رضي الله عنه وعليه قبة عظيمة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر وليس بمدينة بغداد اليوم زاوية يطعم الطعام فيها ماعدا هذه الزاوية فسبحان مبيد الاشياء ومغيرها وبالقرب منها قبر الامام أبي عبد الله أحمد بن حنبل رضي الله عنه ولا قبة عليه ويذكر انها بنيت على قبره مرارا

فتهدمت بقدرة الله تعالى وقبره عند أهل بغداد معظم وأكثرهم على مذهبه وبالقرب منه قبر أبي بكر الشبلي من أئمة المتصوفة رحمه الله وقبر سري السقطي وقبر بشر الحافي وقبر داود الطائي وقبر أبي القاسم الجنيد رضي الله عنهم أجمعين وأهل بغداد لهم يوم في كل جمعة لزيارة شيخ من هؤلاء المشايخ ويوم لشيخ آخر يليه هكذا الى آخر الاسبوع وببغداد كثير من قبور الصالحين والعلماء رضي الله تعالى عنهم وهذه الجهة الشرقية من بغداد ليس بها فواكه وانما تجلب اليها من الجهة الغربية لان فيها البساتين والحدائق ووافق وصولي الى بغداد كون ملك العراق بها فلنذكره ههنا

﴿ ذكر سلطان العراقين وخراسان ﴾

وهو السلطان الجليل أبو سعيد بهادر خان وخان عندهم الملك (وبهادر بفتح الباء الموحدة وضم الدال المهمل وآخره راء) ابن السلطان الجليل محمد خذابنده وهو الذي أسلم من ملوك التتر وضبط اسمه مختلف فيه فمنهم من قال ان اسمه خذابنده (بخاء معجمة مضمومة وذال معجم مفتوح) وبنده لم يختلف فيه (وهو بباء موحدة مفتوحة ونون مسكنة ودال مهمل مفتوح وهاء استراحة) وتفسيره على هذا القول عبد الله لان خذا بالفارسية اسم الله عز وجل وبنده غلام أو عبد أو ما في معناها وقيل انما هو خربنده (بفتح الخاء المعجم وضم الراء المهمل) وتفسير خر بالفارسية الحمار فمعناه على هذا غلام الحمار فشذ ما بين القولين من الخلاف على ان هذا الاخير هو المشهور وكان الاول غيره اليه من تعصب وقيل ان سبب تسميته بهذا الاخير هو ان التتر يسمون المولود باسم أول داخل على البيت عند ولادته فلما ولد هذا السلطان كان أول داخل الزمال وهم يسمونه خربنده فسمي به وأخو خربنده هو قازغان الذي يقول فيه الناس قازان وقازغان هو القدر وقيل سمي بذلك لانه لما ولد دخلت الجارية ومعها القدر وخذابنده هو الذي اسلم وقد مناقصته وكيف أراد أن يحمل الناس لما أسلم على الرفض وقصة القاضي مجد الدين معه ولما مات ولي الملك ولده أبو سعيد بهادر خان وكان ملكا فاضلا كريما ملك وهو صغير السن ورأيته ببغداد وهو شاب أجمل خلق الله صورة

لا نبات بها رضيه ووزيره اذ ذاك الامير غياث الدين محمد بن خواجه رشيد وكان أبوه من
مهاجرة اليهود واستوزره السلطان محمد خدا بنده والد أبي سعيد رأيتهما يوما بحراقة في
الدجلة وتسمى عندهم الشبارة وهي شبه سلورة وبين يديه دمشق خواجه ابن الامير
جوبان المتغلب على أبي سعيد وعن يمينه وشماله شبارتان فيهما أهل الطرب والغناء ورأيت
من مكارمه في ذلك اليوم انه تعرض له جماعة من العميان فشكوا ضعف حالهم فأمر لكل
واحد منهم بكسوة وغلام يقوده ونفقة تجري عليه ولما ولي السلطان أبو سعيد وهو
صغير كما ذكرناه استولى على أمره أمير الامراء الجوبان وحجر عليه التصرفات حتى لم
يكن بيده من الملك الا الاسم ويذكر انه احتاج في بعض الاعياد الى نفقة ينفقها فلم يكن له
سبيل اليها فبعث الى أحد التجار فأعطاه من المال ما أحب ولم يزل كذلك الى أن دخلت
عليه يوما زوجة أبيه دنيا خاتون فقالت له لو كنا نحن الرجال ما تركنا الجوبان وولده على
ماهما عليه فاستفهمها عن مرادها بهذا الكلام فقالت له لقد انتهى أمر دمشق خواجه بن
الجوبان أن يفتك بحرم أبيك وانه بات البارحة عند طغي خاتون وقد بعثت الي وقالت لي الليلة
أبيت عندك وما الرأي الا أن تجمع الامراء والعساكر فاذا صعد الى القلعة مختفياً برسم
المبيت أمكنك القبض عليه وأبوه يكفي الله أمره وكان الجوبان اذ ذاك غائبا بخراسان فغلبته
الغيرة وبات يدبر أمره فلما علم أن دمشق خواجه بالقلعة امر الأمراء والعساكر أن
يطيفوا بها من كل ناحية فلما كان بالغدو خرج دمشق ومعه جندي يعرف بالحاج المصري
فوجد سلسلة معترضة على باب القلعة وعليها قفل فلم يمكنه الخروج راكباً فضرب الحاج
المصري السلسلة بسيفه فقطعها وخرجا معا فأحاطت بهما العساكر ولحق أمير من الامراء
الخاصكية يعرف بمصر خواجه وفتى يعرف بلؤلؤ دمشق خواجه فقتلاه وأتيا الملك ابا
سعيد برأسه فرموا به بين يدي فرسه وتلك عادتهم ان يفعلوا برأس كبار أعدائهم وأمر
السلطان بنهب داره وقتل من قاتل من خدامه ومماليكه واتصل الخبر بأبيه الجوبان وهو
بخراسان ومعه أولاده أمير حسن وهو الاكبر وطالش وجلوخان وهو أصغرهم وهو
ابن أخت السلطان أبي سعيد أمه ساطي بك بنت السلطان خدابنده ومعه عساكر التتر

وحاميتها فاتفقوا على قتال السلطان أبي سعيد وزحفوا اليه فلما التقى الجمعان هرب التتر الى سلطانهم وأفردوا الجوبان فلما رأى ذلك نكص على عقبيه وفر الى صحراء سجستان وأوغل فيها وأجمع على اللحاق بملك هراة غياث الدين مستجيرا به ومتحصنا بمدينته وكانت له عليه أياد سابقة فلم يوافقه ولده حسن وطالش على ذلك وقالا له انه لا يفي بالعهد وقد غدر فيروز شاه بعد أن لجأ اليه وقتله فأبي الجوبان الا أن يلحق به ففارقه ولداه وتوجه ومعه ابنه الاصغر جلوخان فخرج غياث الدين لاستقباله وترجل له وأدخله المدينة على الامان ثم غدره بعد أيام وقتله وقتل ولده وبعث برأسيهما الى السلطان أبي سعيد وأما حسن وطالش فانهما قصدا خوارزم وتوجها الى السلطان محمد أوزبك فأكرم مثواهما وأنزلهما الى أن صدر منهما ما أوجب قتلهما فقتلهما وكان للجوبان ولد رابع اسمه الدمرطاش فهرب الى ديار مصر فأكرمه الملك الناصر وأعطاه الاسكندرية فأبى من قبولها وقال انما أريد العساكر لأقاتل أبا سعيد وكان متى بعث اليه الملك الناصر بكسوة أعطى هو للذي يوصلها اليه أحسن منها ازراء على الملك الناصر وأظهر أمورا أوجبت قتله فقتله وبعث برأسه الى أبي سعيد وقد ذكرنا قصته وقصة قراسنقور فيما تقدم ولما قتل الجوبان جيء به وبولده ميتين فوقف بهما على عرفات وحملا الى المدينة ليدفنا في التربة التي اتخذها الجوبان بالقرب من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنع من ذلك ودفن بالبقيع والجوبان هو الذي جلب الماء الى مكة شرفها الله تعالى ولما استقل السلطان أبو سعيد بالملك أراد أن يتزوج بنت الجوبان وكانت تسمى بغداد خاتون وهي من أجمل النساء وكانت تحت الشيخ حسن الذي تغلب بعد موت أبي سعيد على الملك وهو ابن عمته فأمره فنزل عنها وتزوجها أبو سعيد وكانت أحظى النساء لديه وللنساء لدي الاتراك والتتر لهن حظ عظيم وهم اذا كتبوا امرا يقولون فيه عن أمر السلطان والخواتين ولكل خاتون من البلاد والولايات والمجابي العظيمة واذا سافرت مع السلطان تكون في محلة على حدة وغلبت هذه الخاتون على أبي سعيد وفضلها على سواها وأقامت على ذلك مدة أيامه ثم انه تزوج امرأة تسمى بدلشاد فأحبها حبا شديدا وهجر بغداد خاتون فغارت لذلك وسمته في

منديل مسحته به بعد الجماع فمات وانقرض عقبه وغلبت أمراؤه على الجهات كما سنذكره ولما عرف الامراء ان بغداد خاتون هي التي سمته اجمعوا على قتلها وبدر لذلك الفتى الرومي خواجه لؤلؤ وهو من كبار الامراء وقدمائهم فأتاها وهي في الحمام فضربها بدبوسه وقتلها وطرحت هنالك أياما مستورة العورة بقطعة تليس واستقل الشيخ حسن بملك عراق العرب وتزوج دلشادا امرأة السلطان أبي سعيد كمثل ما كان أبو سعيد فعله من تزوج امرأته

﴿ ذكر المتغلبين على الملك بعد موت السلطان ابي سعيد ﴾

فمنهم الشيخ حسن ابن عمته الذي ذكرناه آنفاً تغلب على عراق العرب جميعاً ومنهم ابراهيم شاه ابن الامير سنيته تغلب على الموصل وديار بكر ومنهم الامير ارتنا تغلب على بلاد التركمان المعروفة أيضاً ببلاد الروم ومنهم حسن خواجه بن الدمرطاش بن الجوبان تغلب على تبريز والسلطانية وهمدان وقم وقاشان والري وورامين وفرغان والكرج ومنهم الامير طغيتمور تغلب على بعض بلاد خرسان ومنهم الامير حسين ابن الامير غياث الدين تغلب على هراة ومعظم بلاد خرسان ومنهم ملك دينار تغلب على بلاد مكران وبلاد كيج ومنهم محمد شاه بن مظفر تغلب على يزد وكرمان وورقو ومنهم الملك قطب الدين تمهتن تغلب على هرمز وكيش والقطيف والبحرين وقلهات ومنهم السلطان أبو اسحق الذي تقدم ذكره تغلب على شيراز واصفهان وملك فارس وذلك مسيرة خمس وأربعين ومنهم السلطان افراسياب أتابك تغلب على ايذج وغيرها من البلاد وقد تقدم ذكره ولنعد الي ما كنا بسبيله ثم خرجت من بغداد في محلة السلطان أبي سعيد وغرضي أن أشاهد ترتيب ملك العراق في رحيله ونزوله وكيفية تنقله وسفره وعادتهم أنهم يرحلون عند طلوع الفجر وينزلون عند الضحي وترتيبهم انه يأتي كل أمير من الامراء بعسكره وطبوله وأعلامه فيقف في موضع لا يتعداه قد عين له إما في الميمنة أو الميسرة فاذا توافوا جميعاً وتكاملت صفوفهم ركب الملك وضربت طبول الرحيل وبوقاته وأنفاره وأتى كل أمير منهم فسلم على الملك وعاد الي موقفه ثم يتقدم أمام الملك الحجاب والنقباء ثم يليهم أهل الطرب وهم نحو

مائة رجل عليهم الثياب الحسنة وتحتهم مراكب السلطان وأمام أهل الطرب عشرة من الفرسان قد تقلدوا عشرة من الطبول وخمسة من الفرسان لديهم خمس صرنايات وهي تسمى عندنا بالغيطات فيضربون تلك الاطبال والصرنايات ثم يسكون ويغني عشرة من أهل الطرب نوبتهم فاذا قضوها ضربت تلك الاطبال والصرنايات ثم أمسكوا وغنى عشرة آخرون نوبتهم هكذا الى أن تتم عشر نوبات فعند ذلك يكون النزول ويكون عن يمين السلطان وشماله حين سيره كبار الامراء وهم نحو خمسين ومن ورائه أصحاب الاعلام والاطبال والانفار والبوقات ثم مماليك السلطان ثم الامراء على مراتبهم وكل أمير له اعلام وطبول وبوقات ويتولى ترتيب ذلك كله أمير جندر وله جماعة كبيرة وعقوبة من تخلف عن فوجه وجماعته ان يؤخذ تماقه فيملأ رملا ويعلق في عنقه ويمشي على قدميه حتى يبلغ المنزل فيؤتي به الى الامير فيبطح على الارض ويضرب خمسا وعشرين مقرعة على ظهره سواء كان رفيعا أو وضيعا لايحاشون من ذلك أحدا واذا نزلوا ينزل السلطان ومماليكه في محلة على حدة وتنزل كل خاتون من خواتينه في محلة على حدة ولكل واحدة منهن الامام والمؤذنون والقراء والسوق وينزل الوزراء والكتاب وأهل الاشغال على حدة وينزل كل أمير على حدة ويأتون جميعا الي الخدمة بعد العصر ويكون انصرافهم بعد العشاء الاخيرة والمشاعل بين أيديهم فاذا كان الرحيل ضرب الطبل الكبير ثم يضرب طبل الخاتون الكبرى التي هي الملكة ثم أطبال سائر الخواتين ثم طبل الوزير ثم أطبال الوزراء دفعة واحدة ثم يركب أمير المقدمة في عسكره ثم يتبعه الخواتين ثم أثقال السلطان وزاملته وأثقال الخواتين ثم أمير ثان في عسكر له يمنع الناس من الدخول فيما بين الاثقال والخواتين ثم سائر الناس وسافرت في هذه المحلة عشرة أيام ثم صحبت الامير علاء الدين محمدا الى بلدة تبريز وكان من الامراء الكبار الفضلاء فوصلنا بعد عشرة أيام الي مدينة تبريز ونزلنا بخارجها في موضع يعرف بالشام وهنالك قبر قازان ملك العراق وعليه مدرسة حسنة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر من الخبز واللحم والأرز المطبوخ بالسمن والحلواء وأنزلني الامير بتلك الزاوية وهي ما بين أنهار متدفقة وأشجار مورقة وفي غد

ذلك اليوم دخلت المدينة على باب يعرف بباب بغداد ووصلنا الى سوق عظيمة تعرف بسوق قازان من أحسن سوق رأيتها في بلاد الدنيا كل صناعة فيها على حدة لا تخالطها أخرى واجتزت بسوق الجوهريين فحار بصري مما رأيته من أنواع الجواهر وهي بايدي مماليك حسان الصور وعليهم الثياب الفاخرة وأوساطهم مشدودة بمناديل الحرير وهم بين أيدي التجار يعرضون الجواهر على نساء الأتراك وهن يشترينه كثيرا ويتنافسن فيه فرأيت من ذلك كله فتنة يستعاذ بالله منها ودخلنا سوق العنبر والمسك فرأينا مثل ذلك أو أعظم ثم وصلنا الى المسجد الجامع الذي عمره الوزير علي شاه المعروف بجيلان وبخارجه عن يمين مستقبل القبلة مدرسة وعن يساره زاوية وصحنه مفروش بالمرمر وحيطانه بالقاشاني وهو شبه الزليج ويشقه نهر ماء وبه أنواع الأشجار ودوالي العنب وشجر ياسمين ومن عادتهم أنهم يقرؤن به كل يوم سورة يس وسورة الفتح وسورة عم بعد صلاة العصر في صحن المسجد ويجتمع لذلك أهل المدينة وبتنا ليلة بتبريز ثم وصل بالغد أمر السلطان أبي سعيد الى الامير علاء الدين بأن يصل اليه فعدت معه ولم ألق بتبريز احدا من العلماء ثم سافرنا الى أن وصلنا محلة السلطان فاعلمه الامير المذكور بمكاني وادخلني عليه فسألني عن بلادي وكساني واركبني واعلمه الامير أني أريد السفر الى الحجاز الشريف فامر لي بالزاد والركوب في السبيل مع المحمل وكتب لي بذلك الى أمير بغداد خواجه معروف فعدت الى مدينة بغداد واستوفيت ما أمر لي به السلطان وكان قد بقي لأوان سفر الركب أزيد من شهرين فظهر لي ان أسافر الى الموصل وديار بكر لأشاهد تلك البلاد واعود الى بغداد في حين سفر الركب فأتوجه الى الحجاز الشريف فخرجت من بغداد الى منزل على نهر دجيل وهو يتفرع عن دجلة فيسقي قرى كثيرة ثم نزلنا بعد يومين بقرية كبيرة تعرف بحربة مخصبة فسيحة ثم رحلنا فنزلنا موضعا على شط دجلة بالقرب من حصن يسمى المعشوق وهو مبني على الدجلة وفي العدوة الشرقية من هذا الحصن مدينة سر من رأى وتسمى أيضا سامرا ويقال لها سام راه ومعناه بالفارسية طريق سام وراه هو الطريق وقد استولى الخراب على هذه المدينة فلم يبق منها الا القليل وهي معتدلة الهواء رائقة الحسن على بلائها

ودروس معالمها وفيها أيضا مشهد صاحب الزمان كما بالحلة ثم سرنا منها مرحلة ووصلنا الى مدينة تكريت وهي مدينة كبيرة فسيحة الارجاء مليحة الاسواق كثيرة المساجد وأهلها موصوفون بحسن الاخلاق والدجلة في الجهة الشمالية منها ولها قلعة حصينة على شط الدجلة والمدينة عتيقة البناء عليها سور يطيف بها ثم رحلنا منها مرحلتين ووصلنا الى قرية تعرف بالعقر على شط الدجلة وبأعلاها ربوة كان بها حصن وبأسفلها الخان المعروف بخان الحديد له أبراج وبناؤه حافل والقرى والعمارة متصلة من هنالك الى الموصل ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالقيارة بمقربة من دجلة وهنالك أرض سوداء فيها عيون تنبع بالقار ويصنع له أحواض ويجتمع فيها فتراه شبه الصلصال على وجه الارض حالك اللون صقيلا رطبا وله رائحة طيبة وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق فتقذفه الى جوانبها فيصير أيضا قارا وبمقربة من هذا الموضع عين كبيرة فاذا أرادوا نقل القار منها أوقدوا عليها النار فتنشف النار ما هنالك من رطوبة مائية ثم يقطعونه قطعا وينقلونه وقد تقدم لنا ذكر العين التي بين الكوفة والبصرة على هذا النحو ثم سافرنا من هذه العيون مرحلتين ووصلنا بعدها الى الموصل

﴿ مدينة الموصل ﴾

وهي مدينة عتيقة كثيرة الخصب وقلعتها المعروفة بالحدباء عظيمة الشأن شهيرة الامتناع عليها سور محكم البناء مشيد البروج وتتصل بها دور السلطان وقد فصل بينهما وبين البلد شارع متسع مستطيل من أعلى البلد الى أسفله وعلى البلد سوران اثنان وثيقان ابراجهما كثيرة متقاربة وفي باطن السور بيوت بعضها على بعض مستديرة بجداره قد تمكن فتحها فيه لسعته ولم أر في أسوار البلاد مثله الا السور الذي على مدينة دهلي حضرة ملك الهند وللموصل ربض كبير فيه المساجد والحمامات والفنادق والاسواق وبه مسجد جامع على شط الدجلة تدور به شبابيك حديد وتتصل به مصاطب تشرف على دجلة في النهاية من الحسن والاتقان وأمامه مارستان وبداخل المدينة جامعان أحدهما قديم والآخر حديث وفي صحن الحديث منهما قبة في داخلها خصة رخام مثمنة مرتفعة على سارية رخام يخرج منها

الماء بقوة وانزعاج فيرتفع مقدار القامة ثم ينعكس فيكون له مرأى حسن وقيسارية الموصل مليحة لها أبواب حديد ويدور بها دكاكين وبيوت بعضها فوق بعض متقنة البناء وبهذه المدينة مشهد جرجيس النبي عليه السلام وعليه مسجد والقبر في زاوية منه عن يمين الداخل اليه وهو فيما بين الجامع الجديد وباب الجسر وقد حصلت لنا زيارته والصلاة بمسجده والحمد لله تعالى وهنالك تل يونس عليه السلام وعلى نحو ميل منه العين المنسوبة اليه يقال انه أمر قومه بالتطهير فيها ثم صعدوا التل ودعا ودعوا فكشف الله عنهم العذاب وبمقربة منه قرية كبيرة يقرب منها خراب يقال انه موضع المدينة المعروفة بنينوي مدينة يونس عليه السلام وأثر السور المحيط بها ظاهر ومواضع الابواب التي هي متبينة وفي التل بناء عظيم ورباط فيه بيوت كثيرة ومقاصر ومطاهر وسقايات يضم الجميع باب واحد وفي وسط الرباط بيت عليه ستر حرير وله باب مرصع يقال انه الموضع الذي به موقف يونس عليه السلام ومحراب المسجد الذي بهذه الرباط يقال انه كان بيت متعبده عليه السلام وأهل الموصل يخرجون في كل ليلة جمعة الي هذا الرباط يتعبدون فيه وأهل الموصل لهم مكارم اخلاق ولين كلام وفضيلة ومحبة في الغريب واقبال عليه وكان أميرها حين قدومي عليها السيد الشريف الفاضل علاء الدين على بن شمس الدين محمد الملقب بحيدر وهو من الكرماء الفضلاء أنزلني بداره وأجري علي الانفاق مدة مقامي عنده وله الصدقات والايثار المعروف وكان السلطان أبو سعيد يعظمه وفوض اليه في هذه المدينة وما يليها ويركب في موكب عظيم من مماليكه وأجناده ووجوه أهل المدينة وكبراؤها يأتون للسلام عليه غدوا وعشيا وله شجاعة ومهابة وولده في حين كتب هذا في حضرة فاس مستقر الغرباء ومأوى الفرق ومحط رحال الوفود زادها الله بسعادة أيام مولانا أمير المؤمنين بهجة واشراقا وحرس ارجاءها ونواحيها ثم رحلنا من الموصل ونزلنا قرية تعرف بعين الرصد وهي على نهر عليه جسر مبني وبها خان كبير ثم رحلنا ونزلنا قرية تعرف بالمويلحة ثم رحلنا منها ونزلنا جزيرة ابن عمر وهي مدينة كبيرة حسنة محيط بها الوادي ولذلك سميت جزيرة وأكثرها خراب ولها سوق حسنة ومسجد عتيق

مبني بالحجارة محكم العمل وسورها مبني بالحجارة أيضا وأهلها فضلاء لهم محبة في الغرباء ويوم نزولنا بها رأينا جبل الجودي المذكور في كتاب الله عز وجل الذي استوت عليه سفينة نوح عليه السلام وهو جبل عال مستطيل ثم رحلنا منها مرحلتين ووصلنا الى مدينة نصيبين وهي مدينة عتيقة متوسطة قد خرب أكثرها وهي في بسيط أفيح فسيح فيه المياه الجارية والبساتين الملتفة والاشجار المنتظمة والفواكه الكثيرة وبها يصنع ماء الورد الذي لا نظير له في العطارة والطيب ويدور بها نهر يعطف عليها انعطاف السوار منبعه من عيون في جبل قريب منها وينقسم انقساما فيتخلل بساتينها ويدخل منه نهر الى المدينة فيجري في شوارعها ودورها ويخترق صحن مسجدها الاعظم وينصب في صهريجين أحدهما في وسط الصحن والآخر عند الباب الشرقي وبهذه المدينة مارستان ومدرستان وأهلها أهل صلاح ودين وصدق وأمانة ولقد صدق أبو نواس في قوله

طابت نصيبين لي يوما وطبت لها * ياليت حظي من الدنيا نصيبين

قال ابن جزي والناس يصفون مدينة نصيبين بفساد الماء والوخامة وفيها يقول بعض الشعراء

لنصيبين قد عجبت وما في * دارها لي داع الى العلات
يعدم الورد أحمرا في ذراها * لسقام حتى من الوجنات

ثم رحلنا الى مدينة سنجار وهي مدينة كبيرة كثيرة الفواكه والاشجار والعيون المطردة والانهار مبنية في سفح جبل تشبه بدمشق في كثرة أنهارها وبساتينها ومسجدها الجامع مشهور بالبركة يذكر ان الدعاء به مستجاب ويدور به نهر ماء ويخترقه وأهل سنجار اكراد ولهم شجاعة وكرم وممن لقيته بها الشيخ الصالح العابد الزاهد عبد الله الكردي أحد المشايخ الكبار صاحب كرامات يذكر عنه انه لا يفطر الا بعد أربعين يوما ويكون افطاره على نصف قرص من الشعير لقيته برابطة بأعلى جبل سنجار ودعا لي وزودني بدراهم لم تزل عندي الى أن سلبني كفار الهنود ثم سافرنا الى مدينة دارا وهي عتيقة كبيرة بيضاء المنظر لها

قلعة مشرفة وهي الآن خراب لا عمارة بها وفي خارجها قرية معمورة بها كان نزولنا ثم رحلنا منها فوصلنا الى مدينة ماردين وهي عظيمة في سفح جبل من أحسن مدن الاسلام وأبدعها وأتقنها وأحسنها أسواقا وبها تصنع الثياب المنسوبة اليها من الصوف المعروف بالمرعز ولها قلعة شماء من مشاهير القلاع في قنة جبلها قال ابن جزي قلعة ماردين هذه تسمى الشهباء واياها عنى شاعر العراق صفي الدين عبد العزيز بن سرايا الحلي بقوله في مسمطه (سريع)

ودع ربوع الحلة الفيحاء * وازور بالعيس عن الزوراء
ولا تقف بالموصل الحدباء * ان شهاب القلعة الشهباء
محرق شيطان صروف الدهر

وقلعة حلب تسمى الشهباء أيضاً وهذه المسمطة بديعة مدح بها الملك المنصور سلطان ماردين وكان كريما شهير الصيت ولي الملك بها نحو خمسين سنة وادرك أيام قازان ملك التتر وصاهر السلطان خدابنده بابنته دنيا خاتون

﴿ ذكر سلطان ماردين في عهد دخولي اليها ﴾

وهو الملك الصالح بن الملك المنصور الذي ذكرناه آنفا ورث الملك عن أبيه وله المكارم الشهيرة وليس بأرض العراق والشام ومصر اكرم منه يقصده الشعراء والفقراء فيجزل لهم العطايا جريا على سنن أبيه قصده أبو عبد الله محمد بن جابر الاندلسي المروي الكفيف مادحا فاعطاه عشرين ألف درهم وله الصدقات والمدارس والزوايا لاطعام الطعام وله وزير كبير القدر وهو الامام العالم وحيد الدهر وفريد العصر جمال الدين السنجاري قرأ بمدينة تبريز وأدرك العلماء الكبار وقاضي قضاته الامام الكامل برهان الدين الموصلي وهو ينتسب الى الشيخ الولي فتح الموصلي وهذا القاضي من أهل الدين والورع والفضل يلبس الخشن من ثياب الصوف الذي لا تبلغ قيمته عشرة دراهم ويعتم بنحو ذلك وكثيرا ما يجلس للاحكام بصحن مسجد خارج المدرسة كان يتعبد فيه فاذا رآه من لا يعرفه ظنه بعض خدام القاضي وأعوانه

﴿ حكاية ﴾

ذكر لي ان امرأة أتت هذا القاضي وهو خارج من المسجد ولم تكن تعرفه فقالت له ياشيخ أين يجلس القاضي فقال لها وما تريدين منه فقالت له ان زوجي ضربني وله زوجة ثانية وهو لا يعدل بيننا في القسم وقد دعوته الى القاضي فأبى وأنا فقيرة ليس عندي ما أعطيه لرجال القاضي حتى يحضروه بمجلسه فقال لها وأين منزل زوجك فقالت بقرية الملاحين خارج المدينة فقال لها أنا أذهب معك اليه فقالت والله ما عندي شيء أعطيك اياه فقال لها وأنا لا آخذ منك شيأ ثم قال لها اذهبي الى القرية وانتظريني خارجها فاني على أثرك فذهبت كما أمرها وانتظرته فوصل اليها وليس معه أحد وكانت عادته ان لا يدع أحدا يتبعه فجاءت به الى منزل زوجها فلما رآه قال لها ما هذا الشيخ النحس الذي معك فقالت له نعم والله أنا كذلك ولكن أرض زوجتك فلما طال الكلام جاء الناس فعرفوا القاضي وسلموا عليه وخاف ذلك الرجل وخجل فقال له القاضي لا عليك أصلح ما بينك وبين زوجتك فأرضاها الرجل من نفسه وأعطاها القاضي نفقة ذلك اليوم وانصرف لقيت هذا القاضي وأضافني بداره ثم رحلت عائدا الى بغداد فوصلت الى مدينة الموصل التي ذكرناها فوجدت ركبها بخارجها متوجهين الى بغداد وفيهم امرأة صالحة عابدة تسمى بالست زاهدة وهي من ذرية الخلفاء حجت مرارا وهي ملازمة الصوم سلمت عليها وكنت في جوارها ومعها جملة من الفقراء يخدمونها وفي هذه الوجهة توفيت رحمة الله عليها وكانت وفاتها بزرود ودفنت هنالك ثم وصلنا الى مدينة بغداد فوجدت الحاج في أهبة الرحيل فقصدت أميرها معروف خواجه فطلبت منه ما أمر لي به السلطان فعين لي شقة محارة وزاد أربعة من الرجال وماءهم وكتب لي بذلك ووجه عن أمير الركب وهو البهلوان محمد الحويج فأوصاه بي وكانت المعرفة بيني وبينه متقدمة فزادها تأكيدا ولم أزل في جواره وهو يحسن الى ويزيدني على ما أمر لي به وأصابني عند خروجنا من الكوفة اسهال فكانوا ينزلونني من أعلى المحمل مرات كثيرة في اليوم والامير يتفقد حالي ويوصي بي ولم أزل مريضا حتى وصلت مكة حرم الله تعالى زادها الله شرفا وتعظيما وطفت بالبيت الحرام كرمه الله تعالى طواف القدوم وكنت ضعيفا بحيث أؤدي المكتوبة قاعدا فطفت وسعيت بين الصفا

والمروة راكباً على فرس الامير الحويج المذكور ووقفنا تلك السنة يوم الاثنين فلما نزلنا مني أخذت في الراحة والاستقلال من مرضي ولما انقضي الحاج أقمت مجاوراً بمكة تلك السنة وكان بها الامير علاء الدين بن هلال مشيد (مشد) الدواوين مقيما لعمارة دار الوضوء بظاهر العطارين من باب بني شيبة وجاور في تلك السنة من المصريين جماعة من كبرائهم منهم تاج الدين بن الكويك ونور الدين القاضي وزين الدين بن الاصيل وابن الخليلي وناصر الدين الاسيوطي وسكنت تلك السنة بالمدرسة المظفرية وعافاني الله من مرضي فكنت في أنعم عيش وتفرغت للطواف والعبادة والاعتمار وأتي في أثناء تلك السنة حجاج الصعيد وقدم معهم الشيخ الصالح نجم الدين الاصفوني وهي أول حجة حجها والاخوان علاء الدين علي وسراج الدين عمر ابنا القاضي الصالح نجم الدين البالسي قاضي مصر وجماعة غيرهم في منتصف ذي القعدة وصل الامير سيف الدين يلملك وهو من الفضلاء ووصل في صحبته جماعة من أهل طنجة بلدي حرسها الله منهم الفقيه أبو عبد الله محمد ابن القاضي أبي العباس ابن القاضي الخطيب أبي القاسم الجراوي والفقيه أبو عبد الله بن عطاء الله والفقيه أبو محمد عبد الله الحضري والفقيه أبو عبد الله المرسي وأبو العباس ابن الفقيه أبي علي البلنسي وأبو محمد ابن القابلة وأبو الحسن البياري وأبو العباس بن تافوت وأبو الصبر أيوب الفخار وأحمد بن حكامة ومن أهل قصر المجاز الفقيه أبو زيد عبد الرحمن ابن القاضي أبي العباس بن خلوف ومن أهل القصر الكبير الفقيه أبو محمد بن مسلم وأبو اسحق ابراهيم بن يحيي وولده ووصل في تلك السنة الامير سيف الدين تقزدمور من الخاصكية والامير موسى بن قرمان والقاضي فخر الدين ناظر الجيش كاتب المماليك والتاج أبو اسحق والست حدق مربية الملك الناصر وكانت لهم صدقات عميمة بالحرم الشريف وأكثرهم صدقة القاضي فخر الدين وكانت وقفتنا في تلك السنة في يوم الجمعة من عام ثمان وعشرين ولما انقضي الحج أقمت مجاوراً بمكة حرسها الله سنة تسع وعشرين وفي هذه السنة وصل أحمد ابن الامير رميثة ومبارك ابن الامير عطيفة من العراق صحبة الامير محمد الحويج والشيخ زاده الحرباوي والشيخ دانيال وأتوا بصدقات عظيمة للمجاورين

وأهل مكة من قبل السلطان أبي سعيد ملك العراق وفى تلك السنة ذكر اسمه في الخطبة بعد ذكر الملك الناصر ودعوا له بأعلى قبة زمزم وذكروا بعده سلطان اليمن الملك المجاهد نور الدين ولم يوافق الامير عطيفة على ذلك وبعث شقيقه منصوراً ليعلم الملك الناصر بذلك فأمر رميثة برده فرد فبعثه ثانية على طريق جدة حتى أعلم الملك الناصر بذلك ووقفنا تلك السنة وهي سنة تسع وعشرين يوم الثلاثاء ولما انقضى الحج اقمت مجاوراً بمكة حرسها الله سنة ثلاثين وفي موسمها وقعت الفتنة بين أمير مكة عطيفة وبين ايدمور أمير جندار الناصري وسبب ذلك ان تجاراً من أهل اليمن سرقوا فشكوا الى يدمور بذلك فقال ايدمور لمبارك بن الامير عطيفة ائت بهؤلاء السراق فقال لا أعرفهم فكيف نأتي بهم وبعد فأهل اليمن تحت حكمنا ولا حكم عليهم لك ان سرق لاهل مصر والشام شيء فاطلبني به فشتمه ايدمور وقال له يا قواد تقول لي هكذا وضربه على صدره فسقط ووقعت عمامته عن رأسه وغضب له عبيده وركب ايدمور يريد عسكره فلحقه مبارك وعبيده فقتلوه وقتلوا ولده ووقعت الفتنة بالحرم وكان به الأمير أحمد ابن عم الملك الناصر ورمى الترك بالنشاب فقتلوا امرأة قيل انها كانت تحرض أهل مكة على القتال وركب من الركب من الاتراك وأميرهم خاص ترك فخرج اليهم القاضي والائمة والمجاورون وفوق رؤسهم المصاحف وحاولوا الصلح ودخل الحجاج مكة وأخذوا مالهم بها وانصرفوا الى مصر وبلغ الخبر الى الملك الناصر فشق عليه وبعث العساكر الى مكة ففر الامير عطيفة وابنه مبارك وخرج أخوه رميثة واولاده الى وادي نخلة فلما وصل العسكر الى مكة بعث الامير رميثة أحد اولاده يطلب له الامان ولولده فأمنوا وأتى رميثة وكفنه في يده الى الامير فخلع عليه وسلمت اليه مكة وعاد العسكر الى مصر وكان الملك الناصر رحمه الله حليماً فاضلا ثم خرجت فى تلك الايام من مكة شرفها الله تعالى قاصداً بلاد اليمن فوصلت الى حدة (بالحاء المهمل المفتوح) وهي نصف الطريق ما بين مكة وجدة (بالجيم المضموم) ثم وصلت الى جدة وهي بلدة قديمة على ساحل البحر يقال انها من عمارة الفرس وبخارجها مصانع قديمة وبها جباب للماء منقورة فى الحجر الصلد يتصل

بعضها ببعض تقوت الاحساء كثيرة وكانت هذه السنة قليلة المطر وكان الماء يجلب الى جدة على مسيرة يوم وكان الحجاج يسألون الماء من أصحاب البيوت ﴿حكاية﴾
ومن غريب ما اتفق لي بجدة انه وقف على بابي سائل أعمى يطلب الماء يقوده غلام فسلم علي وسماني باسمي واخذ بيدي ولم أكن عرفته قط ولا عرفني فعجبت من شأنه ثم أمسك اصبعي بيده وقال اين الفتخة وهي الخاتم وكنت حين خروجي من مكة قد لقيني بعض الفقراء وسألني ولم يكن عندي في ذلك الحين شيء فدفعت له خاتمي فلما سألني عنه هذا الاعمى قلت له اعطيته لفقير فقال ارجع في طلبه فان فيه أسماء مكتوبة فيها سر من الاسرار فطال تعجبي منه ومن معرفته بذلك كله والله أعلم بحاله وبجدة جامع يعرف بجامع الابنوس معروف البركة يستجاب فيه الدعاء وكان الامير بها ابا يعقوب بن عبد الرزاق وقاضيها وخطيبها الفقيه عبد الله من أهل مكة شافعي المذهب واذا كان يوم الجمعة واجتمع الناس للصلاة أتى المؤذن وعد أهل جدة المقيمين بها فان كملوا أربعين خطب وصلى بهم الجمعة وان لم يبلغ عددهم أربعين صلى ظهرا أربعا ولا يعتبر من ليس من أهلها وان كانوا عددا كثيرا ثم ركبنا البحر من جدة في مركب يسمونه الجلبة وكان لرشيد الدين الالفي اليمني الحبشي الاصل وركب الشريف منصور بن أبي نمي في جلبة أخرى ورغب مني أن اكون معه فلم أفعل لكونه كان معه في جلبته الجمال فخفت من ذلك ولم أكن ركبت البحر قبلها وكان هنالك جملة من أهل اليمن قد جعلوا أزوادهم وأمتعتهم في الجلاب وهم متأهبون للسفر ﴿حكاية﴾
ولما ركبنا البحر أمر الشريف منصور أحد غلمانه أن يأتيه بعديلة دقيق وهي نصف حمل وبطة سمن يأخذهما من جلاب أهل اليمن فأخذهما وأتى بهما اليه فأتاني التجار باكين وذكروا لي ان في جوف تلك العديلة عشرة آلاف درهم نقرة ورغبوا مني أن أكلمه في ردها وان يأخذ سواها فأتيته وكلمته في ذلك وقلت له ان للتجار في جوف هذه العديلة شيئاً فقال ان كان سكرا فلا أرده اليهم وان كان سوى ذلك فهو لهم ففتحوها فوجدوا الدراهم فردها عليهم وقال لي لو كان عجلان ما ردها وعجلان هو ابن أخيه رميثة

وكان قد دخل في تلك الايام دار تاجر من أهل دمشق قاصد اليمن فذهب بمعظم ما كان
فيها وعجلان هو أمير مكة على هذا العهد وقد صلح حاله وأظهر العدل والفضل ثم سافرنا
في هذا البحر بالريح الطيبة يومين وتغيرت الريح بعد ذلك وصدتنا عن السبيل التي
قصدناها ودخلت أمواج البحر معنا في المركب واشتد الميد بالناس ولم نزل في أهوال حتى
خرجنا في مرسى يعرف برأس دوائر فيما بين عيذاب وسواكن فنزلنا به ووجدنا بساحله
عريش قصب على هيئة مسجد وفيه كثير من قشر بيض النعام مملوء ماء فشربنا منه
وطبخنا ورأيت بذلك المرسى عجبا وهو خور مثل الوادي يخرج من البحر فكان الناس
يأخذون الثوب ويمسكون بأطرافه ويخرجون به مملوءاً سمكا كل سمكة منها قدر
الذراع ويعرفونه بالبوري فطبخ منه الناس كثيرا واشتروا وقصدتنا طائفة من
البجاة وهم سكان تلك الارض سود الالوان لباسهم الملاحف الصفر ويشدون على
رؤوسهم عصائب حمرا في عرض الاصبع وهم أهل نجدة وشجاعة وسلاحهم الرماح
والسيوف ولهم جمال يسمونها الصهب يركبونها بالسروج فاكترينا منهم الجمال وسافرنا
معهم في برية كثيرة الغزلان والبجاة لا يأكلونها فهي تأنس بالآدمي ولا تنفر منه وبعد
يومين من مسيرنا وصلنا الى حي من العرب يعرفون بأولاد كاهل مختلطين بالبجاة عارفين
بلسانهم وفي ذلك اليوم وصلنا الى جزيرة سواكن وهي على نحو ستة أميال من البر ولا ماء
بها ولا زرع ولا شجر والماء يجلب اليها في القوارب وفيها صهاريج يجتمع بها ماء المطر
وهي جزيرة كبيرة وبها لحوم النعام والغزلان وحمر الوحش والمعزى عندهم كثير
والالبان والسمن ومنها يجلب الى مكة وحبوبهم الجرجور وهو نوع من الذرة كبير الحب
يجلب منها أيضاً الي مكة

﴿ ذكر سلطانها ﴾

وكان سلطان جزيرة سواكن حين وصولي اليها الشريف زيد بن أبي نمي وابوه أمير مكة
وأخواه أميراها بعده وهما عطيفة ورميثة اللذين تقدم ذكرهما وصارت اليه من قبل البجاة
فانهم اخواله ومعه عسكر من البجاة وأولاده كاهل وعرب جهينة وركبنا البحر من جزيرة
سواكن نريد أرض اليمن وهذا البحر لا يسافر فيه بالليل لكثرة أحجاره وانما يسافرون

فيه من طلوع الشمس الى غروبها ويرسون وينزلون الى البر فاذا كان الصباح صعدوا الى المركب ، وهم يسمون رئيس المركب الربان ولا يزال أبدا في مقدم المركب ينبه صاحب السكان على الاحجار وهم يسمونها النبات وبعد ستة أيام من خروجنا عن جزيرة سواكن وصلنا الى مدينة حلى (وضبط اسمها بفتح الحاء المهمل وكسر اللام وتخفيفها) وتعرف باسم ابن يعقوب وكان من سلاطين اليمن ساكنا بها قديما وهي كبيرة حسنة العمارة يسكنها طائفتان من العرب وهم بنو حرام وبنو كنانة وجامع هذه المدينة من أحسن الجوامع وفيه جماعة من الفقراء المنقطعين الى العبادة منهم الشيخ الصالح العابد الزاهد قبوله الهندي من كبار الصالحين لباسه مرقعة وقلنسوة لبد وله خلوة متصلة بالمسجد فرشها الرمل لا حصير بها ولا بساط ولم أر بها حين لقائي له شيئا الا ابريق الوضوء وسفرة من خوص النخيل فيها كسر شعير يابسة وصحيفة فيها ملح وصعتر فاذا جاءه أحد قدم بين يديه ذلك ويسمع به أصحابه فيأتي كل واحد منهم بما حضر من غير تكلف شيء واذا صلوا العصر اجتمعوا للذكر بين يدي الشيخ الى صلاة المغرب واذا صلوا المغرب اخذ كل واحد منهم موقفه للتنفل فلا يزالون كذلك الى صلاة العشاء الآخرة فاذا صلوا العشاء الآخرة أقاموا على الذكر الى ثلث الليل ثم انصرفوا ويعودون في أول الثلث الثالث الى المسجد فيتهجدون الى الصبح ثم يذكرون الى ان تحين صلاة الاشراق فينصرفون بعد صلاتها ومنهم من يقيم الى أن يصلى صلاة الضحى بالمسجد وهذا دأبهم ولقد كنت أردت الاقامة معهم باقي عمري فلم أوفق لذلك والله تعالى يتداركنا بلطفه وتوفيقه

﴿ ذكر سلطان حلى ﴾

وسلطانها عامر بن ذويب من بني كنانة وهو من الفضلاء الادباء الشعراء صحبته من مكة الى جدة وكان قد حج في سنة ثلاثين ولما قدمت مدينته أنزلني وأكرمني وأقمت في ضيافته أياما وركبت البحر في مركب له فوصلت الى بلدة السرجة (وضبط اسمها بفتح السين المهمل واسكان الراء وفتح الجيم) بلدة صغيرة يسكنها جماعة من أولاد الهبي وهم طائفة

من تجار اليمن أكثرهم ساكنون بصعداء ولهم فضل وكرم واطعام لابناء السبيل ويعينون الحجاج ويركبونهم في مراكبهم ويزودونهم من أموالهم وقد عرفوا بذلك واشتهروا به وكثر الله أموالهم وزادهم من فضله وأعانهم على فعل الخير وليس بالارض من يماثلهم في ذلك الا الشيخ بدر الدين النقاس الساكن ببلدة القحمة فله مثل ذلك من المآثر والايثار وأقنا بالمرجة ليلة واحدة في ضيافة المذكورين ثم رحلنا الى مرسى الحادث ولم ننزل به ثم الي مرسى الابواب ثم الي مدينة زبيد مدينة عظيمة باليمن بينها وبين صنعاء أربعون فرسخا وليس باليمن بعد صنعاء أكبر منها ولا أغنى من أهلها واسعة البساتين كثيرة المياه والفواكه من الموز وغيره وهي برية لا شطية احدى قواعد بلاد اليمن (وهي بفتح الزاي وكسر الباء الموحدة) مدينة كبيرة كثيرة العمارة بها النخل والبساتين والمياه أملح بلاد اليمن وأجملها ولأهلها الطافة الشمائل وحسن الاخلاق وجمال الصور ولنسائها الحسن الفائق الفائت وهي وادي الخصيب الذي يذكر في بعض الآثار ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ في وصيته يا معاذ اذا جئت وادي الخصيب فهرول ولاهل هذه المدينة سبوت النخل المشهورة وذلك انهم يخرجون في أيام البسر والرطب في كل سبت الى حدائق النخل ولا يبقى بالمدينة أحد من أهلها ولا من الغرباء ويخرج أهل الطرب وأهل الاسواق لبيع الفواكه والحلاوات وتخرج النساء ممتطيات الجمال في المحامل ولهن مع ما ذكرناه من الجمال الفائت الاخلاق الحسنة والمكارم وللغريب عندهن مزية ولا يمتنعن من تزوجه كما يفعله نساء بلادنا فاذا أراد السفر خرجت معه وودعته وان كان بينهما ولد فهي تكفله وتقوم بما يجب له الي أن يرجع أبوه ولا تطالبه في أيام الغيبة بنفقة ولا كسوة ولا سواها واذا كان مقيما فهي تقنع منه بقليل النفقة والكسوة لكنهن لا يخرجن عن بلادهن أبدا ولو أعطيت احداهن ماعسى ان تعطاه على أن تخرج من بلدها لم تفعل وعلماء تلك البلاد وفقهاؤها أهل صلاح ودين وأمانة ومكارم وحسن خلق لقيت بمدينة زبيد الشيخ العالم الصالح أبا محمد الصنعاني والفقيه الصوفي المحقق أبا العباس الابياني والفقيه المحدث أبا علي الزبيدي ونزلت في جوارهم فأكرموني وأضافوني ودخلت حدائقهم

واجتمعت عند بعضهم بالفقيه القاضي العالم أبي زيد عبد الرحمن الصوفي أحد فضلاء اليمن ووقع عنده ذكر العابد الزاهد الخاشع أحمد بن العجيل اليمني وكان من كبار الرجال وأهل الكرامات

﴿ كرامة ﴾

ذكروا ان فقهاء الزيدية وكبراءهم أتوا مرة الى زيارة الشيخ أحمد بن العجيل فجلس لهم خارج الزاوية واستقبلهم أصحابه ولم يبرح الشيخ عن موضعه فسلموا عليه وصافحهم ورحب بهم ووقع بينهم الكلام في مسئلة القدر وكانوا يقولون ان لا قدر وان المكلف يخلق أفعاله فقال لهم الشيخ فان كان الامر على ما تقولون فقوموا على مكانكم هذا فأرادوا القيام فلم يستطيعوا وتركهم الشيخ على حالهم ودخل الزاوية وأقاموا كذلك واشتد بهم الحر ولحقهم وهج الشمس وضجوا مما نزل بهم فدخل أصحاب الشيخ اليه وقالوا له ان هؤلاء القوم قد تابوا الى الله ورجعوا عن مذهبهم الفاسد فخرج اليهم الشيخ فأخذ بأيديهم وعاهدهم على الرجوع الى الحق وترك مذهبهم السيء وأدخلهم زاويته فأقاموا في ضيافته ثلاثا وانصرفوا الى بلادهم وخرجت لزيارة قبر هذا الرجل الصالح وهو بقرية يقال لها غسانة خارج زبيد ولقيت ولده الصالح أبا الوليد اسمعيل فاضافني وبت عنده وزرت ضريح الشيخ وأقمت معه ثلاثا وسافرت في صحبته الى زيارة الفقيه أبي الحسن الزيلعي وهو من كبار الصالحين ويقدم حجاج اليمن اذا توجهوا للحج وأهل تلك البلاد وأعرابها يعظمونه ويحترمونه فوصلنا الى جبلة وهي بلدة صغيرة حسنة ذات نخل وفواكه وأنهار فلما سمع الفقيه أبو الحسن الزيلعي بقدوم الشيخ أبي الوليد استقبله وأنزله بزاويته وسلمت عليه معه وأقمنا عنده ثلاثة أيام في خير مقام ثم انصرفنا وبعث معنا أحد الفقراء فتوجهنا الى مدينة تعز حضرة ملك اليمن (وضبط اسمها بفتح التاء المعلوة وكسر العين المهملة وزاء) وهي من أحسن مدن اليمن وأعظمها وأهلها ذوو تجبر وتكبر وفظاظة وكذلك الغالب على البلاد التي يسكنها الملوك وهي ثلاث محلات احداها يسكنها السلطان ومماليكه وحاشيته وأرباب دولته وتسمى باسم لا أذكره والثانية يسكنها الامراء والاجناد وتسمى عدينة والثالثة يسكنها عامة الناس وبها السوق العظمي وتسمى المحالب

﴿ذكر سلطان اليمن﴾

وهو السلطان المجاهد نور الدين علي ابن السلطان المؤيد هزبر الدين داود بن السلطان المظفر يوسف بن علي بن رسول شهر جده يسمى برسول لان أحد خلفاء بني العباس أرسله الى اليمن ليكون بها أميرا ثم استقل أولاده بالملك وله ترتيب عجيب في قعوده وركوبه وكنت لما وصلت هذه المدينة مع الفقير الذي بعثه الشيخ الفقيه أبو الحسن الزيلعي في صحبتي قصد بي الى قاضي القضاة الامام المحدث صفي الدين الطبري المكي فسلمنا عليه ورحب بنا وأقمنا بداره في ضيافته ثلاثا فلما كان في اليوم الرابع وهو يوم الخميس وفيه يجلس السلطان لعامة الناس دخل بي عليه فسلمت عليه وكيفية السلام عليه أن يمس الانسان الارض بسبابته ثم يرفعها الى رأسه ويقول أدام الله عزك ففعلت كمثل ما فعله القاضي وقعد القاضي عن يمين الملك وأمرني فقعدت بين يديه فسألني عن بلادي وعن مولانا أمير المسلمين جواد الاجواد أبي سعيد رضي الله عنه وعن ملك مصر وملك العراق وملك اللور فأجبته عما سأل من أحوالهم وكان وزيره بين يديه فأمره باكرامي وانزالي وترتيب قعود هذا الملك انه يجلس فوق دكانة مفروشة مزينة بثياب الحرير وعن يمينه ويساره أهل السلاح ويليه منهم أصحاب السيوف والدرق ويليهم أصحاب القسي وبين يديهم في الميمنة والميسرة الحاجب وأرباب الدولة وكاتب السر وأمير جندار على رأسه والشاوشية وهم من الجنادرة وقوف على بعد فاذا قعد السلطان صاحوا صيحة واحدة بسم الله فاذا قام فعلوا مثل ذلك فيعلم جميع من بالمشور وقت قيامه ووقت قعوده فاذا استوى قاعدا دخل كل من عادته أن يسلم عليه فسلم ووقف حيث رسم له في الميمنة أو الميسرة لا يتعدى أحد موضعه ولا يقعد الا من أمر بالقعود يقول السلطان للامير جندار مر فلانا يقعد فيتقدم ذلك المأمور بالقعود عن موقفه قليلا ويقعد على بساط هناك بين أيدي القائمين في الميمنة والميسرة ثم يؤتى بالطعام وهو طعامان طعام العامة وطعام الخاصة فأما الطعام الخاص فيأكل منه السلطان وقاضي القضاة والكبار من الشرفاء ومن الفقهاء والضيوف وأما الطعام العام فيأكل منه سائر الشرفاء والفقهاء والقضاة والمشايخ والامراء ووجوه الاجناد ومجلس كل انسان للطعام معين

لا يتعداه ولا يزاحم أحد منهم أحدا وعلى مثل هذا الترتيب سواء هو ترتيب ملك الهند في طعامه فلا أعلم ان سلاطين الهند أخذوا ذلك عن سلاطين اليمن أم سلاطين اليمن أخذوا عن سلاطين الهند وأقمت في ضيافة سلطان اليمن أياما وأحسن الي وأركبني وانصرفت مسافرا الى مدينة صنعاء وهي قاعدة بلاد اليمن الاولى مدينة كبيرة حسنة العمارة بناؤها بالآجر والجص كثيرة الاشجار والفواكه والزرع معتدلة الهواء طيبة الماء ومن الغريب أن المطر ببلاد الهند واليمن والحبشة انما ينزل في أيام القيظ وأكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم في ذلك الاوان فالمسافرون يستعجلون عند الزوال لئلا يصيبهم المطر وأهل المدينة ينصرفون الى منازلهم لان أمطارها وابلة متدفقة ومدينة صنعاء مفروشة كلها فاذا نزل المطر غسل جميع أزقتها وأنقاها وجامع صنعاء من أحسن الجوامع وفيه قبر نبي من الانبياء عليهم السلام ثم سافرت منها الى مدينة عدن مرسى بلاد اليمن على ساحل البحر الاعظم والجبال تحف بها ولا مدخل اليها الا من جانب واحد وهي مدينة كبيرة ولا زرع بها ولا شجر ولا ماء وبها صهاريج يجتمع فيها الماء أيام المطر والماء على بعد منها فربما منعه العرب وحالوا بين أهل المدينة وبينه حتى يصانعوهم بالمال والثياب وهي شديدة الحر وهي مرسى أهل الهند تأتي اليها المراكب العظيمة من كنبايت وتانه وكولم وقالقوط وفندراينه والشاليات ومنجرور وفاكنور وهنور وسندابور وغيرها وتجار الهند ساكنون بها وتجار مصر أيضا وأهل عدن ما بين تجار وما بين حمالين وصيادين للسمك وللتجار منهم أموال عريضة وربما يكون لاحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه فيه غيره لسعة ما بين يديه من الاموال ولهم في ذلك تفاخر ومباهات

﴿حكاية﴾

ذكر لي أن بعضهم بعث غلاما له ليشتري له كبشا وبعث آخر منهم غلاما له برسم ذلك أيضا فاتفق انه لم يكن بالسوق في ذلك اليوم الا كبش واحد فوقعت المزايدة فيه بين الغلامين فانتهى ثمنه الى أربع مائة دينار فأخذه أحدهما وقال ان رأس مالي أربعمائة دينار فان أعطاني مولاي ثمنه فحسن والا دفعت فيه رأس مالي ونصرت نفسي وغلبت صاحبي وذهب بالكبش الى سيده فلما عرف سيده بالقضية أعتقه وأعطاه ألف دينار وعاد الآخر الى سيده

خائباً فضربه وأخذ ماله ونفاه عنه ونزلت في عدن عند تاجر يعرف بناصر الدين الفأري فكان يحضر طعامه كل ليلة نحو عشرين من التجار له غلمان وخدام أكثر من ذلك ومع هذا كله فهم أهل دين وتواضع وصلاح ومكارم أخلاق يحسنون الى الغريب ويؤثرون على الفقير ويعطون حق الله من الزكاة على ما يجب ولقيت بهذه المدينة قاضيها الصالح سالم ابن عبد الله الهندي وكان والده من العبيد الحمالين واشتغل ابنه بالعلم فرأس وساد وهو من خيار القضاة وفضلائهم أقمت في ضيافته أياما وسافرت من مدينة عدن في البحر أربعة أيام ووصلت الى مدينة زيلع وهي مدينة البربرة وهم طائفة من السودان شافعية المذهب وبلادهم صحراء مسيرة شهرين أولها زيلع وآخرها مقدشو ومواشيهم الجمال ولهم أغنام مشهورة السمن وأهل زيلع سود الالوان وأكثرهم رافضة وهي مدينة كبيرة لها سوق عظيمة الا انها أقذر مدينة في المعمور وأوحشها وأكثرها نتنا وسبب نتنها كثرة سمكها ودماء الابل التي يحرونها في الازقة ولما وصلنا اليها اخترنا المبيت بالبحر على شدة هوله ولم نبت بها لقذرها ثم سافرنا منها في البحر خمس عشرة ليلة ووصلنا مقدشو (وضبط اسمها بفتح الميم واسكان القاف وفتح الدال المهمل والشين المعجم واسكان الواو) وهي مدينة متناهية في الكبر وأهلها لهم جمال كثيرة ينحرون منها المئين في كل يوم ولهم أغنام كثيرة وأهلها تجار أقوياء وبها تصنع الثياب المنسوبة اليها التي لا نظير لها ومنها تحمل الى ديار مصر وغيرها ومن عادة أهل هذه المدينة انه متى وصل مركب الى المرسى تصعد الصنابق وهي القوارب الصغار اليه ويكون في كل صنبوق جماعة من شبان أهلها فيأتي كل واحد منهم بطبق مغطى فيه الطعام فيقدمه لتاجر من تجار المركب ويقول هذا نزيلي وكذلك يفعل كل واحد منهم ولا ينزل التاجر من المركب الا الى دار نزيله من هؤلاء الشبان الا من كان كثير التردد الى البلد وحصلت له معرفة اهله فانه ينزل حيث شاء فاذا نزل عند نزيله باع له ما عنده واشترى له ومن اشترى منه بخس أو باع منه بغير حضور نزيله فذلك البيع مردود عندهم ولهم منفعة في ذلك ولما صعد الشبان الى المركب الذي كنت فيه جاء الى بعضهم فقال له أصحابي ليس هذا بتاجر وانما هو فقيه فصاح باصحابه وقال لهم هذا نزيل القاضي وكان فيها

أحد أصحاب القاضي فعرفه بذلك فأتى الى ساحل البحر في جملة من الطلبة وبعث الى أحدهم فنزلت أنا وأصحابي وسلمت على القاضي وأصحابه وقال لي باسم الله نتوجه للسلام على الشيخ فقلت ومن الشيخ فقال السلطان وعادتهم ان يقولوا للسلطان الشيخ فقلت له اذا نزلت توجهت اليه فقال لي ان العادة اذا جاء الفقيه أو الشريف أو الرجل الصالح لا ينزل حتى يرى السلطان فذهبت معهم اليه كما طلبوا

﴿ذكر سلطان مقدشو﴾

وسلطان مقدشو كما ذكرناه انما يقولون له الشيخ واسمه أبو بكر بن الشيخ عمر وهو في الاصل من البربرة وكلامه بالمقدشي ويعرف اللسان العربي ومن عوائده انه متى وصل مركب يصعد اليه صنبوق السلطان فيسأل عن المركب من أين قدم ومن صاحبه ومن ربانه وهو الرئيس وما وسقه ومن قدم فيه من التجار وغيرهم فيعرف بذلك كله ويعرض على السلطان فمن استحق ان ينزله عنده انزله ولما وصلت مع القاضي المذكور وهو يعرف بابن البرهان المصري الاصل الى دار السلطان خرج بعض الفتيان فسلم على القاضي فقال له بلغ الامانة وعرف مولانا الشيخ ان هذا الرجل قد وصل من أرض الحجاز فبلغ ثم عاد وأتى بطبق فيه أوراق التنبول والفوفل فأعطاني عشرة أوراق مع قليل من الفوفل وأعطى للقاضي كذلك وأعطى لأصحابي ولطلبة القاضي ما بقي في الطبق وجاء بقمقم من ماء الورد الدمشقي فسكب علي وعلى القاضي وقال ان مولانا أمر أن ينزل بدار الطلبة وهي دار معدة لضيافة الطلبة فأخذ القاضي بيدي وجئنا الى تلك الدار وهي بمقربة من دار الشيخ مفروشة مرتبة بما يحتاج اليه ثم أتى بالطعام من دار الشيخ ومعه أحد وزرائه وهو الموكل بالضيوف فقال مولانا يسلم عليكم ويقول لكم قدمتم خير مقدم ثم وضع الطعام فأكلنا وطعامهم الأرز المطبوخ بالسمن يجعلونه في صحفة خشب كبيرة ويجعلون فوقه صحاف الكوشان وهو الادام من الدجاج واللحم والحوت والبقول ويطبخون الموز قبل نضجه في اللبن الحليب ويجعلونه في صحفة ويجعلون اللبن المريب في صحفة ويجعلون عليه الليمون المصير وعناقيد الفلفل المصير المخلل والمملوح والزنجبيل الأخضر والعنبا وهي مثل

التفاح ولكن لها نواة وهي اذا نضجت شديدة الحلاوة وتؤكل كالفاكهة وقبل نضجها حامضة كالليمون يصبرونها في الخل وهم اذا أكلوا القمة من الأرز أكلوا بعدها من هذه الموالح والمخالات والواحد من أهل مقدشو يأكل قدر ما تأكله الجماعة منا عادتهم وهم في نهاية من ضخامة الجسوم وسمنها ثم لما طعمنا انصرف عنا القاضي وأقمنا ثلاثة أيام يؤتى الينا بالطعام ثلاث مرات في اليوم وتلك عادتهم فلما كان في اليوم الرابع وهو يوم الجمعة جاءني القاضي والطلبة وأحد وزراء الشيخ وأتوني بكسوة وكسوتهم فوطة خز يشدها الانسان في وسطه عوض السراويل فانهم لا يعرفونها ودراعة من المقطع المصري معلمة وفرجية من القدسي مبطنة وعمامة مصرية معلمة وأتوا لاصحابي بكسى تناسبهم وأتينا الجامع فصلينا خلف المقصورة فلما خرج الشيخ من باب المقصورة سلمت عليه مع القاضي فرحب وتكلم بلسانهم مع القاضي ثم قال باللسان العربي قدمت خير مقدم وشرفت بلادنا وآنستنا وخرج الى صحن المسجد فوقف على قبر والده وهو مدفون هنالك فقرأ ودعا ثم جاء الوزراء والأمراء ووجوه الأجناد فسلموا وعادتهم في السلام كعادة أهل اليمن يضع سبابته في الارض ثم يجعلها على رأسه ويقول أدام الله عزك ثم خرج الشيخ من باب المسجد فلبس نعليه وأمر القاضي أن ينتعل وأمرني أن أنتعل وتوجه الى منزله ماشياً وهو بالقرب من المسجد ومشي الناس كلهم حفاة ورفعت فوق رأسه أربع قباب من الحرير الملون وعلى أعلى كل قبة صورة طائر من ذهب وكان لباسه في ذلك اليوم فرجية قدسي أخضر وتحتها من ثياب مصر وطروحاتها الحسان وهو متقلد بفوطة حرير وهو معتم بعمامة كبيرة وضربت بين يديه الطبول والابواق والانفار وأمراء الاجناد امامه وخلفه والقاضي والفقهاء والشرفاء معه ودخل الى مشوره على تلك الهيئة وقعد الوزراء والامراء ووجوه الاجناد في سقيفة هنالك وفرش للقاضي بساط لا يجلس معه غيره عليه والفقهاء والشرفاء معه ولم يزالوا كذلك الى صلاة العصر فلما صلوا العصر مع الشيخ أتي جميع الاجناد ووقفوا صفوفاً على قدر مراتبهم ثم ضربت الاطبال والانفار والابواق والصرنايات وعند ضربها لا يتحرك أحد ولا يتزحزح عن مقامه ومن كان ماشياً وقف فلم يتحرك الي خلف ولا

الى امام فاذا فرغ من ضرب الطبلخانة سلموا بأصابعهم كما ذكرناه وانصرفوا وتلك عادة لهم في كل يوم جمعة واذا كان يوم السبت يأتي الناس الى باب الشيخ فيقعدون في سقائف خارج الدار ويدخل القاضي والفقهاء والشرفاء والصالحون والمشايخ والحجاج الى المشور الثاني فيقعدون على دكاكين خشب معدة لذلك ويكون القاضي على دكانة وحده وكل صنف على دكانة تخصهم لا يشاركهم فيها سواهم ثم يجلس الشيخ بمجلسه ويبعث الى القاضي فيجلس عن يساره ثم يدخل الفقهاء فيقعد كبراؤهم بين يديه وسائرهم يسلمون وينصرفون ثم يدخل الشرفاء فيقعد كبراؤهم بين يديه ويسلم سائرهم وينصرفون وان كانوا ضيوفا جلسوا عن يمينه ثم يدخل المشايخ والحجاج فيجلس كبراؤهم ويسلم سائرهم وينصرفون ثم يدخل الوزراء ثم الأمراء ثم وجوه الأجناد طائفة بعد طائفة أخرى فيسلمون وينصرفون ويؤتي بالطعام فيأكل بين يدي الشيخ القاضي والشرفاء ومن كان قاعداً بالمجلس ويأكل الشيخ معهم وان أراد تشريف أحد من كبار أمرائه بعث اليه فأكل معهم ويأكل سائر الناس بدار الطعام وأكلهم على ترتيب مثل ترتيبهم في الدخول على الشيخ ثم يدخل الشيخ الى داره ويقعد القاضي والوزراء وكاتب السر وأربعة من كبار الأمراء للفصل بين الناس وأهل الشكايات فما كان متعلقاً بالاحكام الشرعية حكم فيه القاضي وما كان من سوي ذلك حكم فيه أهل الشورى وهم الوزراء والأمراء وما كان مفتقراً الى مشاورة السلطان كتبوا اليه فيه فيخرج لهم الجواب من حينه على ظهر البطاقة بما يقتضيه نظره وتلك عادتهم دائماً ثم ركبت البحر من مدينة مقدشو متوجهاً الى بلاد السواحل قاصداً مدينة كلوا من بلاد الزنوج فوصلنا الى جزيرة منبسى (وضبط اسمها ميم مفتوح ونون مسكن وباء موحدة مفتوحة وسين مهمل مفتوح وياء) وهي جزيرة كبيرة بينها وبين أرض السواحل مسيرة يومين في البحر ولا بر لها وأشجارها الموز والليمون والاترج ولهم فاكهة يسمونها الجمون وهي شبه الزيتون ولها نوى كنواه الا أنها شديدة الحلاوة ولا زرع عند أهل هذه الجزيرة وانما يجلب اليهم من السواحل وأكثر طعامهم الموز والسمك وهم شافعية المذهب أهل دين وعفاف وصلا

ومساجدهم من الخشب محكمة الاتقان وعلى كل باب من أبواب المساجد البئر والبئران وعمق آبارهم ذراع أو ذراعان فيستقون منها الماء بقدح خشب قد غرز فيه عود رقيق في طول الذراع والارض حول البئر والمسجد مسطحة فمن أراد دخول المسجد غسل رجليه ودخل ويكون على بابه قطعة حصير غليظ يمسح بها رجليه ومن أراد الوضوء أمسك القدح بين فخذيه وصب على يديه ويتوضأ وجميع الناس يمشون حفاة الاقدام وبتنا بهذه الجزيرة ليلة وركبنا البحر الى مدينة كلوا (وضبط اسمها بضم الكاف واسكان اللام وفتح الواو) وهي مدينة عظيمة ساحلية أكثر أهلها الزنوج المستحكمو السواد ولهم شرطات في وجوههم كما هي في وجوه الليميين من جنادة وذكر لي بعض التجار أن مدينة سفالة على مسيرة نصف شهر من مدينة كلوا وان بين سفالة ويوفي من بلاد الليميين مسيرة شهر ومن يوفي يؤتى بالتبر الى سفالة ومدينة كلوا من أحسن المدن وأتقنها عمارة وكلها بالخشب وسقف بيوتها الديس والامطار بها كثيرة وهم أهل جهاد لانهم في بر واحد متصل مع كفار الزنوج والغالب عليهم الدين والصلاح وهم شافعية المذهب

﴿ ذكر سلطان كلوا ﴾

وكان سلطانها في عهد دخولي اليها أبو المظفر حسن ويكنى أيضاً أبا المواهب لكثرة مواهبه ومكارمه وكان كثير الغزو الى أرض الزنوج يغير عليهم ويأخذ الغنائم فيخرج خمسها ويصرفه في مصارفه المعينة في كتاب الله تعالى ويجعل نصيب ذوي القربى في خزانة على حدة فاذا جاءه الشرفاء دفعه اليهم وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها ورأيت عنده من شرفاء الحجاز جماعة منهم محمد بن جماز ومنصور بن لبيدة بن أبي نمي ومحمد بن شميلة بن أبي نمي ولقيت بمقدشو تبل بن كبيش بن جماز وهو يريد القدوم عليه وهذا السلطان له تواضع شديد ويجلس مع الفقراء ويأكل معهم ويعظم أهل الدين والشرف

﴿ حكاية من مكارمه ﴾

حضرته يوم جمعة وقد خرج من الصلاة قاصداً الى داره فتعرض له أحد الفقراء اليمنيين

فقال له ياأبا المواهب فقال لبيك يافقير ماحاجتك قال اعطني هذه الثياب التي عليك فقال له نعم أعطيكها قال الساعة قال نعم الساعة فرجع الى المسجد ودخل بيت الخطيب فلبس ثيابا سواها وخلع تلك الثياب وقال للفقير ادخل فخذها فدخل الفقير وأخذها وربطها في منديل وجعلها فوق رأسه وانصرف فعظم شكر الناس للسلطان على ماظهر من تواضعه وكرمه وأخذ ابنه ولي عهده تلك الكسوة من الفقير وعوضه عنها بعشرة من العبيد وبلغ السلطان ما كان من شكر الناس له على ذلك فامر للفقير أيضا بعشرة رؤس من الرقيق وحملين من العاج ومعظم عطاياهم العاج وقلما يعطون الذهب ولما توفى هذا السلطان الفاضل الكريم رحمة الله عليه ولى أخوه داود فكان على الضد من ذلك اذا أتاه سائل يقول له مات الذي كان يعطي ولم يترك من بعده مايعطى ويقيم الوفود عنده الشهور الكثيرة وحينئذ يعطيهم القليل حتى انقطع الوافدون عن بابه وركبنا البحر من كلوا الى مدينة ظفار الحموض (وضبط اسمها بفتح الظاء المعجم والفاء وآخره راء مبنية على الكسر) وهي آخر بلاد اليمن على ساحل البحر الهندي ومنها تحمل الخيل العتاق الى الهند ويقطع البحر فيما بينها وبين بلاد الهند مع مساعدة الريح في شهر كامل وقد قطعته مرة من قالقوط من بلاد الهند الى ظفار في ثمانية وعشرين يوما بالريح الطيبة لم ينقطع لنا جري بالليل ولا بالنهار وبين ظفار وعدن في البر مسيرة شهر في صحراء وبينها وبين حضرموت ستة عشر يوما وبينها وبين عمان عشرون يوما ومدينة ظفار في صحراء منقطعة لا قرية بها ولا عمالة لها والسوق خارج المدينة بربض يعرف بالحرجاء وهي من أقذر الاسواق وأشدها نتنا وأكثرها ذبابا لكثرة مايباع بها من الثمرات والسمك وأكثر سمكها النوع المعروف بالسردين وهو بها في النهاية من السمن ومن العجائب ان دوابهم انما علفها من هذا السردين وكذلك غنمهم ولم أر ذلك في سواها وأكثر باعتها الخدم وهن يلبسن السواد وزرع أهلها الذرة وهم يسقونها من آبار بعيدة الماء وكيفية سقيهم انهم يصنعون دلوا كبيرة ويجعلون لها حبالا كثيرة ويحزم بكل حبل عبدا أو خادم ويجرون الدلو على عود كبير مرتفع عن البئر ويصبونها في صهريج يسقون منه ولهم قمح يسمونه العلس وهو في الحقيقة نوع من السلت

والارز يجلب اليهم من بلاد الهند وهو أكثر طعامهم ودراهم هذه المدينة من النحاس والقصدير ولا تنفق في سواها وهم أهل تجارة لا عيش لهم الا منها ومن عادتهم انه اذا وصل مركب من بلاد الهند أو غيرها خرج عبيد السلطان الى الساحل وصعدوا في صنبوق الى المركب ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب أو وكيله وللربان وهو الرئيس وللكراني وهو كاتب المركب ويؤتي اليهم بثلاثة أفراس فيركبونها وتضرب امامهم الاطبال والابواق من ساحل البحر الي دار السلطان فيسلمون على الوزير وأمير جندار وتبعث الضيافة لكل من بالمركب ثلاثا وبعد الثلاث يأكلون بدار السلطان وهم يفعلون ذلك استجلابا لاصحاب المراكب وهم أهل تواضع وحسن أخلاق وفضيلة ومحبة للغرباء ولباسهم القطن وهو يجلب اليهم من بلاد الهند ويشدون الفوط في أوساطهم عوض السروال وأكثرهم يشد فوطة في وسطه ويجعل فوق ظهره أخري من شدة الحر ويغتسلون مرات في اليوم وهي كثيرة المساجد ولهم في كل مسجد مطاهر كثيرة معدة للاغتسال ويصنع بها ثياب من الحرير والقطن والكتان حسان جدا والغالب على أهلها رجالا ونساء المرض المعروف بداء الفيل وهو انتفاخ القدمين وأكثر رجالهم مبتلون بالادر والعياذ بالله ومن عوائدهم الحسنة التصافح في المسجد اثر صلاة الصبح والعصر يستند أهل الصف الاول الي القبلة ويصافحهم الذين يلونهم وكذلك يفعلون بعد صلاة الجمعة يتصافحون أجمعون ومن خواص هذه المدينة وعجائبها انه لا يقصدها أحد بسوء الا عاد عليه مكره وحيل بينه وبينها وذكر لي أن السلطان قطب الدين تمهتن بن طوران شاه صاحب هرمز نازلها مرة في البر والبحر فأرسل الله سبحانه عليه ريحا عاصفا كسرت مراكبه ورجع عن حصارها وصالح ملكها وكذلك ذكر لي ان الملك المجاهد سلطان اليمن عين ابن عم له بعسكر كبير برسم انتزاعها من يد ملكها وهو أيضا ابن عمه فلما خرج ذلك الامير عن داره سقط عليه حائط وعلى جماعة من أصحابه فهلكوا جميعا ورجع الملك عن رأيه وترك حصارها وطلبها ومن الغرائب ان أهل هذه المدينة أشبه الناس بأهل المغرب في شؤنهم نزلت بدار الخطيب بمسجدها الاعظم وهو عمر بن علي كنيته

القدر كريم النفس فكان له جوار مسميات بأسماء خدم المغرب احداهن اسمها بخيته والاخرى زاد المال ولم أسمع هذه الاسماء في بلد سواها واكثر اهلها رؤسهم مكشوفة لا يجعلون عليها العمائم وفي كل دار من دورهم سجادة الخوص معلقة في البيت يصلي عليها صاحب البيت كما يفعل أهل المغرب واكلهم الذرة وهذا التشابه كله مما يقوي القول بان صنهاجة وسواهم من قبائل المغرب أصلهم من حمير ويقرب من هذه المدينة بين بساتينها زاوية الشيخ الصالح العابد أبي محمد بن أبي بكر بن عيسى من أهل ظفار وهذه الزاوية معظمة عندهم يأتون اليها غدوا وعشيا ويستجيرون بها فاذا دخلها المستجير لم يقدر السلطان عليه ورأيت بها شخصا ذكر لي ان له بها مدة سنين مستجيرا لم يتعرض له السلطان وفي الايام التي كنت بها استجار بها كاتب السلطان وأقام فيها حتى وقع بينهما الصلح أتيت هذه الزاوية فبت بها في ضيافة الشيخين أبي العباس أحمد وأبي عبد الله محمد ابني الشيخ أبي بكر المذكور وشاهدت لهما فضلا عظيما ولما غسلنا أيدينا من الطعام أخذ أبو العباس منهما ذلك الماء الذي غسلنا به فشرب منه وبعث الخادم بباقيه الى أهله وأولاده فشربوه وكذلك يفعلون بمن يتوسمون فيه الخير من الواردين عليهم وكذلك أضافني قاضيها الصالح أبو هاشم عبد الملك الزبيدي وكان يتولى خدمتي وغسل يدي بنفسه ولا يكل ذلك الى غيره وبمقربة من هذه الزاوية تربة سلف السلطان الملك المغيث وهي معظمة عندهم ويستجير بها من طلب حاجة تقضى له ومن عادة الجند انه اذا تم الشهر ولم يأخذوا أرزاقهم استجاروا بهذه التربة وأقاموا في جوارها الى أن يعطوا أرزاقهم وعلى مسيرة نصف يوم من هذه المدينة الاحقاف هي منازل عاد وهنالك زاوية ومسجد على ساحل البحر وحوله قرية لصيادي السمك وفي الزاوية قبر مكتوب عليه هذا قبر هود بن عابر عليه أفضل الصلاة والسلام وقد ذكرت ان بمسجد دمشق موضعا عليه مكتوب هذا قبر هود بن عابر والاشبه أن يكون قبره بالاحقاف لانها بلاده والله أعلم ولهذه المدينة بساتين فيها موز كثير كبير الجرم وزنت بمحضري حبة منه فكان وزنها اثنتي عشرة أوقية وهو طيب المطعم شديد الحلاوة وبها أيضا التنبول والنارجيل المعروف بجوز الهند ولا يكونان الا

ببلاد الهند وبمدينة ظفار هذه نشبهها بالهند وقربها منها اللهم الا أن في مدينة زبيد في بستان السلطان شجيرات من النارجيل واذ قد وقع ذكر التنبول والنارجيل فلنذكرهما ولنذكر خصائصهما

﴿ ذكر التنبول ﴾

والتنبول شجر يغرس كما تغرس دوالي العنب ويصنع له معرشات من القصب كما يصنع لدوالي العنب أو يغرس في مجاورة شجر النارجيل فيصعد فيها كما تصعد الدوالي وكما يصعد الفلفل ولا ثمر للتنبول وانما المقصود منه ورقه وهو يشبه ورق العليق وأطيبه الأصفر وتجتنى أوراقه في كل يوم وأهل الهند يعظمون التنبول تعظيما شديداً واذا أتى الرجل دار صاحبه فأعطاه خمس ورقات منه فكأنما أعطاه الدنيا وما فيها لا سيما ان كان أميراً أو كبيراً واعطاؤه عندهم أعظم شأناً وأدل على الكرامة من اعطاء الفضة والذهب وكيفية استعماله أن يؤخذ قبله الفوفل وهو شبه جوز الطيب فيكسر حتى يصير أطرافاً صغاراً ويجعله الانسان في فمه ويعلكه ثم يأخذ ورق التنبول فيجعل عليها شيئاً من نورة ويمضغها مع الفوفل وخاصيته انه يطيب النكهة ويذهب بروائح الفم ويهضم الطعام ويقطع ضرر شرب الماء على الريق ويفرح آكله ويعين على الجماع ويجعله الانسان عند رأسه ليلا فاذا استيقظ من نومه أو أيقظته زوجته أو جاريته أخذ منه فيذهب بما في فمه من رائحة كريهة ولقد ذكر لي ان جواري السلطان والامراء ببلاد الهند لا يأكلن غيره وسنذكره عند ذكر بلاد الهند

﴿ ذكر النارجيل ﴾

وهو جوز الهند وهذا الشجر من أغرب الأشجار شأناً وأعجبها أمراً وشجره شبه شجر النخل لا فرق بينهما الا أن هذه تثمر جوزاً وتلك تثمر تمراً وجوزها يشبه رأس ابن آدم لان فيها شبه العينين والفم وداخلها شبه الدماغ اذا كانت خضراء وعليها ليف شبه الشعر وهم يصنعون منه حبالا يخيطون بها المراكب عوضاً من مسامير الحديد ويصنعون منه الحبال للمراكب والجوزة منها وخصوصاً التي بجزائر ذيبة المهل تكون بمقدار رأس الآدمي ويزعمون ان حكيما من حكماء الهند في غابر الزمان كان متصلا بملك من الملوك

ومعظما لديه وكان للملك وزير بينه وبين هذا الحكيم معاداة فقال الحكيم للملك ان رأس
هذا الوزير اذا قطع ودفن تخرج منه نخلة تثمر بثمر عظيم يعود نفعه على أهل الهند وسواهم
من أهل الدنيا فقال له الملك فان لم يظهر من رأس الوزير ما ذكرته قال ان لم يظهر فاصنع
برأسي كما صنعت برأسه فأمر الملك برأس الوزير فقطع وأخذه الحكيم وغرس نواة تمر في
دماغه وعالجها حتى صارت شجرة وأثمرت بهذا الجوز وهذه الحكاية من الأكاذيب ولكن
ذكرناها لشهرتها عندهم ومن خواص هذا الجوز تقوية البدن واسراع السمن والزيادة
في حمرة الوجه واما الاعانة على الباءة ففعله فيها عجيب ومن عجائبه انه يكون في ابتداء أمره
أخضر فمن قطع بالسكين قطعة من قشره وفتح رأس الجوزة شرب منها ماء في النهاية من
الحلاوة والبرودة ومزاجه حار معين على الباءة فاذا شرب ذلك الماء أخذ قطعة القشرة
وجعلها شبه الملعقة وجرد بها ما في داخل الجوزة من الطعم فيكون طعمه كطعم البيضة
اذا شويت ولم يتم نضجها كل التمام ويتغذى به ومنه كان غذائي أيام اقامتي بجزائر ذيبة
المهل مدة من عام ونصف عام ومن عجائبه انه يصنع منه الزيت والحليب والعسل فأما كيفية
صناعة العسل منه فان خدام النخل منه ويسمون الفازانية يصعدون الى النخلة غدواً
وعشيا اذا أرادوا أخذ مائها الذي يصنعون منه العسل وهم يسمونه الاطواق فيقطعون
العذق الذي يخرج منه الثمر ويتركون منه مقدار اصبعين ويربطون عليه قدراً صغيرة
فيقطر فيها الماء الذي يسيل من العذق فاذا ربطها غدوة وصعد اليها عشيا ومعه قدحان
من قشر الجوز المذكور أحدهما مملوء ماء فيصب ما اجتمع من ماء العذق في أحد القدحين
ويغسله بالماء الذي في القدح الآخر ويجرد من العذق قليلا ويربط عليه القدر ثانية ثم
يفعل غدوة كفعله عشيا فاذا اجتمع له الكثير من ذلك الماء طبخه كما يطبخ ماء العنب اذا
صنع منه الرب فيصير عسلا عظيم النفع طيبا فيشتريه تجار الهند واليمن والصين ويحملونه الي
بلادهم ويصنعون منه الحلواء وأما كيفية صنع الحليب منه فان بكل دار شبه الكرسي تجلس
فوقه المرأة ويكون بيدها عصى في أحد طرفيها حديدة مشرفة فيفتحون في الجوزة مقدار
ما تدخل تلك الحديدة ويجرشون ما في باطن الجوزة وكل ما ينزل منها يجتمع في صحفة حتى

لا يبقى في داخل الجوزة شيء ثم يمرس ذلك الجريش بالماء فيصير كلون الحليب بياضا ويكون طعمه كطعم الحليب ويأتدم به الناس وأما كيفية صنع الزيت فانهم يأخذون الجوز بعد نضجه وسقوطه عن شجره فيزيلون قشره ويقطعونه قطعا ويجعل في الشمس فاذا ذبل طبخوه في القدور واستخرجوا زيته وبه يستصبحون ويأتدمون به ويجعله النساء في شعورهن وهو عظيم النفع

﴿ ذكر سلطان ظفار ﴾

وهو السلطان الملك المغيث بن الملك الفائز ابن عم ملك اليمن وكان أبوه أميرا على ظفار من قبل صاحب اليمن وله عليه هدية يبعثها في كل سنة ثم استبد الملك المغيث بملكها وامتنع من ارسال الهدية وكان من عزم ملك اليمن على محاربته وتعيين ابن عمه لذلك ووقوع الحائط عليه ماذكرناه آنفا وللسلطان قصر بداخل المدينة يسمى الحصن عظيم فسيح والجامع بازائه ومن عادته ان تضرب الطبول والبوقات والأنفار والصرنايات على بابه كل يوم بعد صلاة العصر وفي كل يوم اثنين وخميس تأتي العساكر الى بابه فيقفون خارج المشور ساعة وينصرفون والسلطان لا يخرج ولا يراه أحد الا في يوم الجمعة فيخرج للصلاة ثم يعود الى داره ولا يمنع أحدا من دخول المشور وأمير جندار قاعد على بابه واليه ينتهي كل صاحب حاجة أو شكاية وهو يطالع السلطان ويأتيه الجواب للحين واذا أراد السلطان الركوب خرجت مراكبه من القصر وسلاحه ومماليكه الى خارج المدينة وأتى بجمل عليه محمل مستور بستر أبيض منقوش بالذهب فيركب السلطان ونديمه في المحمل بحيث لا يرى واذا خرج الى بستانه وأحب ركوب الفرس ركبه ونزل عن الجمل وعادته أن لا يعارضه أحد في طريقه ولا يقف لرؤيته ولا لشكاية ولا غيرها ومن تعرض لذلك ضرب أشد الضرب فتجد الناس اذا سمعوا بخروج السلطان فروا عن الطريق وتحاموها ووزير هذا السلطان الفقيه محمد العدني وكان معلم صبيان فعلم هذا السلطان القراءة والكتابة وعاهده على أن يستوزره ان ملك فلما ملك استوزره فلم يكن يحسنها فكان الاسم له والحكم لغيره ومن هذه المدينة ركبنا البحر نريد عمان في مركب صغير لرجل يعرف بعلي بن ادريس

المصيري من أهل جزيرة مصيرة وفي الثاني لركوبنا نزلنا بمرسي حاسك وبه ناس من العرب صيادون للسمك ساكنون هنالك وعندهم شجر الكندر وهو رقيق الورق واذا شرطت الورقة منه قطر منها ماء شبه اللبن ثم عاد صمغا وذلك الصمغ هو اللبان وهو كثير جداً هنالك ولا معيشة لاهل ذلك المرسى الا من صيد السمك وسمكهم يعرف باللخم (بخاء معجم مفتوح) وهو شبيه كلب البحر يشرح ويقدد ويقتات به وبيوتهم من عظام السمك وسقفها من جلود الجمال وسرنا من مرسي حاسك أربعة أيام ووصلنا الي جبل لمان (بضم اللام) وهو في وسط البحر وبأعلاه رابطة مبنية بالحجارة وسقفها من عظام السمك وبخارجها غدير ماء يجتمع من المطر

ذكر ولي لقيناه بهذا الجبل

ولما أرسينا تحت هذا الجبل صعدناه الى هذه الرابطة فوجدنا بها شيخاً نائماً فسلمنا عليه فاستيقظ وأشار برد السلام فكلمناه فلم يكلمنا وكان يحرك رأسه فأتاه أهل المركب بطعام فأبى أن يقبله فطلبنا منه الدعاء فكان يحرك شفتيه ولا نعلم ما يقول وعليه مرقعة وقلنسوة لبد وليس معه ركوة ولا ابريق ولا عكاز ولا نعل وقال أهل المركب انهم ما رأوه قط بهذا الجبل وأقمنا تلك الليلة بساحل هذا الجبل وصلينا معه العصر والمغرب وجئناه بطعام فرده وأقام يصلي الي العشاء الآخرة ثم أذن وصلينا معه وكان حسن الصوت بالقراءة مجيداً لها ولما فرغ من صلاة العشاء الآخرة أومأ الينا بالانصراف فودعناه وانصرفنا ونحن نعجب من أمره ثم اني أردت الرجوع اليه لما انصرفنا فلما دنوت منه هبته وغلب علي الخوف ورجعت الي أصحابي فانصرفت معهم وركبنا البحر ووصلنا بعد يومين الي جزيرة الطير وليست بها عمارة فأرسينا وصعدنا اليها فوجدناها ملأى بطيور تشبه الشقاشق الا أنها أعظم منها وجاءت الناس ببيض تلك الطيور فطبخوها وأكلوها واصطادوا جملة من تلك الطيور فطبخوها دون ذكاة وأكلوها وكان يجالسني تاجر من أهل جزيرة مصيرة ساكن بظفار اسمه مسلم فرأيته يأكل معهم تلك الطيور فأنكرت ذلك عليه فاشتد خجله وقال لي ظننت انهم ذبحوها وانقطع عني بعد ذلك من الخجل فكان لا يقرب مني حتي أدعو به وكان

طعامي في تلك الايام بذلك المركب التمر والسمك وكانوا يصطادون بالغدو والعشي سمكا يسمي بالفارسية شير ماهي ومعناه أسد السمك لان شير هو الاسد وماهي السمك وهو يشبه الحوت المسمى عندنا بتازرت وهم يقطعونه قطعا ويشوونه ويعطون كل من في المركب قطعة لا يفضلون أحداً على أحد ولا صاحب المركب ولا سواه ويأكلونه بالتمر وكان عندي خبز وكعك استصحبتهما من ظفار فلما نفدا كنت أقتات من تلك السمك في جملتهم وعيدنا عيد الاضحى على ظهر البحر وهبت علينا في يومه ريح عاصف بعد طلوع الفجر ودامت الى طلوع الشمس وكادت تغرقنا

﴿ كرامة ﴾

وكان معنا في المركب حاج من أهل الهند يسمي بخضر ويدعي بمولانا لانه يحفظ القرآن ويحسن الكتابة فلما رأى هول البحر لف رأسه بعباءة كانت له وتناوم فلما فرج الله ما نزل بنا قلت له يا مولانا خضر كيف رأيت قال قد كنت عند الهول أفتح عيني أنظر هل ارى الملائكة الذين يقبضون الارواح جاؤا فلا أراهم فأقول الحمد لله لو كان الغرق لأتوا لقبض الارواح ثم أغلق عيني ثم أفتحها فانظر كذلك الى أن فرج الله عنا وكان قد تقدمنا مركب لبعض التجار فغرق ولم ينج منه الا رجل واحد خرج عوما بعد جهد شديد وأكلت في ذلك المركب نوعا من الطعام لم آكله قبله ولا بعده صنعه بعض تجار عمان وهو من الذرة طبخها من غير طحن وصب عليها السيلان وهو عسل التمر وأكلناه ثم وصلنا الى جزيرة مصيرة التي منها صاحب المركب الذي كنا فيه وهي على لفظ مصير وزيادة تاء التأنيث جزيرة كبيرة لا عيش لاهلها الا من السمك ولم ننزل اليها لبعد مرساها عن الساحل وكنت قد كرهتهم لما رأيتهم يأكلون الطير من غير ذكاة وأقمنا بها يوما وتوجه صاحب المركب فيه الي داره وعاد الينا ثم سرنا يوما وليلة فوصلنا الى مرسى قرية كبيرة على ساحل البحر تعرف بصور ورأينا منها مدينة قلهات في سفح جبل نخيل لنا أنها قريبة وكان وصولنا الى المرسي وقت الزوال أو قبله فلما ظهرت لنا المدينة أحببت المشي اليها والمبيت بها وكنت قد كرهت صحبة أهل المركب فسألت عن طريقها فأخبرت أني أصل اليها عند العصر

فاكتريت أحد البحريين ليدلني على طريقها وصحبني خضر الهندي الذي تقدم ذكره وتركت أصحابي مع ما كان لي بالمركب ليلحقوا بي في غد ذلك اليوم وأخذت أثوابا كانت لي قد دفعتها لذلك الدليل ليكفيني مؤنة حملها وحملت في يدي رمحا فاذا ذلك الدليل يحب أن يستولي على أثوابي فأتى بنا الى خليج يخرج من البحر فيه المد والجزر فأراد عبوره بالثياب فقلت له انما تعبر وحدك وتترك الثياب عندنا فان قدرنا على الجواز جزنا والا صعدنا نطلب المجاز فرجع ثم رأينا رجالا جازوه عوما فتحققنا انه كان قصده ان يغرقنا ويذهب بالثياب فحينئذ اظهرت النشاط وأخذت بالحزم وشددت وسطي وكنت أهز الرمح فهابني ذلك الدليل وصعدنا حتى وجدنا مجازا ثم خرجنا الى صحراء لا ماء بها وعطشنا واشتد بنا الامر فبعث الله لنا فارسا في جماعة من أصحابه وبيد أحدهم ركوة ماء فسقاني وسقى صاحبي وذهبنا نحسب المدينة قريبة منا وبيننا وبينها خنادق نمشي فيها الاميال الكثيرة فلما كان العشي أراد الدليل أن يميل بنا الى ناحية البحر وهو لا طريق له لان ساحله حجارة فأراد أن ننشب فيها ويذهب بالثياب فقلت له انما نمشي على هذه الطريق التي نحن عليها وبينها وبين البحر نحو ميل فلما أظلم الليل قال لنا ان المدينة قريبة منا فتعالوا نمشي حتى نبيت بخارجها الى الصباح فخفت ان يتعرض لنا أحد في طريقنا ولم أحقق مقدار ما نأتي اليها فقلت له انما الحق أن نخرج عن الطريق فننام فاذا أصبحنا أتينا المدينة ان شاء الله وكنت قد رأيت جملة من الرجال في سفح جبل هنالك فخفت أن يكونوا لصوصا وقلت التستر أولى وغلب العطش على صاحبي فلم يوافق على ذلك فخرجت عن الطريق وقصدت شجرة من شجر أم غيلان وقد أعييت وأدركني الجهد لكني أظهرت قوة وتجلدا خوف الدليل وأما صاحبي فمريض لا قوة له فجعلت الدليل بيني وبين صاحبي وجعلت الثياب بين ثوبي وجسدي وأمسكت الرمح بيدي ورقد صاحبي ورقد الدليل وبقيت ساهرا فكلما تحرك الدليل كلمته وأريته اني مستيقظ ولم نزل كذلك حتى أصبح فخرجنا الى الطريق فوجدنا الناس ذاهبين بالمرافق الى المدينة فبعثت الدليل ليأتينا بماء وأخذ صاحبي الثياب وكان بيننا وبين المدينة جهاو وخنادق فأتانا بالماء فشربنا وذلك أوان الحر ثم وصلنا الى مدينة قلهات (وضبط

أسمها بفتح القاف واسكان اللام وآخره تاء مثناة) فأتيناها ونحن في جهد عظيم وكنت قد ضاقت نعلي على رجلي حتى كان الدم أن يخرج من تحت أظفارها فلما وصلنا باب المدينة كان ختام المشقة ان قال لنا الموكل بالباب لا بد لك أن تذهب معي الي أمير المدينة ليعرف قضيتك ومن أين قدمت فذهبت معه اليه فرأيته فاضلا حسن الاخلاق وسألني عن حالي وأنزلني وأقمت عنده ستة أيام لا قدرة لي فيها على النهوض على قدمي لما لحقها من الآلام ومدينة قلهات على الساحل وهي حسنة الاسواق ولها مسجد من أحسن المساجد حيطانه بالقاشاني وهو شبه الزليج وهو مرتفع ينظر منه الى البحر والمرسى وهو من عمارة الصالحة بيبي مريم ومعنى بيبي عندهم الحرة وأكلت بهذه المدينة سمكا لم آكل مثله في إقليم من الاقاليم وكنت أفضله على جميع اللحوم فلا آكل سواه وهم يشوونه على ورق الشجر ويجعلونه على الارز ويأكلونه والارز يجلب اليهم من أرض الهند وهم أهل تجارة ومعيشتهم مما يأتي اليهم في البحر الهندي واذا وصل اليهم مركب فرحوا به أشد الفرح وكلامهم ليس بالفصيح مع انهم عرب وكل كلمة يتكلمون بها يصلونها بلا فيقولون مثلا تأكل لا تمشي لا تفعل كذا لا وأكثرهم خوارج لكنهم لا يقدرون على اظهار مذهبهم لانهم تحت طاعة السلطان قطب الدين تمهتن ملك هرمز وهو من أهل السنة وبقربة من قلهات قرية طيبي واسمها على نحو اسم الطيب اذا أضافه المتكلم لنفسه وهي من أجمل القرى وأبدعها حسنا ذات أنهار جارية وأشجار ناضرة وبساتين كثيرة ومنها تجلب الفواكه الى قلهات وبها الموز المعروف بالمرواري والمرواري بالفارسية هو الجوهري (المروار الجوهر) وهو كثير بها ويجلب منها الى هرمز وسواها وبها أيضا التنبول لكن ورقته صغيرة والتمر يجلب الي هذه الجهات من عمان ثم قصدنا بلاد عمان فسرنا ستة أيام في صحراء ثم وصلنا بلاد عمان في اليوم السابع وهي خصبة ذات أنهار وأشجار وبساتين وحدائق نخل وفاكهة كثيرة مختلفة الاجناس ووصلنا الي قاعدة هذه البلاد وهي مدينة نزوا (وضبط اسمها بنون مفتوح وزاي مسكن وواو مفتوح) مدينة في سفح جبل تحف بها البساتين والانهار ولها أسواق حسنة ومساجد معظمة نقية وعادة أهلها انهم يأكلون في صحون المساجد يأتي كل انسان

بما عنده ويجتمعون للاكل في صحن المسجد ويأكل معهم الوارد والصادر ولهم نجدة وشجاعة والحرب قائمة فيما بينهم أبدا وهم أباضية المذهب ويصلون الجمعة ظهرا اربعا فاذا فرغوا منها قرأ الامام آيات من القرآن ونثر كلاما شبه الخطبة يرضي فيه عن أبي بكر وعمر ويسكت عن عثمان وعلي وهم اذا أرادوا ذكر علي رضي الله عنه كنوا عنه بالرجل فقالوا ذكر عن الرجل أو قال الرجل ويرضون عن الشقي اللعين ابن ملجم ويقولون فيه العبد الصالح قامع الفتنة ونساؤهم يكثرن الفساد ولا غيرة عندهم ولا انكار لذلك وسنذكر حكاية إثر هذا مما يشهد بذلك

﴿ ذكر سلطان عمان ﴾

وسلطانها عربي من قبيلة الازد بن الغوث ويعرف بأبي محمد بن نبهان وأبو محمد عندهم سمة كل سلطان يلي عمان كما هي أتابك عند ملوك اللور وعادته ان يجلس خارج باب داره في مجلس هنالك ولا حاجب له ولا وزير ولا يمنع أحدا من الدخول اليه من غريب أو غيره ويكرم الضيف على عادة العرب ويعين له الضيافة ويعطيه على قدره وله اخلاق حسنة ويؤكل على مائدته لحم الحمار الانسي ويباع بالسوق لانهم قائلون بتحليله ولكنهم يخفون ذلك عن الوارد عليهم ولا يظهرونه بمحضره ومن مدن عمان مدينة زكى لم أدخلها وهي على ما ذكر لي مدينة عظيمة ومنها القريات وشبا وكلبا وخور فكان وصحار وكلها ذات أنهار وحدائق وأشجار نخل وأكثر هذه البلاد في عمالة هرمز

﴿ حكاية ﴾

كنت يوما عند هذا السلطان أبي محمد بن نبهان فأتته امرأة صغيرة السن حسنة الصورة بادية الوجه فوقفت بين يديه وقالت له يا أبا محمد طغى الشيطان في رأسي فقال لها اذهبي واطردي الشيطان فقالت له لا أستطيع وأنا في جوارك يا أبا محمد فقال لها اذهبي فافعلي ما شئت فذكر لي لما انصرفت عنه ان هذه ومن فعل مثل فعلها تكون في جوار السلطان وتذهب للفساد ولا يقدر أبوها ولا ذو قرابتها أن يغيروا عليها وان قتلوها قتلوا بها لانها في جوار السلطان ثم سافرت من بلاد عمان الى بلاد هرمز وهرمز مدينة على ساحل البحر

وتسمى أيضا موغستان وتقابلها في البحر هرمز الجديدة وبينهما في البحر ثلاثة فراسخ
ووصلنا الى هرمز الجديدة وهي جزيرة مدينتها تسمى جرون (بفتح الجيم والراء
وآخرها نون) وهي مدينة حسنة كبيرة لها أسواق حافلة وهي مرسى الهند والسند
ومنها تحمل سلع الهند الى العراقين وفارس وخراسان وهذه المدينة سكنى السلطان
والجزيرة التي فيها المدينة مسيرة يوم وأكثرها سباخ وجبال ملح وهو الملح الداراني ومنه
يصنعون الاواني للزينة والمنارات التي يضعون السرج عليها وطعامهم السمك والتمر المجلوب
اليهم من البصرة وعمان ويقولون بلسانهم خرما و ماهي لوت بادشاهي معناه بالعربي التمر
والسمك طعام الملوك والماء في هذه الجزيرة له قيمة وبها عيون ماء وصهاريج مصنوعة
يجتمع فيها ماء المطر وهي على بعد من المدينة ويأتون اليها بالقرب فيملؤونها ويرفعونها على
ظهورهم الى البحر ويوسقونها في القوارب ويأتون بها الى المدينة ورأيت من العجائب عند
باب الجامع فيما بينه وبين السوق رأس سمكة كأنه رابية وعيناه كأنهما بابان فترى الناس
يدخلون من احداهما ويخرجون من الاخرى ولقيت بهذه المدينة الشيخ الصالح السائح أبا
الحسن الاقصرائي وأصله من بلاد الروم فأضافني وزارني وألبسني ثوبا وأعطاني كمر
الصحبة وهو يحتبى به فيعين الجالس فيكون كأنه مستند وأكثر فقراء العجم يتقلدونه وعلى
ستة أميال من هذه المدينة مزار ينسب الى الخضر والياس عليهما السلام يذكر انهما
يصليان فيه وظهرت له بركات وبراهين وهنالك زاوية يسكنها أحد المشايخ يخدم بها الوارد
والصادر وأقمنا عنده يوما وقصدنا من هنالك زيارة رجل صالح منقطع في آخر هذه الجزيرة
قد عمر غارا سكنه فيه زاوية ودار صغيرة فيها جارية وله عبيد خارج الغار
يرعون بقرا له وغنما وكان هذا الرجل من كبار التجار فحج البيت وقطع العلائق وانقطع
هنالك للعبادة ودفع ماله لرجل من اخوانه يتجر له به وبتنا عنده ليلة فأحسن القرى وأجمل
رضي الله تعالى عنه وسيمة الخير والعبادة لائحة عليه

﴿ذكر سلطان هرمز﴾

وهو السلطان قطب الدين تمهتن بن طوران شاه (وضبط اسمه بفتح التاءين المعلوتين

و بينهما ميم مفتوح وهاء مسكنة وآخره نون) وهو من كرماء السلاطين كثير التواضع حسن الاخلاق وعادته أن يأتي لزيارة كل من يقدم عليه من فقيه أو صالح أو شريف ويقوم بحقه ولما دخلنا جزيرته وجدناه مهيأ للحرب مشغولا بها مع ابني اخيه نظام الدين فكان في كل ليلة يتيسر للقتال والغلاء مستول على الجزيرة فأتي الينا وزيره شمس الدين محمد بن علي وقاضيه عماد الدين الشونكاري وجماعة من الفضلاء فاعتذروا بما هم عليه من مباشرة الحرب وأقمنا عندهم ستة عشر يوما فلما أردنا الانصراف قلت لبعض الاصحاب كيف ننصرف ولا نري هذا السلطان فجئنا دار الوزير وكانت في جوار الزاوية التي نزلت بها فقلت له اني أريد السلام على الملك فقال بسم الله وأخذ بيدي فذهب بي الي داره وهي على ساحل البحر والاجفان مجلسة عندها فاذا شيخ عليه أقبية ضيقة دنسة وعلى رأسه عمامة وهو مشدود الوسط بمنديل فسلم عليه الوزير وسلمت عليه ولم أعرف انه الملك وكان الى جانبه ابن اخته وهو علي شاه بن جلال الدين الكيجي وكانت بيني وبينه معرفة فانشأت أحادثه وأنا لا أعرف الملك فعرفني الوزير بذلك فخجلت منه لاقبالي بالحديث على ابن اخته دونه واعتذرت اليه ثم قام فدخل داره وتبعه الامراء والوزراء وأرباب الدولة ودخلت مع الوزير فوجدناه قاعدا على سرير ملكه وثيابه عليه لم يبدلها وفي يده سبحة جوهر لم تر العيون مثلها لان مغاصات الجوهر تحت حكمه فجلس أحد الامراء الي جانبه وجلست الى جانب ذلك الامير وسألني عن حالي ومقدمي وعمن لقيته من الملوك فاخبرته بذلك وحضر الطعام فأكل الحاضرون ولم يأكل معهم ثم قام فوادعته وانصرفت وسبب الحرب التي بينه وبين ابني أخيه انه ركب البحر مرة من مدينته الجديدة برسم النزهة في هرمز القديمة وبساتينها وبينهما في البحر ثلاثة فراسخ كما قدمناه فخالف عليه أخوه نظام الدين ودعى لنفسه وبايعه أهل الجزيرة وبايعته العساكر فخاف قطب الدين على نفسه وركب البحر الي مدينة قلهات التي تقدم ذكرها وهي من جملة بلاده فأقام بها شهورا وجهز المراكب وأتى الجزيرة فقاتله أهلها مع أخيه وهزموه وعاد الى قلهات وفعل ذلك مرارا فلم تكن له حيلة الا أن راسل بعض نساء أخيه فسمته ومات وأتي هو الى الجزيرة فدخلها وفر ابنا

أخيه بالخزائن والاموال والعساكر الى جزيرة قيس حيث مغاص الجوهر وصاروا يقطعون الطريق على من يقصد الجزيرة من أهل الهند والسند ويغيرون على بلاده البحرية حتى تخرب معظمها ثم سافرنا من مدينة جرون برسم لقاء رجل صالح ببلد خنج بال فلما عدينا البحر اكترينا دواب من التركمان وهم سكان تلك البلاد ولا يسافر فيها الا معهم لشجاعتهم ومعرفتهم بالطرق وفيها صحراء مسيرة أربع يقطع بها الطريق لصوص الاعراب وتهب فيها ريح السموم في شهري تموز وحزيران فمن صادفته فيها قتلته ولقد ذكر لي ان الرجل اذا قتلته تلك الريح وأراد أصحابه غسله ينفصل كل عضو منه عن سائر الاعضاء وبها قبور كثيرة للذين ماتوا فيها بهذه الريح وكنا نسافر فيها بالليل فاذا طلعت الشمس نزلنا تحت ظلال الاشجار من أم غيلان ونرحل بعد العصر الى طلوع الشمس وفي هذه الصحرا وما والاها كان يقطع الطريق بها جمال اللك (اللوك) الشهير الاسم هنالك ﴿حكاية﴾ كان جمال اللك من أهل سجستان أعجمي الاصل (واللك بضم اللام) معناه الاقطع وكانت يده قطعت في بعض حروبه وكانت له جماعة كثيرة من فرسان الاعراب والاعاجم يقطع بهم الطرق وكان يبني الزوايا ويطعم الوارد والصادر من الاموال التي يسلبها من الناس ويقال انه كان يدعو ان لا يسلط الا على من لا يزكي ماله وأقام على ذلك دهرا وكان يغير هو وفرسانه ويسلكون براري لا يعرفها سواهم ويدفنون بها قرب الماء وروايا فاذا تبعهم عسكر السلطان دخلوا الصحراء واستخرجوا المياه ويرجع العسكر عنهم خوفا من الهلاك وأقام على هذه الحالة مدة لا يقدر عليه ملك العراق ولا غيره ثم تاب وتعبد حتى مات وقبره يزار ببلده وسلكنا هذه الصحراء الى أن وصلنا الى كوراستان (وضبط اسمه بفتح الكاف واسكان الواو وراء) وهو بلد صغير فيه الانهار والبساتين وهو شديد الحر ثم سرنا منه ثلاثة أيام في صحراء مثل التي تقدمت ووصلنا الى مدينة لار (وآخر اسمها راء) مدينة كبيرة كثيرة العيون والمياه المطردة والبساتين ولها أسواق حسان ونزلنا منها بزاوية الشيخ العابد أبي دلف محمد وهو الذى قصدنا زيارته بخنج بال وبهذه الزاوية ولده أبو زيد عبد الرحمن ومعه جماعة من الفقراء ومن عادتهم انهم يجتمعون بالزاوية بعد صلاة

العصر من كل يوم ثم يطوفون على دور المدينة فيعطاهم من كل دار الرغيف والرغيفان فيطعمون منها الوارد والصادر وأهل الدور قد ألفوا ذلك فهم يجعلونه في جملة قوتهم ويعدونه لهم اعانة على اطعام الطعام وفي كل ليلة جمعة يجتمع بهذه الزاوية فقراء المدينة وصلحاؤها ويأتي كل منهم بما تيسر له من الدراهم فيجمعونها وينفقونها تلك الليلة ويبيتون في عبادة من الصلاة والذكر والتلاوة وينصرفون بعد صلاة الصبح

﴿ ذكر سلطان لار ﴾

وبهذه المدينة سلطان يسمى بجلال الدين تركماني الاصل بعث الينا بضيافة ولم نجتمع به ولا رأيناه ثم سافرنا الى مدينة خنج بال (وضبط اسمها بضم الخاء المعجم وقد يعوض منه هاء واسكان النون وضم الجيم وباء معقودة وألف ولام) وبها سكنى الشيخ أبي دلف الذي قصدنا زيارته وبزاويته نزلنا ولما دخلت الزاوية رأيته قاعداً بناحية منها على التراب وعليه جبة صوف خضراء بالية وعلى رأسه عمامة صوف سوداء فسلمت عليه فأحسن الرد وسألني عن مقدمي وبلادي وأنزلني وكان يبعث الى الطعام والفاكهة مع ولد له من الصالحين كثير الخشوع والتواضع صائم الدهر كثير الصلاة ولهذا الشيخ أبي دلف شأن عجيب وأمر غريب فان نفقته في هذه الزاوية عظيمة وهو يعطي العطاء الجزيل ويكسو الناس ويركبهم الخيل ويحسن لكل وارد وصادر ولم أر في تلك البلاد مثله ولا يعلم له جهة الا ما يصله من الاخوان والاصحاب حتى زعم كثير من الناس أنه ينفق من الكون وفي زاويته المذكورة قبر الشيخ الولي الصالح القطب دانيال وله اسم بتلك البلاد شهير وشأن في الولاية كبير وعلى قبره قبة عظيمة بناها السلطان قطب الدين تمهتن بن طوران شاه وأقمت عند الشيخ أبي دلف يوما واحداً لاستعجال الرفقة التي كنت في صحبتها وسمعت ان بمدينة خنج بال المذكورة زاوية فيها جملة من الصالحين المتعبدين فرحت اليها بالعشي وسلمت على شيخهم وعليهم ورأيت جماعة مباركة قد أثرت فيهم العبادة فهم صفر الالوان نحاف الجسوم كثير والبكاء غزير والدموع وعند وصولي اليهم أتوا بالطعام فقال كبيرهم ادعوا الى ولدي محمداً وكان معتزلا في بعض نواحي الزاوية فجاء الينا الولد وهو كأنما خرج من قبر مما نهكته

العبادة فسلم وقعد فقال له أبو دياني شارك هؤلاء الواردين في الأكل تنل من بركاتهم وكان صائماً فأفطر معنا وهم شافعية المذهب فلما فرغنا من أكل الطعام دعوا لنا وانصرفنا ثم سافرنا منها إلى مدينة قيس وتسمى أيضاً بسيراف وهي على ساحل بحر الهند المتصل ببحر اليمن وفارس وعدادها في كور فارس مدينة لها انفساح وسعة طيبة البقعة في دورها بساتين عجيبة فيها الرياحين والاشجار الناضرة وشرب أهلها من عيون منبعثة من جبالها وهم عجم من الفرس أشراف وفيهم طائفة من عرب بني سناف وهم الذين يغوصون على الجوهر

﴿ ذكر مغاص الجوهر ﴾

ومغاص الجوهر فيما بين سيراف والبحرين في خور راكد مثل الوادي العظيم فاذا كان شهر ابريل وشهر مايه تأتي اليه القوارب الكثيرة فيها الغواصون وتجار فارس والبحرين والقطيف ويجعل الغواص على وجهه مهما أراد ان يغوص شيأ يكسوه من عظم الغيلم وهي السلحفاة ويصنع من هذا العظم أيضاً شكلاً شبه المقراض يشده على أنفه ثم يربط حبلا في وسطه ويغوص ويتفاوتون في الصبر في الماء فمنهم من يصبر الساعة والساعتين فما دون ذلك فاذا وصل الى قعر البحر يجد الصدف هنالك فيما بين الأحجار الصغار مثبتا في الرمل فيقتلعه بيده أو يقطعه بحديدة عنده معدة لذلك ويجعلها في مخلاة جلد منوطة بعنقه فاذا ضاق نفسه حرك الحبل فيحس به الرجل الممسك للحبل على الساحل فيرفعه الى القارب فتؤخذ منه المخلات ويفتح الصدف فيوجد في أجوافها قطع لحم تقطع بحديدة فاذا باشرت الهواء جمدت فصارت جواهر فيجمع جميعها من صغير وكبير فيأخذ السلطان خمسه والباقي يشتريه التجار الحاضرون بتلك القوارب وأكثرهم يكون له الدين على الغواصين فيأخذ الجوهر في دينه أو ما وجب له منه ثم سافرنا من سيراف الي مدينة البحرين وهي مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأشجار وأنهار وماؤها قريب المؤنة يحفر عليه بالايدي فيوجد وبها حدائق النخل والرمان والاترج ويزرع بها القطن وهي شديدة الحر كثيرة

الرمال وربما غلب الرمل على بعض منازلها وكان فيما بينها وبين عمان طريق استولت عليه الرمال وانقطع فلا يوصل من عمان اليها الا في البحر وبالقرب منها جبلان عظيمان يسمي أحدهما بكسير وهو في غربيها ويسمي الآخر بعوير وهو في شرقيها وبهما ضرب المثل فقيل كسير وعوير وكل غير خير ثم سافرنا الي مدينة القطيف (وضبط اسمها بضم القاف) كأنه تصغير قطف وهي مدينة كبيرة حسنة ذات نخل كثير يسكنها طوائف العرب وهم رافضية غلاة يظهرون الرفض جهارا لا يتقون أحدا ويقول مؤذنهم في أذانه بعد الشهادتين أشهد أن عليا ولي الله ويزيد بعد الحيعلتين حي على خير العمل ويزيد بعد التكبير الاخير محمد وعلي خير البشر من خالفهما فقد كفر ثم سافرنا منها الي مدينة هجر وتسمي الآن بالحسا (بفتح الحاء والسين واهمالها) وهي التي تضرب المثل بها فيقال كجالب التمر الى هجر وبها من النخيل ما ليس ببلد سواها ومنه يعلفون دوابهم وأهلها عرب وأكثرهم من قبيلة عبد القيس بن أفصي ثم سافرنا منها الى مدينة اليمامة وتسمي أيضا بحجر (بفتح الحاء المهمل واسكان الجيم) مدينة حسنة خصبة ذات أنهار وأشجار يسكنها طوائف من العرب أكثرهم من بني حنيفة وهي بلدهم قديما وأميرهم طفيل بن غانم ثم سافرت منها في صحبة هذا الامير برسم الحج وذلك في سنة اثنتين وثلاثين فوصلت الي مكة شرفها الله تعالى وحج في تلك السنة الملك الناصر سلطان مصر رحمه الله وجملة من أمرائه وهي آخر حجة حجها وأجزل الاحسان لأهل الحرمين الشريفين وللمجاورين وفيها قتل الملك الناصر أمير أحمد الذي يذكر انه ولده وقتل أيضا كبير أمرائه بكتمور الساقي ﴿حكاية﴾ ذكر ان الملك الناصر وهب لبكتمور الساقي جارية فلما أراد الدنو منها قالت له اني حامل من الملك الناصر فاعتزلها وولدت ولدا سماه بأمير أحمد ونشأ في حجره فظهرت نجابته واشتهر بابن الملك الناصر فلما كان في هذه الحجة تعاهدا على الفتك بالملك الناصر وان يتولى أمير أحمد الملك وحمل بكتمور معه العلامات والطبول والكسوات والاموال فنمي الخبر الى الملك الناصر فبعث الي أمير أحمد في يوم شديد الحر فدخل عليه وبين يديه أقداح الشرب فشرب الملك الناصر قدحا وناول أمير أحمد قدحا ثانيا فيه السم فشربه وأمر

بالرحيل في تلك الساعة ليشغل لوقت فرحل الناس ولم يبلغوا المنزل حتى مات أمير أحمد
فاكثرت بكتمه ورلموته وقطع أثوابه وامتنع من الطعام والشراب وبلغ خبره الى الملك
الناصر فأتاه بنفسه ولاطفه وسلاه وأخذ قدحا فيه سم تناوله اياه وقال له بحياتي عليك إلا
شربت فبردت نار قلبك فشربه ومات من حينه ووجد عنده خلع السلطنة والاموال
فتحقق مانسب اليه من الفتك بالملك الناصر ولما انقضى الحج توجهت الي جدة برسم
ركوب البحر الى اليمن والهند فلم يقض لي ذلك ولا تأتي لي رفيق وأقمت بجدة نحو أربعين
يوما وكان بها مركب لرجل يعرف بعبد الله التونسي بروم السفر الي القصير من عمالة قوص
فصعدت اليه لأنظر حاله ثم يرضني ولا طابت نفسي بالسفر فيه وكان ذلك لطفا من الله
تعالى فانه سافر فلما توسط البحر غرق بموضع يقال له رأس أبي محمد فخرج صاحبه وبعض
التجار في العشاري بعد جهد عظيم وأشرفوا على الهلاك وهلك بعضهم وغرق سائر الناس
وكان فيه نحو سبعين من الحجاج ثم ركبت البحر بعد ذلك في صنبوق برسم عيذاب فردتنا
الريح الى مرسي يعرف برأس دوائر وسافرنا منه في البر مع البجاة فسلكنا صحراء كثيرة
النعام والغزلان فيها عرب جهينة وبني كاهل وطاعتهم للبجاة ووردنا ماء يعرف بعفرور
وماء يعرف بالحديد ونفد زادنا فاشترينا من قوم من البجاة وجدناهم بالفلاة أغناما وتزودنا
لحومها ورأيت بهذه الفلاة صبيا من العرب كلمني باللسان العربي وأخبرني ان البجاة أسروه
وزعم انه منذ عام لم يأكل طعاما انما يقتات بلبن الابل ونفد لنا بعد ذلك اللحم الذي
اشتريناه ولم يبق لنا زاد وكان عندي نحو حمل من التمر الصيحاني والبرني برسم الهدية
لاصحابي ففرقته على الرفقة وتزودناه ثلاثا وبعد مسيرة تسعة أيام من رأس دوائر وصلنا الي
عيذاب وكان قد تقدم اليها بعض الرفقة فتلقانا أهلها بالخبز والتمر والماء وأقمنا بها أياما واكترينا
الجمال وخرجنا صحبة طائفة من عرب دغيم ووردنا ماء يعرف بالجنيب ولعله (الجنيب)
وحللنا بحميثرا حيث قبر ولي الله تعالى أبي الحسن الشاذلي وحصلت لنا زيارته ثانية وبتنا في
جواره ثم وصلنا الي قرية العطواني وهي على ضفة النيل مقابلة لمدينة أدفو من الصعيد
الأعلى وأجزنا النيل الي مدينة اسنا ثم الى مدينة أرمنت ثم الى الأقصر وزرنا الشيخ أبا

الحجاج الاقصري ثانية ثم الى مدينة قوص ثم الى مدينة قنا وزرنا الشيخ عبد الرحيم القناوي ثانية ثم الى مدينة هو ثم الى مدينة اخميم ثم الى مدينة أسيوط ثم الى مدينة منفلوط ثم الى مدينة منلوى ثم الى مدينة الاشمونين ثم الى مدينة منية ابن الخصيب ثم الى مدينة البهنسة ثم الى مدينة بوش ثم الى مدينة منية القائد وقد تقدم لنا ذكر هذه البلاد ثم الى مصر وأقمت بها أياما وسافرت على طريق بلبيس الى الشام ورافقني الحاج عبد الله بن أبي بكر بن الفرحان التوزري ولم يزل في صحبتي سنين الى ان خرجنا من بلاد الهند فتوفي بسندابور وسنذكر ذلك فوصلنا الى مدينة غزة ثم الى مدينة الخليل عليه السلام وتكررت لنا زيارته ثم الى بيت المقدس ثم الى مدينة الرملة ثم الى مدينة عكا ثم الى مدينة طرابلس ثم الى مدينة جبلة وزرنا ابراهيم بن أدهم رضي الله عنه ثانية ثم الى مدينة اللاذقية وقد تقدم لنا ذكر هذه البلاد كلها ومن اللاذقية ركبنا البحر في قرقورة كبيرة للجنويين يسمى صاحبها مرتلمين وقصدنا بر التركية المعروف ببلاد الروم وانما نسبت الى الروم لانها كانت بلادهم في القديم ومنها الروم الاقدمون واليونانية ثم استفتحها المسلمون وبها الآن كثير من النصارى تحت ذمة المسلمين من التركمان وسرنا في البحر عشرا بريح طيبة وأكرمنا النصراني ولم يأخذ منا نولا وفي العاشر وصلنا الى مدينة العلايا وهي أول بلاد الروم وهذا الاقليم المعروف ببلاد الروم من أحسن أقاليم الدنيا وقد جمع الله فيه ما تفرق من المحاسن في البلاد فأهله أجمل الناس صورا وأنظفهم ملابس وأطيبهم مطاعم وأكثر خلق الله شفقة ولذلك يقال في البركة في الشام والشفقة في الروم وانما عني به أهل هذه البلاد وكنا متى نزلنا بهذه البلاد زاوية أو دارا يتفقد أحوالنا جيراننا من الرجال والنساء وهن لا يحتجبن فاذا سافرنا عنهم ودعونا كأنهم أقاربنا وأهلنا وترى النساء باكيات متأسفات ومن عادتهم بتلك البلاد ان يخبزوا الخبز في يوم واحد من الجمعة يعدون فيه ما يقوتهم سائرها فكان رجالهم يأتون الينا بالخبز الحار في يوم خبزه ومعه الادام الطيب إطرافا لنا بذلك ويقولون لنا ان النساء بعثن هذا اليكم وهن يطلبن منكم الدعاء وجميع أهل هذه البلاد على مذهب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه مقيمين على السنة

لا قدري فيهم ولا رافضي ولا معتزلي ولا خارجي ولا مبتدع وتلك فضيلة خصهم الله تعالى بها الا انهم يأكلون الحشيش ولا يعيبون ذلك ومدينة العلايا التي ذكرناها كبيرة على ساحل البحر يسكنها التركمان وينزلها تجار مصر واسكندرية والشام وهي كثيرة الخشب ومنها يحمل الي اسكندرية ودمياط ويحمل منها الى سائر بلاد مصر ولها قلعة بأعلاها عجيبة منيعة بناها السلطان المعظم علاء الدين الرومي ولقيت بهذه المدينة قاضيها جلال الدين الارزنجاني وصعد معي الي القلعة يوم الجمعة فصلينا بها وأضافني وأكرمني وأضافني أيضا بها شمس الدين بن الرجيحاني الذى توفي أبوه علاء الدين بمالى من بلاد السودان

﴿ ذكر سلطان العلايا ﴾

وفي يوم السبت ركب معي القاضي جلال الدين وتوجهنا الى لقاء ملك العلايا وهو يوسف بك ومعنى بك الملك ابن قرمان (بفتح القاف والراء) ومسكنه على عشرة أميال من المدينة فوجدناه قاعدا على الساحل وحده فوق رابية هنالك والامراء والوزراء أسفل منه والاجناد عن يمينه ويساره وهو مخضوب الشعر بالسواد فسلمت عليه وسألني عن مقدمي فاخبرته عما سأل وانصرفت عنه وبعث الي احسانا وسافرت من هنالك الى مدينة انطالية (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان النون وفتح الطاء المهمل والف ولام مكسور وياء آخر الحروف) وأما التي بالشام فهي انطاكية على وزنها الا أن الكاف عوض عن اللام وهي من أحسن المدن متناهية في اتساع الساحة والضخامة أجمل مايرى من البلاد وأكثره عمارة وأحسنه ترتيبا وكل فرقة من سكانها منفردة بأنفسها عن الفرقة الاخرى فتجار النصارى ساكنون منها بالموضع المعروف بالميناء وعليهم سور تسد أبوابه عليهم ليلا وعند صلاة الجمعة والروم الذين كانوا أهلها قديما ساكنون بموضع آخر منفردين به وعليهم أيضا سور واليهود في موضع آخر وعليهم سور والملك وأهل دولته ومماليكه يسكنون بلدة عليها أيضا سور يحيط بها ويفرق بينها وبين ماذكرناه من الفرق وسائر الناس من المسلمين يسكنون المدينة العظمى وبها مسجد جامع ومدرسة

وحمامات كثيرة وأسواق ضخمة مرتبة بابدع ترتيب وعليها سور عظيم يحيط بها وبجميع المواضع التي ذكرناها وفيها البساتين الكثيرة والفواكه الطيبة والمشمش العجيب المسمي عندهم بقمر الدين وفي نواته لوز حلو وهو ييبس ويحمل الي ديار مصر وهو بها مستظرف وفيها عيون الماء الطيب العذب الشديد البرودة في أيام الصيف نزلنا من هذه المدينة بمدرستها وشيخها شهاب الدين الحموى ومن عادتهم أن يقرأ جماعة من الصبيان بالاصوات الحسان بعد العصر من كل يوم في المسجد الجامع وفى المدرسة أيضاً سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم .

﴿ ذكر الاخية الفتيان ﴾

والاحد الاخية أخى على لفظ الاخ اذا أضافه المتكلم الى نفسه وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية في كل بلد ومدينة وقرية ولا يوجد في الدنيا مثلهم أشد احتفالا بالغرباء من الناس وأسرع الي اطعام الطعام وقضاء الحوائج والاخذ على أيدي الظلمة وقتل الشرط ومن لحق بهم من أهل الشر والاخى عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الاعزاب والمتجردين ويقدمونه على أنفسهم وتلك هي الفتوة أيضاً ويبنى زاوية ويجعل فيها الفرش والسرج وما يحتاج اليه من الآلات ويخدم أصحابه بالنهار في طلب معايشهم ويأتون اليه بعد العصر بما يجتمع لهم فيشترون به الفواكه والطعام الى غير ذلك مما ينفق في الزاوية فان ورد في ذلك اليوم مسافر على البلد أنزلوه عندهم وكان ذلك ضيافته لديهم ولا يزال عندهم حتى ينصرف وان لم يرد وارد اجتمعوا هم على طعامهم فأكلوا وغنوا ورقصوا وانصرفوا الى صناعتهم بالغدو وأتوا بعد العصر الى مقدمهم بما اجتمع لهم ويسمون بالفتيان ويسمى مقدمهم كما ذكرنا الاخى ولم أر في الدنيا أجمل افعالا منهم ويشبههم في افعالهم أهل شيراز وأصفهان الا أن هؤلاء أحب في الوارد والصادر وأعظم اكراما له وشفقة عليه وفي الثاني من يوم وصولنا الى هذه المدينة أتي أحد هؤلاء الفتيان الى الشيخ شهاب الدين الحموى وتكلم معه باللسان التركى ولم أكن يومئذ أفهمه وكان عليه أثواب خلقة وعلى رأسه قلنسوة لبد فقال لي الشيخ أتعلم ما يقول هذا الرجل فقلت لا أعلم

ماقال فقال لي انه يدعوك الى ضيافته أنت وأصحابك فعجبت منه وقلت له نعم فلما انصرف قلت للشيخ هذا رجل ضعيف ولا قدرة له على تضييفنا ولا نريد ان نكلفه فضحك الشيخ وقال لى هذا أحد شيوخ الفتيان الاخية وهو من الخرازين وفيه كرم نفس وأصحابه نحو مائتين من أهل الصناعات قد قدموه على أنفسهم وبنوا زاوية للضيافة وما يجتمع لهم بالنهار انفقوه بالليل فلما صليت المغرب عاد الينا ذلك الرجل وذهبنا معه الى زاويته فوجدناها زاوية حسنة مفروشة بالبسط الرومية الحسان وبها الكثير من ثريات الزجاج العراقي وفي المجلس خمسة من البياسيس والبيسوس شبه المنارة من النحاس له أرجل ثلاث وعلى رأسه شبه جلاس من النحاس وفي وسطه أنبوب للفتيلة ويملأ من الشحم المذاب والى جانبه آنية نحاس ملآنة بالشحم وفيها مقراض لاصلاح الفتيل وأحدهم موكل بها ويسمي عندهم (الجراغجي) وقد اصطف في المجلس جماعة من الشبان ولباسهم الأقبية وفي أرجلهم الأخفاف وكل واحد منهم متحزم على وسطه سكين في طول ذراعين وعلى رؤسهم قلانس بيض من الصوف بأعلى كل قلنسوة قطعة موصولة بها في طول ذراع وعرض اصبعين فاذا استقر بهم المجلس نزع كل واحد منهم قلنسوته ووضعها بين يديه وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزردخاني وسواها حسنة المنظر وفي وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين ولما استقر بنا المجلس عندهم أتوا بالطعام الكثير والفاكهة والحلواء ثم أخذوا في الغناء والرقص فراقنا حالهم وطال عجبنا من سماحهم وكرم أنفسهم وانصرفنا عنهم آخر الليل وتركناهم بزاويتهم

﴿ ذكر سلطان انطالية ﴾

وسلطانها خضر بك ابن يونس بك وجدناه عند وصولنا اليها عليلا فدخلنا عليه بداره وهو في فراش المرض فكلمنا بألطف كلام وأحسنه وودعناه وبعث الينا باحسان وسافرنا الى بلدة بردور (وضبط اسمها بضم الباء الموحدة واسكان الراء وضم الدال المهمل وواو وراء) وهي بلدة صغيرة كثيرة البساتين والأنهار ولها قلعة في رأس جبل شاهق نزلنا بدار خطيبها واجتمعت الاخية وأرادوا نزولنا عندهم فأبى عليهم الخطيب فصنعوا لنا

ضيافة في بستان لاحدهم وذهبوا بنا اليها فكان من العجائب اظهارهم السرور بنا والاستبشار والفرح وهم لا يعرفون لساننا ونحن لا نعرف لسانهم ولا ترجمان فيما بيننا واقمنا عندهم يوماً انصرفنا ثم سافرنا من هذه البلدة الي بلدة سبرتا (وضبط اسمها بفتح السين المهمل والباء الموحدة واسكان الراء وفتح التاء المعلوة والف) وهي بلدة حسنة العمارة والاسواق كثيرة البساتين والأنهار لها قلعة في جبل شامخ وصلنا اليها بالعشي ونزلنا عند قاضيها وسافرنا منها الي مدينة أكريدور (وضبط اسمها بفتح الهمزة وسكون الكاف وكسر الراء وياء مدود دال مهمل مضموم وواو مدوراء) مدينة عظيمة كثيرة العمارة حسنة الاسواق ذات أنهار وأشجار وبساتين ولها بحيرة عذبة الماء يسافر المركب فيها يومين الي أقشهر وبقشهر وغيرهما من البلاد والقرى ونزلنا منها بمدرسة تقابل الجامع الأعظم بها المدرس العالم الحاج المجاور الفاضل مصلح الدين قرأ بالديار المصرية والشام وسكن بالعراق وهو فصيح اللسان حسن البيان أطروفة من طرف الزمان أكرمنا غاية الاكرام وقام بحقنا أحسن قيام

﴿ ذكر سلطان أكريدور ﴾

وسلطانها أبو اسحق بك ابن الدندار بك من كبار سلاطين تلك البلاد سكن ديار مصر أيام أبيه وحج وله سير حسنة ومن عادته انه يأتي كل يوم الى صلاة العصر بالمسجد الجامع فاذا قضيت صلاة العصر استند الى جدار القبلة وقعد القراء بين يديه على مصطبة خشب عالية فقرؤا سورة الفتح والملك وعم بأصوات حسان فعالة في النفوس تخشع لها القلوب وتقشعر الجلود وتدمع العيون ثم ينصرف الى داره واظلنا عنده شهر رمضان فكان يقعد في كل ليلة منه على فراش لاصق بالارض من غير سرير ويستند الي مخدة كبيرة ويجلس الفقيه مصلح الدين الى جانبه وأجلس الي جانب الفقيه ويلينا أرباب دولته وأمراء حضرته ثم يؤتي بالطعام فيكون أول ما يفطر عليه ثريد في صحفة صغيرة عليه العدس مسقي بالسمن والسكر ويقدمون الثريد تبركا ويقولون ان النبي صلى الله عليه وسلم فضله على سائر الطعام فنحن نبدأ به لتفضيل النبي له ثم يؤتى بسائر الأطعمة وهكذا فعلهم في جميع ليالي رمضان

وتوفي بعض تلك الايام ولد السلطان فلم يزيدوا على بكاء الرحمة كما يفعله أهل مصر والشام خلافاً لما قدمناه من فعل أهل اللور حين مات ولد سلطانهم فلما دفن أقام السلطان والطلبة ثلاثة أيام يخرجون الى قبره بعد صلاة الصبح وفي ثاني يوم من دفنه خرجت مع الناس فرآني السلطان ماشياً على رجلي فبعث لي بفرس واعتذر فلما وصلت المدرسة بعثت الفرس فرده وقال انما أعطيته عطية لا عارية وبعث الي بكسوة ودراهم فانصرفنا الى مدينة قل حصار (وضبط اسمها بضم القاف واسكان اللام ثم حاء مهمل مكسور وصاد مهمل وآخره راء) مدينة صغيرة بها المياه من كل جانب قد نبتت فيها القصب فلا طريق لها الا طريق كالجسر مهيأ ما بين القصب والمياه لا يسع الا فارساً واحداً والمدينة على تل في وسط المياه منيعة لا يقدر عليها ونزلنا بزاوية أحد الفتيان الأخية بها

﴿ ذكر سلطان قل حصار ﴾

وسلطانها محمد جلبي وجلبي (بجيم معقود ولام مفتوحين وباء موحدة وياء) وتفسيره بلسان الروم سيدي وهو أخو السلطان أبي اسحق ملك أكريدور ولما وصلنا بمدينته كان غائباً عنها فأقمنا بها أياما ثم قدم فأكرمنا واركبنا وزودنا وانصرفنا على طريق قرا أغاج وقرا (بفتح القاف) تفسيره أسود (وأغاج بفتح الهمزة والغين المعجم وآخره جيم) تفسيره الخشب وهي صحراء خضرة يسكنها التركمان وبعث معنا السلطان فرسانا يبلغوننا الى مدينة لاذق بسبب ان هذه الصحراء يقطع الطريق فيها طائفة يقال لهم الجرميان يذكر انهم من ذرية يزيد بن معاوية ولهم مدينة يقال لها كوتاهية فعصمنا الله منهم ووصلنا الى مدينة لاذق (وهي بكسر الذال المعجم وبعده قاف) وتسمي أيضاً دون غزله وتفسيره بلد الخنازير وهي من أبدع المدن وأضخمها وفيها سبعة من المساجد لاقامة الجمعة ولها البساتين الرائقة والانهار المطردة والعيون المنبعة وأسواقها حسان وتصنع بها ثياب قطن معلمة بالذهب لا مثل لها تطول أعمارها لصحة قطنها وقوة غزلها وهذه الثياب معروفة بالنسبة اليها وأكثر الصناع بها نساء الروم وبها من الروم كثير تحت الذمة وعليهم وظائف للسلطان من الجزية وسواها وعلامة الروم بها القلانس الطوال منها الحمر والبيض ونساء

الروم لهن عمائم كبار وأهل هذه المدينة لا يغيرون المنكر بل كذلك أهل هذا الاقليم كله وهم يشترون الجواري الروميات الحسان ويتركونهن للفساد وكل واحدة عليها وظيف لمالكها تؤديه له وسمعت هنالك أن الجواري يدخلن الحمام مع الرجال فمن أراد الفساد فعل ذلك بالحمام من غير منكر عليه وذكر لي أن القاضي بها له جوار على هذه الصورة وعند دخولنا لهذه المدينة مررنا بسوق فنزل الينا رجال من حوانيتهم وأخذوا بأعنة خيلنا ونازعهم في ذلك رجال آخرون وطال بينهم النزاع حتى سل بعضهم السكاكين على بعض ونحن لا نعلم ما يقولون فخفنا منهم وظننا انهم الجرميان الذين يقطعون الطرق وان تلك مدينتهم وحسبنا انهم يريدون نهبنا ثم بعث الله لنا رجلا حاجا يعرف اللسان العربي فسألته عن مرادهم فقال انهم من الفتيان وان الذين سبقوا الينا أولا هم أصحاب الفتى أخي سنان والآخرون أصحاب الفتى أخي طومان وكل طائفة ترغب أن يكون نزولكم عندهم فعجبنا من كرم نفوسهم ثم وقع بينهم الصلح على المقارعة فمن كانت قرعته نزلنا عنده أولا فوقعت قرعة أخي سنان وبلغه ذلك فأتى الينا في جماعة من أصحابه فسلموا علينا ونزلنا بزاوية له وأتي بأنواع الطعام ثم ذهب بنا الى الحمام ودخل معنا وتولى خدمتي بنفسه وتولى أصحابه خدمة أصحابي يخدم الثلاثة والاربعة الواحد منهم ثم خرجنا من الحمام فأتوا بطعام عظيم وحلواء وفاكهة كثيرة وبعد الفراغ من الاكل قرأ القراء آيات من الكتاب العزيز ثم أخذوا في السماع والرقص وأعلموا السلطان بخبرنا فلما كان من الغد بعث في طلبنا بالعشي فتوجهنا اليه والى ولده كما نذكره ثم عدنا الى الزاوية فألفينا الاخي طومان وأصحابه في انتظارنا فذهبوا بنا الى زاويتهم ففعلوا من الطعام والحمام مثل فعل أصحابهم وزادوا عليهم ان صبوا علينا ماء الورد صبا بعد خروجنا من الحمام ثم مضوا بنا الى الزاوية ففعلوا أيضا من الاحتفال في الاطعمة والحلواء والفاكهة وقراءة القرآن بعد الفراغ من الاكل ثم السماع والرقص كمثل ما فعله أصحابهم أو أحسن وأقمنا عندهم بالزاوية أياما

﴿ ذكر سلطان لاذق ﴾

وهو السلطان ينتج بك (واسمه بياء آخر الحروف مفتوحة ثم نونين أولاهما مفتوحة
والثانية مسكنة وجيم) وهو من كبار سلاطين بلاد الروم ولما نزلنا بزاوية أخي سنان
كما قدمناه بعث الينا الواعظ المذكر العالم علاء الدين القسطموني واستصحب معه خيلا
بعددنا وذلك في شهر رمضان فتوجهنا اليه وسلمنا عليه ومن عادة ملوك هذه البلاد
التواضع للواردين ولين الكلام وقلة العطاء فصلينا معه المغرب وحضر طعامه فافطرنا عنده
وانصرفنا وبعث الينا بدراهم ثم بعث الينا ولده مراد بك وكان ساكنا في بستان خارج
المدينة وذلك في إبان الفاكهة وبعث أيضاً خيلا على عددنا كما فعله أبوه فأتينا بستانه وأقمنا
عنده تلك الليلة وكان له فقيه يترجم بيننا وبينه ثم انصرفنا غدوة وأظلنا عيد الفطر بهذه
البلدة فخرجنا الي المصلى وخرج السلطان في عساكره والفتيان الاخية كلهم بالاسلحة
ولاهل كل صناعة الاعلام والبوقات والطبول والانفار وبعضهم يفاخر بعضا ويباهيه في
حسن الهيئة وكمال الشكة ويخرج أهل كل صناعة معهم البقر والغنم وأحمال الخبز فيذبحون
البهائم بالمقابر ويتصدقون بها وبالخبز ويكون خروجهم أولا الى المقابر ومنها الى المصلى ولما
صلينا صلاة العيد دخلنا مع السلطان الي منزله وحضر الطعام فجعل للفقهاء والمشايخ
والفتيان سماط على حدة وجعل للفقراء والمساكين سماط على حدة ولا يرد على بابه في
ذلك اليوم فقير ولا غني وأقمنا بهذه البلدة مدة بسبب مخاف الطريق ثم تهيأت رفقة فسافرنا
معهم يوما وبعض ليلة ووصلنا الي حصن طواس واسمه (بفتح الطاء وتخفيف الواو
وآخره سين مهمل) وهو حصن كبير ويذكر ان صهيبا صاحب رسول الله صلى الله
عليه وسلم ورضي الله عنه من أهل هذا الحصن وكان مبيتنا خارجه ووصلنا بالغد الي بابه
فسألنا أهله من أعلى السور عن مقدمنا فأخبرناهم وحينئذ خرج أمير الحصن الياس بك في
عسكره ليختبر نواحي الحصن والطريق خوفا من اغارة السراق على الماشية فلما طافوا
بجهاته خرجت مواشيهم وهكذا فعلهم أبدا ونزلنا من هذا الحصن بربضه في زاوية
رجل فقير وبعث الينا أمير الحصن بضيافة وزاد وسافرنا منه الى مغلة (وضبط اسمها
بضم الميم واسكان الغين المعجم وفتح اللام) ونزلنا بزاوية أحد المشايخ بها وكان من الكرماء

لفضلاء يكثر الدخول علينا بزاويته ولا يدخل الا بطعام أو فاكهة أو حلواء ولقينا بهذه البلدة ابراهيم بك ولد سلطان مدينة ميلاس وسنذكره فاكرمنا وكسانا ثم سافرنا الى مدينة ميلاس (وضبط اسمها بكسر الميم وياء مد وآخره سين مهمل) وهي من أحسن بلاد الروم وأضخمها كثيرة الفواكه والبساتين والمياه نزلنا منها بزاوية أحد الفتيان الاخية ففعل أضعاف مافعله من قبله من الكرامة والضيافة ودخول الحمام وغير ذلك من حميد الافعال وجميل الاعمال واقينا بمدينة ميلاس رجلا صالحا معمرا يسمي بابي الشتري ذكروا ان عمره يزيد على مائة وخمسين سنة وله قوة وحركة وعقله ثابت وذهنه جيد دعي لنا وحصلت لنا بركته

﴿ذكر سلطان ميلاس﴾

وهو السلطان المكرم شجاع الدين أرخان بك ابن المنتشا (وضبط اسمه بضم الهمزة واسكان الراء وخاء معجم وآخره نون) وهو من خيار الملوك حسن الصورة والسيرة جلساؤه الفقهاء وهم معظمون لديه وببابه منهم جماعة منهم الفقيه الخوارزمي عارف بالفنون فاضل وكان السلطان في أيام اتياني له واجدا عليه بسبب رحلته الى مدينة ايا سلوق ووصوله الي سلطانها وقبول ما أعطاه فسألني هذا الفقيه أن أتكلم عند الملك في شأنه بما يذهب مافى خاطره فأثنيت عليه عند السلطان وذكرت ماعلمته من علمه وفضله ولم أزل به حتى ذهب ما كان يجده عليه وأحسن الينا هذا السلطان وأركبنا وزودنا وسكناه في مدينة برجين وهي قريبة من ميلاس بينهما ميلان (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة واسكان الراء وجيم وياء مد وآخره نون) وهي جديدة على تل هنالك بها العمارات الحسان والمساجد وكان قد بنى بها مسجدا جامعا لم يتم بناؤه بعد وبهذه البلدة لقيناه ونزلنا منها بزاوية الفتي أخي على ثم انصرفنا بعدما أحسن الينا كما قدمناه الى مدينة قونية (وضبط اسمها بضم القاف وواو مد ونون مسكن مكسور وياء آخر الحروف) مدينة عظيمة حسنة العمارة كثيرة المياه والانهار والبساتين والفواكه وبها المشمش المسمي بقمر الدين وقد تقدم ذكره ويحمل منها أيضاً الى ديار مصر والشام وشوارعها متسعة جداً وأسواقها

بديعة الترتيب وأهل كل صناعة على حدة ويقال ان هذه المدينة من بناء الاسكندر وهي من بلاد السلطان بدر الدين بن قرمان وسنذكره وقد تغلب عليها صاحب العراق في بعض الاوقات لقربها من بلاده التي بهذا الاقليم نزلنا منها بزاوية قاضيها ويعرف بابن قلم شاه وهو من الفتيان وزاويته من أعظم الزوايا وله طائفة كبيرة من التلاميذ ولهم في الفتوة سند يتصل الى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ولباسها عندهم السراويل كما تلبس الصوفية الخرقة وكان صنيع هذا القاضي في اكرامنا وضيافتنا أعظم من صنيع من قبله واجمل وبعث ولده عوضا منه لدخول الحمام معنا وبهذه المدينة تربة الشيخ الامام الصالح القطب جلال الدين المعروف بمولانا وكان كبير القدر وبأرض الروم طائفة ينتمون اليه ويعرفون باسمه فيقال لهم الجلالية كما تعرف الاحمدية بالعراق والحيدرية بخراسان وعلى تربته زاوية عظيمة فيها الطعام للوارد والصادر

﴿حكاية﴾

يذكر انه كان في ابتداء أمره فقيها مدرسا يجتمع اليه الطلبة بمدرسته بقونية فدخل يوما الي المدرسة رجل يبيع الحلواء وعلى رأسه طبق منها وهي مقطوعة قطعا يبيع القطعة منها بفلس فلما أتى مجلس التدريس قال له الشيخ هات طبقك فأخذ الحلواني قطعة منه وأعطاها للشيخ فأخذها الشيخ بيده وأكلها فخرج الحلواني ولم يطعم أحدا سوى الشيخ فخرج الشيخ في اتباعه وترك التدريس فأبطأ على الطلبة وطال انتظارهم اياه فخرجوا في طلبه فلم يعرفوا له مستقرا ثم انه عاد اليهم بعد أعوام وصار لا ينطق الا بالشعر الفارسي المتعلق الذي لا يفهم فكان الطلبة يتبعونه ويكتبون ما يصدر عنه من ذلك الشعر وألفوا منه كتابا سموه المثنوي وأهل تلك البلاد يعظمون ذلك الكتاب ويعتبرون كلامه ويعلمونه ويقرؤنه بزواياهم في ليالي الجمعات وفي هذه المدينة أيضا قبر الفقيه أحمد الذي يذكر انه كان معلم جلال الدين المذكور ثم سافرنا الى مدينة اللارندة وهي (بفتح الرآء التي بعد الالف واللام واسكان النون وفتح الدال المهمل) مدينة حسنة كثيرة المياه والبساتين

﴿ذكر سلطان اللارندة﴾

وسلطانها الملك بدر الدين بن قرمان (بفتح القاف والراء) وكانت قبله لشقيقه موسى فنزل عنها للملك الناصر وعوضه عنها بعوض وبعث اليها أميرا وعسكرا ثم تغلب عليها السلطان بدر الدين وبنى بها دار مملكته واستقام أمره بها ولقيت هذا السلطان خارج المدينة وهو عائد من تصيده فنزلت له عن دابتي فنزل هو عن دابته وسلمت عليه وأقبل علي ومن عادة ملوك هذه البلاد انه اذا نزل لهم الوارد عن دابته نزلوا له وأعجبهم فعله وزادوا في اكرامه وان سلم عليهم راكبا ساءهم ذلك ولم يرضهم ويكون سببا لحرمان الوارد وقد جرى لي ذلك مع بعضهم وسأذكره ولما سلمت عليه وركب وركبت سألني عن حالي وعن مقدمي ودخلت معه المدينة فأمر بانزالي أحسن نزل وكان يبعث الطعام الكثير والفاكهة والحلواء في طيافير الفضة والشمع وكسا واركب واحسن ولم يطل مقامنا عنده وانصرفنا الى مدينة أقصرا (وضبطها بفتح الهمزة وسكون القاف وفتح الصاد المهمل والراء) وهي من أحسن بلاد الروم وأتقنها تحف بها العيون الجارية والبساتين من كل ناحية ويشق المدينة ثلاثة أنهار ويجرى الماء بدورها وفيها الاشجار ودوالي العنب وداخلها بساتين كثيرة وتصنع بها البسط المنسوبة اليها من صوف الغنم لا مثل لها في بلد من البلاد ومنها تحمل الي الشام ومصر والعراق والهند والصين وبلاد الاتراك وهذه المدينة في طاعة ملك العراق ونزلنا منها بزاوية الشريف حسين النائب بها عن الامير أرتنا وأرتنا هو النائب عن ملك العراق فيما تغلب عليه من بلاد الروم وهذا الشريف من الفتيان وله طائفة كثيرة وأكرمنا اكراما متناهيا وفعل أفعال من تقدمه ثم رحلنا الي مدينة نكدة (وضبط اسمها بفتح النون واسكان الكاف ودال مهمل مفتوح) وهي من بلاد ملك العراق مدينة كبيرة كثيرة العمارة قد تخرب بعضها ويشقها النهر المعروف بالنهر الاسود وهو من كبار الانهار عليه ثلاث قناطر احداها بداخل المدينة وثنتان بخارجها وعليه النواعير بالداخل والخارج منها تسقى البساتين والفواكه بها كثيرة ونزلنا منها بزاوية الفتى أخى جاروق وهو الامير بها فاكرمنا على عادة الفتيان وأقمنا بها ثلاثا وسرنا منها بعد ذلك الى مدينة قيسارية وهي من بلاد صاحب العراق وهي احدى

المدن العظام بهذا الاقليم بها عسكر أهل العراق واحدي خواتين الامير علاء الدين ارتنا المذكور وهي من أكرم الخواتين وأفضلهن ولها نسبة من ملك العراق وتدعي أغا (بفتح الهمزة والغين المعجم) ومعنى أغا الكبير وكل من بينه وبين السلطان نسبة يدعي بذلك واسمها طغي خاتون وبخانا اليها فقامت لنا وأحسنت السلام والكلام وأمرت باحضار الطعام فأكلنا ولما انصرفنا بعثت لنا بفرس مسرج ملجم وخلعة ودراهم مع أحد غلمانها واعتذرت ونزلنا من هذه المدينة بزاوية الفتى الاخي أمير على وهو أمير كبير من كبار الاخية بهذه البلاد وله طائفة تتبعه من وجوه المدينة وكبرائها وزاويته من أحسن الزوايا فرشا وقناديل وطعاما كثيرا واتقانا والكبراء من أصحابه وغيرهم يجتمعون كل ليلة عنده ويفعلون في كرامة الوارد أضعاف ما يفعله سواهم ومن عوائد هذه البلاد انه ما كان منها ليس به سلطان فالاخي هو الحاكم به وهو يركب الوارد ويكسوه ويحسن اليه على قدره وترتيبه في أمره ونهيه وركوبه ترتيب الملوك ثم سافرنا الى مدينة سيواس (وضبط اسمها بكسر السين المهمل وياء مد وآخره سين مهمل) وهي من بلاد ملك العراق وأعظم ماله بهذا الاقليم من البلاد وبها منزل أمرائه وعماله مدينة حسنة العمارة واسعة الشوارع أسواقها غاصة بالناس وبها دار مثل المدرسة تسمى دار السيادة لا ينزلها الا الشرفاء ونقيبهم ساكن بها وتجرى لهم فيها مدة مقامهم الفرش والطعام والشمع وغيره فيزودون اذا انصرفوا ولما قدمنا الى هذه المدينة خرج الي لقائنا أصحاب الفتي أخي أحمد بجقجي وبجق بالتركية السكين وهذا منسوب اليه والجيان منه معقودان بينهما قاف وباؤه مكسورة وكانوا جماعة منهم الركبان والمشاة ثم لقينا بعدهم أصحاب الفتي أخي جلبي وهو من كبار الاخية وطبقته أعلى من طبقة أخي بجقجي فطلبوا ان ننزل عندهم فلم يمكن لي ذلك لسبق الاولين ودخلنا المدينة معهم جميعاً وهم يتفاخرون والذين سبقوا الينا قد فرحوا أشد الفرح بنزولنا عندهم ثم كان من صنيعهم فى الطعام والحمام والمبيت مثل صنيع من تقدم وأقمنا عندهم ثلاثة في أحسن ضيافة ثم أتانا القاضي وجماعة من الطلبة ومعهم خيل الامير علاء الدين أرتنا نائب ملك العراق ببلاد الروم فركبنا اليه واستقبلنا

الامير الى دهليز داره فسلم علينا ورحب وكان فصيح اللسان بالعربية وسألني عن العراقين وأصبهان وشيراز وكرمان وعن السلطان أتابك وبلاد الشام ومصر وسلاطين التركمان وكان مراده أن أشكر الكريم منهم وأذم البخيل فلم أفعل ذلك بل شكرت الجميع فسر بذلك مني وشكرني عليه ثم أحضر الطعام فأكلنا وقال تكونون في ضيافتي فقال له الفتى أخي جلبي انهم لم ينزلوا بعد بزاويتي فليكونوا عندي وضيافتك تصلهم فقال افعل فانتقلنا الى زاويته وأقمنا بها ستا في ضيافته وفي ضيافة الامير ثم بعث الامير بفرس وكسوة ودراهم وكتب لنوابه بالبلاد ان يضيفونا ويكرمونا ويزودونا وسافرنا الى مدينة اماصية (وضبط اسمها بفتح الهمزة والميم وألف وصاد مهمل مكسور وياء آخر الحروف مفتوحة) مدينة كبيرة حسنة ذات أنهار وبساتين وأشجار وفواكه كثيرة وعلى أنهارها النواعير تسقي جناتها ودورها وهي فسيحة الشوارع والاسواق وملكها لصاحب العراق ويقرب منها بلد سونسي (وضبط اسمها بضم السين المهمل وواو ومد ونون مضموم وسين مهمل مفتوح) وهي لصاحب العراق أيضاً وبها سكنى أولاد ولي الله تعالى أبي العباس أحمد الرفاعي منهم الشيخ عز الدين وهو الآن شيخ الرواق وصاحب سجادة الرفاعي واخوته الشيخ علي والشيخ ابراهيم والشيخ يحيي أولاد الشيخ أحمد كوجك ومعناه الصغير ابن تاج الدين الرفاعي ونزلنا بزاويتهم ورأينا لهم الفضل على من سواهم ثم سافرنا الي مدينة كمش (وضبط اسمها بضم الكاف وكسر الميم وشين معجم) وهي من بلاد ملك العراق مدينة كبيرة عامرة يأتيها التجار من العراق والشام وبها معادن الفضة وعلى مسيرة يومين منها جبال شامخة وعرة لم أصل اليها ونزلنا منها بزاوية الاخي مجد الدين وأقمنا بها ثلاثا في ضيافته وفعل أفعال من قبله وجاء الينا نائب الامير أرتنا وبعث بضيافة وزاد وانصرفنا على تلك البلاد فوصلنا الى أرزنجان (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان الراء وفتح الزاي وسكون النون وجيم وألف ونون) وهي من بلاد صاحب العراق مدينة كبيرة عامرة وأكثر سكانها الارمن والمسلمون يتكلمون بها بالتركية ولها أسواق حسنة الترتيب ويصنع بها ثياب حسان تنسب اليها وفيها معادن النحاس ويصنعون منه الاواني

والبياسيس التي ذكرناها وهي شبه المنار عندنا ونزلنا منها بزاوية الفتى أخي حسام الدين وهي من أحسن الزوايا وهو أيضاً من خيار الفتيان وكبارهم أضافنا أحسن ضيافة وانصرفنا إلى مدينة أرز الروم وهي من بلاد ملك العراق كبيرة الساحة خرب أكثرها بسبب فتنة وقعت بين طائفتين من التركمان بها ويشقها ثلاثة أنهار وفي أكثر دورها بساتين فيها الأشجار والدوالي ونزلنا منها بزاوية الفتى أخي طومان وهو كبير السن يقال إنه أناف على مائة وثلاثين سنة ورأيته يتصرف على قدميه متوكئاً على عصا ثابت الذهن مواظباً للصلاة في أوقاتها لم ينكر من نفسه شيئاً إلا أنه لا يستطيع الصوم وخدمنا بنفسه في الطعام وخدمنا أولاده في الحمام وأردنا الانصراف عنه ثاني يوم نزولنا فشق عليه ذلك وأبى منه وقال إن فعلتم نقصتم حرمتي وإنما أقل الضيافة ثلاث فأقمنا لديه ثلاثاً ثم انصرفنا إلى مدينة بركي (وضبط اسمها بباء موحدة مكسورة وكاف معقود مكسور بينهما راء مسكن) ووصلنا إليها بعد العصر فلقينا رجلا من أهلها فسألناه عن زاوية الأخي بها فقال أنا أدلكم عليها فاتبعناه فذهب بنا إلى منزل نفسه في بستان له وأنزلنا بأعلى سطح بيته والأشجار مظللة وذلك أوان الحر الشديد وأتى إلينا بأنواع الفاكهة وأحسن في ضيافته وعلف دوابنا وبتنا عنده تلك الليلة وكنا قد تعرفنا أن بهذه المدينة مدرساً فاضلا يسمى بمحيي الدين فأتى بنا ذلك الرجل الذي بتنا عنده وكان من الطلبة إلى المدرسة وإذا بالمدرس قد أقبل راكباً على بغلة فارهة ومماليكه وخدامه عن جانبيه والطلبة بين يديه وعليه ثياب مفرجة حسان مطرزة بالذهب فسلمنا عليه فرحب بنا وأحسن السلام والكلام وأمسك بيدي وأجلسني إلى جانبه ثم جاء القاضي عز الدين فرشتي، ومعنى فرشتي الملك لقب بذلك لدينه وعفافه وفضله فقعد عن يمين المدرس وأخذ في تدريس العلوم الأصلية والفرعية ثم لما فرغ من ذلك أتى دويرة بالمدرسة فأمر بفرشها وأنزلني فيها وبعث ضيافة حافلة ثم وجه إلينا بعد المغرب فمضيت إليه فوجدته في مجلس ببستان له وهنالك صهريج ماء ينحدر إليه الماء من حوض رخام أبيض يدور به القاشاني وبين يديه جملة من الطلبة ومماليكه وخدامه وقوف

عن جانبيه وهو قاعد على مرتبة عليها أقطاع منقوشة حسنة خلته لما شاهدته ملكا من الملوك فقام الي واستقبلني وأخذ بيدي وأجلسني الى جانبه على مرتبته وأتي بالطعام فاكلنا وانصرفنا الى المدرسة وذكر لي بعض الطلبة ان جميع من حضر تلك الليلة من الطلبة عند المدرس فعادتهم الحضور لطعامه كل ليلة وكتب هذا المدرس الي السلطان بخبرنا وأثنى في كتابه والسلطان في جبل هنالك يصيف فيه لاجل شدة الحر وذلك الجبل بارد وعادته ان يصيف فيه

﴿ ذكر سلطان بركي ﴾

وهو السلطان محمد بن آيدين من خيار السلاطين وكرمائهم وفضلائهم ولما بعث اليه المدرس يعلمه بخبري وجه نائبه الي لآتيه فأشار على المدرس ان أقيم حتي يبعث عني ثانية وكان المدرس اذذاك قد خرجت برجله قرحة لا يستطيع الركوب بسببها وانقطع عن المدرسة ثم ان السلطان بعث في طلبي ثانية فشق ذلك على المدرس فقال انا لا أستطيع الركوب ومن غرضي التوجه معك لاقرر لدى السلطان ما يجب لك ثم انه تحامل ولف على رجله خرقا وركب ولم يضع رجله في الركاب وركبت أنا وأصحابي وصعدنا الى الجبل في طريق قد نحتت وسويت فوصلنا الى موضع السلطان عند الزوال فنزلنا على نهر ماء تحت ظلال شجر الجوز وصادفنا السلطان في قلق وشغل بال بسبب فرار ابنه الاصغر سليمان عنه الي صهره السلطان أورخان بك فلما بلغه خبر وصولنا بعث الينا ولديه خضر بك وعمر بك فسلما على الفقيه وأمرهما بالسلام علي ففعلا ذلك وسألاني عن حالي ومقدمي وانصرفا وبعث لي ببيت يسمي عندهم الخرقة (خركاه) وهو عصي من الخشب تجمع شبه القبة وتجعل عليها اللبود ويفتح أعلاه لدخول الضوء والريح مثل البادهنج ويسد متي احتيج الى سده وأتوا بالفرش ففرشوه وقعد الفقيه وقعدت معه وأصحابه وأصحابي خارج البيت تحت ظلال شجر الجوز وذلك الموضع شديد البرد ومات لي تلك الليلة فرس من شدة البرد ولما كان من الغد ركب المدرس الي السلطان وتكلم في شأني بما اقتضته فضائله ثم عاد الي

عليه وقعد الفقيه عن يمينه وأنا مما يلي الفقيه فسألني عن حالي و مقدمي وسألني عن الحجاز ومصر والشام واليمن والعراقين وبلاد الاعاجم ثم حضر الطعام فأكلنا وانصرفنا وبعث الارز والدقيق والسمن في كروش الاغنام وكذلك فعل الترك وأقمنا على تلك الحال أياما يبعث الينا في كل يوم فتحضر طعامه وأتي يوما الينا بعد الظهر وقعد الفقيه في صدر المجلس وأنا عن يساره وقعد السلطان عن يمين الفقيه وذلك لعزة الفقهاء عند الترك وطلب مني ان أكتب له أحاديث من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتبتها له وعرضها الفقيه عليه في تلك الساعة فأمره ان يكتب له شرحها باللسان التركي ثم قام فخرج ورأى الخدام يطبخون لنا الطعام تحت ظلال الجوز بغير أبزار ولا خضر فأمر بعقاب صاحب خزانته وبعث بالابزار والسمن وطالت اقامتنا بذلك الجبل فادركني الملل وأردت الانصراف وكان الفقيه أيضا قد مل من المقام هنالك فبعث الى السلطان يخبره اني أريد السفر فلما كان من الغد بعث السلطان نائبه فتكلم مع المدرس بالتركية ولم أكن اذذاك أفهمها فاجابه عن كلامه وانصرف فقال لي المدرس أتدري ماذا قال قلت لا أعرف ماقال قال ان السلطان بعث الي ليسألني ماذا يعطيك فقلت له عنده الذهب والفضة والخيل والعبيد فليعطه ما أحب من ذلك فذهب الى السلطان ثم عاد الينا فقال ان السلطان يأمر ان تقيما هنا اليوم وتنزلا معه غدا الى داره بالمدينة فلما كان من الغد بعث فرسا جيدا من مراكبه ونزل ونحن معه الى المدينة فخرج الناس لاستقباله وفيهم القاضي المذكور آنفا وسواه ودخل السلطان ونحن معه فلما نزل بباب داره ذهبت مع المدرس الي ناحية المدرسة فدعانا وأمرنا بالدخول معه الي داره فلما وصلنا الي دهليز الدار وجدنا من خدامه نحو عشرين صورهم فائقة الحسن وعليهم ثياب الحرير وشعورهم مفروقة مرسلة وألوانهم ساطعة البياض مشربة بحمرة فقلت للفقيه ماهذه الصور الحسان فقال هؤلاء فتيان روميون وصعدنا مع السلطان درجا كثيرة الى ان انتهينا الى مجلس حسن في وسطه صهريج ماء وعلى كل ركن من أركانه صورة سبع من نحاس يمج الماء من فيه وتدور بهذا المجلس مصاطب متراقية مفروشة [illegible]

الفقيه عن يمينه والقاضي مما يلي الفقيه وأنا مما يلي القاضي وقد لقراء أسفل المصطبة والقراء لا يفارقونه حيث كان من مجالسه ثم جاؤا بصحاف من الذهب والفضة مملوءة بالجلاب المحلول قد عصر فيه ماء الليمون وجعل فيه كعكات صغار مقسومة وفيها ملاعق ذهب وفضة وجاؤا معها بصحاف صيني فيها مثل ذلك وفيها ملاعق خشب فمن تورع استعمل صحاف الصيني وملاعق الخشب وتكلمت بشكر السلطان وأثنيت على الفقيه وبالغت في ذلك فأعجب ذلك السلطان وسره

﴿ حكاية ﴾

وفي أثناء قعودنا مع السلطان أتى شيخ على رأسه عمامة لها ذؤابة فسلم عليه وقام له القاضي والفقيه وقعد أمام السلطان فوق المصطبة والقراء أسفل منه فقلت للفقيه من هذا الشيخ فضحك وسكت ثم أعدت السؤال فقال لي هذا يهودي طبيب وكلنا محتاج اليه فلاجل هذا فعلنا ما رأيت من القيام له فأخذني ما حدث وقديم من الامتعاض فقلت لليهودي يا ملعون ابن ملعون كيف تجلس فوق قراء القرآن وأنت يهودي وشتمته ورفعت صوتي فعجب السلطان وسأل عن معنى كلامي فأخبره الفقيه به وغضب اليهودي وخرج عن المجلس في أسوإ حال ولما انصرفنا قال لي الفقيه أحسنت بارك الله فيك ان أحدا سواك لا يتجاسر على مخاطبته بذلك ولقد عرفته بنفسه

﴿ حكاية أخرى ﴾

وسألني السلطان في هذا المجلس فقال لي هل رأيت قط حجرا نزل من السماء فقلت ما رأيت ذلك ولا سمعت به فقال لي انه قد نزل بخارج بلدنا هذا حجر من السماء ثم دعا رجالا وأمرهم أن يأتوا بالحجر فأتوا بحجر أسود أصم شديد الصلابة له بريق قدرت أن زنته تبلغ قنطارا وأمر السلطان باحضار القطاعين فحضر أربعة منهم فأمرهم أن يضربوا عليه فضربوا عليه ضربة رجل واحد أربع مرات بمطارق الحديد فلم يؤثروا فيه شيئا فعجبت من أمره وأمر برده الى حيث كان وفي ثالث يوم من دخولنا الى المدينة مع السلطان صنع ... العلماء والمشايخ وأعيان العسكر ووجوه أهل المدينة فطعموا وقرأ

الحلواء والشمع في كل ليلة ثم بعث الي مائة مثقال ذهبا وألف درهم وكسوة كاملة وفرسا ومملوكا روميا يسمي ميخائيل وبعث لكل من أصحابي كسوة ودراهم كل هذا بمشاركة المدرس محيي الدين جزاه الله تعالى خيرا وودعنا وانصرفنا وكانت مدة مقامنا عنده بالجبل والمدينة أربعة عشر يوما ثم قصدنا مدينة تيرة وهي من بلاد هذا السلطان (وضبط اسمها بكسر التاء المعلوة وياء مد وراء) مدينة حسنة ذات أنهار وبساتين وفواكه نزلنا منها بزاوية الفتى أخي محمد وهو من كبار الصالحين صائم الدهر وله أصحاب على طريقته فأضافنا ودعا لنا وسرنا الي مدينة أياسلوق (وضبط اسمها بفتح الهمزة والياء آخر الحروف وسين مهمل مضموم ولام مضموم وآخره قاف) مدينة كبيرة قديمة معظمة عند الروم وفيها كنيسة كبيرة مبنية بالحجارة الضخمة ويكون طول الحجر منها عشرة أذرع فما دونها منحوتة أبدع نحت والمسجد الجامع بهذه المدينة من أبدع مساجد الدنيا لا نظير له في الحسن وكان كنيسة للروم معظمة عندهم يقصدونها من البلاد فلما فتحت هذه المدينة جعلها المسلمون مسجدا جامعا وحيطانه من الرخام الملون وفرشه الرخام الابيض وهو مسقف بالرصاص وفيه احدى عشرة قبة منوعة في وسط كل قبة صهريج ماء والنهر يشقه وعن جانبي النهر الاشجار المختلفة الاجناس ودوالي العنب ومعرشات الياسمين وله خمسة عشر بابا وأمير هذه المدينة خضر بك ابن السلطان محمد بن آيدين وقد كنت رأيته عند أبيه ببركي ثم لقيته بهذه المدينة خارجها فسلمت عليه وانا راكب فكره ذلك مني وكان سبب حرماني لديه فان عادتهم اذا نزل لهم الوارد نزلوا له وأعجبهم ذلك ولم يبعث الى الا ثوبا واحدا من الحرير المذهب يسمونه النخ (بفتح النون وخاء معجم) واشتريت بهذه المدينة جارية رومية بكرا بأربعين دينارا ذهبا ثم سرنا الي مدينة يزمير (وضبط اسمها بياء آخر الحروف مفتوحة وزاي مسكن وميم مكسورة وياء مد وراء) مدينة كبيرة على ساحل البحر معظمها خراب ولها قلعة متصلة بأعلاها نزلنا منها بزاوية الشيخ يعقوب وهو من الاحمدية صالح فاضل ولقينا بخارجها الشيخ عز الدين بن أحمد الرفاعي ومعه زاده الاخلاطي من كبار المشايخ ومعه مائة فقير من المولهين وقد ضرب لهم الامير الاخية وصنع

لهم الشيخ يعقوب ضيافة وحضرتها واجتمعت بهم وأمير هذه المدينة عمر بك ابن السلطان محمد بن آيدين المذكور آنفا وسكناه بقلعتها وكان حين قدومنا عليها عند أبيه ثم قدم بعد خمس من نزولنا بها فكان من مكارمه ان أتى الي بالزاوية فسلم علي واعتذر وبعث ضيافة عظيمة وأعطاني بعد ذلك مملوكا روميا خماسيا اسمه نقوله وثوبين من الكمخا وهي ثياب حرير تصنع ببغداد وتبريز ونيسابور وبالصين وذكر لي الفقيه الذي يؤم به ان الامير لم يبق له مملوك سوى ذلك المملوك الذي أعطاني بسبب كرمه رحمه الله وأعطي أيضا للشيخ عز الدين ثلاثة أفراس مجهزة وآنية فضة كبيرة تسمي عندهم المشربة مملوءة دراهم وثيابا من الملف والمرعز والقدسي والكمخا وجواري وغلمانا وكان هذا الامير كريما صالحا كثير الجهاد له أجفان غزوية يضرب بها على نواحي القسطنطينية العظمي فيسبي ويغنم ويفني ذلك كرما وجودا ثم يعود الى الجهاد الى ان اشتدت على الروم وطأته فرفعوا أمرهم الي البابا فأمر نصارى جنوة وافرانسة بغزوه فغزوه وجهز جيشا من رومية وطرقوا مدينته ليلا في عدد كثير من الاجفان وملكوا المرسى والمدينة ونزل اليهم الامير عمر من القلعة فقاتلهم فاستشهد هو وجماعة من ناسه واستقر النصاري بالبلد ولم يقدروا على القلعة لمنعتها ثم سافرنا من هذه المدينة الى مدينة مغنيسية (وضبط اسمها بفتح الميم وغين معجمة مسكنة ونون مكسورة وياء مد وسين مهملة مكسورة وياء آخر الحروف مفتوحة) نزلنا بها عشي يوم عرفة بزاوية رجل من الفتيان وهي مدينة كبيرة حسنة في سفح جبل وبسيطها كثير الانهار والعيون والبساتين والفواكه

﴿ذكر سلطان مغنيسية﴾

ولما وصلنا الي هذه البلدة وجدناه بتربة ولده وكان قد توفي منذ أشهر فكان ليلة العيد وصبيحتها بتربته والولد قد صبر وجعل في تابوت خشب مغشي بالقصدير وعلق في قبة لاسقف لها الان تذهب رائحته وحينئذ تسقف القبة ويجعل تابوته ظاهرا على وجه الارض وتجعل ثيابه عليه وهكذا رأيت غيره من الملوك فعلوا وسلمنا عليه بذلك الموضع وصلينا معه صلاة العيد وعدنا الى الزاوية

فأخذ الغلام الذي كان لي افراسنا وتوجه مع غلام لبعض الاصحاب برسم سقيها فأبطأ ثم لما كان العشي لم يظهر لهما أثر وكان بهذه المدينة الفقيه المدرس الفاضل مصلح الدين فركب معي الي السلطان وأعلمناه بذلك فبعث في طلبهما فلم يوجدا واشتغل الناس في عيدهم وقصدا مدينة للكفار على ساحل البحر تسمي فوجة على مسيرة يوم من مغنيسية وهؤلاء الكفار في بلد حصين وهم يبعثون هدية في كل سنة الى سلطان مغنيسية فيقنع منهم بها لحصانة بلدهم فلما كان بعد الظهر أتي بهما بعض الاتراك وبالافراس وذكروا انهما اجتازا بهم عشية النهار فأنكروا أمرهما واشتدوا عليهما حتى أقرا بما عزما عليه من الفرار ثم سافرنا من مغنيسية وبتنا ليلة عند قوم من التركمان قد نزلوا في مرعى لهم ولم نجد عندهم ما تعلف دوابنا تلك الليلة وبات أصحابنا يحترسون مداولة بينهم خوف السرقة فأتت نوبة الفقيه عفيف الدين التوزري فسمعته يقرأ سورة البقرة فقلت له اذا أردت النوم فاعلمني لانظر من يحترس ثم نمت فما أيقظني الا الصباح وقد ذهب السراق بفرس لي كان يركبه عفيف الدين بسرجه ولجامه وكان من جياد الخيل اشتريته بأيا سلوق ثم رحلنا من الغد فوصلنا الى مدينة برغمة (وضبط اسمها بباء موحدة مفتوحة وراء مسكنة وغين معجمة مفتوحة وميم مفتوحة) مدينة خربة لها قلعة عظيمة منيعة باعلى جبل ويقال ان افلاطون الحكيم من أهل هذه المدينة وداره تشتهر باسمه الي الآن ونزلنا منها بزاوية فقير من الاحمدية ثم جاء أحد كبراء المدينة فنقلنا الي داره وأكرمنا اكراماً كثيراً

﴿ذكر سلطان برغمة﴾

وسلطانها يسمي يخشي خان بكسر الشين وخان عندهم هو السلطان ويخشي (بياء آخر الحروف وخاء معجم وشين معجم مكسور) ومعناه جيد صادفناه في مصيف له فأعلم بقدومنا فبعث بضيافة وثوب قدسي ثم اكترينا من يدلنا على الطريق وصرنا في جبال شامخة وعرة الي أن وصلنا الي مدينة بلي كسري (وضبط اسمها بباء موحدة مفتوحة ولام مكسور وياء مد وكاف مفتوح وسين مهمل مسكن وراء مكسور وياء) مدينة حسنة

كثيرة العمارات مليحة الاسواق ولا جامع لها يجمع فيه وأرادوا بناء جامع خارجها
متصل بها فبنوا حيطانه ولم يجعلوا له سقفا وهم يصلون به ويجمعون تحت ظلال الاشجار
ونزلنا من هذه المدينة بزاوية الفتى أخي سنان وهو من أفاضلهم وأتى الينا قاضيها وخطيبها
الفقيه موسى

﴿ذكر سلطان بلي كسري﴾

ويسمى دمورخان ولا خير فيه وأبوه هو الذي بنى هذه المدينة وكثرت عمارتها بمن لا خير
فيه في مدة ابنه هذا والناس على دين الملك ورأيته وبعث الي ثوب حرير واشتريت بهذه
المدينة جارية رومية تسمى مرغليطة ثم سرنا الي مدينة برصي (وضبط اسمها بضم
الباء الموحدة واسكان الراء وفتح الصاد المهمل) مدينة كبيرة عظيمة حسنة الاسواق
فسيحة الشوارع تحفها البساتين من جميع جهاتها والعيون الجارية وبخارجها نهر شديد
الحرارة يصب في بركة عظيمة وقد بني عليها بيتان أحدهما للرجال والآخر للنساء
والمرضى يستشفون بهذه الحمة ويأتون اليها من أقاصي البلاد وهنالك زاوية للواردين
ينزلون بها ويطعمون مدة مقامهم وهي ثلاثة أيام عمر هذه الزاوية أحد ملوك التركمان
ونزلنا في هذه المدينة بزاوية الفتى أخي شمس الدين من كبار الفتيان ووافقنا عنده يوم
عاشوراء فصنع طعاما كثيرا ودعا وجوه العسكر وأهل المدينة ليلا وأفطروا عنده وقرأ
القراء بالاصوات الحسنة وحضر الفقيه الواعظ مجد الدين القونوي ووعظ وذكر
وأحسن ثم أخذوا في السماع والرقص وكانت ليلة عظيمة الشأن وهذا الواعظ من
الصالحين يصوم الدهر ولا يفطر الا في كل ثلاثة أيام ولا يأكل الا من كد يده ويقال انه لم
يأكل طعام أحد قط ولا منزل له ولا متاع الا ما يستتر به ولا ينام الا في المقبرة ويعظ في
المجالس ويذكر فيتوب على يديه في كل مجلس الجماعة من الناس طلبته بعد هذه الليلة
فلم أجده وأتيت الجبانة فلم أجده ويقال انه يأتيها بعد هجوع الناس

﴿حكاية﴾

لما حضرنا ليلة عاشوراء بزاوية شمس الدين وعظ بها مجد الدين من آخر الليل فصاح
أحد الفقراء صيحة غشي عليه منها فصبوا عليه ماء الورد فلم يفق فأعادوا عليه ذلك فلم يفق

واختلفت الناس فيه فمن قائل انه ميت ومن قائل انه مغشى عليه وأتم الواعظ كلامه وقرأ القراء وصلينا الصبح وطلعت الشمس فاختبروا حال الرجل فوجدوه فارق الدنيا رحمه الله فاشتغلوا بغسله وتكفينه وكنت فيمن حضر الصلاة عليه ودفنه وكان هذا الفقير يسمي الصياح وذكروا انه كان يتعبد بغار هنالك في جبل فمتى علم ان الواعظ مجد الدين يعظ قصده وحضر وعظه ولم يأكل طعام أحد فاذا وعظ مجد الدين يصيح ويغشي عليه ثم يفيق فيتوضأ ويصلي ركعتين ثم اذا سمع الواعظ صاح يفعل ذلك مرارا في الليلة وسمى الصياح لاجل ذلك وكان أعذر اليد والرجل لاقدرة له على الخدمة وكانت له والدة تقوته من غزلها فلما توفيت اقتات من نبات الارض ولقيت بهذه المدينة الشيخ الصالح عبد الله المصري السائح وهو من الصالحين جال الارض الا انه لم يدخل الصين ولا جزيرة سرنديب ولا المغرب ولا الاندلس ولا بلاد السودان وقد زدت عليه بدخول هذه الاقاليم

﴿ ذكر سلطان برصي ﴾

وسلطانها اختيار الدين أرخان بك وأرخان (بضم الهمزة وخاء معجم) ابن السلطان عثمان جوق (وجوق بجيم معقود مضموم وآخره قاف) وتفسيره بالتركية الصغير وهذا السلطان أكبر ملوك التركمان وأكثرهم مالا وبلادا وعسكرا له من الحصون مايقارب مائة حصن وهو في أكثر أوقاته لايزال يطوف عليها ويقيم بكل حصن منها أياما لاصلاح شؤنه وتفقد حاله ويقال انه لم يقم قط شهرا كاملا ببلد ويقاتل الكفار ويحاصرهم ووالده هو الذي استفتح مدينة برصي من أيدي الروم وقبره بمسجدها وكان مسجدها كنيسة للنصاري ويذكر انه حاصر مدينة يرنيك نحو عشرين سنة ومات قبل فتحها فحاصرها ولده هذا الذي ذكرناه اثني عشرة سنة وافتتحها وبها كان لقائي له وبعث الي بدراهم كثيرة ثم سافرنا الى مدينة يزنيك (وضبط اسمها بفتح الياء آخر الحروف واسكان الزاي وكسر النون وياء مد وكاف) وبتنا قبل الوصول اليها ليلة بقرية تدعي كرلة بزاوية فتى من الاخية ثم سافرنا من هذه القرية يوما كاملا في أنهار ماء على جوانبها أشجار الرمان

الحلو والحامض ثم وصلنا الى بحيرة ماء تنبت القصب على ثمانية أميال من يزنيك لا يستطاع دخولها الا على طريق واحد مثل الجسر لا يسلك عليها الا فارس واحد وبذلك امتنعت هذه المدينة والبحيرة محيطة بها من جميع الجهات وهي خاوية على عروشها لا يسكن بها الا أناس قليلون من خدام السلطان وبها زوجته بيلون خاتون وهي الحاكمة عليهم امرأة صالحة فاضلة وعلى المدينة أسوار أربعة بين كل سورين خندق وفيه الماء ويدخل اليها على جسور خشب متى أرادوا رفعها رفعوها وبداخل المدينة البساتين والدور والارض والمزارع فلكل انسان داره ومزرعته وبستانه مجموعة وشربها من آبار بها قريبة وبها من جميع أصناف الفواكه والجوز والقسطل عندهم كثير جدا رخيص الثمن ويسمون القسطل قسطنة بالنون والجوز القوز بالقاف وبها العنب العذاري لم أر مثله في سواها متناهي الحلاوة عظيم الجرم صافي اللون رقيق القشر للحبة منه نواة واحدة أنزلنا بهذه المدينة الفقيه الامام الحاج المجاور علاء الدين السلطانيوكي وهو من الفضلاء الكرماء ما جئت قط الى زيارته الا أحضر الطعام وصورته حسنة وسيرته أحسن وتوجه معي الى الخاتون المذكورة فاكرمت وأضافت وأحسنت وبعد قدومنا بأيام وصل الى هذه المدينة السلطان أورخان بك الذي ذكرناه وأقمت بهذه المدينة نحو أربعين يوما بسبب مرض فرس لي فلما طال على المكث تركته وانصرفت ومعي ثلاثة من أصحابي وجارية وغلامان وليس معنا من يحسن اللسان التركي ويترجم عنا وكان لنا ترجمان فارقنا بهذه المدينة ثم خرجنا منها فبتنا بقرية يقال لها مكجا (بفتح الميم والكاف والجيم) بتنا عند فقيه بها أكرمنا وأضافنا وسافرنا من عنده وتقدمتنا امرأة من الترك على فرس ومعها خديم لها وهي قاصدة مدينة ينجا ونحن في اتباع أثرها فوصلت إلى واد كبير يقال له سقري كأنه نسب الى سقر أعاذنا الله منها فذهبت تجوز الوادي فلما توسطته كادت الدابة تغرق بها ورمتها عن ظهرها وأراد الخديم الذي كان معها استخلاصها فذهب الوادي بهما معا وكان في عدوة الوادي قوم رموا بانفسهم في أثرهما سباحة فاخرجوا المرأة وبها من الحياة رمق ووجدوا الرجل قد قضى نحبه رحمه الله وأخبرنا أولئك الناس ان المعدية أسفل من ذلك الموضع فتوجهنا اليها

وهي أربع خشبات مربوطة بالحبال يجعلون عليها سروج الدواب والمتاع ويجذبها الرجال من العدوة الاخرى ويركب عليها الناس وتجاز الدواب سباحة وكذلك فعلنا ووصلنا تلك الليلة الى كاوية واسمها على مثال فاعلة من الكي نزلنا منها بزاوية أحد الاخية فكلمناه بالعربية فلم يفهم عنا وكلمنا بالتركية فلم نفهم عنه فقال اطلبوا الفقيه فانه يعرف العربية فأتي الفقيه فكلمنا بالفارسية وكلمناه بالعربية فلم يفهمها منا فقال للفتى ايشان عربي كهنا ميتوان (ميكويند) ومن عربي نوميدانم وايشان معناه هؤلاء وكهنا قديم وميقوان يقولون ومن أنا ونوجديد وميدانم تعرف وانما أراد الفقيه بهذا الكلام ستر نفسه عن الفضيحة حين ظنوا انه يعرف اللسان العربي وهو لا يعرفه فقال لهم هؤلاء يتكلمون بالكلام العربي القديم وأنا لا أعرف الا العربي الجديد فظن الفتي ان الامر على ماقاله الفقيه ونفعنا ذلك عنده وبالغ في اكرامنا وقال هؤلاء تجب كرامتهم لانهم يتكلمون باللسان العربي القديم وهو لسان النبي صلى الله عليه وسلم تسليما وأصحابه ولم نفهم كلام الفقيه إذاك لكني حفظت لفظه فلما تعلمت اللسان الفارسي فهمت مراده وبتنا تلك الليلة بالزاوية وبعث معنا دليلا الي ينجا وضبط اسمها (بفتح الياء آخر الحروف وكسر النون وجيم) بلدة كبيرة حسنة بحثنا بها عن زاوية الاخي فوجدنا أحد الفقراء المولهين فقلت له هذه زاوية الاخي فقال لي نعم فسررت عند ذلك اذ وجدت من يفهم اللسان العربي فلما اختبرته أبرز الغيب انه لا يعرف من اللسان العربي الا كلمة نعم خاصة ونزلنا بالزاوية وجاء الينا أحد الطلبة بطعام ولم يكن الاخي حاضرا وحصل الانس بهذا الطالب ولم يكن يعرف اللسان العربي لكنه تفضل وتكلم مع نائب البلدة فأعطاني فارسا من أصحابه وتوجه معنا الي كينوك (وضبط اسمها بفتح الكاف وسكون الياء وضم النون) وهي بلدة صغيرة يسكنها كفار الروم تحت ذمة المسلمين وليس بها غير بيت واحد من المسلمين وهم الحكام عليهم وهي من بلاد السلطان أرخان بك فنزلنا بدار عجوز كافرة وذلك إبان الثلج والشتاء فأحسنا اليها وبتنا عندها تلك الليلة وهذه البلدة لا شجر بها ولا دوالي العنب ولا يزرع بها الى الزعفران وأتتنا هذه العجوز بزعفران كثير وظنت أننا تجار نشتريه منها ولما كان الصباح ركبنا وأتانا

الفارس الذي بعثه الفتى معنا من كاوية فبعث معنا فارساً غيره ليوصلنا الى مدينة مطرني وقد وقع في تلك الليلة ثلج كثير عفى الطرق فتقدمنا ذلك الفارس فاتبعنا أثره الى أن وصلنا في نصف النهار الى قرية للتركمان فأتوا بطعام فأكلنا منه وكلمهم ذلك الفارس فركب معنا أحدهم وسلك بنا أوعاراً وجبالا ومجرى ماء تكرر لنا جوازه أزيد من الثلاثين مرة فلما خلصنا من ذلك قال لنا ذلك الفارس أعطوني شيئاً من الدراهم فقلنا له اذا وصلنا الى المدينة نعطيك ونرضيك فلم يرض ذلك منا أو لم يفهم عنا فأخذ قوساً لبعض أصحابي ومضى غير بعيد ثم رجع فرد الينا القوس فأعطيته شيئاً من الدراهم فأخذها وهرب عنا وتركنا لا نعرف أين نقصد ولا طريق يظهر لنا فكنا نتلمح أثر الطريق تحت الثلج ونسلكه الى أن بلغنا عند غروب الشمس الى جبل يظهر الطريق به لكثرة الحجارة فخفت الهلاك على نفسي ومن معي وتوقعت نزول الثلج ليلا ولا عمارة هنالك فان نزلنا عن الدواب هلكنا وان سرينا ليلتنا لا نعرف أين نتوجه وكان لي فرس من الجياد فعملت على الخلاص وقلت في نفسي اذا سلمت لعلي أحتال في سلامة أصحابي فكان كذلك واستودعتهم الله تعالى وسرت وأهل تلك البلاد يبنون على القبور بيوتاً من الخشب يظن رائيها أنها عمارة فيجدها قبوراً فظهر لي منها كثير فلما كان بعد العشاء وصلت الى بيوت فقلت اللهم اجعلها عامرة فوجدتها عامرة ووفقني الله تعالى الى باب دار فرأيت عليها شيخاً فكلمته بالعربي فكلمني بالتركي وأشار الي بالدخول فأخبرته بشأن أصحابي فلم يفهم عني وكان من لطف الله ان تلك الدار زاوية للفقراء والواقف بالباب شيخها فلما سمع الفقراء الذين بداخل الزاوية كلامي مع الشيخ خرج بعضهم وكانت بيني وبينه معرفة فسلم علي وأخبرته خبر أصحابي وأشرت اليه بأن يمضي مع الفقراء لاستخلاص الاصحاب ففعلوا ذلك وتوجهوا معي الى أصحابي وجئنا جميعاً الى الزاوية وحمدنا الله تعالى على السلامة وكانت ليلة جمعة فاجتمع أهل القرية وقطعوا ليلتهم بذكر الله تعالى وأتى كل منهم بما تيسر له من الطعام وارتفعت المشقة ورحلنا عند الصباح فوصلنا الى مدينة مطرني عند صلاة الجمعة (وضبط اسمها بضم الميم والطاء المهملة واسكان الراء وكسر النون وياء مد) فنزلنا بزاوية أحد الفتيان الاخية وبها جماعة

من المسافرين ولم نجد مربطاً للدواب فصلينا الجمعة ونحن في قلق لكثرة الثلج والبرد وعدم المربط فلقينا أحد الحجاج من أهلها فسلم علينا وكان يعرف اللسان العربي فسررنا برؤيته وطلبت منه أن يدلنا على مربط للدواب بالكراء فقال أما ربطها في منزل فلا يتأتى لان أبواب دور هذه البلدة صغار لا تدخل عليها الدواب ولكني أدلكم على سقيفة بالسوق يربط فيها المسافرون دوابهم والذين يأتون لحضور السوق فدلنا عليها وربطنا بها دوابنا ونزل أحد الأصحاب بحانوت خال ازاءها ليحرس الدواب

﴿حكاية﴾

وكان من غريب ما اتفق لنا اني بعثت أحد الخدام ليشتري التبن للدواب وبعثت أحد يشتري السمن فاتي أحدهما بالتبن والآخر دون شيء وهو يضحك فسألناه عن سبب ضحكه فقال انا وقفنا على دكان بالسوق فطلبنا منه السمن فأشار الينا بالوقوف وكلم ولداً له فدفعنا اليه الدراهم فأبطأ ساعة وأتى بالتبن فأخذناه منه وقلنا له انا نريد السمن فقال هذا السمن وأبرز الغيب انهم يقولون للتبن سمن بلسان الترك وأما السمن فيسمى عندهم روغن ولما اجتمعنا بهذا الحاج الذي يعرف اللسان العربي رغبنا منه أن يسافر معنا الى قسطمونية وبينها وبين هذه البلدة مسيرة عشر وكسوته ثوباً مصرياً من ثيابي وأعطيته نفقة تركها لأهله وعينت له دابة لركوبه ووعدته الخير وسافر معنا فظهر لنا من حاله انه صاحب مال كثير وله ديون على الناس غير انه ساقط الهمة خسيس الطبع سيء الافعال وكنا نعطيه الدراهم لنفقتنا فيأخذ ما يفضل من الخبز ويشتري به الابزار والخضر والملح ويمسك ثمن ذلك لنفسه وذكر لي انه كان يسرق من دراهم النفقة دون ذلك وكنا نحتمله لما كنا نكابده من المعرفة بلسان الترك وانتهت حاله الى ان فضحناه وكنا نقول له في آخر النهار يا حاج سرقت اليوم من النفقة فيقول كذا فنضحك منه ونرضى بذلك ومن أفعاله الخسيسة انه انا فرس في بعض المنازل فتولى سلخ جلده بيده وباعه ومنها انا نزلنا ليلة عند أخت له في احدى القرى فجاءت بطعام وفاكهة من الاجاص والتفاح والمشمش والخوخ كله ميبس وتنقعه في الماء حتى ترطب فتؤكل ويشرب ماؤها فأردنا ان نحسن اليها فعلم بذلك فقال لا تعطوها

وصلنا الى مدينة بولى (وضبط اسمها بباء موحدة مضمومة وكسر اللام) ولما انتهينا الى قريب منها وجدنا واديا يظهر في رأى العين صغيرا فلما دخله بعض أصحابنا وجدوه شديد الجرية والانزعاج فجازوه جميعا وبقيت جارية صغيرة خافوا من تجويزها وكان فرسي خيرا من أفراسهم فاردفتها وأخذت في جواز الوادي فلما توسطته وقع بي الفرس ووقعت الجارية فأخرجها أصحابي وبها رمق وخلصت أنا ودخلنا المدينة فقصدنا زاوية أحد الفتيان الاخية ومن عوائدهم انه لا تزال النار موقودة في زواياهم أيام الشتاء أبدا يجعلون في كل ركن من أركان الزاوية موقدا للنار ويصنعون لها منافس يصعد منها الدخان ولا يؤذي الزاوية ويسمونها البخاري واحدها بخيري قال ابن جزي وقد أحسن صفي الدين عبد العزيز بن سرايا الحلي في قوله في التورية وتذكرته بذكر البخيري

ان البخيري مذ فارقتموه غدا * يحثو الرماد على كانونه الترب
لو شئتم انه يدعي أبا لهب * جاءت بغالكم حمالة الحطب

(رجع) قال فلما دخلنا الزاوية وجدنا النار موقودة فنزعت ثيابي ولبست ثيابا سواها لطليت بالنار وأتى الاخى بالطعام والفاكهة وأكثر من ذلك فلله درهم من طائفة ما أكرم نفوسهم وأشد إيثارهم وأعظم شفقتهم على الغريب وألطفهم بالوارد وأحبهم فيه وأجملهم احتفالا بأمره فليس قدوم الانسان الغريب عليهم الا كقدومه على احب أهله اليه وبتنا تلك الليلة بحال رضية ثم رحلنا بالغداة فوصلنا الى مدينة كردي بولي (وضبط اسمها بكاف معقودة وفتح الراء والدال المهمل وسكون الياء وباء موحدة مضمومة وواو ولام مكسورة وياء) وهي مدينة كبيرة في بسيط من الارض حسنة متسعة الشوارع والاسواق من أشد البلاد بردا وهي محلات مفترقة كل محلة تسكنها طائفة لا يخالطهم غيرهم

﴿ ذكر سلطانها ﴾

وهو السلطان شاه بك من متوسطي سلاطين هذه البلاد حسن الصورة والسيرة حسن

الفقيه شمس الدين الدمشقي الحنبلي وهو من مستوطنيها منذ سنين وله بها أولاد وهو فقيه هذا السلطان وخطيبه ومسموع الكلام عنده ودخل علينا هذا الفقيه بالزاوية فاعلمنا ان السلطان قد جاء لزيارتنا فشكرته على فعله واستقبلت السلطان فسلمت عليه وجلس فسألني عن حالي وعن مقدمي وعمن لقيته من السلاطين فاخبرته بذلك كله وأقام ساعة ثم انصرف وبعث بدابة مسرجة وكسوة وانصرفنا الى مدينة برلو (وضبط اسمها بضم الباء الموحدة واسكان الراء وضم اللام) وهي مدينة صغيرة على تل تحتها خندق ولها قلعة بأعلى شاهق نزلنا منها بمدرسة فيها حسنة وكان الحاج الذي سافر معنا يعرف مدرسها وطلبتها ويحضر معهم الدرس وهو على علاته من الطلبة حنفي المذهب ودعانا أمير هذه البلدة وهو علي بك ابن السلطان المكرم سليمان بادشاه ملك قسطمونية وسنذكره فصعدنا اليه الى القلعة فسلمنا عليه فرحب بنا وأكرمنا وسألني عن اسفاري وحالي فأجبته عن ذلك وأجلسني الى جانبه وحضر قاضيه وكاتبه الحاج علاء الدين محمد وهو من كبار الكتاب وحضر الطعام فأكلنا ثم قرأ القراء بأصوات مبكية وألحان عجيبة وانصرفنا وسافرنا بالغد الى مدينة قصطمونية (وضبط اسمها بقاف مفتوح وصاد مهمل مسكن وطاء مهمل مفتوح وميم مضمومة وواو ونون مكسور وياء آخر الحروف) وهي من أعظم المدن وأحسنها كثيرة الخيرات رخيصة الاسعار نزلنا منها بزاوية شيخ يعرف بالاطروش لثقل سمعه ورأيت منه عجبا وهو ان احد الطلبة كان يكتب له في الهواء وتارة في الارض بأصبعه فيفهم عنه ويجيبه ويحكي له بذلك الحكايات فيفهمها وأقمنا بهذه المدينة نحو أربعين يوما فكنا نشتري طابق اللحم الغنمي السمين بدرهمين ونشتري خبزا بدرهمين فيكفينا ليومنا ونحن عشرة ونشتري حلواء العسل بدرهمين فتكفينا أجمعين ونشتري جوزا بدرهم وقسطلا بمثله فنأكل منها أجمعون ويفضل باقيها ونشتري حمل الحطب بدرهم واحد وذلك أوان البرد الشديد ولم أر في البلاد مدينة أرخص أسعارا منها ولقيت بها الشيخ الامام العالم المفتي المدرس تاج الدين السلطانيوكي من كبار العلماء قرأ

المدرس صدر الدين سليمان الفنيكي من أهل فنيكة من بلاد الروم وأضافني بمدرسته التي بسوق الخيل ولقيت بها الشيخ المعمر الصالح داداأمير علي دخلت عليه بزاويته بمقربة من سوق الخيل فوجدته ملقى على ظهره فأجلسه بعض خدامه ورفع بعضهم حاجبيه عن عينيه ففتحهما وكلمني بالعربي الفصيح وقال قدمت خير مقدم وسألته عن عمره فقال كنت من أصحاب الخليفة المستنصر بالله وتوفي وأنا ابن ثلاثين سنة وعمري الآن مائة وثلاث وستون سنة فطلبت منه الدعاء فدعا لي وانصرفت

﴿ ذكر سلطان نصطونية ﴾

وهو السلطان المكرم سليمان بادشاه (واسمه بياء معقودة والسين والمسكن) وهو كبير السن ينيف على سبعين سنة حسن الوجه طويل اللحية صاحب وقار وهيبة يجالسه الفقهاء والصلحاء دخلت عليه بمجلسه فأجلسني إلى جانبه وسألني عن حالي ومقدمي وعن الحرمين الشريفين ومصر والشام فأجبته وأمر بإنزالي على قرب منه وأعطاني ذلك اليوم فرساً عتيقاً قرطاسي اللون وكسوة وعين لي نفقة وعلفاً وأمر لي بعد ذلك بقمح وشعير يقدلي في قرية من قرى المدينة على مسيرة نصف يوم منها فلم أجد من يشتريه لرخص الأسعار فأعطيته للحاج الذي كان في صحبتنا ومن عادة هذا السلطان أن يجلس كل يوم بمجلسه بعد صلاة العصر ويؤتى بالطعام فتفتح الأبواب ولا يمنع أحد من حضري أو بدوي أو غريب أو مسافر من الأكل ويجلس في أول النهار جلوساً خاصاً ويأتي ابنه فيقبل يديه وينصرف إلى مجلس له ويأتي أرباب الدولة فيأكلون عنده وينصرفون ومن عادته في يوم الجمعة أن يركب إلى المسجد وهو بعيد عن داره والمسجد المذكور هو ثلاث طبقات من الخشب فيصلي السلطان وأرباب دولته والقاضي والفقهاء ووجوه الأجناد في الطبقة السفلى ويصلي الافندي وهو أخو السلطان وأصحابه وخدامه وبعض أهل المدينة في الطبقة الوسطى ويصلي ابن السلطان ولي عهده وهو أصغر أولاده ويسمى الجواد وأصحابه ومماليكه وخدامه وسائر الناس في الطبقة العليا ويجتمع القراء فيقعدون حلقة أمام المحراب ويقعد معهم الخطيب والقاضي ويكون السلطان بإزاء المحراب ويقرؤون سورة الكهف

بأصوات حسان ويكررون الآيات بترتيب عجيب فاذا فرغوا من قراءتها صعد الخطيب المنبر فخطب ثم صلى فاذا فرغوا من الصلاة تنفلوا وقرأ القارئ بين يدي السلطان عشرا وانصرف السلطان ومن معه ثم يقرأ القارئ بين يدي أخي السلطان فاذا تم قراءته انصرف هو ومن معه ثم يقرأ القارئ بين يدي ابن السلطان فاذا فرغ من قراءته قام المعرف وهو المذكر فيمدح السلطان بشعر تركي ويمدح ابنه ويدعو لهما وينصرف ويأتي ابن الملك الى دار أبيه بعد ان يقبل يد عمه في طريقه وعمه واقف في انتظاره ثم يدخلان الى السلطان فيتقدم أخوه ويقبل يده ويجلس بين يديه ثم يأتي ابنه فيقبل يده وينصرف الى مجلسه فيقعد به مع ناسه فاذا حانت صلاة العصر صلوها جميعاً وقبل أخو السلطان يده وانصرف عنه فلا يعود اليه الا في الجمعة الاخرى وأما الولد فانه يأتي كل يوم غدوة كما ذكرناه ثم سافرنا من هذه المدينة ونزلنا في زاوية عظيمة باحدى القرى من أحسن زاوية رأيتها في تلك البلاد بناها أمير كبير تاب الى الله تعالى يسمى فخر الدين وجعل النظر فيها لولده والاشراف لمن أقام بالزاوية من الفقراء وفوائد القرية وقف عليها وبنى بازاء الزاوية حماما للسبيل يدخله الوارد والصادر من غير شيء يلزمه وبنى سوقا بالقرية ووقفه على المسجد الجامع وعين من أوقاف هذه الزاوية لكل فقير يرد من الحرمين الشريفين أو من الشام ومصر والعراقين وخراسان وسواها كسوة كاملة ومائة درهم يوم قدومه وثلاثمائة درهم يوم سفره والنفقة أيام مقامه وهي الخبز واللحم والارز المطبوخ بالسمن والحلواء ولكل فقير من بلاد الروم عشرة دراهم وضيافة ثلاثة أيام ثم انصرفنا وبتنا ليلة ثانية بزاوية في جبل شامخ لا عمارة فيه عمرها بعض الفتيان الاخية ويعرف بنظام الدين من أهل قصطمونية ووقف عليها قرية ينفق خراجها على الوارد والصادر بهذه الزاوية وسافرنا من هذه الزاوية الى مدينة صنوب (وضبط اسمها بفتح الصاد وضم النون وآخره باء) وهي مدينة حافلة جمعت بين التحصين والتحسين يحيط بها البحر من جميع جهاتها الا واحدة وهي جهة الشرق ولها هنالك باب واحد لا يدخل اليها أحد الا باذن أميرها وأميرها

ابراهيم بك ابن السلطان سليمان بادشاه الذي ذكرناه ولما استؤذن لنا عليه دخلنا البلد ونزلنا بزاوية عز الدين أخي جلبي وهي خارج باب البحر ومن هناك يصعد الى جبل داخل في البحر كميناسبتة فيه البساتين والمزارع والمياه وأكثر فواكهه التين والعنب وهو جبل مانع لا يستطاع الصعود اليه وفيه احدى عشرة قرية يسكنها كفار الروم تحت ذمة المسلمين وبأعلاه رابطة تنسب للخضر والياس عليهما السلام لا تخلو عن متعبد وعندها عين ماء والدعاء فيها مستجاب وبسفح هذا الجبل قبر الولي الصالح الصحابي بلال الحبشي وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر والمسجد الجامع بمدينة صنوب من أحسن المساجد وفي وسطه بركة ماء عليها قبة تقلها أربع أرجل ومع كل رجل ساريتان من الرخام وفوقها مجلس يصعد له على درج خشب وذلك من عمارة السلطان بروانه ابن السلطان علاء الدين الرومي وكان يصلي الجمعة بأعلى تلك القبة وملك بعده ابنه غازي جلبي فلما مات تغلب عليها السلطان سليمان المذكور وكان غازي جلبي المذكور شجاعا مقداما وهبه الله خاصية في الصبر تحت الماء وفي قوة السباحة وكان يسافر في الاجفان الحربية لحرب الروم فاذا كانت الملاقاة واشتغل الناس بالقتال غاص تحت الماء وبيده آلة حديد يخرق بها أجفان العدو فلا يشعرون بما حل بهم حتى يدهمهم الغرق وطرقت مرسى بلده مرة أجفان للعدو فخرقها واسر من كان فيها وكانت فيه كفاية لا كفاء لها الا انهم يذكرون انه كان يكثر أكل الحشيش وبسببه مات فانه خرج يوما للتصيد وكان مولعا به فاتبع غزالة ودخلت له بين أشجار وزاد في ركض فرسه فعارضته شجرة فضربت رأسه فشدخته فمات وتغلب السلطان سليمان على البلد وجعل به ابنه ابراهيم ويقال انه أيضاً يأكل ما كان يأكله صاحبه على ان أهل بلاد الروم كلها لا ينكرون أكلها ولقد مررت يوما على باب الجامع بصنوب وبخارجه دكاكين يقعد الناس عليها فرأيت نفرا من كبار الاجناد وبين أيديهم خديم لهم بيده شكارة مملوءة بشيء يشبه الحناء واحدهم يأخذ منها بملعقة ويأكل وأنا أنظر اليه ولا علم لي بما في الشكارة فسألت من كان معي فأخبرني انه الحشيش وأضافنا بهذه المدينة قاضيها ونائب الامير بها ومعلمه ويعرف بابن عبد الرزاق

﴿حكاية﴾

لما دخلنا هذه المدينة رآنا أهلها ونحن نصلي مسبلي أيدينا وهم حنفية لا يعرفون مذهب مالك ولا كيفية صلاته والمختار من مذهبه هو اسبال اليدين وكان بعضهم يرى الروافض بالحجاز والعراق يصلون مسبلي أيديهم فاتهمونا بمذهبهم وسألونا عن ذلك فأخبرناهم اننا على مذهب مالك فلم يقنعوا بذلك منا واستقرت التهمة في نفوسهم حتى بعث الينا نائب السلطان بأرنب وأوصى بعض خدامه ان يلازمنا حتى يرى ما نفعل به فذبحناه وطبخناه وأكلناه وانصرف الخديم اليه وأعلمه بذلك فحينئذ زالت عنا التهمة وبعثوا لنا بالضيافة والروافض لا يأكلون الارنب وبعد أربعة أيام من وصولنا الى صنوب توفيت أم الامير ابراهيم بها فخرجت في جنازتها وخرج ابنها على قدميه كاشفا شعره وكذلك الامراء والمماليك وثيابهم مقلوبة وأما القاضي والخطيب والفقهاء فانهم قلبوا ثيابهم ولم يكشفوا رؤسهم بل جعلوا عليها مناديل من الصوف الاسود عوضا عن العمائم وأقاموا يطعمون الطعام اربعين يوما وهي مدة العزاء عندهم وكانت اقامتنا بهذه المدينة نحو أربعين يوما ننتظر تيسير السفر في البحر الى مدينة القرم فاكترينا مركبا للروم وأقمنا أحد عشر يوما ننتظر مساعدة الريح ثم ركبنا البحر فلما توسطناه بعد ثلاث هال علينا واشتد بنا الامر ورأينا الهلاك عيانا وكنت بالطارمة ومعي رجل من أهل المغرب يسمى أبا بكر فأمرته ان يصعد الى أعلى المركب لينظر كيف البحر ففعل ذلك وأتاني بالطارمة فقال لي أستودعكم ودهمنا من الهول ما لم يعهد مثله ثم تغيرت الريح وردتنا الى مقربة من مدينة صنوب التي خرجنا منها وأراد بعض التجار النزول الى مرساها فمنعت صاحب المركب من انزاله ثم استقامت الريح وسافرنا فلما توسطنا البحر هال علينا وجرى لنا مثل المرة الاولى ثم ساعدت الريح ورأينا جبال البر وقصدنا مرسى يسمي الكرش فأردنا دخوله فأشار الينا أناس كانوا بالجبل ان لا تدخلوا فخفنا على أنفسنا وظننا ان هنالك أجفانا للعدو فرجعنا مع البر فلما قربناه قلت لصاحب المركب أريد ان انزل ههنا فأنزلني بالساحل ورأيت كنيسة فقصدتها فوجدت بها راهبا ورأيت في أحد حيطان الكنيسة صورة رجل عربي عليه عمامة متقلد سيفا وبيده رمح وبين يديه سراج يقد فقلت للراهب ما هذه الصورة فقال

هذه صورة النبي على فعجبت من قوله وبتنا تلك الليلة بالكنيسة وطبخنا دجاجا فلم نستطع أكلها اذ كانت مما استصحبناه في المركب ورائحة البحر قد غلبت على كل ما كان فيه وهذا الموضع الذي نزلنا به هو من الصحراء المعروفة بدشت قفجق (والدشت بالشين المعجم والتاء المثناة) بلسان الترك هو الصحراء وهذه الصحراء خضرة نضرة لا شجر بها ولا جبل ولا تل ولا أبنية ولا حطب وانما يوقدون الارواث ويسمونها التزك (بالزاى المفتوح) فترى كبراءهم يلقطونها ويجعلونها في أطراف ثيابهم ولا يسافر فى هذه الصحراء الا في العجل وهي مسيرة ستة أشهر ثلاثة منها في بلاد السلطان محمد أوزبك وثلاثة في بلاد غيره ولما كان الغد من يوم وصولنا الي هذه المرسى توجه بعض التجار من أصحابنا الي من بهذه الصحراء من الطائفة المعروفة بقفجق وهم على دين النصرانية فاكترى منهم عجلة يجرها الفرس فركبناها ووصلنا الى مدينة الكفا (واسمها بكاف وفاء مفتوحتين) وهى مدينة عظيمة مستطيلة على ضفة البحر يسكنها النصارى وأكثرهم الجنويون ولهم أمير يعرف بالدمدير ونزلنا منها بمسجد المسلمين

﴿حكاية﴾

ولما نزلنا بهذا المسجد أقنا به ساعة ثم سمعنا أصوات النواقيس من كل ناحية ولم أكن سمعتها قط فهالني ذلك وأمرت أصحابي أن يصعدوا الصومعة ويقرؤا القرآن ويذكروا الله ويؤذنوا ففعلوا ذلك فاذا برجل قد دخل علينا وعليه الدرع والسلاح فسلم علينا واستفهمناه عن شأنه فأخبرنا أنه قاضي المسلمين هنالك وقال لما سمعت القراءة والاذان خفت عليكم فجئت كما ترون ثم انصرف عنا وما رأينا الا خيرا ولما كان من الغد جاء الينا الامير وصنع طعاما فأكلنا عنده وطفنا بالمدينة فرأيناها حسنة الاسواق وكلهم كفار ونزلنا الي مرساها فرأينا مرسى عجيبا به نحو مائتي مركب ما بين حربي وسفري صغيرا وكبيرا وهو من مراسي الدنيا الشهيرة ثم اكترينا عجلة وسافرنا الى مدينة القرم وهى (بكسر القاف وفتح الراء) مدينة كبيرة حسنة من بلاد السلطان المعظم محمد أوزبك خان وعليها أمير من قبله اسمه تلكتمور وضبط اسمه (بتاء مثناة مضمومة ولام مضموم وكاف مسكن وتاء كالاولى مضمومة وميم مضمومة وواو وراء) وكان أحد خدام هذا الامير قد

صحبنا في طريقنا فعرفه بقدومنا فبعث الى مع امامه سعد الدين بفرس ونزلنا بزاوية شيخها زاده الخراساني فاكرمنا هذا الشيخ ورحب بنا وأحسن الينا وهو معظم عندهم ورأيت الناس يأتون للسلام عليه من قاض وخطيب وفقيه وسواهم وأخبرني هذا الشيخ زاده ان بخارج هذه المدينة راهبا من النصارى في دير يتعبد به ويكثر الصوم وانه انتهى الي ان يواصل أربعين يوما ثم يفطر على حبة فول وانه يكاشف بالامور ورغب مني ان أصحبه في التوجه اليه فأبيت ثم ندمت بعد ذلك على ان لم أكن رأيته وعرفت حقيقة أمره ولقيت بهذه المدينة قاضيها الاعظم شمس الدين السائلي قاضي الحنفية ولقيت بها قاضي الشافعية وهو يسمي بخضر والفقيه المدرس علاء الدين الاصي وخطيب الشافعية أبا بكر وهو الذي يخطب بالمسجد الجامع الذي عمره الملك الناصر رحمه الله بهذه المدينة والشيخ الحكيم الصالح مظفر الدين وكان من الروم فاسلم وحسن اسلامه والشيخ الصالح العابد مظهر الدين وهو من الفقهاء المعظمين وكان الامير تلكتمور مريضاً فدخلنا عليه فاكرمنا وأحسن الينا وكان على التوجه الى مدينة السرا حضرة السلطان محمد أوزبك فعلمت على السير في صحبته واشتريت العجلات برسم ذلك

﴿ذكر العجلات التي يسافر عليها بهذه البلاد﴾

وهم يسمون العجلة عربة (بعين مهملة وراء وباء موحدة مفتوحات) وهي عجلات تكون للواحدة منهن أربع بكرات كبار ومنها ما يجره فرسان ومنها ما يجره أكثر من ذلك وتجرها أيضاً البقر والجمال على حال العربة في ثقلها أو خفتها والذي يخدم العربة يركب احدى الافراس التي تجرها ويكون عليه سرج وفي يده سوط يحركها للمشي وعود كبير يصوبها به اذا عاجت عن القصد ويجعل على العربة شبه قبة من قضبان خشب مربوط بعضها الى بعض بسيور جلد رقيق وهي خفيفة الحمل وتكسى باللبد أو بالملف ويكون فيها طيقان مشبكة ويرى الذي بداخلها الناس ولا يرونه ويتقلب فيها كما يحب وينام ويأكل ويقرأ ويكتب وهو في حال سيره والتي تحمل الاثقال والازواد وخزائن الاطعمة من هذه العربات يكون عليها شبه البيت كما ذكرنا وعليها قفل وجهزت لما أردت السفر

عربة لركوبي مغشاة باللبد ومعي بها جارية لي وعربة صغيرة لرفيقي عفيف الدين التوزري وعجلة كبيرة لسائر الاصحاب يجرها ثلاثة من الجمال يركب أحدها خادم العربة وسرنا في صحبة الامير تلكتمور واخيه عيسي وولديه قطلودمور وصاربك وسافر أيضاً معه في هذه الوجهة امامه سعد الدين والخطيب أبو بكر والقاضي شمس الدين والفقيه شرف الدين موسي والمعرف علاء الدين وخطة هذا المعرف أن يكون بين يدي الامير في مجلسه فاذا أتي القاضي يقف له هذا المعرف ويقول بصوت عال باسم الله سيدنا ومولانا قاضي القضاة والحكام مبين الفتاوى والاحكام باسم الله واذا أتى فقيه معظم أو رجل مشار اليه قال باسم الله سيدنا فلان الدين باسم الله فيتهيأ من كان حاضر الدخول الداخل ويقوم اليه ويفسح له في المجلس وعادة الاتراك ان يسيروا في هذه الصحراء سيرا كسير الحجاج في درب الحجاز يرحلون بعد صلاة الصبح وينزلون ضحى ويرحلون بعد الظهر وينزلون عشيا واذا نزلوا حلوا الخيل والابل والبقر عن العربات وسرحوها للرعي ليلا ونهارا ولا يعلف أحد دابة لا السلطان ولا غيره وخاصية هذه الصحراء ان نباتها يقوم مقام الشعير للدواب وليست لغيرها من البلاد هذه الخاصية ولذلك كثرت الدواب بها ودوابهم لا رعاة لها ولا حراس وذلك لشدة أحكامهم في السرقة وحكمهم فيها انه من وجد عنده فرس مسروق كلف ان يرده الي صاحبه ويعطيه معه تسعة مثله فان لم يقدر على ذلك أخذ أولاده في ذلك فان لم يكن له أولاد ذبح كما تذبح الشاة وهؤلاء الاتراك لا يأكلون الخبز ولا الطعام الغليظ وانما يصنعون طعاما من شيء عندهم شبه الآنلي يسمونه الدوقي (بدال مهمل مضموم وواو وقاف مكسور معقود) يجعلون على النار الماء فاذا غلى صبوا عليه شيئاً من الدوقي وان كان عندهم لحم قطعوه قطعا صغارا وطبخوه معه ثم يجعل لكل رجل نصيبه في صحفة ويصبون عليه اللبن الرائب ويشربونه ويشربون عليه لبن الخيل وهم يسمونه القمز (بكسر القاف والميم والزاي المشددة) وهم أهل قوة وشدة وحسن مزاج ويستعملون في بعض الاوقات طعاما يسمونه البورخاني وهو عجين يقطعونه قطيعات صغارا ويثقبون أوساطها ويجعلونها في قدر فاذا طبخت صبوا عليها اللبن الرائب وشربوها

ولهم نبيذ يصنعونه من حب الدوقي الذي تقدم ذكره وهم يرون أكل الحلواء عيبا ولقد حضرت يوما عند السلطان أوزبك في رمضان فأحضرت لحوم الخيل وهي أكثر ما يأكلون من اللحم ولحوم الاغنام والرشتا وهو شبه الاطرية يطبخ ويشرب باللبن وأتيته تلك الليلة بطبق حلواء صنعها بعض أصحابي فقدمتها بين يديه فجعل اصبعه عليها وجعله على فيه ولم يزد على ذلك وأخبرني الامير تلكتمور أن أحد الكبار من مماليك هذا السلطان وله من أولاده وأولاد أولاده نحو أربعين ولدا قال له السلطان يوما كل الحلواء وأعتقكم جميعاً فأبي وقال لو قتلتني ما أكلتها ولما خرجنا من مدينة القرم نزلنا زاوية الامير تلكتمور في موضع يعرف بسجان فبعث الي أن أحضر عنده فركبت اليه وكان لي فرس معد لركوبي يقوده خديم العربة فاذا أردت ركوبه ركبته وأتيت الزاوية فوجدت الامير قد صنع بها طعاما كثيرا فيه الخبز ثم أتوا بماء أبيض في صحاف صغار فشرب القوم منه وكان الشيخ مظفر الدين يلي الامير في مجلسه وأنا اليه فقلت له ما هذا فقال هذا ماء الدهن فلم أفهم ما قال فذقته فوجدت له حموضة فتركته فلما خرجت سألت عنه فقالوا هو نبيذ يصنعونه من حب الدوقي وهم حنفية المذهب والنبيذ عندهم حلال ويسمون هذا النبيذ المصنوع من الدوقي البوزة (بضم الباء الموحدة وواو مد وزاى مفتوح) وانما قال لي الشيخ مظفر الدين ماء الدهن ولسانه فيه اللكنة الاعجمية فظننت انه يقول ماء الدهن وبعد مسيرة ثمانية عشر منزلا من مدينة القرم وصلنا الى ماء كثير نخوضه يوما كاملا واذا كثر خوض الدواب والعربات في هذا الماء اشتد وحله وزاد صعوبة فذهب الامير الى راحتي وقدمني أمامه مع بعض خدامه وكتب لي كتابا الى أمير أزاق يعلمه أني أريد القدوم على الملك ويحضه على اكرامي وسرنا حتى انتهينا الى ماء آخر نخوضه نصف يوم ثم سرنا بعده ثلاثا ووصلنا الى مدينة أزاق (وضبط اسمها بفتح الهمزة والزاى وآخره قاف) وهي على ساحل البحر حسنة العمارة يقصدها الجنويون وغيرهم بالتجارات وبها من الفتيان أخي بجقجي وهو من العظماء يطعم الوارد والصادر ولما وصل كتاب الامير تلكتمور الى أمير ازاق وهو محمد خواجه الخوارزمي خرج الى استقبالي ومعه القاضي

والطلبة وأخرج الطعام فلما سلمنا عليه نزلنا بموضع أكلنا فيه ووصلنا الى المدينة ونزلنا بخارجها بمقربة من رابطة هنالك تنسب للخضر والياس عليهما السلام وخرج شيخ من أهل ازاق يسمى برجب النهر ملكي نسبة الى قرية بالعراق فأضافنا بزاوية له ضيافة حسنة وبعد يومين من قدومنا قدم الامير تلكتمور وخرج الامير محمد للقائه ومعه القاضي والطلبة وأعدوا له الضيافات وضربوا ثلاث قباب متصلا بعضها ببعض احداها من الحرير الملون عجيبة والثنتان من الكتان وأداروا عليها سراجة وهي المسماة عندنا أفراج وخارجها الدهليز وهو على هيئة البرج عندنا ولما نزل الامير بسطت بين يديه شقاق الحرير يمشي عليها فكان من مكارمه وفضله ان قدمني أمامه ليرى ذلك الامير منزلتي عنده ثم وصلنا الى الخباء الاولى وهي المعدة لجلوسه وفي صدرها كرسي من الخشب لجلوسه كبير مرصع وعليه مرتبة حسنة فقدمني الامير أمامه وقدم الشيخ مظفر الدين وصعد هو فجلس فيما بيننا ونحن جميعاً على المرتبة وجلس قاضيه وخطيبه وقاضي هذه المدينة وطلبتها عن يسار الكرسي على فرش فاخرة ووقف ولدا الامير تلكتمور وأخوه والامير محمد وأولاده في الخدمة ثم أتوا بالاطعمة من لحوم الخيل وسواها وأتوا بألبان الخيل ثم أتوا بالبوزة وبعد الفراغ من الطعام قرأ القراء بالاصوات الحسان ثم نصب منبر وصعده الواعظ وجلس القراء بين يديه وخطب خطبة بليغة ودعا للسلطان والامير وللحاضرين يقول ذلك بالعربي ثم يفسره لهم بالتركي وفي أثناء ذلك يكرر القراء آيات من القرآن بترجيع عجيب ثم أخذوا في الغناء يغنون بالعربي ويسمونه القول ثم بالفارسي والتركي ويسمونه الملمع ثم أتوا بطعام آخر ولم يزالوا على ذلك الى العشي وكلما أردت الخروج منعني الامير ثم جاؤا بكسوة للامير وكسى لولديه وأخيه وللشيخ مظفر الدين ولي وأتوا بعشرة أفراس للامير ولأخيه ولولديه بستة أفراس ولكل كبير من أصحابه بفرس ولي بفرس والخيل بهذه البلاد كثيرة جدا وثمنها نزر قيمة الجيد منها خمسون درهما أو ستون من دراهمهم وذلك صرف دينار من دنانيرنا أو نحوه وهذه الخيل هي التي تعرف بمصر بالاكاديش ومنها معاشهم وهي ببلادهم كالغنم ببلادنا بل أكثر فيكون للتركي منهم آلاف منها ومن عادة

الترك المستوطنين تلك البلاد أصحاب الخيل أنهم يصنعون في المربات التي يركب فيها نساؤهم قطعة لبد في طول الشبر مربوطة الي عود رقيق في طول الذراع في ركن العربة ويجعل لكل ألف فرس قطعة ورأيت منهم من يكون له عشر قطع ومن له دون ذلك وتحمل هذه الخيل الي بلاد الهند فيكون في الرفقة منها ستة آلاف وما فوقها وما دونها لكل تاجر المائة والمائتان فما دون ذلك وما فوقه ويستأجر التاجر لكل خمسين منها راعيا يقوم عليها ويرعاها كالغنم ويسمي عندهم القشي ويركب أحدها وبيده عصي طويلة فيها حبل فاذا أراد أن يقبض على فرس منها حاذاه بالفرس الذي هو راكبه ورمي الحبل في عنقه وجذبه فيركبه ويترك الآخر للرعي واذا وصلوا بها الى أرض السند أطعموها العلف لان نبات أرض السند لا يقوم مقام الشعير ويموت لهم منها الكثير ويسرق ويغرمون عليها بأرض السند سبعة دنانير فضة على الفرس بموضع يقال له ششنقار ويغرمون عليها بملتان قاعدة بلاد السند وكانوا فيما تقدم يغرمون ربع ما يجلبونه فرفع ملك الهند السلطان محمد ذلك وأمر ان يؤخذ من تجار المسلمين الزكاة ومن تجار الكفار العشر ومع ذلك يبقى للتجار فيها فضل كبير لانهم يبيعون الرخيص منها ببلاد الهند بمائة دينار دراهم وصرفها من الذهب المغربي خمسة وعشرون دينارا وربما باعوها بضعف ذلك وضعفه وضعفيه والجياد منها تساوي خمسمائة دينار وأكثر من ذلك وأهل الهند لا يبتاعونها للجرى والسبق لانهم يلبسون في الحرب الدروع ويدرعون الخيل وانما يبتغون قوة الخيل واتساع خطاها والخيل التي يبتغونها للسبق تجلب اليهم من اليمن وعمان وفارس ويباع الفرس منها بألف دينار الي أربعة آلاف ولما سافر الامير تلكتمور عن هذه المدينة أقمت بعده ثلاثة أيام حتى جهز لي الامير محمد خواجه آلات سفري وسافرت الى مدينة الماجر وهي (بفتح الميم وألف وجيم مفتوح معقود وراء) مدينة كبيرة من أحسن مدن الترك على نهر كبير وبها البساتين والفواكه الكثيرة نزلنا منها بزاوية الشيخ الصالح العابد المعمر محمد البطائحي من بطائح العراق وكان خليفة الشيخ أحمد الرفاعي رضي الله عنه وفي زاويته نحو سبعين من فقراء العرب والفرس والترك والروم منهم المتزوج

والعزب وعيشهم من الفتوح ولاهل تلك البلاد اعتقاد حسن في الفقراء وفي كل ليلة يأتون الى الزاوية بالخيل والبقر والغنم ويأتي السلطان والخواتين لزيارة الشيخ والتبرك به ويجزلون الاحسان ويعطون العطاء الكثير وخصوصاً النساء فانهن يكثرن الصدقة ويتحرين أفعال الخير وصلينا بمدينة الماجر صلاة الجمعة فلما قضيت الصلاة صعد الواعظ عز الدين المنبر وهو من فقهاء بخاري وفضلائها وله جماعة من الطلبة والقراء يقرؤن بين يديه ووعظ وذكروأمير المدينة حاضر وكبرائها فقام الشيخ محمد البطائحي فقال ان الفقيه الواعظ يريد السفر ونريد له زوادة ثم خلع فرجية مرعز كانت عليه وقال هذه مني اليه فكان الحاضرون بين من خلع ثوبه ومن أعطي فرسا ومن أعطى دراهم واجتمع له كثير من ذلك كله ورأيت بقيسارية هذه المدينة يهوديا سلم علي وكلمني بالعربي فسألته عن بلاده فذكر انه من بلاد الاندلس وانه قدم منها في البر ولم يسلك بحرا وأتي على طريق القسطنطينية العظمي وبلاد الروم وبلاد الجركس وذكر ان عهده بالاندلس منذ أربعة أشهر وأخبرني التجار المسافرون الذين لهم المعرفة بذلك بصحة مقاله ورأيت بهذه البلاد عجباً من تعظيم النساء عندهم وهن أعلى شأنا من الرجال فأما نساء الامراء فكانت أول رؤيتي لهن عند خروجي من القرم رؤية الخاتون زوجة الامير سلطية في عربة لها وكلها مجللة بالملف الازرق الطيب وطيقان البيت مفتوحة وأبوابه وبين يديها أربع جوار فائتات الحسن بديعات اللباس وخلفها جملة من العربات فيها جوار يتبعنها ولما قربت من منزل الامير نزلت عن العربة الى الارض ونزل معها نحو ثلاثين من الجواري يرفعن أذيالها ولأثوابها عرى تأخذ كل جارية بعروة ويرفعن الاذيال عن الارض من كل جانب ومشت كذلك متبخترة فلما وصلت الى الامير قام اليها وسلم عليها وأجلسها الي جانبه ودار بها جواريها وجاؤا بروايا القمز فصبت منه في قدح وجلست علي ركبتيها قدام الامير وناولته القدح فشرب ثم سقت أخاه وسقاها الامير وحضر الطعام فأكلت معه وأعطاها كسوة وانصرفت وعلي هذا الترتيب نساء الامراء وسنذكر نساء الملك فيما بعد وأما نساء الباعة والسوقة فرأيتهن واحداهن تكون في العربة والخيل تجرها وبين يديها

الثلاث والاربع من الجواري يرفعن أذيالها وعلى رأسها البغطاق وهو أقروف مرصع بالجوهر وفي أعلاه ريش الطواويس وتكون طيقان البيت مفتحة وهي بادية الوجه لان نساء الاتراك لا يحتجبن وتأتي احداهن على هذا الترتيب ومعها عبيدها بالغنم واللبن فتبيعه من الناس بالسلع العطرية وربما كان مع المرأة منهن زوجها فيظنه من يراه بعض خدامها ولا يكون عليه من الثياب الا فروة من جلد الغنم وفي رأسه قلنسوة تناسب ذلك يسمونها الكلا وتجهزنا من مدينة الماجر نقصد معسكر السلطان وكان على أربعة أيام من الماجر بموضع يقال له بش دغ ومعنى بش عندهم خمسة وهو (بكسر الباء وشين معجم) ومعني دغ الجبل وهو (بفتح الدال المهمل وغين معجم) وبهذه الجبال الخمسة عين ماء حار يغتسل منها الاتراك ويزعمون انه من اغتسل منها لم تصبه عاهة مرض وارتحلنا الى موضع المحلة فوصلناه أول يوم من رمضان فوجدنا المحلة قد رحلت فعدنا الي الموضع الذي رحلنا منه لان المحلة تنزل بالقرب منه فضربت بيتي على تل هنالك وركزت العلم أمام البيت وجعلت الخيل والعربات وراء ذلك وأقبلت المحلة وهم يسمونها الأردو بضم الهمزة فرأينا مدينة عظيمة تسير بأهلها فيها المساجد والاسواق ودخان المطبخ صاعد في الهواء وهم يطبخون في حال رحيلهم والعربات تجرها الخيل بهم فاذا بلغوا المنزل نزلوا البيوت عن العربات وجعلوها على الارض وهي خفيفة المحمل وكذلك يصنعون بالمساجد والحوانيت واجتاز بنا خواتين السلطان كل واحدة بناسها على حدة ولما اجتازت الرابعة منهن وهي بنت الامير عيسي بك وسنذكرها رأت البيت بأعلى التل والعلم امامه وهو علامة الوارث فبعثت الفتيان والجواري فسلموا على وبلغوا سلامها الى وهي واقفة تنتظرهم فبعثت اليها هدية مع بعض أصحابي ومع معرف الامير تلكتمور فقبلتها تبركا وأمرت ان أنزل في جوارها وانصرفت وأقبل السلطان فنزل في محلته على حدة

﴿ ذكر السلطان المعظم محمد أوزبك خان ﴾

واسمه محمد أوزبك (بضم الهمزة وواو وزاى مسكن وباء موحدة مفتوحة) ومعنى خان عندهم السلطان وهذا السلطان عظيم المملكة شديد القوة كبير الشان رفيع

المكان قاهر لأعداء الله أهل قسطنطينية العظمي مجتهد في جهادهم و بلادهم متسعة ومدنه عظيمة منها الكفار والقرم والماجر وازاق وسرداق (سوداق) وخوارزم وحضرته السرا وهو أحد الملوك السبعة الذين هم كبراء ملوك الدنيا وعظماؤها وهم مولانا أمير المؤمنين ظل الله في أرضه امام الطائفة المنصورة الذين لا يزالون ظاهرين على الحق الى قيام الساعة أيد الله أمره وأعز نصره وسلطان مصر والشام وسلطان العراق والسلطان أوزبك هذا وسلطان بلاد تركستان وماوراء النهر وسلطان الهند وسلطان الصين ويكون هذا السلطان اذا سافر في محلة على حدة معه مماليكه وأرباب دولته وتكون كل خاتون من خواتينه على حدة في محلتها فاذا أراد أن يكون عند واحدة منهن بعث اليها يعلمها بذلك فتتهيأ له وله في قعوده وسفره وأموره ترتيب عجيب بديع ومن عادته أن يجلس يوم الجمعة بعد الصلاة في قبة تسمي قبة الذهب مزينة بديعة وهي من قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب وفي وسطها سرير من خشب مكسوة بصفائح الفضة المذهبة وقوائمه فضة خالصة ورؤسها مرصعة بالجواهر ويقعد السلطان على السرير وعلى يمينه الخاتون طيطغلي وتليها الخاتون كبك وعلى يساره الخاتون بيلون وتليها الخاتون اردجي ويقف أسفل السرير عن اليمين ولد السلطان تين بك وعن الشمال ولده الثاني جان بك وتجلس بين يديه ابنته ايت كججك واذا أتت احداهن قام لها السلطان وأخذ بيدها حتي تصعد على السرير وأما طيطغلي وهي الملكة واحظاهن عنده فانه يستقبلها الي باب القبة فيسلم عليها ويأخذ بيدها فاذا صعدت على السرير وجلست حينئذ يجلس السلطان وهذا كله على أعين الناس دون احتجاب ويأتي بعد ذلك كبار الامراء فتنصب لهم كراسيهم عن اليمين والشمال وكل انسان منهم اذا أتى مجلس السلطان يأتي معه غلام بكرسيه ويقف بين يدي السلطان أبناء الملوك من بنى عمه واخوته وأقاربه ويقف في مقابلتهم عند باب القبة أولاد الامراء الكبار ويقف خلفهم وجوه العساكر عن يمين وشمال ثم يدخل الناس للسلام الأمثل فالأمثل ثلاثة ثلاثة فيسلمون وينصرفون فيجلسون على بعد فاذا كان بعد صلاة العصر انصرفت الملكة من الخواتين ثم ينصرف سائرهن فيتبعنها الي محلتها فاذا دخلت اليها

انصرفت كل واحدة الى محلتها راكبة عربتها ومع كل واحدة نحو خمسين جارية راكبات على الخيل وامام العربات نحو عشرين من قواعد النساء راكبات على الخيل فيما بين الفتيان والعربة وخلف الجميع نحو مائة مملوك من الصبيان وأمام الفتيان نحو مائة من المماليك الكبار ركبانا ومثلهم مشاة بأيديهم القضبان والسيوف مشدودة على أوساطهم وهم بين الفرسان والفتيان وهكذا ترتيب كل خاتون منهن في انصرافها ومجيئها وكان نزولى من المحلة في جوار ولد السلطان جان بك الذي يقع ذكره فيما بعد وفى الغد من يوم وصولى دخلت الى السلطان بعد صلاة العصر وقد جمع المشايخ والقضاة والفقهاء والشرفاء والفقراء وقد صنع طعاما كثيراً وأفطرنا بمحضره وتكلم السيد الشريف نقيب الشرفاء ابن عبد الحميد والقاضى حمزة في شأنى بالخير وأشاروا على السلطان باكرامى وهؤلاء الاتراك لا يعرفون انزال الوارد ولا اجراء النفقة وانما يبعثون له الغنم والخيل للذبح وروايا القمز وتلك كرامتهم وبعد هذا بأيام صليت صلاة العصر مع السلطان فلما أردت الانصراف أمرني بالقعود وجاؤا بالطعام من المشروبات كما يصنع من الدوقى ثم باللحوم المسلوقة من الغنم والخيل وفى تلك الليلة أتيت السلطان بطبق حلواء فجعل اصبعه عليه وجعله على فيه ولم يزد على ذلك

﴿ ذكر الخواتين وترتيبهن ﴾

وكل خاتون منهن تركب في عربة وللبيت الذي تكون فيه قبة من الفضة المموهة بالذهب أو الخشب المرصع وتكون الخيل التي تجر عربتها مجللة بأثواب الحرير المذهب وخديم العربة الذي يركب أحد الخيل فتى يدعى القشى والخاتون قاعدة فى عربتها وعن يمينها امرأة من القواعد تسمى أولو خاتون (بضم الهمزة واللام) ومعنى ذلك الوزيرة وعن شمالها امرأة من القواعد أيضاً تسمى كجك خاتون (بضم الكاف والجيم) ومعنى ذلك الحاجبة وبين يديها ست من الجوارى الصغار يقال لهن البنات فائقات الجمال متناهيات الكمال ومن ورائها ثنتان منهن تستند اليهن وعلى رأس الخاتون البغطاق وهو مثل التاج الصغير مكلل بالجواهر وبأعلاها ريش الطواويس وعليها ثياب حرير مرصعة بالجوهر

شبه المنوت (الملوطة) التي يلبسها الروم وعلى رأس الوزيرة والحاجبة مقنعة حرير مزركشة الحواشي بالذهب والجوهر وعلى رأس كل واحدة من البنات الكلا وهو شبه الاقروف وفي أعلى دائرة ذهب مرصعة بالجوهر وريش الطواويس من فوقها وعلى كل واحدة ثوب حرير مذهب يسمى النخ ويكون بين يدي الخاتون عشرة أو خمسة عشر من الفتيان الروميين والهنديين وقد لبسوا ثياب الحرير المذهب المرصعة بالجواهر وبيد كل واحد منهم عمود ذهب أو فضة أو يكون من عود ملبس بهما وخلف عربة الخاتون نحو مائة عربة في كل عربة الثلاث والاربع من الجواري الكبار والصغار ثيابهن الحرير وعلى رؤسهن الكلا وخلف هذه العربات نحو ثلاثمائة عربة تجرها الجمال والبقر تحمل خزائن الخاتون وأموالها وثيابها وأثاثها وطعامها ومع كل عربة غلام موكل بها متزوج بجارية من الجواري التي ذكرنا فان العادة عندهم انه لا يدخل بين الجواري من الغلمان الا من كان له بينهن زوجة وكل خاتون فهي على هذا الترتيب ولنذكرهن على الانفراد

﴿ ذكر الخاتون الكبرى ﴾

والخاتون الكبرى هي الملكة أم ولدي السلطان جان بك وتين بك وسنذكرهما وليست أم ابنته إيت كجك وأمها كانت الملكة قبل هذه واسم هذه الخاتون طيطغلى (بفتح الطاء المهملة الاولى واسكان الياء آخر الحروف وضم الطاء الثانية واسكان الغين المعجمة وكسر اللام وياء مد) وهي أحظى نساء هذا السلطان عنده وعندها يبيت أكثر لياليه ويعظمها الناس بسبب تعظيمه لها والا فهي أبخل الخواتين وحدثني من أعتمده من العارفين بأخبار هذه الملكة ان السلطان يحبها للخاصية التي فيها وهي انه يجدها كل ليلة كأنها بكر وذكر لي غيره انها من سلالة المرأة التي يذكر ان الملك زال عن سليمان عليه السلام بسببها ولما عاد اليه ملكه أمر ان توضع بصحراء لا عمارة فيها فوضعت بصحراء قفجق وان رحم هذه الخاتون شبه الحلقة خلقة وكذلك كل من هو من نسل المرأة المذكورة ولم أر بصحراء قفجق ولا غيرها من أخبر انه رأى امرأة على هذه الصورة ولا سمع بها الا هذه الخاتون اللهم الا ان بعض أهل الصين أخبرني ان بالصين صنفا من نسائها

على هذه الصورة ولم يقع بيدي ذلك ولا عرفت له حقيقة وفي غد اجتماعي بالسلطان دخلت الى هذه الخاتون وهي قاعدة فيما بين عشر من النساء القواعد كأنهن خديمات لها وبين يديها نحو خمسين جارية صغاراً يسمون البنات وبين أيديهن طيافير الذهب والفضة مملوءة بحب الملوك وهن ينقينه وبين يدي الخاتون صينية ذهب مملوءة منه وهي تنقيه فسلمنا عليها وكان في جملة أصحابي قارئ يقرأ القرآن على طريقة المصريين بطريقة حسنة وصوت طيب فقرأ ثم أمرت ان يؤتى بالقمز فأتي به في أقداح خشب لطاف خفاف فأخذت القدح بيدها وناولتني اياه وتلك نهاية الكرامة عندهم ولم أكن شربت القمز قبلها ولكن لم يمكنني الا قبوله وذقته ولا خير فيه ودفعته لاحد أصحابي وسألتني عن كثير من حال سفرنا فاجبناها ثم انصرفنا عنها وكان ابتداؤنا بها لاجل عظمتها عند الملك

﴿ ذكر الخاتون الثانية التي تلي الملكة ﴾

واسمها كبك خاتون (بفتح الكاف الاولى وكسر الباء الموحدة) ومعناه بالتركية النخالة وهي بنت الامير نغطى (واسمه بنون وغين معجمة وطاء مهملة مفتوحات وياء مسكنة) وأبوها حي مبتلى بعلة النقرس وقد رأيته وفي غد دخولنا على الملكة دخلنا على هذه الخاتون فوجدناها على مرتبة تقرأ في المصحف الكريم وبين يديها نحو عشر من النساء القواعد ونحو عشرين من البنات يطرزن ثيابا فسلمنا عليها وأحسنت في السلام والكلام وقرأ قارئنا فاستحسنته وأمرت بالقمز فاحضر وناولتني القدح بيدها كمثل ما فعلته الملكة وانصرفنا عنها

﴿ ذكر الخاتون الثالثة ﴾

واسمها بيلون (بباء موحدة وياء آخر الحروف كلاهما مفتوح ولام مضموم وواو مد ونون) وهي بنت ملك القسطنطينية العظمى السلطان تكفور ودخلنا على هذه الخاتون وهي قاعدة على سرير مرصع قوائمه فضة وبين يديها نحو مائة جارية روميات وتركيات ونوبيات منهن قائمات وقاعدات والفتيان على رأسها والحجاب بين يديها من رجال الروم فسألت عن حالنا ومقدمنا وبعد أوطاننا وبكت ومسحت وجهها بمنديل كان

بين يديها رقة منها وشفقة وأمرت بالطعام فأحضر وأكلنا بين يديها وهي تنظر الينا ولما أردنا الانصراف قالت لا تنقطعوا عنا وترددوا الينا وطالعونا بحوائجكم وأظهرت مكارم الاخلاق وبعثت فى أثرنا بطعام وخبز كثير وسمن وغنم ودراهم وكسوة جيدة وثلاثة من جياد الخيل وعشرة من سائرها ومع هذه الخاتون كان سفري الي القسطنطينية العظمي كما نذكره بعد

﴿ ذكر الخاتون الرابعة ﴾

واسمها أردوجا (بضم الهمزة واسكان الراء وضم الدال المهمل وجيم وألف) وأردو بلسانهم المحلة وسميت بذلك لولادتها في المحلة وهي بنت الامير الكبير عيسى بك أمير الألوس (بضم الهمزة واللام) ومعناه أمير الامراء وأدركته حيا وهو متزوج ببنت السلطان إيت كجك وهذه الخاتون من أفضل الخواتين وألطفهن شمائل وأشفقهن وهي التى بعثت الي لما رأت بيتي على التل عند جواز المحلة كما قدمناه دخلنا عليها فرأينا من حسن خلقها وكرم نفسها مالا مزيد عليه وأمرت بالطعام فأكلنا بين يديها ودعت بالقمز فشرب أصحابنا وسألت عن حالنا فأجبناها ودخلنا أيضا الى أختها زوجة الامير على بن أرزق

﴿ ذكر بنت السلطان المعظم أوزبك ﴾

واسمها إيت كجك وإيت (بكسر الهمزة وياء مدوتاء مثناة) وكجك (بضم الكاف وضم الجيمين) ومعنى اسمها الكلب الصغير فان إيت هو الكلب وكجك هو الصغير وقد قدمنا أن الترك يسمون بالفأل كما تفعل العرب وتوجهنا الي هذه الخاتون بنت الملك وهي في محلة منفردة على نحو ستة أميال من محلة والدها فأمرت باحضار الفقهاء والقضاة والسيد الشريف ابن عبد الحميد وجماعة الطلبة والمشايخ والفقهاء وحضر زوجها الامير عيسي الذي بنته زوجة السلطان فقعد معها على فراش واحد وهو معتل بالنقرس فلا يستطيع التصرف على قدميه ولا ركوب الفرس وانما يركب العربة واذا أراد الدخول على السلطان أنزله خدامه وأدخلوه الي المجلس محمولا وعلى هذه الصورة رأيت أيضا الامير نغطى وهو

أبو الخاتون الثانية وهذه العلة فاشية في هؤلاء الاتراك ورأينا من هذه الخاتون بنت السلطان من المكارم وحسن الاخلاق ما لم نره من سواها وأجزلت الاحسان وأفضلت جزاها الله خيراً

﴿ ذكر ولدي السلطان ﴾

وهما شقيقان وأمهما جميعاً الملكة طيطغلي التي قدمنا ذكرها والاكبر منهما اسمه تين بك (بتاء معلوة مكسورة وياء مد ونون مفتوح) وبك معناه الامير وتين معناه الجسد فكأن اسمه أمير الجسد واسم أخيه جان بك (بفتح الجيم وكسر النون) ومعنى جان الروح فكأنه يسمي أمير الروح وكل واحد منهما له محلة على حدة وكان تين بك من أجمل خلق الله صورة وعهد له أبوه بالملك وكانت له الحظوة والتشريف عنده ولم يرد الله ذلك فانه لما مات أبوه ولي يسيراً ثم قتل لامور قبيحة جرت له وولي أخوه جان بك وهو خير منه وأفضل وكان السيد الشريف ابن عبد الحميد هو الذي تولى تربية جان بك وأشار علي هو والقاضي حمزة والامام بدر الدين القوامي والامام المقرئ حسام الدين البخاري وسواهم حين قدومي أن يكون نزولي بمحلة جان بك المذكور لفضله ففعلت ذلك

﴿ ذكر سفري الى مدينة بلغار ﴾

وكنت سمعت بمدينة بلغار فأردت التوجه اليها لأرى ما ذكر عنها من انتهاء قصر الليل بها وقصر النهار أيضاً في عكس ذلك الفصل وكان بينها وبين محلة السلطان مسيرة عشر فطلبت منه من يوصلني اليها فبعث معي من أوصلني اليها وردني اليه ووصلتها في رمضان فلما صلينا المغرب أفطرنا وأذن بالعشاء في أثناء إفطارنا فصليناها وصلينا التراويح والشفع والوتر وطلع الفجر إثر ذلك وكذلك يقصر النهار بها في فصل قصره أيضاً وأقمت بها ثلاثاً

﴿ ذكر أرض الظلمة ﴾

وكنت أردت الدخول الى أرض الظلمة والدخول اليها من بلغار وبينهما أربعون يوماً ثم أضربت عن ذلك لعظم المؤنة فيه وقلة الجدوى والسفر اليها لا يكون الا في عجلات صغار

تجرها كلاب كبار فان تلك المفازة فيها الجليد فلا يثبت قدم الآدمي ولا حافر الدابة فيها والكلاب لها الاظفار فتثبت أقدامها في الجليد ولا يدخلها الا الاقوياء من التجار الذين يكون لاحدهم مائة عجلة أو نحوها موقرة بطعامه وشرابه وحطبه فانها الاشجر فيها ولا حجر ولا مدر والدليل بتلك الارض هو الكلب الذي قد سار فيها مرارا كثيرة وتنتهي قيمته الى ألف دينار ونحوها وتربط العربة الى عنقه ويقرن معه ثلاثة من الكلاب ويكون هو المقدم وتتبعه سائر الكلاب بالعربات فاذا وقف وقفت وهذا الكلب لا يضربه صاحبه ولا ينهره واذا حضر الطعام أطعم الكلاب أولا قبل بني آدم والا غضب الكلب وفر وترك صاحبه للتلف فاذا كملت للمسافرين بهذه الفلاة أربعون مرحلة نزلوا عند الظلمة وترك كل واحد منهم ما جاء به من المتاع هنالك وعادوا الى منزلهم المعتاد فاذا كان من الغد عادوا لتفقد متاعهم فيجدون بازائه من السمور والسنجاب والقاقم فان أرضي صاحب المتاع ما وجده ازاء متاعه أخذه وان لم يرضه تركه فيزيدونه وربما رفعوا متاعهم أعني أهل الظلمة وتركوا متاع التجار وهكذا بيعهم وشراؤهم ولا يعلم الذين يتوجهون الى هنالك من يبايعهم ويشاريهم أمن الجن هو أم من الانس ولا يرون أحدا والقاقم هو أحسن أنواع الفراء وتساوي الفروة منه ببلاد الهند ألف دينار وصرفها من ذهبنا مائتان وخمسون وهي شديدة البياض من جلد حيوان صغير في طول الشبر وذنبه طويل يتركونه في الفروة على حاله والسمور دون ذلك تساوي الفروة منه أربعمائة دينار فما دونها ومن خاصية هذه الجلود انه لا يدخلها القمل وأمراء الصين وكبارها يجعلون منه الجلد الواحد متصلا بفروانهم عند العنق وكذلك تجار فارس والعراقين وعدت من مدينة بلغار مع الامير الذي بعثه السلطان في صحبتي فوجدت محلة السلطان على الموضع المعروف ببش دغ وذلك في الثامن والعشرين من رمضان وحضرت معه صلاة العيد وصادف يوم العيد يوم الجمعة

﴿ ذكر ترتيبهم في العيد ﴾

ولما كان صباح يوم العيد ركب السلطان في عساكره العظيمة وركبت كل خاتون عربتها ومعها عساكرها وركبت بنت السلطان والتاج على رأسها اذ هي الملكة على الحقيقة ورثت

الملك من أمهاوركب أولاد السلطان كل واحد في عسكره وكان قد قدم لحضور العيد قاضي القضاة شهاب الدين السائلي ومعه جماعة من الفقهاء والمشايخ فركبوا وركب القاضي حمزة والامام بدر الدين القوامي والشريف ابن عبد الحميد وكان ركوب هؤلاء الفقهاء مع تين بك ولي عهد السلطان ومعهم الاطبال والاعلام فصلى بهم القاضي شهاب الدين وخطب أحسن خطبة وركب السلطان وانتهي الى برج خشب يسمي عندهم الكشك فجلس فيه ومعه خواتينه ونصب برج ثان دونه فجلس فيه ولي عهده وابنته صاحبة التاج ونصب برجان دونهما عن يمينه وشماله فيهما أبناء السلطان وأقاربه ونصبت الكراسي للامراء وأبناء الملوك وتسمى الصندليات عن يمين البرج وشماله فجلس كل واحد على كرسيه ثم نصبت طبلات للرمي لكل أمير طومان طبلة مختصة به وأمير طومان عندهم هو الذي يركب له عشرة آلاف فكان الحاضرون من أمراء طومان سبعة عشر يقودون مائة وسبعين ألفاً وعسكره أكثر من ذلك ونصب لكل أمير شبه منبر فقعد عليه وأصحابه يلعبون بين يديه فكانوا على ذلك ساعة ثم أتى بالخلع فخلعت على كل أمير خلعة وعندما يلبسها يأتى الى أسفل برج السلطان فيخدم وخدمته ان يمس الارض بركبته اليمنى ويمد رجله تحتها والأخرى قائمة ثم يؤتي بفرس مسرج ملجم فيرفع حافره ويقبل فيه الامير ويقوده بنفسه الي كرسيه وهنالك يرتبه ويقف مع عسكره ويفعل هذا الفعل كل أمير منهم ثم ينزل السلطان عن البرج ويركب الفرس وعن يمينه ابنه ولي العهد وتليه بنته الملكة إيت كجك وعن يساره ابنه الثاني وبين يديه الخواتين الاربع في عربات مكسوة بأثواب الحرير المذهب والخيل التي تجرها مجللة بالحرير المذهب وينزل جميع الامراء الكبار والصغار وأبناء الملوك والوزراء والحجاب وأرباب الدولة فيمشون بين يدي السلطان على أقدامهم الي أن يصل الى الوطاق والوطاق (بكسر الواو) وهو أفراج وقد نصبت هنالك بارگة (باركاه) عظيمة والبارگة عندهم بيت كبير له أربعة أعمدة من الخشب مكسوة بصفائح الفضة المموهة بالذهب وفي أعلى كل عامود جامور من الفضة المذهبة له بريق وشعاع وتظهر هذه البارگة على البعد كأنها ثنية ويوضع عن يمينها ويسارها

سقائف من القطن والكتان ويفرش ذلك كله بفرش الحرير وينصب في وسط الباركة
السرير الاعظم وهم يسمونه التخت وهو من خشب مرصع وأعواده مكسوة بصفائح فضة
مذهبة وقوائمه من الفضة الخالصة المموهة وفوقه فرش عظيم وفي وسط هذا السرير
الاعظم مرتبة يجلس بها السلطان والخاتون الكبرى وعن يمينه مرتبة جلست بها ابنته إيت
كججك ومعها الخاتون اردوجا وعن يساره مرتبة جلست بها الخاتون بيلون ومعها
الخاتون كبك ونصب عن يمين السرير كرسي قعد عليه تين بك ولد السلطان ونصب عن
شماله كرسي قعد عليه جان بك ولده الثاني ونصبت كراسي عن اليمين والشمال جلس
فوقها أبناء الملوك والامراء الكبار ثم الامراء الصغار مثل أمراء هزارة وهم الذين
يقودون ألفاً ثم أتي بالطعام على موائد الذهب والفضة وكل مائدة يحملها أربعة رجال
وأكثر من ذلك وطعامهم لحوم الخيل والغنم مسلوقة وتوضع بين يدي كل أمير مائدة
ويأتي الباورجي وهو مقطع اللحم وعليه ثياب حرير وقد ربط عليها فوطة حرير وفي
حزامه جملة سكاكين في أغمادها ويكون لكل أمير باورجي فاذا قدمت المائدة قعد بين
يدي أميره ويؤتى بصحفة صغيرة من الذهب أو الفضة فيها ملح محلول بالماء فيقطع الباورجي
اللحم قطعاً صغاراً ولهم في ذلك صنعة في قطع اللحم مختلطاً بالعظم فانهم لا يأكلون منه الا
ما اختلط بالعظم ثم يؤتى بأواني الذهب والفضة للشرب وأكثر شربهم نبيذ العسل وهم
حنفية المذهب يحللون النبيذ فاذا أراد السلطان أن يشرب أخذت بنته القدح بيدها
وخدمت برجلها ثم ناولته القدح فشرب ثم تأخذ قدحاً آخر فتناوله للخاتون الكبرى
فتشرب منه ثم تناول لسائر الخواتين على ترتيبهن ثم يأخذ ولي العهد القدح ويخدم
ويناوله أباه فيشرب ثم يناول الخواتين ثم أخته ويخدم لجميعهن ثم يقوم الولد الثاني فيأخذ
القدح ويسقي أخاه ويخدم له ثم يقوم الامراء الكبار فيسقي كل واحد منهم ولي العهد
ويخدم له ثم يقوم أبناء الملوك فيسقي كل واحد منهم هذا الابن الثاني ويخدم له ثم يقوم
الامراء الصغار فيسقون أبناء الملوك ويغنون أثناء ذلك بالموالية وكانت قد نصبت قبة
كبيرة أيضاً ازاء المسجد للقاضي والخطيب والشريف وسائر الفقهاء والمشايخ وأنا

معهم فأوتينا بموائد الذهب والفضة يحمل كل واحدة أربعة من كبار الأتراك ولا يتصرف في ذلك اليوم بين يدي السلطان الا الكبار فيأمرهم برفع ما أراد من الموائد الى من أراد فكان من الفقهاء من أكل ومنهم من تورع عن الاكل في موائد الفضة والذهب ورأيت مد البصر عن اليمين والشمال من العربات عليها روايا القمز فأمر السلطان بتفريقها على الناس فأتوا الى بعربة منها فأعطيتها لجيراني من الاتراك ثم أتينا المسجد ننتظر صلاة الجمعة فأبطأ السلطان فمن قائل انه لا يأتي لان السكر قد غلب عليه ومن قائل انه لا يترك الجمعة فلما كان بعد تمكن الوقت أتى وهو يتمايل فسلم على السيد الشريف وتبسم له وكان يخاطبه بآطا وهو الاب بلسان التركية ثم صلينا الجمعة وانصرف الناس الى منازلهم وانصرف السلطان الى الباركه فبقي على حاله الى صلاة العصر ثم انصرف الناس أجمعون وبقى مع الملك تلك الليلة خواتينه وبنته ثم كان رحيلنا مع السلطان والمحلة لما انقضى العيد فوصلنا الى مدينة الحاج ترخان ومعنى ترخان عندهم الموضع المحرر من المغارم (وهو بفتح التاء المثناة وسكون الراء وفتح الخاء المعجم وآخره نون) والمنسوب اليه هذه المدينة هو حاج من الصالحين تركي نزل بموضعها وحرر له السلطان ذلك الموضع فصار قرية ثم عظمت وتمدنت وهي من أحسن المدن عظيمة الاسواق مبنية على نهر أتل وهو من أنهار الدنيا الكبار وهنالك يقيم السلطان حتى يشتد البرد ويجمد هذا النهر وتجمد المياه المتصلة به ثم يأمر أهل تلك البلاد فيأتون بالآلاف من أحمال التبن فيجعلونها على الجليد المنعقد فوق النهر والتبن هنالك لا تأكله الدواب لانه يضرها وكذلك ببلاد الهند وانما أكلها الحشيش الاخضر لخصب البلاد ويسافرون بالعربات فوق هذا النهر والمياه المتصلة به ثلاث مراحل وربما جازت القوافل فوقه مع آخر فصل الشتاء فيغرقون ويهلكون ولما وصلنا مدينة الحاج ترخن رغبت الخاتون بيلون ابنة ملك الروم من السلطان أن يأذن لها في زيارة أبيها لتضع حملها عنده وتعود اليه فأذن لها ورغبت منه أن يأذن لي في التوجه صحبتها لمشاهدة القسطنطينية العظمى فمنعني خوفا علي فلاطفته وقلت له انما أدخلها في حرمتك وجوارك فلا أخاف من أحد فأذن لي وودعناه ووصلني بألف وخمسمائة دينار وخلعة وأفراس كثيرة وأعطتني

كل خاتون منهن سبائك الفضة وهم يسمونها الصوم (بفتح الصاد المهمل) واحدتها صومة وأعطت بنته أكثر منهن وكستني وأركبتني واجتمع لي من الخيل والثياب وفروات السنجاب والسمور جملة

﴿ذكر سفري الى القسطنطينية﴾

وسافرنا في العاشر من شوال في صحبة الخاتون بيلون وتحت حرمتها ورحل السلطان في تشييعها مرحلة ورجع هو والملكة وولي عهده وسافر سائر الخواتين في صحبتها مرحلة ثانية ثم رجعن وسافر صحبتها الامير بيدرة في خمسة آلاف من عسكره وكان عسكر الخاتون نحو خمسمائة فارس منهم خدامها من المماليك والروم نحو مائتين والباقون من الترك وكان معها من الجواري نحو مائتين أكثرهن روميات وكان لها من العربات نحو أربعمائة عربة ونحو ألفي فرس لجرها وللركوب ونحو ثلاثمائة من البقر ومائتين من الجمال لجرها وكان معها من الفتيان الروميين عشرة ومن الهنديين مثلهم وقائدهم الاكبر يسمى بسنبل الهندي وقائد الروميين يسمى بميخائيل ويقول له الاتراك لؤلؤ وهو من الشجعان الكبار وتركت أكثر جواريها وأثقالها بمحلة السلطان اذ كانت قد توجهت برسم الزيارة ووضع الحمل وتوجهنا الى مدينة أكك وهي (بضم الهمزة وفتح الكاف الاولى) مدينة متوسطة حسنة العمارة كثيرة الخيرات شديدة البرد وبينها وبين السرا حضرة السلطان مسيرة عشر وعلى مسيرة يوم من هذه المدينة جبال الروس وهم نصارى شقر الشعور زرق العيون قباح الصور أهل غدر وعندهم معادن الفضة ومن بلادهم يؤتى بالصوم وهي سبائك الفضة التي بها يباع ويشترى في هذه البلاد ووزن الصومة منها خمس أواق ثم وصلنا بعد عشر من هذه المدينة الى مدينة سرداق (وضبط اسمها بضم السين المهمل وسكون الراء وفتح الدال المهمل وآخره قاف) وهي من مدن دشت قفجق على ساحل البحر ومرساها من أعظم المراسي وأحسنها وبخارجها البساتين والمياه وينزلها الترك وطائفة من الروم تحت ذمتهم وهم أهل الصنائع وأكثر بيوتها خشب وكانت هذه المدينة كبيرة فخرب معظمها بسبب فتنة وقعت بين الروم والترك وكانت الغلبة للروم فانتصر للترك

أصحابهم وقتلوا الروم شر قتلة ونفوا أكثرهم وبقي بعضهم تحت الذمة الي الآن وكانت الضيافة تحمل الي الخاتون في كل منزل من تلك البلاد من الخيل والغنم والبقر والدوقي والقمز وألبان البقر والغنم والسفر في هذه البلاد ضحى وممشي وكل أمير بتلك البلاد يصحب الخاتون بعساكره الى آخر حد بلاده تعظيما لها لاخوفا عليها لان تلك البلاد آمنة ثم وصلنا الى البلدة المعروفة باسم باباسلطوق وبابا عندهم بمعناه عند البربر سواء الا أنهم يفخمون الباء وساطوق (بفتح السين المهمل واسكان اللام وضم الطاء المهمل وآخره قاف) ويذكرون ان سلطوق هذا كان مكاشفا لكن يذكر عنه أشياء ينكرها الشرع وهذه البلدة آخر بلاد الاتراك بينها وبين أول عمالة الروم ثمانية عشر يوما في برية غير معمورة منها ثمانية أيام لا ماء بها يتزودها الماء ويحمل في الروايا والقرب على العربات وكان دخولنا اليها في أيام البرد فلم نحتج الي كثير من الماء والاتراك يرفعون الالبان في القرب ويخلطونها بالدوقي المطبوخ ويشربونها فلا يعطشون وأخذنا من هذه البلدة في الاستعداد للبرية واحتجت الى زيادة افراس فأتيت الخاتون فأعلمتها بذلك وكنت أسلم عليها صباحا ومساء ومتي أتتها ضيافة تبعث الي بالفرسين والثلاثة وبالغنم فكنت أترك الخيل لا أذبحها وكان من معي من الغلمان والخدام يأكلون مع أصحابنا الاتراك فاجتمع لي نحو خمسين فرسا وأمرت لي الخاتون بخمسة عشر فرسا وأمرت وكيلها ساروجة الرومي ان يختارها سمانا من خيل المطبخ وقالت لا تخف فان احتجت الى غيرها زدناك ودخلنا البرية في منتصف ذي القعدة فكان سيرنا من يوم فارقنا السلطان الي أول البرية تسعة عشر يوما واقامتنا خمسة ورحلنا من هذه البرية ثمانية عشر يوما ضحي وممشى وما رأينا الا خيرا والحمد لله ثم وصلنا بعد ذلك الي حصن مهتولى وهو أول عمالة الروم (وضبط اسمه بفتح الميم وسكون الهاء وضم التاء المثناة وواو مدولام مكسور وياء) وكانت الروم قد سمعت بقدوم هذه الخاتون على بلادها فوصلها الى هذا الحصن كفالى نقوله الرومي في عسكر عظيم وضيافة عظيمة وجاءت الخواتين والدايات من دار أبيها ملك القسطنطينية وبين مهتولى والقسطنطينية مسيرة اثنين وعشرين يوما منها ستة عشر يوما الى الخليج

ومسيرة منه الي القسطنطينية ولا يسافر من هذا الحصن الا بالخيل والبغال وتترك العربات به لاجل الوعر والجبال وجاء كفالي المذكور ببغال كثيرة وبعثت الى الخاتون بستة منها وأوصت أمير ذلك الحصن بمن تركته من أصحابي وغلماني مع العربات والاثقال فأمر لهم بدار ورجع الامير بيدرة بما ذكره ولم يسافر مع الخاتون الا ناسها وتركت مسجدها بهذا الحصن وارتفع حكم الاذان وكان يؤتى اليها بالخمور في الضيافة فتشربها وبالخنازير وأخبرني بعض خواصها انها أكلتها ولم يبق معها من يصلي الا بعض الاتراك كان يصلي معنا وتغيرت البواطن لدخولنا في بلاد الكفر ولكن الخاتون أوصت الامير كفالي باكرامي ولقد ضرب مرة بعض مماليكه لما ضحك من صلاتنا ثم وصلنا حصن مسلمة بن عبد الملك وهو بسفح جبل على نهر زخار يقال له اصطفيلي ولم يبق من هذا الحصن الا آثاره وبخارجه قرية كبيرة ثم سرنا يومين ووصلنا الي الخليج وعلى ساحله قرية كبيرة فوجدنا فيه المد فاقمنا حتي كان الجزر وخضناه وعرضه نحو ميلين ومشينا أربعة أميال في رمال ووصلنا الخليج الثاني فخضناه وعرضه نحو ثلاثة أميال ثم مشينا نحو ميلين في حجارة ورمل ووصلنا الخليج الثالث وقد ابتدأ المد فتعبنا فيه وعرضه ميل واحد فعرض الخليج كله مائيه ويابسه اثنا عشر ميلا وتصير ماء كلها في أيام المطر فلا تخاض الا في القوارب وعلى ساحل هذا الخليج الثالث مدينة الفنيكة (واسمها بفاء مفتوحة ونون وياء مد وكاف مفتوح) وهي صغيرة لكنها حسنة مانعة وكنائسها وديارها حسان والانهار تخرقها والبساتين تحفها ويدخر بها العنب والاجاص والتفاح والسفرجل من السنة الى الاخرى وأقمنا بهذه المدينة ثلاثا والخاتون في قصر لابيها هنالك ثم قدم أخوها شقيقها واسمه كفالي قراس في خمسة آلاف فارس شاكين في السلاح ولما أرادوا لقاء الخاتون ركب أخوها المذكور فرسا أشهب ولبس ثيابا بيضاء وجعل على رأسه مظللا مكللا بالجواهر وجعل عن يمينه خمسة من أبناء الملوك وعن يساره مثلهم لابسين البياض أيضاً وعليهم مظللات مزركشة بالذهب وجعل بين يديه مائة من المشائين ومائة فارس قد أسبغوا الدروع على أنفسهم وخيلهم وكل واحد منهم يقود فرسا مسرجا مدرعا عليه شكة فارس

من البيضة المجوهرة والدروع والتركش والقوس والسيف وبيده رمح في طرف رأسه رابة وأكثر تلك الرماح مكسوة بصفائح الذهب والفضة وتلك الخيل المقودة هي مراكب ابن السلطان وقسم فرسانه على أفواج كل فوج فيه مائتا فارس ولهم أمير قد قدم أمامه عشرة من الفرسان شاكين في السلاح وكل واحد منهم يقود فرساً وخلفه عشرة من العلامات ملونة بأيدي عشرة من الفرسان وعشرة أطبال يتقلدها عشرة من الفرسان ومعهم ستة يضربون الابواق والانفار والصرنايات وهي الغيطات وركبت الخاتون في مماليكها وجواريها وفتيانها وخدامها وهم نحو خمسمائة عليهم ثياب الحرير المزركشة بالذهب المرصعة وعلى الخاتون حلة يقال لها النخ ويقال لها أيضاً النسيج مرصعة بالجوهر وعلى رأسها تاج مرصع وفرسها مجلل بجل حرير مزركش بالذهب وفي يديه ورجليه خلاخل الذهب وفي عنقه قلائد مرصعة وعظم السرج مكسو ذهباً مكلل جوهراً وكان التقاؤهما في بسيط من الارض على نحو ميل من البلد وترجل لها أخوها لانه أصغر سناً منها وقبل ركابها وقبلت رأسه وترجل الامراء وأولاد الملوك وقبلوا جميعاً ركابها وانصرفت مع أخيها وفي غد ذلك اليوم وصلنا الي مدينة كبيرة على ساحل البحر لا أثبت الآن اسمها ذات أنهار وأشجار نزلنا بخارجها ووصل أخو الخاتون ولي العهد في ترتيب عظيم وعسكر ضخم من عشرة آلاف مدرع وعلى رأسه تاج وعن يمينه نحو عشرين من أبناء الملوك وعن يساره مثلهم وقد رتب فرسانه على ترتيب أخيه سواء الا أن الحفل أعظم والجمع أكثر وتلاقت معه أخته في مثل زيها الاول وترجلا جميعاً وأوتي بخباء حرير فدخلا فيه فلا أعلم كيفية سلامهما ونزلنا على عشرة أميال من القسطنطينية فلما كان بالغد خرج أهلها من رجال ونساء وصبيان ركباناً ومشاة في أحسن زي وأجمل لباس وضربت عند الصبح الاطبال والابواق والانفار وركبت العساكر وخرج السلطان وزوجته أم هذه الخاتون وأرباب الدولة والخواص وعلى رأس الملك رواق يحمله جملة من الفرسان ورجال بأيديهم عصي طوال في أعلى كل عصى شبه كرة من جلد يرفعون بها الرواق وفي وسط الرواق مثل القبة يرفعها الفرسان بالعصى ولما أقبل السلطان

اختلطت العساكر وكسر العجاج ولم أقدر على الدخول فيما بينهم فلزمت أثقال الخاتون
وأصحابها خوفا على نفسي وذكر لي انها لما قربت من أبويها ترجلت وقبلت الارض بين
أيديهما ثم قبلت حافري فرسيهما وفعل كبار أصحابها مثل فعلها في ذلك وكان دخولنا عند
الزوال أو بعده الى القسطنطينية العظمي وقد ضربوا نواقيسهم حتى ارتجت الآفاق
لاختلاط أصواتها ولما وصلنا الباب الاول من أبواب قصر الملك وجدنا به مائة رجل
معهم قائد لهم فوق دكانة وسمعتهم يقولون سراكنو سراكنو ومعناه المسلمون ومنعونا
من الدخول فقال لهم أصحاب الخاتون انهم من جهتنا فقالوا لا يدخلون الا بالاذن فأقمنا
بالباب وذهب بعض أصحاب الخاتون فبعث من أعلمها بذلك وهي بين يدي والدها
فذكرت له شأننا فأمر بدخولنا وعين لنا دارا بقربة من دار الخاتون وكتب لنا أمرا بأن
لا نعترض حيث نذهب من المدينة ونودي بذلك في الاسواق وأقمنا بالدار ثلاثا تبعث الينا
الضيافة من الدقيق والخبز والغنم والدجاج والسمن والفاكهة والحوت والدراهم والفرش
وفي اليوم الرابع دخلنا على السلطان

﴿ ذكر سلطان القسطنطينية ﴾

واسمه تكفور (بفتح التاء المثناة وسكون الكاف وضم الفاء وواو وراء) ابن السلطان
جرجيس وأبوه السلطان جرجيس بقيد الحياة لكنه تزهد وترهب وانقطع للعبادة في
الكنائس وترك الملك لولده وسنذكره وفي اليوم الرابع من وصولنا الي القسطنطينية
بعثت الى الخاتون الفتي سنبل الهندي فأخذ بيدي وأدخلني الي القصر فجزنا أربعة أبواب
في كل باب سقائف بها رجال وأسلحتهم وقائدهم على دكانة مفروشة فلما وصلنا الي الباب
الخامس تركني الفتي سنبل ودخل ثم أتي ومعه أربعة من الفتيان الروميين ففتشوني لئلا
يكون معي سكين وقال لي القائد تلك عادة لهم لا بد من تفتيش كل من يدخل على الملك
من خاص أو عام غريب أو بلدى وكذلك الفعل بأرض الهند ثم لما فتشوني قام الموكل
بالباب فاخذ بيدى وفتح الباب وأحاط بي أربعة من الرجل أمسك اثنان بكمي واثنان
من ورائى فدخلوا بي الي مشور كبير حيطانه بالفسيفساء قد نقش فيها صور المخلوقات من

الحيوانات والجماد وفي وسطه ساقية ماء ومن جهتيها الاشجار والناس واقفون يمينا ويسارا سكوتا لا يتكلم أحد منهم وفي وسط المشور ثلاثة رجال وقوف أسلمني أولئك الاربعة اليهم فأمسكوا بثيابي كافعل الآخرون وأشار اليهم رجل فتقدموا بي وكان أحدهم يهوديا فقال لي بالعربي لا تخف فهكذا عادتهم ان يفعلوا بالوارد وأنا الترجمان وأصلي من بلاد الشام فسألته كيف أسلم فقال قل السلام عليكم ثم وصلت الى قبة عظيمة والسلطان على سريره وزوجته أم هذه الخاتون بين يديه وأسفل السرير الخاتون وأخوتها وعن يمينه ستة رجال وعن يساره أربعة وكلهم بالسلاح فاشار الي قبل السلام والوصول اليه بالجلوس هنية ليسكن روعي ففعلت ذلك ثم وصلت اليه فسلمت عليه وأشار الي ان أجلس فلم أفعل وسألني عن بيت المقدس وعن الصخرة المقدسة وعن القمامة وعن مهد عيسى وعن بيت لحم وعن مدينة الخليل عليه السلام ثم عن دمشق ومصر والعراق وبلاد الروم فأجبته عن ذلك كله واليهودي يترجم بيني وبينه فأعجبه كلامي وقال لاولاده اكرموا هذا الرجل وآمنوه ثم خلع علي خلعة وأمر لي بفرس مسرج ملجم ومظلة من التي يجعلها الملك فوق رأسه وهي علامة الأمان وطلبت منه ان يعين من يركب معي بالمدينة في كل يوم حتى أشاهد عجائبها وغرائبها وأذكرها في بلادي فعين لي ذلك ومن العوائد عندهم ان الذي يلبس خلعة الملك ويركب فرسه يطاف به في أسواق المدينة بالابواق والانفار والاطبال ليراه الناس وأكثر ما يفعل ذلك بالاتراك الذين يأتون من بلاد السلطان أوزبك لئلا يؤذون فطافوا بي في الاسواق

﴿ ذكر المدينة ﴾

وهي متناهية في الكبر منقسمة بقسمين بينهما نهر عظيم المد والجزر على شكل وادي سلا من بلاد المغرب وكانت عليه فيما تقدم قنطرة مبنية فخربت وهو الآن يعبر في القوارب واسم هذا النهر أبسمي (بفتح الهمزة واسكان الباء الموحدة وضم السين المهمل وكسر الميم وياء مد) وأحد القسمين من المدينة يسمي أصطنبول (بفتح الهمزة واسكان الصاد وفتح الطاء المهملتين وسكون النون وضم الباء الموحدة وواو مد ولام) وهو بالعدوة

الشرقية من النهر وفيه سكنى السلطان وأرباب دولته وسائر الناس وأسواقه وشوارعه مفروشة بالصفاح متسعة وأهل كل صناعة على حدة لا يشاركهم سواهم وعلى كل سوق أبواب تسد عليه بالليل وأكثر الصناع والباعة بها النساء والمدينة في سفح جبل داخل في البحر نحو تسعة أميال وعرضه مثل ذلك أو أكثر وفي أعلاه قلعة صغيرة وقصر السلطان والسور يحيط بهذا الجبل وهو مانع لا سبيل لاحد اليه من جهة البحر وفيه نحو ثلاث عشرة قرية عامرة والكنيسة العظمي هي في وسط هذا القسم من المدينة وأما القسم الثاني منها فيسمى الغلطة (بغين معجمة ولام وطاء مهمل مفتوحات) وهو بالعدوة الغربية من النهر شبيه برباط الفتح في قربه من النهر وهذا القسم خاص بنصارى الافرنج يسكنونه وهم أصناف فمنهم الجنويون والبنادقة وأهل رومية وأهل افرانسة وحكمهم الى ملك القسطنطينية يقدم عليهم منهم من يرتضونه ويسمونه القمص وعليهم وظيفة في كل عام لملك القسطنطينية وربما استعصوا عليه فيحاربهم حتى يصلح بينهم البابة وجميعهم أهل تجارة ومرساهم من أعظم المراسي رأيت به نحو مائة جفن من القراقر وسواها من الكبار وأما الصغار فلا تحصى كثرة وأسواق هذا القسم حسنة الا ان الاقذار غالبة عليها ويشقها نهر صغير قذر نجس وكنائسهم قذرة لا خير فيها

﴿ ذكر الكنيسة العظمي ﴾

وانما نذكر خارجها وأما داخلها فلم أشاهده وهي تسمى عندهم أياصوفيا (بفتح الهمزة والياء آخر الحروف وألف وصاد مضموم وواو مدوفاء مكسورة وياء كالاولى وألف) ويذكر انها من بناء آصف بن برخيا وهو ابن خالة سليمان عليه السلام وهي من أعظم كنائس الروم وعليها سور يطيف بها فكأنها مدينة وأبوابها ثلاثة عشر بابا ولها حرم هو نحو ميل عليه باب كبير ولا يمنع أحد من دخوله وقد دخلته مع والد الملك الذي يقع ذكره وهو شبه مشور مسطح بالرخام وتشقه ساقية تخرج من الكنيسة لها حائطان مرتفعان نحو ذراع مصنوعان بالرخام المجزع المنقوش بأحسن صنعة والاشجار منتظمة عن جهتي الساقية ومن باب الكنيسة الي باب هذا المشور معرش من الخشب مرتفع عليه دوالي

العنب وفي أسفله الياسمين والرياحين وخارج باب هذا المشور قبة خشب كبيرة فيها طبلات خشب يجلس عليها خدام ذلك الباب وعن يمين القبة مساطب وحوانيت أكثرها من الخشب يجلس بها قضاتهم وكتاب دواوينهم وفي وسط تلك الحوانيت قبة خشب يصعد اليها على درج خشب وفيها كرسي كبير مطبق بالملف يجلس فوقه قاضيهم وسنذكره وعن يسار القبة التي على باب هذا المشور سوق العطارين والساقية التي ذكرناها تنقسم قسمين احدهما يمر بسوق العطارين والآخر يمر بالسوق حيث القضاة والكتاب وعلى باب الكنيسة سقائف يجلس بها خدامها الذين يقمون طرقها ويوقدون سرجها ويغلقون أبوابها ولا يدعون أحداً يدخلها حتى يسجد للصليب الاعظم عندهم الذي يزعمون انه بقية من الخشبة التي صلب عليها شبيه عيسى عليه السلام وهو على باب الكنيسة مجعول في جعبة ذهب طولها نحو عشرة أذرع وقد عرضوا عليها جعبة ذهب مثلها حتى صارت صليباً وهذا الباب مصفح بصفائح الفضة والذهب وحلقتاه من الذهب الخالص وذكر لي ان عدد من بهذه الكنيسة من الرهبان والقسيسين ينتهي الى آلاف وان بعضهم من ذرية الحواريين وان بداخلها كنيسة مختصة بالنساء فيها من الابكار المنقطعات للعبادة أزيد من ألف وأما القواعد من النساء فأكثر من ذلك كله ومن عادة الملك وأرباب دولته وسائر الناس ان يأتوا كل يوم صباحا الى زيارة هذه الكنيسة ويأتي اليها البابة مرة في السنة واذا كان على مسيرة أربع من البلد يخرج الملك الى لقائه ويترجل له وعند دخول المدينة يمشي بين يديه على قدميه ويأتيه صباحا ومساء للسلام عليه طول مقامه بالقسطنطينية حتى ينصرف

﴿ ذكر المانستارات بقسطنطينية ﴾

والمانستار على مثل لفظ المارستان الا أن نونه متقدمة وراءه متأخرة وهو عندهم شبه الزاوية عند المسلمين وهذه المانستارات بها كثيرة فمنها مانستار عمره الملك جرجيس والد ملك القسطنطينية وسنذكره وهو بخارج اصطنبول مقابل الغلطة ومنها مانستاران خارج الكنيسة العظمى عن يمين الداخل اليها وهما في داخل بستان يشقهما نهر ماء واحدهما للرجال والآخر للنساء وفي كل واحد منهما كنيسة ويدور بهما البيوت

للمتعبدين والمتعبدات وقد حبس على كل واحد منهما احباس لكسوة المتعبدين ونفقتهم بناهما أحد الملوك ومنهما مانستاران عن يسار الداخل الى الكنيسة العظمى على مثل هذين الآخرين ويطيف بهما بيوت وأحدهما يسكنه العميان والثاني يسكنه الشيوخ الذين لا يستطيعون الخدمة ممن بلغ الستين أو نحوها ولكل واحد منهم كسوته ونفقته من أوقاف معينة لذلك وفي داخل كل مانستار منها دويرة لتعبد الملك الذي بناه وأكثر هؤلاء الملوك اذا بلغ الستين أو السبعين بنى مانستارا ولبس المسوح وهي ثياب الشعر وقلد ولده الملك واشتغل بالعبادة حتى يموت وهم يحتفلون في بناء هذه المانستارات ويعملونها بالرخام والفسيفساء وهي كثيرة بهذه المدينة ودخلت مع الرومي الذي عينه الملك للركوب معي الى مانستار يشقه نهر وفيه كنيسة فيها نحو خمسمائة بكر عليهن المسوح ورؤسهن محلوقة فيها قلانيس اللبد ولهن جمال فائق وعليهن أثر العبادة وقد قعد صبي على منبر يقرأ لهن الانجيل بصوت لم أسمع قط أحسن منه وحوله ثمانية من الصبيان على منابر ومعهم قسيسهم فلما قرأ هذا الصبي قرأ صبي آخر وقال لي الرومي ان هؤلاء البنات من بنات الملوك وهبن أنفسهن لخدمة هذه الكنيسة وكذلك الصبيان القراء ولهم كنيسة أخرى خارج تلك الكنيسة ودخلت معه أيضاً الى كنيسة في بستان فوجدنا بها نحو خمسمائة بكر أو أزيد وصبي يقرأ لهن على منبر وجماعة صبيان معه على منابر مثل الاولين فقال لي الرومي هؤلاء بنات الوزراء والأمراء يتعبدن بهذه الكنيسة ودخلت معه الى كنائس فيها أبكار من وجوه أهل البلد والى كنائس فيها العجائز والقواعد من النساء والى كنائس فيها الرهبان يكون في الكنيسة منها مائة رجل وأكثر وأقل وأكثر أهل هذه المدينة رهبان ومتعبدون وقسيسون وكنائسها لا تحصى كثرة وأهل المدينة من جندي وغيره صغير وكبير يجعلون على رؤسهم المظلات الكبار شتاء وصيفا والنساء لهن عمائم كبار

﴿ ذكر الملك المترهب جرجيس ﴾

وهذا الملك ولى الملك لابنه وانقطع للعبادة وبنى مانستارا كما ذكرناه خارج المدينة على ساحلها وكنت يوما مع الرومي المعين للركوب معي فاذا بهذا الملك ماشياً على قدميه وعليه

المسوح وعلى رأسه قلنسوة لبد وله لحية بيضاء طويلة ووجهه حسن عليه أثر العبادة وخلفه وامامه جماعة من الرهبان وبيده عكاز وفى عنقه سبحة فلما رآه الرومي نزل وقال لى انزل فهذا والد الملك فلما سلم عليه الرومى سأله عنى ثم وقف وبعث عنى فجئت اليه فأخذ بيدي وقال لذلك الرومي وكان يعرف اللسان العربي قل لهذا السراكنو يعني المسلم أنا أصافح اليد التى دخلت بيت المقدس والرجل التى مشت داخل الصخرة والكنيسة العظمى التى تسمى قمامة وبيت لحم وجعل يده على قدمي ومسح بها وجهه فعجبت من اعتقادهم فيمن دخل تلك المواضع من غير ملتهم ثم أخذ بيدى ومشيت معه فسألنى عن بيت المقدس ومن فيه من النصارى واطال السؤال ودخلت معه الي حرم الكنيسة الذى وصفناه آنفا ولما قارب الباب الاعظم خرجت جماعة من القسيسين والرهبان للسلام عليه وهو من كبارهم في الرهبانية ولما رآهم أرسل يدي فقلت له أريد الدخول معك الى الكنيسة فقال للترجمان قل له لا بدلداخلها من السجود للصليب الاعظم فان هذا مما سنته الاوائل ولا يمكن خلافه فتركته ودخل وحده ولم أره بعدها

﴿ذكر قاضى القسطنطينية﴾

ولما فارقت الملك المترهب المذكور دخلت سوق الكتاب فرآني القاضي فبعث الي أحد اعوانه فسأل الرومي الذي معي فقال له انه من طلبة المسلمين فلما عاد اليه وأخبره بذلك بعث الي أحد أصحابه وهم يسمون القاضى النجشي كفالي فقال لي النجشي كفالي يدعوك فصعدت اليه الى القبة التي تقدم ذكرها فرأيت شيخاً حسن الوجه واللمة عليه لباس الرهبان وهو الملف الاسود وبين يديه نحو عشرة من الكتاب يكتبون فقام الي وقام أصحابه وقال أنت ضيف الملك ويجب علينا اكرامك وسألني عن بيت المقدس والشام ومصر وأطال الكلام وكثر عليه الازدحام وقال لى لا بد لك أن تأتي الي دارى فاضيفك فانصرفت عنه ولم ألقه بعد

﴿ذكر الانصراف عن القسطنطينية﴾

ولما ظهر لمن كان فى صحبة الخاتون من الاتراك أنها على دين أبيها وراغبة في المقام معه طلبوا

منها الاذن في العودة الى بلادهم فأذنت لهم وأعطتهم عطاء جزيلا وبعثت معهم من
يوصلهم الي بلادهم أميرا يسمي ساروجة الصغير في خمسمائة فارس وبعثت الى فأعطتني
ثلاثمائة دينار من ذهبهم وهم يسمونه البربرة وليس بالطيب والفي درهم بندقية وشقة
ملف من عمل البنات وهو أجود أنواعه وعشرة أثواب من حرير وكتان وصوف
وفرسين وذلك من عطاء أبيها وأوصت بى ساروجة وودعتها وانصرفت وكانت مدة
مقامي عندهم شهرا وستة أيام وسافرنا صحبة ساروجة فكان يكرمني حتى وصلنا الي آخر
بلادهم حيث تركنا أصحابنا وعرباتنا وركبنا العربات ودخلنا البرية ووصل ساروجة معنا
الي مدينة بابا سلطوق وأقام بها ثلاثا في الضيافة وانصرف الى بلاده وذلك في اشتداد البرد
وكنت ألبس ثلاث فروات وسروالين احدهما مبطن وفي رجلي خف من صوف وفوقه
خف مبطن بثوب كتان وفوقه خف من البرغالي وهو جلد الفرس مبطن بجلد ذئب
وكنت أتوضأ بالماء الحار بقربة من النار فما تقطر من الماء قطرة الا جمدت لحينها واذا
غسلت وجهي يصل الماء الى لحيتي فيجمد فأحركها فيسقط منها شبه الثلج والماء الذي
ينزل من الانف يجمد على الشارب وكنت لا أستطيع الركوب لكثرة ما علي من الثياب
حتى يركبني أصحابي ثم وصلت الى مدينة الحاج ترخان حيث فارقنا السلطان أوزبك
فوجدناه قد رحل واستقر بحضرة ملكه فسافرنا على نهر اتل وما يليه من المياه ثلاثا وهي
جامدة وكنا اذا احتجنا الماء قطعنا قطعا من الجليد وجعلناه في القدر حتى يصير ماء
فنشرب منه ونطبخ به ووصلنا الى مدينة السرا (وضبط اسمها بسين مهمل وراء
مفتوحتين وألف) وتعرف بسرا بركة وهي حضرة السلطان أوزبك ودخلنا على
السلطان فسألنا عن كيفية سفرنا وعن ملك الروم ومدينته فأعلمناه وأمر باجراء النفقة
علينا وأنزلنا ومدينة السرا من أحسن المدن متناهية الكبر في بسيط من الارض تغص بأهلها
كثرة حسنة الاسواق متسعة الشوارع وركبنا يوما مع بعض كبرائها وغرضنا التطوف عليها
ومعرفة مقدارها وكان منزلنا في طرف منها فركبنا منه غدوة فما وصلنا لآخرها الا بعد
الزوال فصلينا الظهر وأكلنا طعاما فما وصلنا الى المنزل الا عند المغرب ومشينا يوما

عرضها ذاهبين وراجعين في نصف يوم وذلك في عمارة متصلة الدور لا خراب فيها ولا بساتين وفيها ثلاثة عشر مسجداً لاقامة الجمعة أحدها للشافعية وأما المساجد سوى ذلك فكثيرة جداً وفيها طوائف من الناس منهم المغل وهم أهل البلاد والسلاطين وبعضهم مسلمون ومنهم الآص وهم مسلمون ومنهم القفجق والجركس والروس والروم وهم نصارى وكل طائفة تسكن محلة على حدة فيها أسواقها والتجار والغرباء من أهل العراقين ومصر والشام وغيرها ساكنون بمحلة عليها سور احتياطاً على أموال التجار وقصر السلطان بها يسمى ألطون طاش وألطون (بفتح الهمزة وسكون اللام وضم الطاء المهمل وواو مد ونون) ومعناه الذهب وطاش (بفتح الطاء المهمل وشين معجم) ومعناه حجر وقاضي هذه الحضرة بدر الدين الاعرج من خيار القضاة وبها من مدرسي الشافعية الفقيه الامام الفاضل صدر الدين سليمان اللكزي أحد الفضلاء وبها من المالكية شمس الدين المصري وهو ممن يطعن في ديانته وبها زاوية الصالح الحاج نظام الدين أضافنا بها وأكرمنا وبها زاوية الفقيه الامام العالم نعمان الدين الخوارزمي رأيته بها وهو من فضلاء المشايخ حسن الاخلاق كريم النفع شديد التواضع شديد السطوة على أهل الدنيا يأتي اليه السلطان أوزبك زائراً في كل جمعة فلا يستقبله ولا يقوم اليه ويقعد السلطان بين يديه ويكلمه ألطف كلام ويتواضع له والشيخ بضد ذلك وفعله مع الفقراء والمساكين والواردين خلاف فعله مع السلطان فانه يتواضع لهم ويكلمهم بألطف كلام ويكرمهم وأكرمني جزاه الله خيراً وبعث الي بغلام تركي وشاهدت له بركة ﴿كرامة له﴾ كنت أردت السفر من السرا الى خوارزم فنهاني عن ذلك وقال لي أقم أياما وحينئذ تسافر فنازعتني النفس ووجدت رفقة كبيرة آخذة في السفر فيهم تجار أعرفهم فاتفقت معهم على السفر في صحبتهم وذكرت له ذلك فقال لي لا بد لك من الاقامة فعزمت على السفر فأبق لي غلام أقمت بسببه وهذه من الكرامات الظاهرة ولما كان بعد ثلاث وجد بعض أصحابي ذلك الغلام الآبق بمدينة الحاج ترخان فجاء به الي فحينئذ سافرت الى خوارزم وبينها وبين

حضرة السراصحراء مسيرة أربعين يوما لا تسافر فيها الخيل لقلة الكلأ وانما تجر العربات بها الجمال فسرنا من السرا عشرة أيام فوصلنا الى مدينة سراجوق وجوق (بضم الجيم المعقود وواو وقاف) ومعنى جوق صغير فكأنهم قالوا سرا الصغيرة وهي على شاطئ نهر كبير زخار يقال له ألوصو (بضم الهمزة واللام وواو ومد وضم الصاد المهمل وواو) ومعناه الماء الكبير وعليه جسر من قوارب كجسر بغداد والى هذه المدينة انتهى سفرنا بالخيل التي تجر العربات وبعناها بها بحساب أربعة دنانير دراهم للفرس وأقل من ذلك لاجل ضعفها ورخصها بهذه المدينة واكترينا الجمال لجر العربات وبهذه المدينة زاوية لرجل صالح معمر من الترك يقال له أطا (بفتح الهمزة والطاء المهمل) ومعناه الوالد أضافنا بها ودعا لنا وأضافنا أيضاً قاضيها ولا أعرف اسمه ثم سرنا منها ثلاثين يوما سيرا جادا لا ننزل الا ساعتين احداهما عند الضحى والاخرى عند المغرب وتكون الاقامة قدر ما يطبخون الدوقي ويشربونه وهو يطبخ من غلية واحدة ويكون معهم الخليع من اللحم يجعلونه عليه ويصبون عليه اللبن وكل انسان انما ينام أو يأكل في عربته حال السير وكان لي في عربتي ثلاث من الجواري ومن عادة المسافرين في هذه البرية الاسراع لقلة أعشابها والجمال التي تقطعها يهلك معظمها وما يبقى منها لا ينتفع به الا في سنة أخرى بعد ان يسمن والماء في هذه البرية في مناهل معلومة بعد اليومين والثلاثة وهو ماء المطر والحسيان ثم سلكنا هذه البرية وقطعناها كما ذكرناه ووصلنا الى خوارزم وهي أكبر مدن الاتراك وأعظمها وأجملها وأضخمها لها الاسواق المليحة والشوارع الفسيحة والعمارة الكثيرة والمحاسن الاثيرة وهي ترتج بسكانها لكثرتهم وتموج بهم موج البحر ولقد ركبت بها يوما ودخلت السوق فلما توسطته وبلغت منتهى الزحام في موضع يقال له الشور (بفتح الشين المعجم واسكان الواو) لم أستطع ان أجوز ذلك الموضع لكثرة الازدحام وأردت الرجوع فما أمكنني لكثرة الناس فبقيت متحيرا وبعد جهد شديد رجعت وذكر لي بعض الناس ان تلك السوق يخف زحامها يوم الجمعة لانهم يسدون سوق القيسارية وغيرها من الاسواق فركبت يوم الجمعة وتوجهت الى المسجد الجامع والمدرسة وهذه المدينة من

طاعة السلطان أوزبك وله فيها أمير كبير يسمى قطلودمور وهو الذي عمر هذه المدرسة وما معها من المواضع المضافة وأما المسجد فعمرته زوجته الخاتون الصالحة ترابك وترابك (بضم التاء المثلوة وفتح الراء وألف) وبك (بفتح الباء الموحدة والكاف) وبخوارزم مارستان له طبيب شامي يعرف بالصهيوني نسبة الى صهيون من بلاد الشام ولم أر في بلاد الدنيا أحسن أخلاقا من أهل خوارزم ولا أكرم نفوسا ولا أحب في الغرباء ولهم عادة جميلة في الصلاة لم أرها لغيرهم وهي ان المؤذنين بمساجدها يطوف كل واحد منهم على دور جيران مسجده معلما لهم بحضور الصلاة فمن لم يحضر الصلاة مع الجماعة ضربه الامام بحضر الجماعة وفي كل مسجد درة معلقة برسم ذلك ويغرم خمسة دنانير تنفق في مصالح المسجد أو تطعم للفقراء والمساكين ويذكرون ان هذه العادة عندهم مستمرة على قديم الزمان وبخارج خوارزم نهر جيحون أحد الانهار الاربعة التي من الجنة وهو يجمد في أوان البرد كما يجمد نهر أتل ويسلك الناس عليه وتبقى مدة جموده خمسة أشهر وربما سلكوا عليه عند أخذه في الذوبان فهلكوا ويسافر فيه في أيام الصيف بالمراكب الى ترمذ ويجلبون منها القمح والشعير وهي مسيرة عشر للمنحدر وبخارج خوارزم زاوية مبنية على تربة الشيخ نجم الدين الكبرى وكان من كبار الصالحين وفيها الطعام للوارد والصادر وشيخها المدرس سيف الدين بن عصبة من كبار أهل خوارزم وبها أيضا زاوية شيخها الصالح المجاور جلال الدين السمرقندي من كبار الصالحين أضافنا بها وبخارجها قبر الامام العلامة أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري وعليه قبة وزمخشر قرية على مسافة أربعة أميال من خوارزم ولما أتيت هذه المدينة نزلت بخارجها وتوجه بعض أصحابي الى القاضي الصدر أبي حفص عمر البكري فبعث الى نائبه نور الاسلام فسلم علي ثم عاد اليه ثم أتى القاضي في جماعة من أصحابه فسلم علي وهو فتي السن كبير الفعال وله نائبان أحدهما نور الاسلام المذكور والآخر نور الدين الكرماني من كبار الفقهاء وهو الشديد في أحكامه القوي في ذات الله تعالى ولما حصل الاجتماع بالقاضي قال لي ان هذه المدينة كثيرة الزحام ودخولكم نهارا لا يتأتى وسيأتي اليكم نور الاسلام لتدخلوا منه من آخر الليل ففعلنا ذلك

ونزلنا بمدرسة جديدة ليس بها أحد ولما كان بعد صلاة الصبح أتى الينا القاضي المذكور ومعه من كبار المدينة جماعة منهم مولانا همام الدين ومولانا زين الدين المقدسي ومولانا رضي الدين يحيي ومولانا فضل الله الرضوى ومولانا جلال الدين العمادى ومولانا شمس الدين السنجرى امام أميرها وهم أهل مكارم وفضائل والغالب على مذهبهم الاعتزال لكنهم لا يظهرونه لان السلطان أوزبك وأميره على هذه المدينة قطلودمور من أهل السنة وكنت أيام اقامتي بها أصلى الجمعة مع القاضي أبي حفص عمر المذكور بمسجده فاذا فرغت الصلاة ذهبت معه الي داره وهي قريبة من المسجد فادخل معه الي مجلسه وهو من أبدع المجالس فيه الفرش الحافلة وحيطانه مكسوة بالملف وفيه طيقان كثيرة وفى كل طاق منها أواني الفضة المموهة بالذهب والاواني العراقية وكذلك عادة أهل تلك البلاد ان يصنعوا في بيوتهم ثم يأتي بالطعام الكثير وهو من أهل الرفاهية والمال الكثير والرباع وهو سلف الامير قطلودمور متزوج بأخت امرأته واسمها جيجا أغا وبهذه المدينة جماعة من الوعاظ والمذكرين أكبرهم مولانا زين الدين المقدسي والخطيب مولانا حسام الدين المشاطي الخطيب المصقع أحد الخطباء الاربعة الذين لم أسمع في الدنيا أحسن منهم

﴿ وأمير خوارزم ﴾

هو الامير الكبير قطلودمور وقطلو (بضم القاف وسكون الطاء المهمل وضم اللام) ودمور (بضم الدال المهمل والميم وواو وراء) ومعنى اسمه الحديد المبارك لان قطلو هو المبارك ودمور هو الحديد وهذا الامير ابن خالة السلطان المعظم محمد أوزبك وأكبر أمرائه وهو واليه على خراسان وولده هرون بك متزوج بابنة السلطان المذكور التي أمها الملكة طيطغلي المتقدم ذكرها وامرأته الخاتون ترابك صاحبة المكارم الشهيرة ولما أتاني القاضي مسلما على كما ذكرته قال لى ان الامير قد علم بقدومك وبه بقية مرض يمنعه من الاتيان اليك فركبت مع القاضي الى زيارته وأتينا داره فدخلنا مشورا كبيرا أكثر بيوته خشب ثم دخلنا مشورا اصغر فيه قبة خشب مزخرفة قد كسيت حيطانها بالملف الملون وسقفها بالحرير المذهب والامير على فرش له من الحرير وقد غطى رجليه

لمـابهمامن النقرس وهي علة فاشية في الترك فسلمت عليه واجلسني الى جانبه وقعد القاضي والفقهاء وسألني عن سلطانه الملك محمد أوزبك وعن الخاتون بيلون وعن أبيهـما وعن مدينـة القسطنطينيـة فاعلمته بذلك كله ثم أتي بالموائد فيها الطعام من الدجاج المشوية والكراكي وافراخ الحمـام وخبز معجون بالسمن يسمونه الكليجا والكعك والحلوا ثم أتي بموائد اخرى فيها الفواكه من الرمان المحبب في أواني الذهب والفضـة ومعه ملاعق الذهب وبعضه في أواني الزجاج العراقي ومعه ملاعق الخشب ومن العنب والبطيخ العجيب ومن عوائد هـذا الامير ان يأتي القاضي في كل يوم الي مشوره فيجلس بمجلس معد له ومعه الفقهاء وكتابه ويجلس في مقابلته أحد الامراء الكبراء ومعه ثمـانية من كبراء امراء الترك وشيوخهم يسمون الارغجية (يارغوجي) ويتحاكم الناس اليهم فما كان من القضايا الشرعية حكم فيها القاضي وما كان من سواها حكم فيها أولئك الامراء وأحكامهم مضبوطة عادلة لانهم لا يتهمون بميل ولا يقبلون رشوة ولما عدنا الي المدرسة بعد الجلوس مع الامير بعث الينا الارز والدقيق والغنم والسمن والابزار وأحمال الحطب وتلك البلاد كلها لا يعرف بها الفحم وكذلك الهند وخراسان وبلاد العجم وأما الصـين فيوقدون فيها حجارة تشتعل فيها النار كما تشتعل في الفحم ثم اذا صارت رمادا عجنوه بالمـاء وجففوه بالشمس وطبخوا بها ثانية كذلك حتي يتلاشا

﴿حكاية ومكرمة لهذا القاضي والامير﴾

صليت في بعض أيام الجمع على عادتي بمسجد القاضي أبي حفص فقال لي ان الامـير أمر لك بخمسمائة درهم وأمر أن يصنع لك دعوة ينفق فيها خمسمائة درهم أخرى يحضرها المشايخ والفقهاء والوجوه فلما أمر بذلك قلت له أيها الامير تصنع دعوة يأكل من حضرها القمة أو لقمتين لو جعلت له جميع المـال كان أحسن له للنفع فقـال أفعل ذلك وقد أمر لك بالالف كاملة ثم بعثها الامير صحبة امامه شمس الدين السنجري في خريطة يحملها غلامه وصرفها من الذهب المغربي ثلاثمائة دينار وكنت قد اشتريت ذلك اليوم فرسا أدهم اللون بخمسة وثلاثين دينارا دراهـم وركبته في ذهابي الى المسجد فـأعطيت ثمنه الامن تلك

الالف وتكاثرت عندى الخيل بعد ذلك حتى انتهت الى عدد لا أذكره خيفة مكذب يكذب به ولم تزل حالى في الزيادة حتى دخلت أرض الهند وكانت عندى خيل كثيرة لكني كنت أفضل هذا الفرس وأوثره وأربطه امام الخيل وبقي عندى الى انقضاء ثلاث سنين ولما هلك تغيرت حالي وبعثت الي الخاتون جيجا أغا امرأة القاضي مائة دينار دراهم وصنعت لي أختها ترابك زوجة الامير دعوة جمعت لها الفقهاء ووجوه المدينة بزاويتها التي بنتها وفيها الطعام للوارد والصادر وبعثت الي بفروة سمور وفرس جيد وهي من أفضل النساء وأصلحهن وأكرمهن جزاها الله خيرا

﴿ حكاية ﴾

ولما انفصلت من الدعوة التي صنعت لي هذه الخاتون وخرجت عن الزاوية تعرضت لي بالباب امرأة عليها ثياب دنسة وعلى رأسها مقنعة ومعها نسوة لا أذكر عددهن فسلمت على فرددت عليها السلام ولم أقف معها ولا التفت اليها فلما خرجت أدركني بعض الناس وقال لي ان المرأة التي سلمت عليك هي الخاتون فخجلت عند ذلك وأردت الرجوع اليها فوجدتها قد انصرفت فأبلغت اليها السلام مع بعض خدامها واعتذرت عما كان مني لعدم معرفتي بها

﴿ ذكر بطيخ خوارزم ﴾

وبطيخ خوارزم لا نظير له في بلاد الدنيا شرقا ولا غربا الا ما كان من بطيخ بخارى ويليه بطيخ أصفهان وقشره أخضر وباطنه أحمر وهو صادق الحلاوة وفيه صلابة ومن العجائب انه يقدد وييبس في الشمس ويجعل في القواصر كما يصنع عندنا بالشريحة وبالتين المالقي ويحمل من خوارزم الى أقصى بلاد الهند والصين وليس في جميع الفواكه اليابسة أطيب منه وكنت أيام اقامتي بدهلي من بلاد الهند متى قدم المسافرون بعثت من يشترى لي منهم قديد البطيخ وكان ملك الهند اذا أتي اليه بشيء منه بعث الي به لما يعلم من محبتي فيه ومن عادته انه يطرف الغرباء بفواكه بلادهم ويتفقدهم بذلك

﴿ حكاية ﴾

كان قد صحبني من مدينة السرا الي خوارزم شريف من أهل كربلاء يسمى علي بن منصور وكان من التجار فكنت أكلفه أن يشترى لي الثياب وسواها فكان يشتري لي الثوب بعشرة دنانير ويقول اشتريته بثمانية ويحاسبني بالثمانية ويدفع الدينارين من ماله

وأنا لا علم لي بفعله إلى أن تعرفت ذلك على ألسنة الناس وكان مع ذلك قد أسلفني دنانير فلما وصل إلي احسان أمير خوارزم رددت إليه ما أسلفنيه وأردت أن أحسن بعده إليه مكافأة لأفعاله الحسنة فأبى ذلك وحلف أن لا تفعل وأردت أن أحسن إلى فتى كان له اسمه كافور فحلف أن لا أفعل وكان أكرم من لقيته من العراقيين وعزم على السفر معي إلى بلاد الهند ثم ان جماعة من أهل بلده وصلوا إلى خوارزم برسم السفر إلى الصين فأخذ في السفر معهم فقلت له في ذلك فقال هؤلاء أهل بلدي يعودون إلى أهلي وأقاربي ويذكرون أني سافرت إلى الهند برسم الكدية فيكون سبة علي لا أفعل ذلك وسافر معهم إلى الصين فبلغني بعد وأنا بأرض الهند أنه لما بلغ إلى مدينة المالق وهي آخر البلاد التي من عمالة ما وراء النهر وأول بلاد الصين أقام بها وبعث فتى له بما كان عنده من المتاع فأبطأ الفتى عليه وفي أثناء ذلك وصل من بلده بعض التجار ونزل معه في فندق واحد فطلب منه الشريف أن يسلفه شيئاً بخلال ما يصل فتاه فلم يفعل ثم أكد قبح ما صنع في عدم التوسعة على الشريف بأن أراد الزيادة عليه في المسكن الذي كان له في الفندق فبلغ ذلك الشريف فاغتم منه ودخل إلى بيته فذبح نفسه فأدرك وبه رمق واتهموا غلاما كان له بقتله فقال لهم لا تظلموه فإني أنا فعلت ذلك بنفسي ومات من يومه غفر الله له وكان قد حكى لي عن نفسه أنه أخذ مرة من بعض تجار دمشق ستة آلاف درهم قراضا فلقيه ذلك التاجر بمدينة حماة من أرض الشام فطلبه بالمال وكان قد باع ما اشترى به من المتاع بالدين فاستحيا من صاحب المال ودخل إلى بيته وربط عمامته بسقف البيت وأراد أن يخنق نفسه وكان في أجله تأخير فتذكر صاحبا له من الصيارفة فقصده وذكر له القضية فسلفه مالا دفعه للتاجر ولما أردت السفر من خوارزم اكتريت جمالا واشتريت محارة وكان عديلي بها عفيف الدين التوزري وركب الخدام بعض الخيل وجللنا باقيها لاجل البرد ودخلنا البرية التي بين خوارزم وبخارى وهي مسيرة ثمانية عشر يوما في رمال لا عمارة بها الا بلدة واحدة فودعت الامير قطلودمور وخلع علي خلعة وخلع على القاضي أخرى وخرج مع الفقهاء لوداعي وسرنا أربعة أيام ووصلنا إلى مدينة الكات وليس بهذه الطريق عمارة سواها وضبط اسمها

بفتح الهمزة وسكون اللام وآخره تاء مثناة) وهي صغيرة حسنة نزلنا خارجها على بركة ماء قد جمدت من البرد فكان الصبيان يلعبون فوقها ويزلقون عليها وسمع بقدومي قاضي الكات ويسمى صدر الشريعة وكنت قد لقيته بدار قاضي خوارزم فجاء الي مسلماً مع الطلبة وشيخ المدينة الصالح العابد محمود الخيوقي ثم عرض على القاضي الوصول الي أمير تلك المدينة فقال له الشيخ محمود القادم ينبغي له أن يزار وان كانت لنا همة نذهب الى أمير المدينة ونأتي به ففعلوا ذلك وأتي الامير بعد ساعة في أصحابه وحدامه فسلمنا عليه وكان غرضنا تعجيل السفر فطلب منا الاقامة وصنع دعوة جمع لها الفقهاء ووجوه العساكر وسواهم ووقف الشعراء يمدحونه وأعطاني كسوة وفرساً جيداً وسرنا على الطريق المعروفة بسيباية وفي تلك الصحراء مسيرة ست دون ماء ووصلنا بعد ذلك الى بلدة وبكنة (وضبط اسمها بفتح الواو واسكان الياء الموحدة وكاف ونون) وهي على مسيرة يوم واحد من بخاري بلدة حسنة ذات أنهار وبساتين وهم يدخرون العنب من سنة الي سنة وعندهم فاكهة يسمونها العللو (الآلو بالعين المهملة وتشديد اللام) فييبسونه ويجلبه الناس الى الهند والصين ويجعل عليه الماء ويشرب ماؤه وهو أيام كونه أخضر حلو فاذا يبس صار فيه يسير حموضة ولحميته كثيرة ولم أر مثله بالاندلس ولا بالمغرب ولا بالشام ثم سرنا في بساتين متصلة وأنهار وأشجار وعمارة يوماً كاملا ووصلنا الي مدينة بخارى التي ينسب اليها امام المحدثين أبو عبد الله محمد بن اسمعيل البخاري وهذه المدينة كانت قاعدة ما وراء نهر جيحون من البلاد وخربها اللعين تنكيز التترى جد ملوك العراق فمساجدها الآن ومدارسها وأسواقها خربة الا القليل وأهلها أذلاء وشهادتهم لا تقبل بخوارزم وغيرها لاشتهارهم بالتعصب ودعوى الباطل وانكار الحق وليس بها اليوم من الناس من يعلم شيئاً من العلم ولا من له عناية به

﴿ ذكر أولية التتر وتخريبهم بخاري وسواها ﴾

كان تنكيز خان حداداً بأرض الخطا وكان له كرم ونفس وقوة وبسطة في الجسم وكان يجمع الناس ويطعمهم ثم صارت له جماعة فقدموه على أنفسهم وغلب على بلده وقوى واشتدت

شوكته واستفحل أمره فغلب على ملك الخطا ثم على ملك الصين وعظمت جيوشه وتغلب على بلاد الختن وكاشغر والمالق وكان جلال الدين سنجر بن خوارزم شاه ملك خوارزم وخراسان وماوراء النهر له قوة عظيمة وشوكة فهابه تنكيز وأحجم عنه ولم يتعرض له فاتفق ان بعث تنكيز تجارا بأمتعة الصين والخطا من الثياب الحريرية وسواها الى بلدة أطرار (بضم الهمزة) وهي آخر عمالة جلال الدين فبعث اليه عامله عليها معلما بذلك واستأذنه مايفعل في أمرهم فكتب اليه يأمره أن يأخذ أموالهم ويمثل بهم ويقطع أعضاءهم ويردهم الي بلادهم لما أراد الله تعالى من شقاء أهل بلاد المشرق ومحنتهم رأيا فائلا وتدبيرا سيئا مشؤما فلما فعل ذلك تجهز تنكيز بنفسه في عساكر لاتحصى كثرة برسم غزو بلاد الاسلام فلما سمع عامل أطرار بحركته بعث الجواسيس ليأتوه بخبره فذكر ان أحدهم دخل محلة بعض أمراء تنكيز في صورة سائل فلم يجد من يطعمه ونزل الي جانب رجل منهم فلم ير عنده زادا ولا أطعمه شيئا فلما أمسى أخرج مصرانا يابسة عنده فبلها بالماء وفصد فرسه وملاها بدمه وعقدها وشواها بالنار فكانت طعامه فعاد الى أطرار فأخبر عاملها بأمرهم وأعلمه ان لاطاقة لاحد بقتالهم فاستمد ملكه جلال الدين فأمده بستين ألفا زيادة على من كان عنده من العساكر فلما وقع القتال هزمهم تنكيز ودخل مدينة اطرار بالسيف فقتل الرجال وسبي الذراري وأتى جلال الدين بنفسه لمحاربته فكانت بينهم وقائع لايعلم في الاسلام مثلها وآل الامر الي أن تملك تنكيز ماوراء النهر وخرب بخارى وسمرقند وترمذ وعبر النهر وهو نهر جيحون الى مدينة بلخ فتملكها ثم الى اناميان (الباميان) فتملكها وأوغل في بلاد خراسان وعراق العجم فثار عليه المسلمون في بلخ وفي ماوراء النهر فكر عليهم ودخل بلخ بالسيف وتركها خاوية على عروشها ثم فعل مثل ذلك في ترمذ فخربت ولم تعمر بعد لكنها بنيت مدينة على ميلين منها هي التي تسمي اليوم ترمذ وقتل أهل الباميان (الباميان) وهدمها بأسرها الا صومعة جامعها وعفا عن أهل بخارى وسمرقند ثم عاد بعد ذلك الى العراق وانتهى أمر التتر حتي دخلوا حضرة الاسلام ودار الخلافة بغداد بالسيف وذبحوا الخليفة المستعصم بالله العباسي رحمه الله

(قال ابن جزي) أخبرنا شيخنا قاضي القضاة أبو البركات ابن الحاج أعزه الله قال سمعت الخطيب اباعبدالله بن رشيد يقول لقيت بمكة نور الدين ابن الزجاج من علماء العراق ومعه ابن أخ له فتفاوضنا الحديث فقال لي هلك في فتنة التتر بالعراق أربعة وعشرون ألف رجل من أهل العلم ولم يبق منهم غيري وغير ذلك وأشار الى ابن أخيه

(رجع) قال ونزلنا من بخارى بربضها المعروف بفتح أباد حيث قبر الشيخ العالم العابد الزاهد سيف الدين الباخرزي وكان من كبار الاولياء وهذه الزاوية المنسوبة لهذا الشيخ حيث نزلنا عظيمة لها أوقاف ضخمة يطعم منها الوارد والصادر وشيخها من ذريته وهو الحاج السياح يحيي الباخرزي وأضافني هذا الشيخ بداره وجمع وجوه أهل المدينة وقرأ القراء بالاصوات الحسان ووعظ الواعظ وغنوا بالتركي والفارسي على طريقة حسنة ومرت لنا هنالك ليلة بديعة من أعجب الليالي ولقيت بها الفقيه العالم الفاضل صدر الشريعة وكان قد قدم من هرات وهو من الصلحاء الفضلاء وزرت بخارى قبر الامام العالم أبي عبد الله البخاري مصنف الجامع الصحيح شيخ المسلمين رضي الله عنه وعليه مكتوب هذا قبر محمد بن اسمعيل البخاري وقد صنف من الكتب كذا وكذا وكذلك على قبور علماء بخارى أسماؤهم وأسماء تصانيفهم وكنت قيدت من ذلك كثيرا وضاع مني في جملة ماضاع لي لما سلبني كفار الهند في البحر ثم سافرنا من بخارى قاصدين معسكر السلطان الصالح المعظم علاء الدين طرمشيرين وسنذكره فمررنا على نخشب البلدة التي ينسب اليها الشيخ أبو تراب النخشبي وهي صغيرة تحف بها البساتين والمياه فنزلنا بخارجها بدار لاميرها وكان عندي جارية قد قاربت الولادة وكنت أردت حملها الى سمرقند لتلد بها فاتفق انها كانت في المحمل فوضع المحمل على الجمل وسافر أصحابنا من الليل وهي معهم والزاد وغيره من أسبابي وأقمت أنا حتى ارتحل نهاراً مع بعض من معي فسلكوا طريقاً وسلكت طريقاً سواها فوصلنا عشية النهار على محلة السلطان المذكور وقد جعنا فنزلنا على بعد من السوق واشتري بعض أصحابنا ماسد جوعتنا وأعارنا بعض التجار خباء بتنا به تلك الليلة ومضى أصحابنا من الغد في البحث عن الجمال وباقي الاصحاب فوجدوهم عشيا وجاؤا بهم وكان

السلطان غائباً عن المحلة في الصيد فاجتمعت بنائبه الامير تقبغا فأنزلني بقرب مسجده وأعطاني خرقة (خركاه) وهي شبه الخباء وقد ذكرنا صفتها فيما تقدم فجعلت الجارية في تلك الخرقة فولدت تلك الليلة مولوداً وأخبروني انه ولد ذكر ولم يكن كذلك فلما كان بعد العقيقة أخبرني بعض الاصحاب ان المولود بنت فاستحضرت الجواري فسألتهن فأخبرني بذلك وكانت هذه البنت مولودة في طالع سعد فرأيت كل ما يسرني ويرضيني منذ ولدت وتوفيت بعد وصولي الى الهند بشهرين وسيذكر ذلك واجتمعت بهذه المحلة بالشيخ الفقيه العابد مولانا حسام الدين الياغي (بالياء آخر الحروف والغين المعجمة) ومعناه بالتركية الثائر وهو من أهل أطرار وبالشيخ حسن صهر السلطان

﴿ ذكر سلطان ماوراء النهر ﴾

وهو السلطان المعظم علاء الدين طرمشيرين (وضبط اسمه بفتح الطاء المهمل وسكون الراء وفتح الميم وكسر الشين المعجم وياء مد وراء مكسور وياء مد ثانية ونون) وهو عظيم المقدار كثير الجيوش والعساكر ضخم المملكة شديد القوة عادل الحكم وبلاده متوسطة بين أربعة من ملوك الدنيا الكبار وهم ملك الصين وملك الهند وملك العراق والملك أوزبك وكلهم يهادونه ويعظمونه ويكرمونه وولي الملك بعد أخيه الجكطي (وضبط اسمه بفتح الجيم المعقودة والكاف والطاء المهمل وسكون الياء) وكان الجكطي هذا كافراً وولي بعد أخيه الاكبر كبك وكان كبك هذا كافراً أيضاً لكنه كان عادل الحكم منصفاً للمظلومين يكرم المسلمين ويعظمهم

﴿ حكاية ﴾

يذكر ان هذا الملك كبك تكلم يوماً مع الفقيه الواعظ المذكر بدر الدين الميداني فقال له أنت تقول ان الله ذكر كل شيء في كتابه العزيز قال نعم فقال اين اسمي فيه فقال هو في قوله تعالى في اى صورة ما شاء ركبك فأعجبه ذلك وقال يخشي ومعناه بالتركية جيد فأكرمه اكراماً كثيراً وزاد في تعظيم المسلمين

﴿ حكاية ﴾

ومن احكام كبك ما ذكر ان امرأة شكت له بأحد الامراء وذكرت انها فقيرة ذات اولاد وكان لها لبن تقوتهم بثمنه فاغتصبه ذلك الامير وشربه فقال لها انا اوسطه فان خرج اللبن

من جوفه مضى اسبيله والا وسطتك بعده فقالت المرأة قد حللته ولا أطلبه بشيء فأمر به فوسط فخرج الابن من بطنه ولنعد لذكر السلطان طرمشيرين ولما لقيت بالمحلة وهم يسمونها الاردو أياما ذهبت يوما لصلاة الصبح بالمسجد على عادتي فلما صليت ذكر لي بعض الناس ان السلطان بالمسجد فلما قام عن مصلاه تقدمت للسلام عليه وقام الشيخ حسن والفقيه حسام الدين الياغي واعلماه بحالي وقدومي منذ أيام فقال لي بالتركية خش ميسن يخشي ميسن قطلوايوسن ومعنى خش ميسن في عافية انت ومعنى يخشي ميسن جيد انت ومعنى قطلوايوسن مبارك قدومك وكان عليه في ذلك الحين قباء قدسي أخضر وعلى رأسه شاشية مثله ثم انصرف الى مجلسه راجلا والناس يتعرضون له بالشكايات فيقف لكل مشتك منهم صغيراً او كبيرا ذكرا أو أنثى ثم بعث عني فوصلت اليه وهو في خرقة والناس خارجها ميمنة وميسرة والامراء منهم على الكراسي وأصحابهم وقوف على رؤسهم وبين ايديهم وسائر الجند قد جلسوا صفوفا امام كل واحد منهم سلاحه وهم اهل النوبة يقعدون هنالك الى العصر ويأتي آخرون فيقعدون الى آخر الليل وقد صنعت هنالك سقائف من ثياب القطن يكونون بها ولما دخلت الى الملك بداخل الخرقة وجدته جالساً على كرسي شبه المنبر مكسو بالحرير المزركش بالذهب وداخل الخرقة ملبس بثياب الحرير المذهب والتاج المرصع بالجوهر واليواقيت معلق فوق رأس السلطان بينه وبين رأسه قدر ذراع والامراء الكبار على الكراسي عن يمينه ويساره وأولاد الملوك بأيديهم المذاب بين يديه وعند باب الخرقة النائب والوزير والحاجب وصاحب العلامة وهم يسمون آل طمغي وال (بفتح الهمزة) معناه الاحمر وطمغي (بفتح الطاء المهمل وسكون الميم والغين المعجم المفتوح) ومعناه العلامة وقام الي أربعتهم حين دخولي ودخلوا معي فسلمت عليه وسألني وصاحب العلامة يترجم بيني وبينه عن مكة والمدينة والقدس شرفها الله وعن مدينة الخليل عليه السلام وعن دمشق ومصر والملك الناصر وعن العراقين وملكهما وبلاد الاعاجم ثم اذن المؤذن بالظهر فانصرفنا وكنا نحضر معه الصلوات وذلك ايام البرد الشديد المهلك فكان لا يترك صلاة الصبح والعشاء في الجماعة ويقعد للذكر بالتركيا

بعد صلاة الصبح الى طلوع الشمس و يأتي اليه كل من في المسجد فيصافحه و يشد بيده على يده وكذلك يفعلون في صلاة العصر وكان اذا أتى بهدية من زبيب أو تمر والتمر عزيز عندهم وهم يتبركون به يعطى منها بيده لكل من في المسجد

﴿حكاية﴾

ومن فضائل هذا الملك انه حضرت صلاة العصر يوما ولم يحضر السلطان فجاء أحد فتيانه بسجادة ووضعها قبالة المحراب حيث جرت عادته ان يصلي وقال الامام حسام الدين الياغي ان مولانا يريد ان تنتظره بالصلاة قليلا ريثما يتوضأ فقام الامام المذكور وقال نماز ومعناه الصلاة براى خدا أو براى طرمشيرين أى الصلاة لله او لطرمشيرين ثم أمر المؤذن باقامة الصلاة وجاء السلطان وقد صلى منها ركعتان فصلى الركعتين الآخرتين حيث انتهي به القيام وذلك في الموضع الذى تكون فيه أنعلة الناس عند باب المسجد وقضى مافاته وقام الى الامام ليصافحه وهو يضحك وجلس قبالة المحراب والشيخ الامام الى جانبه وأنا الى جانب الامام فقال لي اذا مشيت الى بلادك فحدث ان فقيرا من فقراء الاعاجم يفعل هكذا مع سلطان الترك وكان هذا الشيخ يعظ الناس فى كل جمعة ويأمر السلطان بالمعروف وينهاه عن المنكر وعن الظلم ويغلظ عليه القول والسلطان ينصت لكلامه ويبكي وكان لا يقبل من عطاء السلطان شيئا ولم يأكل قط من طعامه ولا لبس من ثيابه وكان هذا الشيخ من عباد الله الصالحين وكنت كثيرا ما أرى عليه قباء قطن مبطنا بالقطن محشوا به وقد بلي وتمزق وعلى رأسه قلنسوة لبد يساوى مثلها قيراطا ولا عمامة عليه فقلت له في بعض الايام يا سيدى ما هذا القباء الذى أنت لابسه انه ليس بجيد فقال لى يا ولدى ليس هذا القباء لي وانما هو لابنتي فرغبت منه ان يأخذ بعض ثيابي فقال لي عاهدت الله منذ خمسين سنة ان لا أقبل من أحد شيئا ولو كنت أقبل من أحد لقبلت منك ولما عزمت على السفر بعد مقامي عند هذا السلطان أربعة وخمسين يوما أعطاني السلطان سبعمائة دينار دراهم وفروة سمور تساوى مائة دينار طلبتها منه لاجل البرد ولما ذكرتها له أخذ أكمامي وجعل يقبلها بيده تواضعا منه وفضلا وحسن خلق وأعطاني فرسين وجملين ولما أردت وداعه أدركته في أثناء طريقه الى متصيده وكان اليوم شديد البرد

جداً فوالله ما قدرت على ان أنطق بكلمة لشدة البرد ففهم ذلك وضحك وأعطاني يده وانصرفت وبعد سنتين من وصولي الى أرض الهند بلغنا الخبر بأن الملأ من قومه وأمرائه اجتمعوا بأقصى بلاده المجاورة للصين وهنالك معظم عساكره وبايعوا ابن عم له اسمه بوزن أغلى وكل من كان من أبناء الملوك فهم يسمونه أغلى (بضم الهمزة وسكون الغين المعجمة وكسر اللام) وبوزن (بضم الباء الموحدة وضم الزاى) وكان مسلماً الا انه فاسد الدين سيء السيرة وسبب بيعتهم له وخلعهم لطرمشيرين ان طرمشيرين خالف أحكام جدهم تنكيز اللعين الذى خرب بلاد الاسلام وقد تقدم ذكره وكان تنكيز ألف كتاباً في أحكامه يسمي عندهم اليساق (بفتح الياء آخر الحروف والسين المهمل وآخره قاف) وعندهم انه من خالف أحكام هذا الكتاب فخلعه واجب ومن جملة أحكامه انهم يجتمعون يوماً في السنة يسمونه الطوى ومعناه يوم الضيافة ويأتي أولاد تنكيز والامراء من أطراف البلاد ويحضر الخواتين وكبار الاجناد وان كان سلطانهم قد غير شيئاً من تلك الاحكام يقوم اليه كبراؤهم فيقولون له غيرت كذا وغيرت كذا وفعلت كذا وقد وجب خلعك ويأخذون بيده ويقيمونه عن سرير الملك ويقعدون غيره من أبناء تنكيز وان كان أحد الامراء الكبار أذنب ذنباً في بلاده حكموا عليه بما يستحقه وكان السلطان طرمشيرين قد أبطل حكم هذا اليوم ومحا رسمه فانكروه عليه أشد الانكار وأنكروا عليه أيضاً كونه أقام أربع سنين فيما يلي خراسان من بلاده ولم يصل الى الجهة التى توالى الصين والعادة ان الملك يقصد تلك الجهة في كل سنة فيختبر أحوالها وحال الجند بها لان أصل ملكهم منها ودار الملك هي مدينة المالق فلما بايعوا ابوزن أتى في عسكر عظيم وخاف طرمشيرين على نفسه من أمرائه ولم يأمنهم فركب في خمسة عشر فارساً يريد بلاد غزنة وهي من عمالته وواليها كبير أمرائه وصاحب سره برنطيه وهذا الامير محب في الاسلام والمسلمين قد عمر في عمالته نحو أربعين زاوية فيها الطعام للوارد والصادر وتحت يده العساكر العظيمة ولم أر قط فيمن رأيته من الآدميين بجميع بلاد الدنيا أعظم خلقة منه فلما عبر نهر جيحون وقصد طريق بلخ رآه بعض الاتراك من أصحاب ينقى ابن أخيه كبك وكان السلطان

طرمشيرين المذكور وقتل أخاه كبك المذكور وبقي ابنه ينقي ببلخ فلما أعلمه التركي بخبره قال مافر الالأمر حدث عليه فركب في أصحابه وقبض عليه وسجنه ووصل بوزن الى سمرقند وبخارى فبايعه الناس وجاءه ينقي بطرمشيرين فيذكر انه لما وصل الي نسف بخارج سمرقند قتل هنالك ودفن بها وخدم تربته الشيخ شمس الدين كردن بريدا وقيل انه لم يقتل كما سنذكره وكردن (بكاف معقودة وراء مسكن ودال مهمل مفتوح ونون) ومعناه العنق وبريدا (بضم الباء الموحدة وكسر الراء وياء مد ودال مهمل) معناه المقطوع ويسمي بذلك لضربة كانت في عنقه وقد رأيته بارض الهند ويقع ذكره فيما بعد ولما ملك بوزن هرب ابن السلطان طرمشيرين وهو بشاى أغل (أغلى) وأخته وزوجها فيروز الي ملك الهند فعظمهم وأنزلهم منزلة علية بسبب ما كان بينه وبين طرمشيرين من الود والمكاتبة والمهاداة وكان يخاطبه بالاخ ثم بعد ذلك أتى رجل من أرض السند وادعي انه هو طرمشيرين واختلف الناس فيه فسمع بذلك عماد الملك سرتيز غلام ملك الهند ووالي بلاد السند ويسمى ملك عرض وهو الذي تعرض بين يديه عساكر الهند واليه أمرها ومقره بملتان قاعدة السند فبعث اليه بعض الاتراك العارفين به فعادوا اليه وأخبروه انه هو طرمشيرين حقا فأمر له بالسراجة وهي افراج فضرب خارج المدينة ورتب له ما يرتب لمثله وخرج لاستقباله وترجل له وسلم عليه وأتى في خدمته الي السراجة فدخلها راكبا كعادة الملوك ولم يشك أحد انه هو وبعث الى ملك الهند بخبره فبعث اليه الامراء يستقبلونه بالضيافات وكان في خدمة ملك الهند حكيم ممن خدم طرمشيرين فيما تقدم وهو كبير الحكماء بالهند فقال للملك أنا أتوجه اليه وأعرف حقيقة أمره فاني كنت عالجت له دملا تحت ركبته وبقي أثره وبه أعرفه فأتي اليه ذلك الحكيم واستقبله مع الامراء ودخل عليه ولازمه لسابقته عنده وأخذ يغمز رجليه وكشف عن الاثر فشتمه وقال له تريد ان تنظر الي الدمل الذي عالجته ها هو ذا وأراه أثره فتحقق انه هو وعاد الي ملك الهند فاعلمه بذلك ثم ان الوزير خواجه جهان أحمد بن اياس وكبير الامراء قطلوخان معلم السلطان أيام صغره دخلا على ملك الهند وقالا له يا خوند عالم هذا السلطان طرمشيرين

قد وصل وصح انه هو وهم ناس من قومه نحو اربعين ألفا وولده وصهره أرأيت ان اجتمعوا عليه مايكون من العمل فوقع هذا الكلام بموقع منه عظيم وامر ان يؤتي بطرمشيرين معجلا فلما دخل عليه امر بالخدمة كسائر الواردين ولم يعظم وقال له السلطان يامادركاني وهي شتمة قبيحة كيف تكذب وتقول انك طرمشيرين وطرمشيرين قد قتل وهذا خادم تربته عندنا والله لولا المعرة لقتلتك ولكن اعطوه خمسة آلاف دينار واذهبوا به الي دار بشاي اغلي واخته ولدي طرمشيرين وقولوا لهم ان هذا الكاذب يزعم انه والدكم فدخل عليهم فعرفوه وبات عندهم والحراس يحرسونه واخرج بالغد وخافوا ان يهلكوا بسببه فانكروه ونفي عن بلاد الهند والسند فسلك طريق كيج ومكران واهل البلاد يكرمونه ويضيفونه ويهادونه ووصل الى شيراز فاكرمه سلطانها ابو اسحق واجرى له كفايته ولما دخلت عند وصولي من الهند الي مدينة شيراز ذكر لي انه باق بها واردت لقاءه ولم افعل لانه كان في دار لايدخل اليه احد الا باذن من السلطان ابي اسحق فخفت مما يتوقع بسبب ذلك ثم ندمت على عدم لقائه

(رجع الحديث الي بوزن) وذلك انه لما ملك ضيق على المسلمين وظلم الرعية وابيح للنصارى واليهود عمارة كنائسهم فضج المسلمون من ذلك وتربصوا به الدوائر واتصل خبره بخليل ابن السلطان اليسور المهزوم على خراسان فقصد ملك هراة وهو السلطان حسين ابن السلطان غياث الدين الغوري فأعلمه بما كان في نفسه وسأل منه الاعانة بالعساكر والمال على أن يشاطره الملك اذا استقام له فبعث معه الملك حسين عسكرا عظيما وبين هراة والترمذ تسعة أيام فلما سمع أمراء السلطان بقدوم خليل تلقوه بالسمع والطاعة والرغبة في جهاد العدو وكان أول قادم عليه علاء الملك خداوندزاده صاحب ترمذ وهو أمير كبير شريف حسيني النسب فاتاه في أربعة آلاف من المسلمين فسر به وولاه وزارته وفوض اليه أمره وكان من الابطال وجاء الامراء من كل ناحية واجتمعوا على خليل والتقى مع بوزن فمالت العساكر الي خليل وأسلموا بوزن وأتوا به أسيرا فقتله خنقا باوتار القسي وتلك عادة لهم انهم لايقتلون من كان من أبناء الملوك الا خنقا واستقام الملك لخليل وعرض

عساكره بسمرقند فكانوا ثمانين ألفا عليهم وعلى خيلهم الدروع فصرف العسكر الذي جاء به من هرات وقصد بلاد المالق فقدم التتر على أنفسهم واحداً منهم والتقوه على مسيرة ثلاث من المالق بمقربة من اطراز (طراز) وحمي القتال وصبر الفريقان فحمل الامير خداوندزاده وزيره في عشرين ألفا من المسلمين حملة لم يثبت لها التتر فانهزموا واشتد فيهم القتل وأقام خليل بالمالق ثلاثا وخرج الى استئصال من بقي من التتر فاذعنوا له بالطاعة وجاز الى تخوم الخطا والصين وفتح مدينة قراقرم ومدينة بش بالغ وبعث اليه سلطان الخطا بالعساكر ثم وقع بينهما الصلح وعظم أمر خليل وهابته الملوك وأظهر العدل ورتب العساكر بالمالق وترك بها وزيره خداوندزاده وانصرف الى سمرقند وبخاري ثم ان الترك أرادوا الفتنة فسعوا الى خليل بوزيره المذكور وزعموا انه يريد الثورة ويقول هو أحق بالملك لقرابته من النبي صلى الله عليه وسلم وكرمه وشجاعته فبعث واليا الى المالق عوضا عنه وامره أن يقدم عليه في نفر يسير من أصحابه فلما قدم عليه قتله عند وصوله من غير تثبت فكان ذلك سبب خراب ملكه وكان خليل لما عظم أمره بغي على صاحب هرات الذي أورثه الملك وجهزه بالعساكر والمال فكتب اليه أن يخطب في بلاده باسمه ويضرب الدنانير والدراهم على سكته فغاظ ذلك الملك حسينا وأنف منه وأجابه بأقبح جواب فتجهز خليل لقتاله فلم توافقه عساكر الاسلام ورأوه باغياً عليه وبلغ خبره الى الملك حسين فجهز العساكر مع ابن عمه ملك ورنا والتقى الجمعان فانهزم خليل وأوتي به الى الملك حسين أسيراً فمن عليه بالبقاء وجعله في دار وأعطاه جارية واجرى عليه النفقة وعلى هذا الحال تركته عنده في أواخر سنة سبع وأربعين عند خروجي من الهند ولنعد الى ما كنا بسبيله

ولما وادعت السلطان طرمشيرين سافرت الى مدينة سمرقند وهي من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالا مبنية على شاطئ واد يعرف بوادي القصارين عليه النواعير تسقي البساتين وعنده يجتمع اهل البلد بعد صلاة العصر للنزهة والتفرج ولهم عليه مساطب ومجالس يقعدون عليها ودكاكين تباع بها الفاكهة وسائر المأكولات وكانت على شاطئه

قصور عظيمة وعمارة تنبئ عن علو همم أهلها فدثر أكثر ذلك وكذلك المدينة خرب كثير منها ولا سور لها ولا أبواب عليها وفي داخلها البساتين وأهل سمرقند لهم مكارم اخلاق ومحبة في الغريب وهم خير من أهل بخارى وبخارج سمرقند قبر قثم بن العباس بن عبد المطلب رضي الله عن العباس وعن ابنه وهو المستشهد حين فتحها ويخرج أهل سمرقند كل ليلة اثنين وجمعة الى زيارته والتتر يأتون لزيارته وينذرون له النذور العظيمة ويأتون اليه بالبقر والغنم والدراهم والدنانير فيصرف ذلك في النفقة على الوارد والصادر ولخدام الزاوية والقبر المبارك وعليه قبة قائمة على أربع أرجل ومع كل رجل ساريتان من الرخام منها الخضر والسود والبيض والحمر وحيطان القبة بالرخام المجزع المنقوش بالذهب وسقفها مصنوع بالرصاص وعلى القبر خشب الابنوس المرصع مكسو الاركان بالفضة وفوقه ثلاثة من قناديل الفضة وفرش القبة بالصوف والقطن وخارجها نهر كبير يشق الزاوية التي هنالك وعلى حافتيه الاشجار ودوالي العنب والياسمين وبالزاوية مساكن يسكنها الوارد والصادر ولم يغير التتر أيام كفرهم شيئاً من حال هذا الموضع المبارك بل كانوا يتبركون به لما يرون له من الآيات وكان الناظر في كل حال هذا الضريح المبارك وما يليه حين نزولنا به الامير غياث الدين محمد بن عبد القادر بن عبد العزيز بن يوسف بن الخليفة المستنصر بالله العباسي قدمه لذلك السلطان طرمشيرين لما قدم عليه من العراق وهو الآن عند ملك الهند وسيأتي ذكره ولقيت بسمرقند قاضيها المسمى عندهم صدر الجهان وهو من الفضلاء ذوي المكارم وسافر الى بلاد الهند بعد سفري اليها فأدركته منيته بمدينة ملتان قاعدة بلاد السند

﴿ حكاية ﴾

ولما مات هذا القاضي بملتان كتب صاحب الخبر بأمره الى ملك الهند وانه قدم برسم بابه فاخترم دون ذلك فلما بلغ الخبر الى الملك أمر ان يبعث الي أولاده عدد من آلاف الدنانير لا اذكره الآن وأمر أن يعطي لاصحابه ما كان يعطى لهم لو وصلوا ممه وهو بقيد الحياة ولملك الهند في كل بلد من بلاده صاحب الخبر يكتب له بكل ما يجري في ذلك البلد من الامور وبمن يرد عليه من الواردين واذا أتي الوارد كتبوا من أى البلاد ورد وكتبوا

سمه و نعته و ثيابه و أصحابه و خيله و خدامه و هيئته من الجلوس والمأكل وجميع شؤونه وتصرفاته وما يظهر منه من فضيلة أو ضدها فلا يصل الوارد الى الملك الا وهو عارف بجميع حاله فتكون كرامته على مقدار ما يستحقه وسافرنا من سمرقند فاجتزنا بلدة نسف واليها ينسب أبو حفص عمر النسفي مؤلف كتاب المنظومة في المسائل الخلافية بين الفقهاء الاربعة رضي الله عنهم ثم وصلنا الى مدينة ترمذ التي ينسب اليها الامام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي مؤلف الجامع الكبير في السنن وهي مدينة كبيرة حسنة العمارة والاسواق تخترقها الانهار وبها البساتين الكثيرة والعنب والسفرجل بها كثير متناهي الطيب واللحوم بها كثيرة وكذلك الالبان وأهلها يغسلون رؤسهم في الحمام باللبن عوضاً عن الطفل ويكون عند كل صاحب حمام أوعية كبار مملوءة لبنا فاذا دخل الرجل الحمام أخذ منها في اناء صغير فغسل رأسه وهو يرطب الشعر ويصقله وأهل الهند يجعلون في رؤسهم زيت السمسم ويسمونه الشيراج ويغسلون الشعر بعده بالطفل فينعم الجسم ويصقل الشعر ويطيله وبذلك طالت لحى أهل الهند ومن سكن معهم وكانت مدينة ترمذ القديمة مبنية على شاطئ جيحون فلما خربها تنكيز بنيت هذه الحديثة على ميلين من النهر وكان نزولنا بها بزاوية الشيخ الصالح عزيزان من كبار المشايخ وكرمائهم كثير المال والرباع والبساتين ينفق على الوارد والصادر من ماله واجتمعت قبل وصولي الى هذه المدينة بصاحبها علاء الملك خداوندزاده وكتب لي اليها بالضيافة فكانت تحمل الينا أيام مقامنا بها في كل يوم ولقيت أيضاً قاضيها قوام الدين وهو متوجه لرؤية السلطان طرمشيرين وطالب للاذن له في السفر الى بلاد الهند وسيأتي ذكر لقائي له بعد ذلك ولاخويه ضياء الدين وبرهان الدين بملتان وسفرنا جميعاً الى الهند وذكر أخويه الآخرين عماد الدين وسيف الدين ولقائي لهما بحضرة ملك الهند وذكر ولديه وقدومهما على ملك الهند بعد قتل أبيهما وتزويجهما بنتي الوزير خواجه جهان وما جرى في ذلك كله ان شاء الله تعالى ثم اجتزنا نهر جيحون الى بلاد خراسان وسرنا بعد انصرافنا من ترمذ واجازة الوادي يوما ونصف يوم في صحراء ورمال لا عمارة بها الى مدينة بلخ وهي

خاوية على عروشها غير عامرة ومن آثارها عامرة لاتقان بنائها وكانت ضخمة فسيحة ومساجدها ومدارسها باقية الرسوم حتى الآن ونقوش مبانيها مدخلة باصبغة اللازورد والناس ينسبون اللازورد الى خراسان وانما يجلب من جبال بدخشان التي ينسب اليها الياقوت البدخشي والعامة يقولون البلخش وسيأتي ذكرها ان شاء الله تعالى وخرب هذه المدينة تنكيز اللعين وهدم من مسجدها نحو الثلث بسبب كنز ذكر له انه تحت سارية من سواريه وهو من احسن مساجد الدنيا وافسحها ومسجد رباط الفتح بالمغرب يشبهه في عظم سواريه ومسجد بلخ اجمل منه في سوى ذلك

﴿ حكاية ﴾

ذكر لي بعض أهل التاريخ أن مسجد بلخ بنته امرأة كان زوجها أميرا ببلخ لبني العباس يسمى داود بن علي فاتفق ان الخليفة غضب مرة على أهل بلخ لحادث أحدثوه فبعث اليهم من يغرمهم مغرما فادحا فلما بلغ الى بلخ أتى نساؤها وصبيانها الى تلك المرأة التي بنت المسجد وهي زوج أميرهم وشكوا حالهم وما لحقهم من هذا المغرم فبعثت الى الامير الذي قدم برسم تغريمهم بثوب لها مرصع بالجوهر قيمته أكثر مما أمر بتغريمه فقالت له اذهب بهذا الثوب الى الخليفة فقد أعطيته صدقة عن أهل بلخ لضعف حالهم فذهب به الى الخليفة وألقى الثوب بين يديه وقص عليه القصة فخجل الخليفة وقال أتكون المرأة أكرم منا وأمر برفع المغرم عن أهل بلخ وبالعودة اليها ليرد للمرأة ثوبها وأسقط عن أهل بلخ خراج سنة فعاد الامير الى بلخ وأتى منزل المرأة وقص عليها مقالة الخليفة ورد عليها الثوب فقالت له أوقع بصر الخليفة على هذا الثوب قال نعم قالت لا البس ثوبا وقع عليه بصر غير ذي محرم مني وأمرت ببيعه فبني منه المسجد والزاوية ورباط في مقابلته مبني بالكذان وهو عامر حتى الآن وفضل من الثوب مقدار ثلثه فذكر انها أمرت بدفنه تحت بعض سواري المسجد ليكون هنالك متيسرا ان احتيج اليه خرج فأخبر تنكيز بهذه الحكاية فأمر بهدم سواري المسجد فهدم منها نحو الثلث ولم يجد شيئا فترك الباقي على حاله وبخارج بلخ قبر يذكر انه قبر عكاشة بن محصن الاسدي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما الذي يدخل الجنة بلا حساب وعليه زاوية معظمة بها كان نزولنا وبخارجها بركة ماء عجيبة عليها شجرة جوز

عظيمة ينزل الواردون في الصيف تحت ظلالها وشيخ هذه الزاوية يعرف بالحاج خرد وهو الصغير من الفضلاء وركب معنا وأرانا مزارات هذه المدينة منها قبر حزقيل النبي عليه السلام وعليه قبة حسنة وزرنا بها أيضاً قبورا كثيرة من قبور الصالحين لاأذكرها الآن ووقفنا على دار ابراهيم بن أدهم رضي الله عنه وهي دار ضخمة مبنية بالصخر الابيض الذي يشبه الكذان وكان زرع الزاوية مقترنا بها وقد سدت عليه فلم ندخلها وهي بقربة من المسجد الجامع ثم سافرنا من مدينة بلخ فسرنا في جبال قوهاستان (قهستان) سبعة ايام وهي قرى كثيرة عامرة بها المياه الجارية والاشجار المورقة وأكثرها شجر التين وبها زوايا كثيرة فيها الصالحون المنقطعون الى الله تعالى وبعد ذلك كان وصولنا الى مدينة هرات وهي أكبر المدن العامرة بخراسان ومدن خراسان العظيمة أربع ثنتان عامرتان وهما هرات ونيسابور وثنتان خربتان وهما بلخ ومرو ومدينة هرات كبيرة عظيمة كثيرة العمارة ولاهلها اصلاح وعفاف وديانة وهم على مذهب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه وبلدهم طاهر من الفساد

﴿ذكر سلطان هرات﴾

وهو السلطان المعظم حسين بن السلطان غياث الدين الغوري صاحب الشجاعة المأثورة والتأييد والسعادة ظهر له من انجاد الله تعالى وتأييده في موطنين اثنين مايقضي منه العجب أحدهما عند ملاقاة جيشه للسلطان خليل الذي بغي عليه وكان منتهي أمره حصوله أسيرا في يديه والموطن الثاني عند ملاقاته بنفسه لمسعود سلطان الرافضة وكان منتهي أمره تبديده وفراره وذهاب ملكه وولي السلطان حسين الملك بعد أخيه المعروف بالحافظ وولي أخوه بعد أبيه غياث الدين

﴿حكاية الرافضة﴾

كان بخراسان رجلان أحدهما يسمى بمسعود والآخر يسمى بمحمد وكان لهما خمسة من الاصحاب وهم من الفتاك ويعرفون بالعراق بالشطار ويعرفون بخراسان بسرابداران (سربدأران) ويعرفون بالمغرب بالصقورة فاتفق سبعتهم على الفساد وقطع الطرق وسلب الاموال وشاع خبرهم وسكنوا جبلا منيعا بقربة من مدينة بيهق وتسمي أيضاً

مدينة سبزار (سبزوار) وكانوا يكمنون بالنهار ويخرجون بالليل والعشى فيضربون على القرى ويقطعون الطرق ويأخذون الاموال وانثال عليهم أشباههم من أهل الشر والفساد فكثر عددهم واشتدت شوكتهم وهابهم الناس وضربوا على مدينة بيهق فملكوها ثم ملكوا سواها من المدن واكتسبوا الاموال وجندوا الجنود وركبوا الخيل وتسمى مسعود بالسلطان وصار العبيد يفرون من مواليهم اليه فكل عبد فر منهم يعطيه الفرس والمال وان ظهرت له شجاعة أمره على جماعة فعظم جيشه واستفحل أمره وتمذهب جميعهم بمذهب الرفض وطمحوا الى استئصال أهل السنة بخراسان وان يجعلوها كلمة واحدة رافضية وكان بمشهد طوس شيخ من الرافضة يسمى بحسن وهو عندهم من الصلحاء فوافقهم على ذلك وسموه بالخليفة وأمرهم بالعدل فاظهروه حتى كانت الدراهم والدنانير تسقط في معسكرهم فلا يلتقطها احد حتى يأتي ربها فيأخذها وغلبوا على نيسابور وبعث اليهم السلطان طغيتمور بالعساكر فهزموها ثم بعث اليهم نائبه أرغون شاه فهزموه وأسروه ومنوا عليه ثم غزاهم طغيتمور بنفسه في خمسين ألفا من التتر فهزموه وملكوا البلاد وتغلبوا على سرخس والزاوة وطوس وهي من أعظم بلاد خراسان وجعلوا خليفتهم بمشهد على بن موسى الرضي وتغلبوا على مدينة الجام ونزلوا بخارجها وهم قاصدون مدينة هرات وبينها وبينهم مسيرة ست فلما بلغ ذلك الملك حسينا جمع الامراء والعساكر واهل المدينة واستشارهم هل يقيمون حتى يأتي القوم او يمضون اليهم فيناجزونهم فوقع اجماعهم على الخروج اليهم وهم قبيلة واحدة يسمون الغورية ويقال انهم منسوبون الي غور الشام وان اصلهم منه فتجهزوا اجمعون واجتمعوا من اطراف البلاد وهم ساكنون بالقرى وبصحراء مرغيس (بدغيس) وهي مسيرة أربع لايزال عشبها أخضر ترعى منه ماشيتهم وخيلهم واكثر شجرها الفستق ومنها يحمل الي أرض العراق وعضدهم أهل مدينة سمنان ونفروا جميعاً الي الرافضة وهم مائة وعشرون ألفا بين رجالة وفرسان يقودهم الملك حسين واجتمعت الرافضة في مائة وخمسين ألفا من الفرسان وكانت الملاقاة بصحراء بوشنج وصبر الفريقان معا ثم كانت الدائرة على

الرافضة وفر سلطانهم مسعود وثبت خليفتهم حسن في عشرين ألفا حتى قتل وقتل أكثرهم وأسر منهم نحو أربعة آلاف وذكر لي بعض من حضر هذه الوقيعة ان ابتداء القتال كان في وقت الضحى وكانت الهزيمة عند الزوال ونزل الملك حسين بعد الظهر فصلى وأتى بالطعام فكان هو وكبراء أصحابه يأكلون وسائرهم يضربون أعناق الأسرى وعاد الى حضرته بعد هذا الفتح العظيم وقد نصر الله السنة على يديه وأطفأ نار الفتنة وكانت هذه الوقيعة بعد خروجي من الهند عام ثمانية وأربعين ونشأ بهرات رجل من الزهاد والصلحاء الفضلاء واسمه نظام الدين مولانا وكان أهل هرات يحبونه ويرجعون الى قوله وكان يعظهم ويذكرهم وتوافقوا معه على تغيير المنكر وتعاقد معهم على ذلك خطيب المدينة المعروف بملك ورنا وهو ابن عم الملك حسين ومتزوج بزوجة والده وهي من أحسن الناس صورة وسيرة والملك يخافه على نفسه وسنذكر خبره وكانوا متى علموا بمنكر ولو كان عند الملك غيروه

﴿ حكاية ﴾

ذكر لي انهم تعرفوا يوما ان بدار الملك حسين منكرا فاجتمعوا لتغييره وتحصن منهم بداخل داره فاجتمعوا على الباب في ستة آلاف رجل فخاف منهم فاستحضر الفقيه وكبار البلد وكان قد شرب الخمر فاقاموا عليه الحد بداخل قصره وانصرفوا عنه

﴿ حكاية هي سبب قتل الفقيه نظام الدين المذكور ﴾

كانت الاتراك المجاورون لمدينة هرات الساكنون بالصحراء وملكهم طغيتمور الذي مر ذكره وهم نحو خمسين ألفا يخافهم الملك حسين ويهدي لهم الهدايا في كل سنة ويداريهم وذلك قبل هزيمته للرافضة وأما بعد هزيمته للرافضة فتغلب عليهم ومن عادة هؤلاء الاتراك التردد الى مدينة هرات وربما شربوا بها الخمر وأتاها بعضهم وهو سكران فكان نظام الدين يحد من وجد منهم سكرانا وهؤلاء الاتراك أهل نجدة وبأس ولا يزالون يضربون على بلاد الهند فيسبون ويقتلون وربما سبوا بعض المسلمات اللاتي يكن بارض الهند ما بين الكفار فاذا خرجوا بهن الى خراسان يطلق نظام الدين المسلمات من أيدي الترك وعلامة النسوة المسلمات بارض الهند ترك ثقب الاذن والكافرات آذانهن مثقوبات

فاتفق مرة ان أميرا من أمراء الترك يسمي تمور الطي سبى امرأة وكلف بها كلفا شديدا فذكرت انها مسلمة فانتزعها الفقيه من يده فبلغ ذلك من التركي مبلغا عظيما وركب في آلاف من أصحابه وأغار على خيل هرات وهي في مرعاها بصحراء مرغيس (بدغيس) واحتملوها فلم يتركوا لاهل هرات مايركبون ولا مايحلبون وصعدوا بها الى جبل هنالك لا يقدر عليهم فيه ولم يجد السلطان ولا جنده خيلا يتبعونهم بها فبعث اليهم رسولا يطلب منهم رد ما أخذوه من الماشية والخيل ويذكرهم العهد الذى بينهم فاجابوا بانهم لا يردون ذلك حتي يتمكنوا من الفقيه نظام الدين فقال السلطان لا سبيل الى هذا وكان الشيخ أبو أحمد الجستي حفيد الشيخ مودود الجستي له بخراسان شأن عظيم وقوله معتبر لديهم فركب في جماعة خيل من أصحابه ومماليكه فقال أنا أحمل الفقيه نظام الدين معي الى الترك ليرضوا بذلك ثم أرده فكان الناس مالوا الى قوله ورأى الفقيه نظام الدين اتفاقهم على ذلك فركب مع الشيخ أبي أحمد ووصل الى الترك فقام اليه الامير تمور الطي وقال له أنت أخذت امرأتي مني وضربه بدبوسه فكسر دماغه فخر ميتا فسقط في أيدي الشيخ أبي أحمد وانصرف من هنالك الى بلده ورد الترك ما كانوا أخذوه من الخيل والماشية وبعد مدة قدم ذلك التركي الذي قتل الفقيه على مدينة هرات فلقيه جماعة من أصحاب الفقيه فتقدموا اليه كأنهم مسلمون عليه وتحت ثيابهم السيوف فقتلوه وفر أصحابه ولما كان بعد هذا بعث الملك حسين ابن عمه ملك ورنا الذى كان رفيق الفقيه نظام الدين في تغيير المنكر رسولا الى ملك سجستان فلما حصل بها بعث اليه أن يقيم هنالك ولا يعود اليه فقصد بلاد الهند ولقيته وأنا خارج منها بمدينة سيوستان من السند وهو أحد الفضلاء وفي طبعه حب الرياسة والصيد والبزاة والخيل والمماليك والاصحاب واللباس الملوكى الفاخر ومن كان على هذا الترتيب فانه لا يصلح حاله بأرض الهند فكان من أمره ان ملك الهند ولاه بلدا صغيرا وقتله به بعض أهل هرات المقيمين بالهند بسبب جارية وقيل ان ملك الهند دس عليه من قتله بسعي الملك حسين في ذلك ولاجله خدم الملك حسين ملك الهند بعد موت ملك ورنا المذكور وهاداه ملك الهند وأعطاه مدينة بكار من بلاد السند ومجباها خمسون ألفا من

دنانير الذهب في كل سنة (وانعد) الى ما كنا بسبيله فنقول سافرنا من هرات الى مدينة الجام وهي متوسطة حسنة ذات بساتين وأشجار وعيون كثيرة وأنهار وأكثر شجرها التوت والحرير بها كثير وهي تنسب الي الولي العابد الزاهد شهاب الدين أحمد الجامي وسنذكر حكايته وحفيده الشيخ أحمد المعروف بزاده التي قتله ملك الهند والمدينة الآن لأولاده وهي محررة من قبل السلطان ولهم بها نعمة وثروة وذكر لى من أثق به ان السلطان أبا سعيد ملك العراق قدم خراسان مرة ونزل على هذه المدينة وبها زاوية الشيخ فاضافه ضيافة عظيمة وأعطى لكل خباء بمحلته رأس غنم ولكل أربعة رجال رأس غنم ولكل دابة بالمحلة من فرس وبغل وحمار علف ليلة فلم يبق في المحلة حيوان الا وصلته ضيافة

﴿ حكاية الشيخ شهاب الدين الذى تنسب اليه مدينة الجام ﴾

يذكر انه كان صاحب راحة مكثرا من الشرب وكان له من الندماء نحو ستين وكانت لهم عادة أن يجتمعوا يوما في منزل كل واحد منهم فتدور النوبة على أحدهم بعد شهرين وبقوا على ذلك مدة ثم ان النوبة وصلت يوما الى الشيخ شهاب الدين فعقد التوبة ليلة النوبة وعزم على اصلاح حاله مع ربه وقال في نفسه ان قلت لاصحابي اني قد تبت قبل اجتماعهم عندي ظنوا ذلك عجزا عن مؤنتهم فأحضر ما كان يحضر مثله قبل من مأكولات ومشروب وجعل الخمر في الزقاق وحضر أصحابه فلما أرادوا الشرب فتحوا زقا فذاقه أحدهم فوجده حلوا ثم فتحوا ثانيا فوجدوه كذلك ثم ثالثا فوجدوه كذلك فكلموا الشيخ في ذلك فخرج لهم عن حقيقة أمره وصدقهم سن بكره وعرفهم بتوبته وقال لهم والله ما هذا الا الشراب الذى كنتم تشربونه فيما تقدم فتابوا جميعاً الى الله تعالى وبنوا تلك الزاوية وانقطعوا بها العبادة الله تعالى وظهر لهذا الشيخ كثير من الكرامات والمكاشفات ثم سافرنا من الجام الي مدينة طوس وهى من أكبر بلاد خراسان وأعظمها بلد الامام الشهير أبي حامد الغزالي رضي الله عنه وبها قبره ورحلنا منها الى مدينة مشهد الرضى وهو على بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنهم وهى أيضاً مدينة كبيرة ضخمة كثيرة

الفواكه والمياه والارحاء الطاحنة وكان بها الطاهر محمد شاه والطاهر عندهم بمعنى النقيب عند أهل مصر والشام والعراق وأهل الهند والسند وتركستان يقولون السيد الاجل وكان أيضاً بهذا المشهد القاضي الشريف جلال الدين لقيته بأرض الهند والشريف علي وولداه أمير هندو ودولة شاه وصحبوني من ترمذ الى بلاد الهند وكانوا من الفضلاء والمشهد المكرم عليه قبة عظيمة في داخل زاوية تجاورها مدرسة ومسجد وجميعها مليح البناء مصنوع الحيطان بالقاشاني وعلى القبر دكانة خشب ملبسة بصفائح الفضة وعليه قناديل فضة معلقة وعتبة باب القبة فضة وعلى بابها ستر حرير مذهب وهي مبسوطة بأنواع البسط وازاء هذا القبر قبر هارون الرشيد أمير المؤمنين رضي الله عنه وعليه دكانة يضعون عليها الشمعدانات التي يعرفها أهل المغرب بالحسك والمنائر واذا دخل الرافضي للزيارة ضرب قبر الرشيد برجله وسلم على الرضي ثم سافرنا الى مدينة سرخس واليها ينسب الشيخ الصالح لقمان السرخسي رضي الله عنه ثم سافرنا منها الى مدينة زاوة وهي مدينة الشيخ الصالح قطب الدين حيدر واليه تنسب طائفة الحيدرية من الفقراء وهم الذين يجعلون حلق الحديد في أيديهم وأعناقهم وآذانهم ويجعلونها أيضاً في ذكورهم حتى لا يتأتي لهم النكاح ثم رحلنا منها فوصلنا الى مدينة نيسابور وهي احدى المدن الاربع التي هي قواعد خراسان ويقال لها دمشق الصغيرة لكثرة فواكهها وبساتينها ومياهها وحسنها وتخترقها أربعة من الانهار وأسواقها حسنة متسعة ومسجدها بديع وهو في وسط السوق ويليه أربع من المدارس يجري بها الماء الغزير وفيها من الطلبة خلق كثير يقرؤن القرآن والفقه وهي من حسان مدارس تلك البلاد ومدارس خراسان والعراقين ودمشق وبغداد ومصر وان بلغت الغاية من الاتقان والحسن فكلها تقصر عن المدرسة التي عمرها مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله المجاهد في سبيل الله عالم الملوك واسطة عقد الخلفاء العادلين أبو عنان وصل الله سعده ونصر جنده وهي التي عند القصبة من حضرة فاس حرسها الله تعالى فانها لا نظير لها سعة وارتفاعا ونقش الجص بها لا قدرة لاهل المشرق عليه ويصنع بنيسابور ثياب الحرير من النخ والكمخا وغيرها وتحمل منها الى الهند وفي هذه المدينة زاوية الشيخ الامام العالم القطب

العابد قطب الدين النيسابورى أحد الوعاظ العلماء الصالحين نزلت عنده فأحسن القرى وأكرم ورأيت له البراهين والكرامات العجيبة

﴿ كرامة له ﴾

كنت قد اشتريت بنيسابور غلاما تركيا فرآه معى فقال لي هذا الغلام لا يصلح لك فبعه فقلت له نعم وبعت الغلام في غد ذلك اليوم واشتراه بعض التجار وودعت الشيخ وانصرفت فلما حللت بمدينة بسطام كتب الى بعض أصحابي من نيسابور وذكر ان الغلام المذكور قتل بعض أولاد الاتراك وقتل به وهذه كرامة واضحة لهذا الشيخ رضى الله عنه وسافرت من نيسابور الي مدينة بسطام التى ينسب اليها الشيخ العارف أبو يزيد البسطامى الشهير رضي الله عنه وبهذه المدينة قبره ومعه في قبة واحدة أحد أولاد جعفر الصادق رضي الله عنه وبسطام أيضاً قبر الشيخ الصالح الولى أبي الحسن الخرقاني وكان نزولى من هذه المدينة بزاوية الشيخ أبى يزيد البسطامى رضي الله عنه ثم سافرت من هذه المدينة على طريق هندخير الى قندوس وبغلان وهى قرى فيها مشايخ وصالحون وبها البساتين والانهار فنزلنا بقندوس على نهر ماء به زاوية لاحد شيوخ الفقراء من أهل مصر يسمى بشير سياه ومعنى ذلك الاسد الاسود وأضافنا بها والى تلك الارض وهو من أهل الموصل وسكناه ببستان عظيم هنالك وأقمنا بخارج هذه القرية نحو أربعين يوما لرعي الجمال والخيل وبها مراعي طيبة واعشاب كثيرة والامن بها شامل بسبب شدة أحكام الامير برنطيه وقد قدمنا ان أحكام الترك في من سرق فرساً أن يعطى معه تسعة مثله فان لم يجد ذلك أخذ فيها أولاده فان لم يكن له أولاد ذبح ذبح الشاة والناس يتركون دوابهم مهملة دون راع بعد ان يسم كل واحد دوابه في أفخاذها وكذلك فعلنا في هذه البلاد واتفق ان تفقدنا خيلنا بعد عشر من نزولنا بها ففقدنا منها ثلاثة أفراس ولما كان بعد نصف شهر جاءنا التتر بها الي منزلنا خوفا على أنفسهم من الاحكام وكنا نربط في كل ليلة ازاء اخبيتنا فرسين لما عسى أن يقع بالليل ففقدنا الفرسين ذات ليلة وسافرنا من هنالك وبعد ثنتين وعشرين ليلة جاؤا بهما الينا في أثناء طريقنا وكان أيضاً من أسباب اقامتنا خوف الثلج فان بأثناء الطريق جبلا يقال له هندوكوش

ومعناه قاتل الهنود لان العبيد والجواري الذين يؤتى بهم من بلاد الهند يموت هنالك الكثير منهم لشدة البرد وكثرة الثلج وهو مسيرة يوم كامل واقمنا حتى تمكن دخول الحر وقطعنا ذلك الجبل من آخر الليل وسلكناه جميع نهارنا الي الغروب وكنا نضع اللبود بين ايدي الجمال تطأ عليها لئلا تغرق في الثلج ثم سافرنا الى موضع يعرف بأندر وكانت هنالك فيما تقدم مدينة عفى رسمها ونزلنا بقرية عظيمة فيها زاوية لاحد الفضلاء ويسمي بمحمد المهروي ونزلنا عنده واكرمنا وكان متى غسلنا ايدينا من الطعام يشرب الماء الذي غسلناها به لحسن اعتقاده وفضله وسافر معنا الى ان صعدنا جبل هندوكوش المذكور ووجدنا بهذا الجبل عين ماء حارة فغسلنا منها وجوهنا فتقشرت وتألمنا لذلك ثم نزلنا بموضع يعرف ببنج هير ومعنى بنج خمسة وهير الجبل فمعناه خمسة جبال وكانت هنالك مدينة حسنة كثيرة العمارة على نهر عظيم أزرق كأنه بحر ينزل من جبال بدخشان وبهذه الجبال يوجد الياقوت الذي يعرفه الناس بالبلخش وخرب هذه البلاد تنكيز ملك التتر فلم تعمر بعد وبهذه المدينة مزار الشيخ سعيد المكي وهو معظم عندهم ووصلنا الى جبل بشاي (وضبطه بفتح الباء المعقودة والشين المعجم وألف وياء ساكنة) وبه زاوية الشيخ الصالح أطا أولياء وأطا (بفتح الهمزة) معناها بالتركية الأب واولياء باللسان العربي فمعناه أبو الاولياء ويسمي أيضاً سيصد صاله وسيصد (بسين مهمل مكسور وياء مد وصاد مهمل مفتوح ودال مهمل) ومعناه بالفارسية ثلاثمائة وصاله (سأله) (بفتح الصاد المهمل واللام) معناه عام وهم يذكرون ان عمره ثلاثمائة وخمسون عاما ولهم فيه اعتقاد حسن ويأتون لزيارته من البلاد والقرى ويقصده السلاطين والخواتين وأكرمنا وأضافنا ونزلنا على نهر عند زاويته ودخلنا اليه فسلمت عليه وعانقني وجسمه رطب لم أر ألين منه ويظن رائيه ان عمره خمسون سنة وذكر لي انه في كل مائة سنة ينبت له الشعر والاسنان وانه رآى أبا رهم الذي قبره بملتان من السند وسألته عن رواية حديث فأخبرني بحكايات وشككت في حاله والله أعلم بصدقه ثم سافرنا الي برون (وضبطها بفتح الباء المعقودة وسكون الراء وفتح الواو وآخرها نون) وفيها لقيت الامير برنطيه (وضبط اسمه بضم الباء وضم الراء وسكون النون وفتح الطاء

المهمل وياء آخر الحروف مسكن وهاء) وأحسن الى وأكرمني وكتب الي نوابه بمدينة غزنة في اكرامي وقد تقدم ذكره وذكر ما أعطي من البسطة في الجسم وكان عنده جماعة من المشايخ والفقراء أهل الزوايا ثم سافرنا الى قرية الجرخ (وضبط اسمها بفتح الجيم المعقودة واسكان الراء وخاء معجم) وهي كبيرة لها بساتين كثيرة وفواكهها طيبة قدمناها في أيام الصيف ووجدنا بها جماعة من الفقراء والطلبة وصلينا بها الجمعة وأضافنا أميرها محمد الجرخي ولقيته بعد ذلك بالهند ثم سافرنا الي مدينة غزنة وهي بلد السلطان المجاهد محمود بن سبكتكين الشهير الاسم وكان من كبار السلاطين يلقب بيمين الدولة وكان كثير الغزو الي بلاد الهند وفتح بها المدائن والحصون وقبره بهذه المدينة عليه زاوية وقد خرب معظم هذه البلدة ولم يبق منها الا يسير وكانت كبيرة وهي شديدة البرد والساكنون بها يخرجون عنها أيام البرد الى مدينة القندهار وهي كبيرة مخصبة ولم ادخلها وبينهما مسيرة ثلاث ونزلنا بخارج غزنة في قرية هنالك على نهر ماء تحت قلعتها وأكرمنا أميرها مرذك أغا ومرذك (بفتح الميم وسكون الراء وفتح الذال المعجم) ومعناه الصغير وأغا (بفتح الهمزة والغين المعجم) ومعناه الكبير الاصل ثم سافرنا الي كابل وكانت فيما سلف مدينة عظيمة وبها الآن قرية يسكنها طائفة من الاعاجم يقال لهم الافغان ولهم جبال وشعاب وشوكة قوية وأكثرهم قطاع الطريق وجبلهم الكبير يسمي كوه سليمان ويذكر ان نبي الله سليمان عليه السلام صعد ذلك الجبل فنظر الى أرض الهند وهي مظلمة فرجع ولم يدخلها فسمي الجبل به وفيه يسكن ملك الافغان وبكابل زاوية الشيخ اسماعيل الافغاني تلميذ الشيخ عباس من كبار الاولياء ومنها رحلنا الي كرماش وهي حصن بين جبلين تقطع به الافغان وكنا حين جوازنا عليه نقاتلهم وهم بسفح الجبل ونرميهم بالنشاب فيفرون وكانت رفقتنا مخفة ومعهم نحو أربعة آلاف فرس وكانت لى جمال انقطعت عن القافلة لاجلها ومعي جماعة بعضهم من الافغان وطرحنا بعض الزاد وتركنا احمال الجمال التي أعيت بالطريق وعادت اليها خيلنا بالغد فاحتملتها ووصلنا الى القافلة بعد العشاء الآخرة فبتنا بمنزل ششنغار وهي آخر العمارة مما يلي بلاد الترك ومن هنالك دخلنا البرية الكبرى وهي مسيرة خمس

عشرة لاتدخل الا في فصل واحد وهو بعد نزول المطر بارض السند والهند وذلك في أوائل شهر يوليه وتهب في هذه البرية ريح السموم القاتلة التي تعفن الجسوم حتى ان الرجل اذا مات تتفسخ أعضاؤه وقد ذكرنا ان هذه الريح تهب أيضاً في البرية بين هرمز وشيراز وكانت تقدمت امامنا رفقة كبيرة فيها خداوندزاده قاضي ترمذ فمات لهم جمال وخيل كثيرة ووصلت رفقتنا سالمة بحمد الله تعالى الي بنج آب وهو ماء السند وبنج (بفتح الباء الموحدة وسكون النون والجيم) ومعناه خمسة وآب (بهمزة مفتوحة ممدودة وباء موحدة) ومعناه الماء فمعنى ذلك الاودية الخمسة وهي تصب في النهر الاعظم وتسقى تلك النواحي وسنذكرها ان شاء الله تعالى وكان وصولنا لهذا النهر سلخ ذي الحجة واستهل علينا تلك الليلة هلال المحرم من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ومن هنالك كتب المخبرون بخبرنا الي أرض الهند وعرفوا ملكها بكيفية أحوالنا وههنا ينتهي بنا الكلام في هذا السفر والحمد لله رب العالمين

❊ تم الجزء الاول ويليه الجزء الثاني ❊

العاصف الكهنري

﴿ تذييل ﴾ يقول مصححه وحيث انهينا من رحلة الشيخ المغربي المعروف بابن بطوطة الى هذا الحد وهو أول جلد وقد شرع رحمه الله تعالى في ذكر ماشاهده من العجائب والغرائب ببلاد الهند وهو ثاني جلد رأينا من المفيد ان نورد هنا عبارة توجد في مقدمة ابن خلدون رحمه الله تعالي مما يتعلق بهذا القصد تتميما للفائدة وتقييدا للشاردة ونصها بفصها * وورد على المغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة كان قد رحل منذ عشرين سنة قبلها الى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند واتصل بملكها لذلك العهد وهو السلطان محمد شاه وكان له منه مكان واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله ثم انقلب الي المغرب واتصل بالسلطان أبي عنان وكان يحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الارض وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ويأتي من أحواله بما يستغربه السامعون مثل ان ملك الهند اذا خرج للسفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة أشهر يدفع لهم من عطائه وانه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة الى صحراء البلد ويطوفون به وينصب امامه في ذلك الحفل منجنيقات على الظهر يرمي بها شكائر الدراهم والدنانير على الناس الى ان يدخل إيوانه وأمثال هذه الحكايات فتناجي الناس في الدولة بتكذيبه ولقيت أيامئذ في بعض الايام وزير السلطان فارس بن ودرار البعيد الصيت ففاوضته في هذا الشأن وأريته انكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض في الناس من تكذيبه فقال الوزير فارس اياك ان تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما أنك لم تره فتكون كابن الوزير الناشئ في السجن وذلك ان وزيرا اعتقله سلطانه فمكث في السجن سنين ربي فيها ابنه في ذلك المحبس فلما أدرك وعقل سأل عن اللحمان التى كان يتغذى بها فاذا قال له أبوه هذا لحم الغنم يقول وما الغنم فيصفها له أبوه بشياتها ونعوتها فيقول يا أبت تراها مثل الفأر فينكر عليه ويقول أين الغنم من الفأر وكذا في لحم البقر والابل اذ لم يعاين في محبسه الا الفأر فيحسبها كلها أبناء جنس للفأر وهذا كثيرا ما يعتري الناس في الاخبار كما يعتريهم الوسواس في الزيادة عنه

قصد الاغراب كما قدمناه أول الكتاب فليرجع الانسان الى أصوله وليكن مهيمنا على نفسه ومميزا بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته فما دخل في نطاق الامكان قبله وما خرج عنه رفضه وليس مرادنا الامكان العقلي المطلق فان نطاقه أوسع شيء فلا يفرض حدا بين الواقعات وانما مرادنا الامكان بحسب المادة التي للشيء فاذا نظرنا أصل الشيء وجنسه وفصله ومقدار عظمه وقوته أجرينا الحكم في نسبة ذلك على أحواله وحكمنا بالامتناع على ما خرج عن نطاقه وقل ربي زدني علما (اه بحروفه)